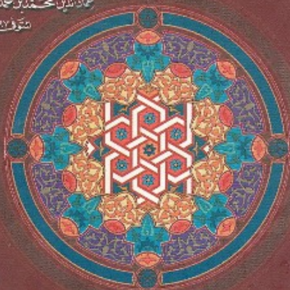
تاريخ دولة آل سلجوق

تأليف
عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني
المتوفى ٥٩٧ هـ



قرأه وقدم له
الدكتور يحيى مراد

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

تاريخ
دولة آل سلجوق

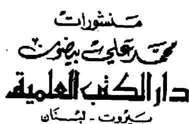
تأليف

عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني

المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

قرأه وقدم له

الدكتور يحيى مراد



منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

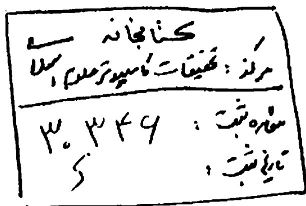
٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

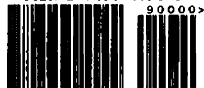
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Tél & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban





http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الأتراك السلاجقة

الأتراك السلاجقة يمثلون القوة الإسلامية الجديدة التي حلت محل الغزنويين في خراسان والمشرق الإسلامي، والتي غذت الإسلام بدماء فتية جديدة، ساعدته على الصمود والانتصار، والانتشار في بلاد الروم. ذلك لأن الخلافة العباسية قبل ذلك الوقت كانت عاجزة عن حماية حدودها بسبب عداوتها مع الخلافة الفاطمية في القاهرة. وقد انتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة، وأخذت تُغير على الحدود الإسلامية المتأخمة لها، وتتوغل في شمال الشام والجزيرة. ولكن من حسن حظ الخلافة العباسية في ذلك الوقت، أن جاءتها من المشرق تلك القوة التركية الفتية المليئة بفتوة البداوة وعنفوانها، فأنقذتها من انهيار محقق. ففي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) استطاعت جيوش السلاجقة بقيادة سلطانها "ألب أرسلان "، وباسم الخلافة العباسية، أن تحرز انتصاراً حاسماً على الإمبراطور البيزنطي "رومانوس ديوجينيس" ROMANOS DIOGENES، وأن تأخذه أسيراً في موقعة " ملا ذكرد " أو "منــزكرد " من أعمال "خلاط " على الفرات الأعلى، شمال بحيرة فان VAN عند أرمينية.

لقد جاء السلاجقة في فترة انحطاط القوى الإسلامية الأخرى من عباسية وفاطمية ونجحوا في توحيد المشرق الإسلامي من جديد، فأعطوا المسلمين الحيوية والنشاط في الجهاد ضد الصليبيين، ويذكر بأن طغرل سلطان السلاجقة كتب إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله مظهراً ولاءه له، مؤكداً حبه لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله في نشر الإسلام غرباً، وقد أقره الخليفة العباسي سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ م سلطاناً على السلاجقة، مما أكسب دولة السلاجقة الفتية صفة الشرعية وأثار حميتها الدينية لمناجزة البيزنطيين واسترداد البقاع التي كانوا قد احتلوها في أرمينية والأناضول، وقد أعطت نتائج هذه الموقعة سمعة إسلامية ضخمة للسلاجقة باعتبارهم المجاهدين والمدافعين عن الإسلام، والعاملين على نشر الدعوة، وإزاء ذلك مهدت الطريق أمام السلاجقة لنشر الدعوة في آسيا الصغرى- حيث وجه "ألب

أرسلان " ابن عمه " سليمان قتلمش "، إلى الأناضول، وأقام هناك دولة سلاجقة الروم، نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها. ومنذ ذلك الوقت، عم الإسلام بلاد آسيا الصغرى التي صارت تعرف إلى الآن باسم بلاد الأناضول الإسلامية.

واستحدث السلاجقة- أيضا- بعض الأنظمة والعادات الفارسية والتركية التي جلبوها معهم من المشرق، ولم تكن معروفة من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين. ومن أمثلة ذلك، استخدام "الجاليش " في مقدمة الجيش، و" الجاليش " عبارة عن خصلة وشعر ذيل الحصان، كانت ترفع في أعلى سنان الراية أمام الجيش، ثم صارت تطلق مجازاً على مقدمة الجيش أو طلائعه باسم " الجاليشية ". ومن "أمثلة ذلك أيضاً حمل "الغاشية " بين يدي السلطان في الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والأعياد والمواكب ونحوها كشعار للسلطنة. و "الغاشية" عبارة عن: سرج من الجلد مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر كأنها مصنوعة كلها من الذهب. يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان، ويلفتها يميناً وشمالاً. وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر والشام على يد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك كرمز للطاقة والإخلاص للسلطان: "حمل الغاشية بين يديه ".

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس الدينية، وهي منشآت علمية هدفها بث روح الجهاد بين المسلمين والتصدي للطائفية، مثل: المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي "نظام الملك " في بغداد. وسار على هذه السياسة "نور الدين محمود زنكي " في الشام، ثم "صلاح الدين الأيوبي " في مصر. على أنه يلاحظ في هذا الصدد أن مدينة الإسكندرية عرفت نظام المدارس الدينية في أواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين الأيوبي، فأول مدرسة أنشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها "رضوان بن ولخشي " وزير الخليفة "الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣ هـ "، وأسند التدريس فيها إلى "الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف "، الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي المشهور بكتابيه "سراج الملوك"، و "الحوادث والبدع ".

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٥٤٤ هـ بنى "العادل بن السلار"، وزير الخليفة الظافر الفاطمي، مدرسة دينية أخري بالإسكندرية، وأسند التدريس بها إلى "الفقيه الشافعي أبي الطاهر أحمد السلفي " صاحب كتاب "معجم السفر". ويمكن القول بأن الأيوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في أنحاء مصر والشام متأثرين في ذلك بسياسة السلاجقة.

وقد سار السلاجقة- أيضا- على سنة أسلافهم "السامانيين" المتمثلة في الإكثار من المماليك الأتراك، وتربيتهم منذ الصغر تربية عسكرية إسلامية لاستخدامهم في الجيش والإدارة. وقد شرح هذا النظام وزير السلجوق "نظام الملك الطوسي " في كتابه "سياسة نامة " إرشادا للحكام السلجوقيين. وعلى هذا الأساس غلب الطابع العسكري على الدولة السلجوقية، فصار ولاتها وقادتها من هؤلاء المماليك ، كما أصبحت معظم أراضيها في فارس، والجزيرة، والشام، مقسمة إلى إقطاعيات عسكرية يحكمها القادة من هؤلاء المماليك، في مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها للدولة في وقت الحرب. وسمي هؤلاء المماليك الكبار باسم "الأتابكة". و "الأتابك" لفظ تركي مركب معناه الأب الأمير، ومعناه المربي لابن السلطان، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح للكبار من القواد بمعنى أبو الجيش أو قائد الجيش أو نائب السلطنة.

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا أشخاصاً من كبار مماليكهم أطلقوا عليهم "الأتابكة" ليكونوا مربين لأولادهم القصر، ومنحوهم إقطاعيات كبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الأبناء، وتأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب. ولكن سرعان ما صار هؤلاء "الأتابكة" أصحاب النفوذ والسلطان في تلك الولايات. ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن السادس الهجري(١٣ م)، الأمير "عماد الدين زنكي" مؤسس أتابكية الموصل وحلب، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته "مملوكا" للسلطان "ملكشاه السلجوقي "، وعن طريق "زنكي وابنه نور الدين محمود" كان ظهور قواده "نجم الدين أيوب " وولده"صلاح

الدين " الذي تأثر بالنظم السلجوقية، وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر والشام، حيث بقيت زمان الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك، التي تبلور فيها هذا النظام التربوي العسكري الإسلامي، وصار راسخاً متيناً، ومكنها من صد الزحف المغولي شرقاً، وطرد المستعمر الصليبـــي من مصر والشام غرباً. وفي ذلك يقول " القلقشندي " (صبح الأعشى ج ٤ ص ٦): "ودأبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، ونسجت على منواله، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الممالك " .

أصل السلاجقة

أصولهم تعود إلى القبائل التركية التي عرفها العرب باسم (الغز)، والتي استطاعت في القرن السادس الميلادي أن تقيم امبراطورية ذات طابع بدوي امتدت من الصين إلى البحر الأسود. وحين اصطدمت بالصينيين فضعضعوها. هاجر (الغز) في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) متجهين إلى الغرب في الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين دون أن يستطيعوا تحقيق وحدتهم، بل عادوا متقاتلين، وانتشرت فروعهم ممتدة إلى البعيد؛ حيث وصلت إلى فارياب على نهر سرداريا (سيحون). ومن هؤلاء تحدر السلاجقة.

وسبب تسميتهم بهذا الاسم هو انتسابهم إلى أحد أجدادهم سلجوق بن دقاق، ودقاق هذا أو تقاق كما يلقبه ابن الأثير كان وجه الأتراك الغز، على جانب من الرأي والتدبير فأطاعه قومه واتبعوه، وولد له سلجوق الذي تقدم عند ملوك الترك كأبيه، وشعر يوما أن ملك الترك يتآمر عليه، فاستنفر جماعته ومضى بهم إلى دار الإسلام فصار مسلما بين المسلمين، واستقر في نواحي (جند) وراح يؤلب المسلمين على الترك ويغزوهم بهم. وبعد أن كان هؤلاء يأخذون الخراج من المسلمين، طردهم سلجوق وساد المسلمون في تلك الأرض ومات سلجوق (بجند) بعد أن عمر مئة سنة وسبع سنين، وترك من الأولاد: أرسلان وميكائيل وموسى.

وقتل ميكائيل في غزواته لبلاد الأتراك، وترك من الأولاد: بيغو وطغرل بك محمد وجغري بك داود، فسار الثلاثة في عشائرهم، وتقدموا فنـــزلوا على بعد عشرين فرسخاً من بخارى، فتوحس الشر منهم أمير بخارى فلم يسالمهم فتركوه إلى بغراخان ملك تركستان، وأقاموا في بلاده. ولكنهم ظلوا في ريبة من أمره، فتقرر بين طغرل بك وأخيه داود أن لا يلتقيا معا في مجلس بغراخان، بل ينفرد كل واحد منهما بالمجيء إليه، ويبقي الثاني بين قومه خوفا من أن يغدر بهما مجتمعين.

ولما فشل بغراخان في الجمع بينهما في مجلس واحد قبض على طغرل بك، فاستنفر داود قومه ومشى إلى مقاتلة بغراخان لاستنقاذ أخيه، فاصطدم بقوى

بغراخان الزاحفة إليه فهزمها واستطاع تخليص أخيه. فرأيا أن يعودا بقومهما إلى قاعدتهما الأولى (جند) غير البعيدة عن بخارى فيقيما فيها.

وبانقراض الدولة السامانية وتملك إيلك الخان بخارى استفحل أمر أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرل بك فيما وراء النهر، وكان علي تكين أخو إيلك الخان، في سجن أرسلان خان فهرب واستطاع الاستيلاء على بخارى وتحالف مع أرسلان بن سلجوق حيث صارا قويين، فمشى إليهما إيلك خان أخو أرسلان خان فهزماه وظلا في بخارى.

وكان علي تكين يقلق محمود بن سبكتكين فيما تجاورا به من بلاد، ولا يبالي أن يقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك.

وكان محمود بن سبكتكين قد أوقع بجماعة أرسلان بن سلجوق في مفازة بخارى، فلما عبر محمود النهر إلى بخارى، هرب علي تكين صاحبها منها، وحضر أرسلان بن سلجوق عند محمود فقبض عليه وأرسله سجينا إلى الهند. وهاجم جماعته فأكثر القتل فيهم، ومن سلم منهم فر إلى خراسان فعاثوا فيها فسادا، فطاردهم فيها وأجلاهم عنها، فلح قسم بأصبهان فأمر محمود نائبه فيها أن يحتال في قتلهم أو إرسالهم إليه، فاصطدم بهم يعاونه أهل أصبهان فهزمهم فانطلقوا ينهبون القرى في طريقهم حتى بلغوا أذربيجان.

على أنه كان بقي أكثرهم في خراسان فراحوا ينهبون ويخربون ويقتلون، فأرسل محمود من يطاردهم، فلبثوا في ذلك نحو سنتين إلى أن اضطر محمود إلى أن يقصد خراسان بنفسه، وراح يطلبهم من نيسابور إلى دهستان فساروا إلى جرجان، ثم عاد عنهم مستخلفا ابنه مسعود بالري فاستخدم بعضهم. فلما مات محمود سار ابنه مسعود وهم معه إلى خراسان.

ثم إن مسعوداً مضى إلى الهند لإخماد عصيان فيها، فعاودوا العيث في البلاد، وكان قد أرسل أحد قواده إلى الريّ فلما بلغ نيسابور ورأى ما هم عليه من العبث،

قتل منهم من قتل، ولما بلغت أخبارهم مسعودا عاقبهم أسوأ عقاب من قطع الأيدي والأرجل والقتل واستصفاء الأموال.

هذا ما يتعلق بأرسلان بن سلجوق وعشيرته، وأما أولاد إخوته فإن علي تكين صاحب بخارى راح يحاول الظفر بهم فقرب إليه يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرل بك محمد، وجغري بك داود وقدمه على جميع الأتراك الذين في ولايته وأقطعه أقطاعا كثيرة، ولقبه بلقب الأمير.

وكان يهدف من وراء ذلك إلى أن يضرب به ابني عمه طغرل بك وداود، ولكن يوسف تأبى عليه ولم يماشه في هذا فأمر بقتله.

فعظم قتله على طغرل بك وأخيه داود وعلى عشائرهما، فلبسوا عليه الحداد وجمعوا من استطاعوا جمعه من الأتراك للثأر له. وجمع علي تكين جيوشه وبعث بها لقتالهم فهزموها.

وفي سنة ٤٢١هـ سار طغرل بك وداود إلى (ألب قدا) الذي تولى قتل ابن عمهما يوسف فقتلاه.

فأثار ذلك علي تكين فقصدهم علي ومن تبعه من جموع أهل البلاد وناوشوهم من كل جانب، فأوقعوا بهم موقعة عظيمة قتل فيها منهم العدد الكثير وسبوا نساءهم وذراريهم، فاضطروا إلى العبور إلى خراسان. فلما عبروا جيحون كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش يدعوهم إليه ليتحالفوا معا.

فلبى طغرل بك وأخواه داود وبيغو دعوته، وخيموا بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ هـ فغدر بهم ووجه إليهم أحد أمرائه ففاجأهم وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي. فتركوا خوارزم بجموعهم إلى مغازة (نسا)، وقصدوا مرواً دون أن يتعرضوا لأحد بشر، مخلفين أولادهم وذراريهم في الأسر.

وكان مسعود بك محمود بن سبكتكين قد سيطر على طبرستان وأقام فيها، فكاتبوه مستأمنين، واعدين إياه بأن يكونوا أعواناً له يتوجهون لقتال من يفسد في بلاده.

ولكن مسعودا قبض على رسلهم وبعث إليهم جيشاً جرارا التقى بهم عند (نسا) فانهزموا بعد قتال عنيف وغنمت أموالهم، فاختلف المنتصرون على اقتسام الغنائم اختلافا أدى إلى التقاتل بينهم.

وكان داود قد قال لقومه: إن القوم قد اطمأنوا لهزيمتنا وليس في ذهنهم أننا نعود إليهم، فأرى أن نباغتهم وهم قارون مطمئنون. فعادوا إليهم وهم يتقاتلون فأوقعوا بهم وقتلوا منهم وأسروا واستردوا أموالهم ورجالهم.

وعاد المنهزمون إلى الملك مسعود في نيسابور يقصون عليه ما جرى، فندم على ما كان منه من رفض استئمالهم وصداقتهم، ورأى أن هيبتهم قد ملأت قلوب رجاله، وأنهم بعد هزيمتهم لجيشه قد طمعوا به بعد خوفهم منه، وخشي من معاودتهم قتاله، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم.

فطلب طغرل بك من إمام صلاته أن يكتب إلى مسعود هذه الآية ولا يزيد عليها شيئاً: **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنـــزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**[آل عمران:٢٦].

فكتب ما أمره به، وتلقى مسعود الرسالة فكان صداها في نفسه أن كتب إليهم كتابا يمنيهم فيه الأماني الطيبة، وأرسل لهم مع الكتاب خلعاً نفيسة، وطلب إليهم الرحيل إلى آمل الشط، - وهي مدينة على نهر جيحون- ، كما نصحهم بترك الشرك والفساد، وأقطع (دهستان) لداود، و(نسا) لطغرل بك، و(فراوه) لبيغو، ومنح كل واحد منهم لقب (الدهقان).

ولكنهم استخفوا بالرسول وبالخلع، وأظهروا عدم ثقتهم بالسلطان، وقالوا للرسول: لو علمنا أن السلطان يبقي علينا إذا قدر لأطعناه، ولكنا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه ولا نثق به.

ثم راحوا يفسدون في الأرض، وبعد فترة تركوا ذلك وقالوا: إذا لم نستطع الانتصاف من مسعود فلا داعي للإساءة إلى الناس ونهب أموالهم.

ثم فكروا بمخادعة مسعود والتظاهر بالخضوع له، ويطلبون منه أن يطلق عمهم أرسلان بن سلجوق من الحبس.

فاستجاب لطلبهم هذا، وأطلق أرسلان، وأحضره إليه في بلخ، وأمره أن يكتب إلى بني أخيه طغرل بك وبيغو وداود بأن يكفوا عن الشر ويستقيموا في حياتهم. فأرسل إليهم رسولا يأمرهم بذلك.

يقول ابن الأثير: وأرسل معه (إشفي) وأمره بتسليمه إليهم. فلما وصل الرسول وأدى الرسالة وسلم إليهم (الإشفي) نفروا واستوحشوا وعادوا إلى أمرهم الأول في الغارة والشر، فأعاده مسعود إلى محبسه وسار إلى غزنة.

وبرجوعي إلى معجم لسان العرب رأيته يفسر (الإشفي) بهذه التفاسير:

الإشفي: المثقب.

الإشفي: ما كان للأساقي والمزاود والقرب وأشباهها.

الإشفي: المخصف للنعال.

الإشفي: السراد الذي يخرز به.

أما السلاجقة قصدوا بلخ ونيسابور وطوس والجوزجان، فأفسدوا ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا، فتصدى لهم الملك مسعود بن محمود، وأرسل جيشا في ثلاثين ألفا بقيادة حاجبه (سباشي) من غزنة. فلما وصل خراسان خرب ما سلم من تخريب السلاجقة، وظل طيلة سنة يدافع ويطاول حذراً من الاصطدام بهم، فإذا ابتعدوا تتبعهم، وإذا أقبلوا رجع عنهم.

وفي سنة ٤٢٩هـ كان هو في قرية بظاهر سرخس، والسلاجقه بظاهر مرو مع طغرل بك - وقد بلغهم خبره - فساروا إليه وباشروا قتاله، فلما جاء الليل أخذ سباشي ما خف من مال وهرب في خواصه وترك خيامه ونيرانه على حالها، وقيل: إنه فعل ذلك بالاتفاق معهم، وفي الصباح عرف من بقي من عسكره خبره فانهزموا.

وتقدم داود أخو طغرل بك وهو والد السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور فدخلها بغير قتال، ووصل بعدهم طغرل بك. ثم وصلت رسل الخليفة حاملةً رسالته

في وعظهم ونهيهم عن النهب والقتل والتخريب، فأكرموا رسل الخليفة وعظموهم وخدموهم.

ومال داود إلى نهب المدينة، فنهاه طغرل بك، فتجاهله داود، وبعد جدال طويل تحول عن النهب الصريح إلى النهب المغلف ففرض على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار.

ومضى طغرل بك إلى دار الإمارة، وجلس على سرير الملك مسعود، وسير أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على خراسان كلها عدا بلخ.

وكانوا ثلاثة إخوة: طغرل بك، وداود، وبيغو. أما ينال واسمه إبراهيم فهو أخو طغرل بك وداود لأمهما.

أما الملك مسعود فقد خرج من غزنة إلى بلخ أول سنة ٤٢٨هـ، وسبب خروجه منها ما كان يبلغه من أخبار السلاجقة وما ارتكبوه من الاستيلاء على البلاد والقتل والسبي والتخريب.

وأقام فترة في بلخ يتهيأ لمطاردة السلاجقة، ثم قصد سرخس فتجنب السلاجقة الاصطدام به وتظاهروا بأنهم سيدخلون المفازة التي بين مرو وخوارزم، وكان جيش مسعود يتعقبهم، فما لبثوا أن اصطدموا بإحدى قطعه العسكرية فظفرت بهم، ثم واجههم بنفسه فانتصر عليهم مما أدى إلى ابتعادهم عنه، ثم رجعوا إلى نواحي مرو، قريبا منه، فقابلهم وقتل منهم عددا كبيرا وهرب الآخرون لاجئين إلى البرية التي اعتادوا الاحتماء بها.

أما في نيسابور فقد ثار الناس بهم فقتلوا من قتلوا منهم وانهزم من بقي إلى البرية ملتحقين بجماعتهم. ومضى مسعود إلى هرات ليعد عدته مطاردا لهم. فابتعد طغرل بك ما قدر على الابتعاد عن طريق مسعود، ناهباً كل ما يمر به من بلاد مثخناً فيها.

وراح مسعود يطارده فلما صار قريباً منه مضى طغرل بك ممعناً في السير إلى (استوا) واستقر بها، فمضى إليه مسعود، فرحل إلى طوس محتمياً بجبالها المنيعة

ومضايقها العسيرة العبور، فسير إليه مسعود أحد قواده في عساكر كثيرة، فلما قرب منه ارتحل طغرل بك نواحي أبيورد. وكان مسعود قد سار بنفسه إليه فاصطدم طغرل بك بمقدمة جيشه فهزمه واستسلم عدد كبير من جنوده، فلما رأى ذلك وعلم أنه مطارد من كل جانب دخل المفازة إلى خوارزم وأوغل فيها. ومضى مسعود إلى نيسابور منتظرا حلول الربيع ليعاود مطاردة السلاجقة.

وأقام داود في مدينة مرو، وتعددت انهزامات عساكر السلطان مسعود في لقاءاتهما مع السلاجقة وتضعضعت معنويات جنوده رهبة منهم، لا سيما بعد ابتعاده هو إلى (غزنة)، فراح نوابه وولاته يستغيثون به ويذكرون له عيث السلاجقة في البلاد.

ولكنه كان لا يجيب، ولا يبالي مشغولا بقضايا الهند ومشاكلها، صارفاً النظر عن السلاجقة وعن خراسان.

وباشتداد أمر السلاجقة في خراسان، صمم وزراء مسعود وأصحاب الرأي في دولته على استنهاضه لملاقاة خطر السلاجقة، وبينوا له أن السلاجقة إذا تمت لهم السيطرة على خراسان فهم سائرون إلى غزنة حتماً.

فتنبه للخطر وأعد جيشاً كثير العدد بقيادة حاجبه (سباشي) وأرفقه بأحد كبراء أمرائه (مرداويج بن بشو). ولم يكن في سباشي من الشجاعة ما تقتضيه هذه القيادة؛ بل كان جبانا، فأقام بهرات ونيسابور، ثم باغت (مرو) وبها داود، فانهزم داود ولحقته العساكر، فأدركه أحد الأمراء فقاتله داود فقتل الأمير وانهزم جنوده وتضعضعوا وارتفعت معنويات السلاجقة.

وعاد داود إلى مرو وأحسن السيرة في أهلها، وفي أول جمعة من شهر رجب سنة ٤٢٨هـ خطب باسمه ولقب بملك الملوك.

ثم التقى داود وسباشي في شعبان سنة ٤٢٨ هـ على باب سرخس، فانهزم سباشي وسار ومن معه إلى هرات، فتبعهم داود إلى طوس وغنم أموالهم، فكانت

نتيجة هذه المعركة أن ملك السلاجقة خراسان ودخل طغرل بك نيسابور وخطب له فيها في شعبان باسم السلطان الأعظم، وأرسل الحكام إلى النواحي.

وسار داود إلى هرات، واضطر مسعود إلى الذهاب بنفسه إلى خراسان بجيش كبير فيه عدد كثير من الفيلة ووصل إلى بلخ فزحف إليه داود ونـــزل قريباً منها.

ثم سار مسعود من بلخ يقود مئة ألف فارس فوصل الجوزجان وقبض على واليها السلجوقي فصلبه، ثم واصل سيره إلى مرو الشاهجان. ومشى داود إلى سرخس والتقى بأخويه طغرل بك وبيغو، فأرسل إليهم مسعود عارضاً الصلح، فذهب إليه بيغو بالجواب فتلقاه مسعود بحفاوة بالغة، ولكن الجواب كان بأننا لا نثق بمصالحتك بعد الذي كان بيننا.

وبهذا الجواب انقطع أمل مسعود بالصلح فسار من مرو إلى هرات، فقصد داود مرو فقاومته وحاصرها سبعة أشهر مواصلا قتالها حتى سلمت.

وكان لتسليم مرو وقع الصاعقة على مسعود، فترك هرات إلى نيسابور ثم إلى سرخس، وكلما تبع السلاجقة إلى مكان تركوه إلى غيره، حتى كان الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع.

فلما جاء الربيع كان مسعود مشغولا بلهوه وشربه، وانقضى الربيع والأمر كذلك، فلما جاء الصيف نبهه خواصه إلى ما هو فيه مستفزين له على التصدي لأعدائه السلاجقة، فاستجاب لهم وسار من نيسابور إلى مرو لمطاردة السلاجقة، فدخلوا البرية فدخلها وراءهم في مرحلتين، وكان جنوده قد ضجروا من طول السفر وسئموا الترحل طيلة ثلاث سنين، بعضها مع سباشي وبعضها معه.

فلما دخل البرية اضطر لنـــزول منـــزل قليل الماء في حر شديد..

وكان داود ومعه جل السلاجقة بإزائه، والآخرون مقابل ساقة عساكره يتخطفون من تخلف منهم.

وزاد أمر مسعود بلاءً أن حواشيه اختصموا وجمع من عسكره على الماء وازدحموا وقامت الفتنة بينهم وأدى الحال إلى الاقتتال والتناهب، مما أدى إلى تخلخل معنويات الجند وراحوا يتذاكرون في التخلي عن مسعود.

ووصلت أخبار ما هم فيه إلى داود فباغتهم وهم في هذه الحال فولوا منهزمين وكثر القتل فيهم وتمت الهزيمة...

ومضى مسعود في نحو مئة فارس حتى أتى غرشستان.

وكانت غنائم السلاجقة لا حصر لها، ونـــزل داود في سرادق مسعود وقعد على كرسيه. وسار طغرل بك إلى نيسابور فدخلها آخر سنة ٤٣١هـــ ونهب أصحابه الناس.

وانتهى الأمر باستيلاء السلاجقة على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هرات فدخلها، وسار داود إلى بلخ فثبت فيها والي مسعود وقاوم، وأرسل إلى مسعود في غزنة يستمده، فأرسل إليه مسعود مدداً قوياً، فقصد قسم منهم الرخج وفيها جمع من السلاجقة فقاتلوهم فانهزم السلاجقة وخلت تلك الأماكن منهم.

ومضى الآخرون إلى هرات، وفيها بيغو فقاتلوه ودفعوه عنها. ثم أرسل مسعود ولده مودوداً في جيش كبير مدداً لمقاتليه هناك. ولكن الأقدار كانت لمسعود بالمرصاد.

الانقلاب على مسعود وقتله

سار مودود إلى بلخ مدداً لواليها لرد داود السلجوقي عنها، وكان مع مودود وزير أبيه أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبر له الأمور ويساعده في مهمته.

أما مسعود فبعد اطمئنانه إلى مسير الجيش السائر لإنقاذ بلخ، توجه بعد سبعة أيام من مسير الجيش، قاصدا الهند ومعه أخوه محمد.

وكان سفره إلى الهند بقصد إعداد حملة يستعين بها على حرب السلاجقة فقد أيقن باستفحال أمرهم، وعجزه بما لديه من قوى عن قمعهم، فلما عبر نهر سيحون معبرا معه بعض الخزائن، استغل أنوشتكين البلخي فرصة انفراده

فضم إليه جماعة من الغلمان الدارية، ونهبوا ما كان قد تخلف من الخزائن، وأعلنوا إقامة محمد في الإمارة بدل أخيه مسعود، وجاءوا محمدا فسلموا عليه بالإمارة، فرفض ذلك وأباه عليهم، فهددوه، وأرغموه، فأجاب، ومضوا لحرب مسعود، والتقى الفريقان في حرب ضارية، أدت إلى انهزام مسعود، وتحصنه فيما يسميه ابن الأثير رباط ماريكله فحصروه فيه، ثم خرج إليهم مستسلما فقال له أخوه محمد: انظر أين تريد أن تقيم، حتى أبعثك إليه، ومعك أولادك وحرمك، فاختار قلعة كيكى فأرسله إليها محفوظا وأمر بإكرامه وصيانته.

وفوض محمد أمر الدولة إلى ولده أحمد، وكان أهوج متخبطا فاتفق مع ابن عمه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود ليصفوا الملك له ولوالده فقتلاه.

ووصل خبر قتل مسعود إلى ولده مودود وهو بخراسان فعاد بعساكره إلى غزنة فالتقى بجيشه جيش عمه محمد فانهزم محمد وجيشه، وقبض مودود على محمد وولده أحمد وأنوشتكين البلخي وغيرهم فقتلهم، وعاد إلى غزنة.

فلما بلغ أهل هرات انتصار مودود ثاروا على من عندهم من السلاجقة وأخرجوهم منها بانتظار حاكم مودود. وكان مودود قد استقر أمره في غزنة، كما استقر في الهند. وفي سنة ٤٣٣ هـ، وكان طغرل بك يملك جرجان وطبرستان ويولي عليها ويعود إلى نيسابور. وفي سنة ٤٣٤هـ سار إلى خوارزم واستولى عليها.

وفي السنة نفسها خرج من خراسان إلى الري فتسلمها وتسلم غيرها من بُلد الجبال.

وأرسل إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالا، فاستجاب له وحمل إليه مالا وعروضا. وسار إلى همذان فملكها.

وفي سنة ٤٣٥هـ سير مودود بن مسعود جيشا إلى نواحي خراسان فأرسل داود أخو طغرل بك - وهو صاحب خراسان - ولده ألب أرسلان في جيش فاقتتلوا فكان النصر لألب أرسلان.

وفي سنة ٤٣٦هـ كان (السلطان) طغرل بك يستكمل أدوات (السلطنة) فيتخذ له وزيراً هو أبو القاسم عليّ بن عبد الله الجويني، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أول من لقب نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندري، وهو أشهر وزرائه، وسبب شهرته أن طغرل بك في أيامه عظمت دولته ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة.

وفي سنة ٤٣٧هـ أرسل طغرل بك أخاه إبراهيم (ينال) إلى بلد الجبل فملكها، ثم سار إلى همذان والدينور وقرميسين فملكها بعد أن أسرف في القتل والسبي والنهب في الثالثة؛ لأنه لقي فيها مقاومة، ثم سار إلى الصيمرة وحلوان فأحرق هذه ونهبها.

واتجهت جماعة من السلاجقة إلى خانقين مطاردين أهل حلوان، وانتشروا في تلك النواحي وبلغوا (مايدشت) وما يليها فنهبوها وأغاروا عليها.

وفي سنة ٤٣٨هـ كان طغرل بك يحاصر أصفهان فلا يظفر بها، وانتهى الأمر بحمل مال إليه، وأن يخطب له فيها وفي أعمالها.

وفي سنة ٤٣٩هـ كان السلاجقة يمتدون إلى البندينجين فينهبونها ويفعلون الأفاعيل القبيحة، من القتل، والنهب، وافتراش النساء، والعقوبة على تخليص الأموال، فمات منهم جماعة لشدة الضرب كما نص ابن الأثير في الكامل.

ووصلوا إلى ضواحي (باجسري) فقتلوا الرجال، وغنموا الأموال، ونهبوا الأعمال، وعم ذلك باجسري والهارونية وقصر سابور، وجميع تلك الأعمال، وهلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير، فمنهم من قتل ومنهم من غرق، ومنهم من قتله البرد. ووصل الخبر إلى بغداد بأنهم عازمون على قصد بغداد فدب الذعر في الناس.

ثم اتجهوا إلى السيروان فحصروا القلعة وأرسلوا سرية نهبت البلاد وانتهت إلى مكان بينه وبين تكريت عشرة فراسخ. والتجأ إلى بغداد من أهل طريق خراسان خلق كثير، وذكروا من حالهم ما أبكى العيون.

وفي سنة ٤٤٠هـ استولوا على شهرزور وحاصروا تيرانشاه ولكن وقوع الوباء دفعهم عنها واستردت منهم شهرزور.

ولما وصلت أخبار تنامي قوة السلاجقة وبسط سلطتهم لما وصلت إلى جماعاتهم فيما وراء النهر أقبل منهم خلق كثير إلى حيث يقيم إبراهيم (ينال)، فقال إبراهيم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وأنا سائر على أثركم.

فسبقوه وتبعهم، فوصلوا إلى (ملاذكرد)، و(ارزن الروم) و(قاليقلا) وبلغوا طرابزون وكل تلك النواحي. فزحف إليهم الروم والإنجار بما يبلغ خمسين ألف مقاتل، فدارت الحرب سجالا، ثم انتصر السلاجقة فكانت غنائمهم كثيرة. وراحوا ينهبون ويتقدمون حتى لم يبق بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوما.

يقول ابن الأثير: واستولوا على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مئة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء.

وفي سنة ٤٤١هـ وقع الخلاف بين طغرل بك وأخيه إبراهيم (ينال)، حتى وصل الأمر إلى اقتتال جيشيهما وانهزام (ينال) والقبض عليه ثم إحسان أخيه إليه.

وتوطد أمر طغرل بك وعلت سلطته فأرسل إلى حاكم مقاطعة دياربكر أن يقيم له الخطبة في بلاده ففعل، وأحس البيزنطيون أنه أصبح في جوارهم حكم قوي، فراسل ملكهم طغرل بك وهاداه وطلب إليه أن يتعاهدا فاستجاب له، وأعيد تعمير مسجد القسطنطينية وخطب فيه لطغرل بك.

يقول ابن الأثير: ودان حينئذ الناس كلهم له، وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت.

ونستطيع القول: إن هذه المرحلة هي مرحلة قيام الدولة السلجوقية وابتداء أمرها ابتداءً لا ينقصه شيء من حقائق الدول ومظاهرها.

كان أبو منصور بن علاء الدولة صاحب أصفهان على تجاذب مع طغرل بك، تارة يطيعه، وتارة يتمرد عليه، فلما انتهى طغرل بك من عصيان أخيه إبراهيم (ينال)، مضى إلى أصفهان عازماً على احتلالها فاستعصت عليه، وظل على حصارها نحو سنة، وأخيراً استسلمت ودخلها في المحرم من سنة ٤٤٣هـ فأحسن فيها السيرة، واستطابها فنقل ما كان له في الري من مال وذخائر وسلاح إليها وجعلها عاصمته.

على أن بعض الشرائح السلجوقية لم تفهم حقيقة قيام الدولة بسلطتها المركزية، فظلت تتصرف تصرفاً قبائلياً، فألب أرسلان بن داود أخي طغرل بك سار من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس دون أن يعلم عمه طغرل بك، فوصل إلى مدينة (نسا) واحتلها، وأحدث فيها مذبحه ونهبها وأسر الآلاف من رجالها.

يقول ابن الأثير: وكان الأمر عظيماً. ثم عادوا إلى خراسان.

وراح طغرل بك يمد في ملكه فاستولى على أذربيجان وسار إلى أرمينية وقصد إلى ملا ذكرد وكانت للبيزنطيين فحصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها وأسر من رجالها، وبلغ حتى ارزن الروم، وعند حلول الشتاء عاد إلى أذربيجان دون أن يملك ملاذكرد. ثم توجه إلى الري فأقام بها حتى دخلت سنة ٤٤٧هـ.

السلاجقة في العراق

سنة ٤٤٧هـ بدت نية الملك السلجوقي طغرل بك في الاستيلاء على العراق، فأعلن أول ما أعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، وقد مهد بهذا الشعار ليبرر زحفه إلى العراق. ولم يكتف بهذا الإعلان، بل أضاف إليه أنه يريد المسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر الفاطمي صاحبها.

وراح يعد لأمر الفتح عدته فاتصل بأنصاره بالدينور وقرميسين وحلوان خاصة لقرب هذه المناطق من العراق، كما اتصل بغيرها مما هو أبعد منها، وأوصاهم بإعداد الميرة وجمع الأقوات والعلوفات والتهيؤ للتقدم عندما يطلب إليهم ذلك.

ثم لم يلبث أن مشى إلى حلوان وانتشرت جماعته في طريق خراسان، وأرسل إلى خليفة بغداد يعلن فيه تابعيته له وطاعته لأوامره، بل وعبوديته.

وكان في بغداد جماعات كثيرة من الأتراك فكتب إليهم يمنيهم ويعدهم بالخير العميم.

أما الخليفة فقد كان هواه مع طغرل بك فأمر الخطباء في جوامع بغداد بأن يخطبوا لطغرل بك، وأما الأتراك فقد أنكروا أمر طغرل بك وبعثوا إلى الخليفة برأيهم.

وأما الملك البويهي (الرحيم) فقد سلم أمره إلى الخليفة ليقرر ما يشاء، وكذلك فعل من كان مع الرحيم من الأمراء، فكان رأي الخليفة أن يرسلوا رسولا إلى طغرل بك بإعلان الطاعة، ففعلوا.

ثم أرسل إلى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد فأذن له، وخرج لاستقباله موكب حاشد فيه الوزير رئيس الرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف وأعيان الدولة مع وجوه الأمراء من عسكر الرحيم. فلما علم طغرل بك بتوجه المستقبلين إليه أرسل وفداً من قبله لملاقاهم وزيره أبا نصر الكندري مع بعض الأمراء ودخل بغداد.

إذا كان طغرل بك قد استقبل -حكومياً- بهذا الاستقبال الحافل، فإن عواطف الشعب لم تكن متوافقة مع هذا الاستقبال الحكومي.

ومن الغريب - كما سنرى - أن دخول طغرل بك إلى بغداد وإعلان اسمه في الخطبة، كان يعني نهاية الحكم البويهي الشيعي وحلول الحكم السلجوقي السني مكانه، ومع ذلك فإن البغداديين السنيين هم الذين بادروه بالمقاومة والثورة، في حين قابله الشيعة بالهدوء والسكينة وحماية جنوده من الاعتداءات السنية عليهم!! إن المؤرخ لا يستطيع أن يمر بهذا الأمر دون أن يقف عليه وقوفا طويلا، ودون أن يتساءل لماذا قابل سُنِّيو بغداد طغرل بك وحكمه السلجوقي، بهذه الغضبة الدموية، ولماذا كان هدوء الشيعة وسكينتهم؟!..

الحقيقة في ذلك تشرف البويهيين وحكمهم، وتدل على أن البويهيين لم يكونوا يؤثرون فريقاً على فريق، فالسنيون لم يروا في زوال حكمهم زوال عهد كان لا ينصفهم ويتعصب عليهم، والشيعة لم يروا في ذلك خسرانا، لأن الحكم الزائل لم يكن يميزهم بشيء، فهم لا يخسرون شيئاً بزواله وحلول حكم آخر محله، وقد فضلوا أن يبادروه بالإحسان إليه كما سنرى والسكوت عنه اتقاءً لشر يمكن أن يحل بهم منه.

وثورة السنيين إنما جاءت لما كان يتسرب إليهم من أخبار مظالم السلاجقة فيما كان بأيديهم من بلاد.

بدأت الاضطرابات ابتداءً غريباً، فابن الأثير يقول: لما وصل السلطان طغرل بك بغداد دخل عسكره البلد للامتيار وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم. ثم يقول: فلما كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج وأخذ واحدا من أهله ليطلب منه تبناً، وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم وصاح العامة بهم ورجموهم وهاجوا عليهم.

وسمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وحفظوهم (انتهى).

في اليوم الأول كان التعامل حسنا بين الجنود (الغز) جنود طغرل بك وبين البغداديين، فالجنود امتاروا من تجار بغداد وأحسنوا التعامل معهم، وفي اليوم الثاني جاء جماعة منهم يريدون شراء التبن لدوابهم، ويبدو جليا أنهم لم يكونوا يعرفون كلمه (التبن) العربية، فحاولوا إفهام أحد المارة ما يريدون فأخذوه جانباً ليتفاهموا معه، فظن أنهم يريدون به شرا، فاستنصر بالناس فنصروه وتألب عليهم الجمهور وصاحوا بهم ورجموهم وتكاثروا عليهم!.

لو كان البغداديون مبتهجين بزوال الحكم البويهي الشيعي لأغضوا عن استنجاد ذاك الفرد المستنجد ولأقبلوا إليه وإلى من استنجد عليهم محاولين الاستفهام عما يجري ولفضوا المشكل بين الفريقين بأهون سبيل..

ولو كانوا مستبشرين بقدوم من أراحهم من حكم البويهيين لطيبوا خاطر الجنود الغز وتعرفوا إلى حاجتهم وبادروا بإرشادهم إلى باعة التبن واعتذروا إليهم عن سوء ظن ذاك الفرد بهم، ولتصافوا جميعاً وانتهى الأمر بالتوادد والتحابب.

ولكن البغداديين كانوا آسفين لانقضاء العهد البويهي غاضبين على من أنهاه، فلم يكادوا يسمعون صرخة الاستنجاد حتى هاجموا جنود طغرل بك ورجموهم دون أن يحاولوا الاستفسار عن سبب الخلاف، والاستعلام من الجنود عما يريدون.

على أن الأخطر من ذلك هو أن الأمر لم يقتصر على من شهدوا التجاذب بين البغدادي وجنود طغرل بك فهاجوا على الجنود ورجموهم، بل تعدى إلى الجمهور البغدادي السني كله، هذا الجمهور الذي وصفه ابن الأثير بقوله:

(وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز وحفظوهم، ومعنى ذلك أن البغداديين حين علموا بتسليم الملك البويهي بالأمر الواقع وعدم مقاومته للاحتلال السلجوقي سكتوا وسلموا مثله بالأمر الواقع. ولكنهم حينما سمعوا الصياح ورأوا اشتباك مواطنيهم مع الغز جنود طغرل بك، ظنوا بأن الملك البويهي (الرحيم) غير رأيه وعزم على المقاومة، لذلك ارتج البلد بهم وأقبلوا من كل حدب ينسلون، وراحوا يقتلون كل من يصادفونه من الجنود، وأعلنوها ثورة عامة على طغرل بك واحتلاله.

أما أهل الكرخ (الشيعة) فقد كان موقفهم مغايرا، ويبدو واضحا أنهم لم يشاركوا في هذه الثورة، بل راحوا يجمعون الجنود الغز ويحفظونهم.

وهذا ما يدعو إلى التفكير الطويل: السنيون يثورون على المحتل السني القادم إليهم، وينتصرون للحاكم الشيعي ويثورون معه حين توهموا أنه ثائر على المحتلين، ولا يبالون أن يقتلوا الجنود السنيين حيث وجدوهم.

والشيعة يقفون على الحياد فلا ينتصرون للحاكم الشيعي، ولا يثورون على الحاكم السني، ويزيدون على ذلك بأن يجمعوا الجنود السنيين ويحموهم ويصونوا دماءهم!!

التفسير الصحيح لذلك - كما أشرنا من قبل - هو أن الحكم البويهي كان حكما عادلا غير متحيز لفريق على فريق، وأن السنيين كانوا راضين كل الرضا عن هذا الحكم الذي لم يسىء لا إلى حياتهم العامة ولا إلى مذهبيتهم، و لم يتدخل في طقوسهم وعقائدهم، بل تركهم أحرارا في كل شيء، والحرية هي مطمح الإنسان، فإذا حصل عليها فكل شيء بعدها يهون.

وكل ما فعله الحكم البويهي هو أنه كما ترك السنيين أحرارا، رفع الحيف عن الآخرين وأعاد إليهم حريتهم المغتصبة، وتركهم يمارسون هذه الحرية في طقوسهم وعقائدهم..

وبذلك تساوى الجميع، بعد أن كانت الحرية لفريق دون فريق..

وسمعة الحكم السلجوقي كانت سيئة لدى البغداديين، وأخبار مظالمه كانت تصل إليهم.

لذلك رأيناهم يقفون منه ذاك الموقف الحاد حين رأوه يصل إليهم. والإنسان لا تهمه حريته العقائدية فقط، بل تهمه حريته الكاملة، فماذا يجديه إذا كانت تترك له حريته العقائدية في حين تسلب منه حرية الحياة في كرامته وماله وعيشه واجتنائه العدل الاجتماعي.

ونحن هنا لا نريد أن نستعرض الحكم البويهي الذي قابل البغداديون انتهاءه بالثورة على من أنهاه، وحسبنا في أن نورد نماذج مما شهد به المؤرخون من نصاعة

الحكم البويهي، فابن الأثير يقول مثلا وهو يتحدث عن ظفر معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بياقوت وملك شيراز بعد معركة شرسة.

يقول: كان معز الدولة في ذلك من أحسن الناس أثراً، ثم يقول: إن معز الدولة وجد فيما غنمه بعد النصر: برانس لبود عليها أذناب الثعالب ووجد قيودا وأغلالا، فسأل عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم ويطاف بكم في البلاد.

فأشار أصحاب معز الدولة أن يفعل بهم مثل ذلك، فامتنع وقال:

إنه بغي ولوم ظفر، وقد لقي ياقوت بغيه.

ثم أحسن إلى الأساري، وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها واجب يقتضى المزيد، وخير الأسارى بين المقام عنده واللحوق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

وسار من موضع الوقعة حتى نـــزل بشيراز، ونادى في الناس بالأمان وبث العدل، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم...

ويصفه عند ذكر موته (ص٥٧٥) بقوله: كان حليما كريماً عاقلا.

وعندما يتحدث ابن الأثير (ص ٦٧٠) عن ركن الدولة البويهي يقول:

كان حليماً، كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده رءوفاً بهم، عادلا في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجبا إلا فيما لا بد منه. وكان يحامي على أهل البيوتات وكان يجري عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام، للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام.

ثم يختم ابن الأثير الحديث عنه قائلا: رضي اللّه عنه وأرضاه.

ومثل هذا القول لا يقال إلا للخلفاء الراشدين.

ويقول ابن الأثير عن عضد الدولة: كان عاقلا فاضلا حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها، باذلا في مواضع العطاء، مانعاً في أماكن الحزم، ناظرا في عواقب الأمور. وبنى على مدينة النبي (ﷺ) سورا، وكان لا يعول في الأمور إلا على الكفاءة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به.

حكي عنه: أن مُقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال: ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا، ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة.

وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده، ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه.

وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا. وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب منها: (الإيضاح) في النحو، و(الحجة) في القراءات، و(الملكي) في الطب، و(التاجي) في التاريخ إلى غير ذلك، وعمل المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات (المستشفيات) والقناطر (الجسور) وغير ذلك من المصالح العامة.

هذه نماذج مما تحدث به المؤرخون عن رجال الحكم البويهي، لذلك لا نعجب إذا رأينا البغداديين الذين لم يكونوا على مذهبهم يغضبون لزوال حكمهم ويثورون على من أزال هذا الحكم.

أما الشيعة فلم يشاءوا أن يورطوا أنفسهم في ثورة اعتقدوا أنها فاشلة، فيجعلوا للحاكم الجديد سبيلا للإيغال في اضطهادهم، ورأوا أن يكون لهم يد بيضاء عنده في

حمايتهم لجنوده وعدم التعرض لهم بالأذى وصون دمائهم. لعل هذه اليد تردعه عما يتوقعون من شره!..

وبالفعل فقد بدا أن موقفهم هذا قد أثمر، ولكن المؤسف أن هذا الإثمار كان إلى حين.

لقد بلغ طغرل بك ما فعله الشيعة من حماية جنوده، فأمر بإحسان معاملتهم وأرسل وزيره إلى نقيب العلويين عدنان بن الشريف الرضي الذي كان يتولى نقابة العلويين بعد وفاة عمه الشريف المرتضي، وقد كان عدنان هذا أبرز شخصية شيعية في بغداد، بل كان رأس الشيعة فيها.

أرسل الوزير إلى النقيب يطلب إليه الحضور لمقابلته، فجاء إليه فشكره باسم طغرل بك، وترك عنده خيلا بأمر طغرل بك تحرسه وتحرس المحلة كلها.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتوجسون من اعتداءات ربما تقع على النقيب وعلى المحلة بسبب الموقف الحيادي الذي وقفته.

لقد كانت الثورة على الحكم الجديد ثورة هوجاء بدون قيادة وبدون تخطيط، فالعامة حين رأوا أنهم نجحوا في قتل من قتلوا من الجنود، خرجوا إلى ظاهر بغداد حيث يعسكر الجيش السلجوقي، وخرج معهم جماعة من العسكر، بقصد الاشتباك بالجيش.

وفي تقديرات ابن الأثير أنه لو خرج معهم الملك الرحيم ومن لديه من جنود لانتصرت الثورة.

وهذا غير بعيد؛ لأن في ذلك على الأقل وجود قيادة، ووجود جنود محترفين.

ولكن يبدو أن (الرحيم) لم يكن من رجال مثل هذا الموقف الذي يقتضي شجاعة وحزمًا وحسن تدبير، لذلك تخلف عن الالتحاق بالثائرين وتخلف معه جنوده.

أما أعيان أصحابه فقد أسرعوا دفعا للتهمة عنهم إلى دار الخلافة وأقاموا فيها.

ووقع الصدام خارج بغداد بين الجماعات الثائرة وبين الجيش السلجوقي وكثرت القتلى من الفريقين.

وكان من الطبيعي أن تكون نهاية تلك الجماعات: الهزيمة؛ لأنه كان يعوز ثورتها شيئان: التخطيط، والقيادة.

وكان هذان الشيئان الأساسيان مفقودين لدى الثوار المقاتلين، إذ إن ثورتهم انبعثت من انفعال جماهيري طارئ فانتهت إلى الهزيمة، وإحكام سيطرة طغرل بك على بغداد.

تحققت هواجس البغداديين فافتتح الحكم السلجوقي أمره بالنهب، ويصف ابن الأثير ما كان يجري قائلا: ونهب الغز درب يحيى ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ودور أهله فنهب الجميع. ا.هـ. ورئيس الرؤساء هذا هو وزير الخليفة وهو الذي ذكرنا من قبل أنه خرج على رأس موكب حافل لاستقبال طغرل بك.

فلم يشفع له منصبه واستقباله وحفاوته، بل نهبت دوره ودور أهله.

ويسترسل ابن الأثير في وصف ما افتتح به السلاجقة حكمهم في العراق قائلا: ونهبت الرصافة وترب الخلفاء وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى؛ لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقادا منهم أنها محترمة.

ووصل النهب إلى أطراف نهر المعلي، واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف ا. هـ.

وتجاهل طغرل بك ذلك كله، وكل ما فعله أنه أراد التخلص من ارتباطات وعوده للملك الرحيم التي كانت بتوسط الخليفة، فأرسل إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جري إلى الملك الرحيم وأجناده، ويقول: إذا حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم. وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أمانا لهم، فطلب إليهم الخليفة أن يذهبوا إلى طغرل بك وأرسل معهم رسولا من قبله يبرئهم مما يتهمهم به طغرل بك.

فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الجنود ونهبوا رسل الخليفة وأخذوا دوابهم وثيابهم.

ومع أن احتلال السلاجقة للعراق ودخول طغرل بك بغداد كان في حقيقة الأمر نتيجة تواطؤ بين السلاجقة والخليفة تخلصاً من سيطرة البويهيين على الخلافة، فإن هيبة الخلافة انتهكت من السلاجقة في أول يوم وصلوا فيه إلى بغداد، وذلك بإهانة رسل الخليفة ونهبهم وتجريدهم حتى من ثيابهم.

وزيد في الأمر أن الملك الرحيم ومن معه إنما ذهبوا إلى طغرل بك بضمان الخليفة ورسالته بتبرئتهم، ولكن طغرل بك لم يبال بذلك، فبمجرد دخولهم عليه، أمر بالقبض عليهم وسجنهم، ثم أرسل الملك الرحيم معتقلا إلى قلعة السيروان.

وهال الخليفة ما لحقه من الإهانة بالقبض على الرحيم وأصحابه، وما كان قد جرى على رسله، ونهب بغداد على مرآى ومسمع منه، فأرسل إلى طغرل بك ينكر ما جرى من القبض على الرحيم وجماعته، والاعتداء على قصر الخلافة ببغداد ونهبها وترويع أهلها. ويقول في رسالته:

(إنهم (الرحيم وصحبه) إنما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقادا مني أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأري الأمر بالضد).

وإزاء هذه الغضبة الخليفية أطلق طغرل بك بعض المقبوض عليهم، أما الرحيم وهو المقصود الأول بكلام الخليفة فقد احتفظ به مقبوضاً عليه وأرسله معتقلا سجيناً إلى قلعة السيروان، كما مر.

وهكذا ظلت غضبة الخليفة بلا نتيجة عملية، فكان هذا بداية الاستهتار بمقام الخلافة، وبداية إذلالها وإحكام السيطرة عليها.

وأما ما يتعلق باحتجاج الخليفة على ما جرى على أهل بغداد، فقد قوبل بمد النهب والترويع إلى ما يتجاوز بغداد ويصل إلى سوادها وأريافها، وظل المد يتعاظم حتى صار مداه من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل ومن الشرقي إلى النهروان وأسافل الأعمال، كما ذكر ابن الأثير.

أي: أن النهب شمل معظم العراق.

ويضيف ابن الأثير إلى ذلك قائلا: وخرب السواد وأجلي أهله عنه. هذه هي فاتحة أعمال السلاجقة في العراق التي عاملوا بها العراقيين جميعا السنيين منهم والشيعة.

على أنهم لم ينسوا أن يخصوا الشيعة الذين لم يشاركوا في الثورة عليهم، وحموا جنودهم من القتل وآووهم في دورهم، لم ينسوا أن يخصوهم بنوع من الجور لا يطال غيرهم. فالشيعة لا يقولون في آذان السحر: (الصلاة خير من النوم)، بل يقولون بدلا عن ذلك (حي على خير العمل).

فإذا بأوامر طغرل بك من أول يوم تندخل في شئونهم المذهبية وتفرض عليهم أن يتركوا حي على خير العمل، ويبدلوها بالصلاة خير من النوم.

في حين أن البويهيين الذين طال حكمهم في بغداد والعراق لم يتدخلوا في مثل هذه الشئون، وتركوا الناس أحرارا في طقوسهم المذهبية.

وسينال الشيعة ما هو أشد من هذا وأفظع.

طغرل بك في العراق

استقر طغرل بك في بغداد وأمضى فيها ثلاثة عشر شهرًا وأياما دون أن يلق الخليفة. وقد كان في هذا تجاهل لمقام الخلافة واستهانة بالخليفة.

وهذا الخليفة الذي تآمر مع السلاجقة على البويهيين، عامله السلاجقة بالمهانة منذ اليوم الذي دخلوا فيه بغداد، كما رأينا فيما تقدم من الأحداث. وتوالت هذه المهانة إلى الحد الذي لم ير فيه الملك السلجوقي أن عليه أن يزور الخليفة!..

وإذا كان ما لقيه الخليفة هو المهانة، فإن ما لقيه الشعب هو الإذلال والإفقار. يقول ابن الأثير: (طال مقام السلطان طغرل بك ببغداد وعم الخلق ضرر عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم فإن العسكر نزلوا فيها وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا منهم كل محظور).

هذه الصورة الموجزة في كلامه ترينا واقع الحال التي كان عليها أهالي بغداد في حكم السلاجقة: الجنود يشاطرونهم السكنى في دورهم.

ونستطيع أن نتصور بضعة جنود يساكنون أسرة في منـــزلها، الأسرة المكونة من رجال ونساء وأطفال. وعلى هذه الأسرة أن تتكفل بإطعام هؤلاء الجنود، وفوق ذلك يرتكب هؤلاء الجنود في الأسرة كل محظور!! والمحظورات التي لم يشأ ابن الأثير أن يعددها نستطيع أن نتخيلها ونحسها!.

هال الخليفة القائم بأمر الله ما يلقاه الشعب البغدادي- لا سيما وأنه المسئول الأول عن احتلال السلاجقة لبغداد - وما دام السلطان السلجوقي يتجاهله، فقد رأى أن لا يخاطبه، ولا يتصل به مباشرة، فكلف وزيره الملقب رئيس الرؤساء: أن يكتب إلى عميد الملك الكندري وزير السلطان أن يحضر لمقابلة الوزير فإذا حضر بين له عن الخليفة ما الناس فيه من البلاء، فإن أزال ذلك، وإلا يساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبعد عن المنكرات.

ولا شك أن الخليفة قد تصرف تصرفاً فيه كل الدقة (الدبلوماسية)، فهو لم يخاطب السلطان بنفسه، فدلل بذلك على أنه لا يعترف به. ثم هو لم يطلب من وزيره أن يذهب لمخاطبة وزير السلطان، بل طلب إليه استدعاءه إليه، فدلل بذلك على أنه هو ووزيره أصحاب السلطة الشرعية...

وجاء الكندري وتبلغ أمر الخليفة، ومضى إلى السلطان يبلغه ذلك. فاعتذر السلطان بكثرة العساكر وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم، وأمر الكندري أن يبلغ عذره هذا إلى وزير الخليفة..

وبذلك أبدى إصراره على استدامة الحال على ما كانت عليه، ورفض تعليمات الخليفة برفع البلاء، وعدم اكتراثه بتهديد الخليفة بالرحيل عن بغداد...

وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان: فقد حصلت عند سنجار معركة حربية بين (البساسيري) -سيأتي الحديث عنه- ومعه نور الدولة بن دبيس بن مزيد، وبين قريش بن بدران صاحب الموصل ومعه (قتلمش) فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قريش وقتلمش وقتل العدد الكثير من أصحابهما.

أما قتلمش المنهزم بأصحابه فقد لقي هو وأصحابه من أهل سنجار الأذي البالغ.

وأما قريش بن بدران فقد جرح في المعركة، فجاء إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فرحب به دبيس وأعطاه خلعة كانت قد وصلت من مصر فلبسها.

وانضم إليهم. وساروا جميعا إلى الموصل وأعلنوا انضمامها إلى الخلافة الفاطمية وخطبوا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

وصلت أنباء ما جرى إلى طغرل بك في بغداد وهو في عنفوان تجبره واستعلائه على الخليفة وإصراره على اضطهاد الشعب العراقي.

ويبدو جليا أنها وصلته في نفس اليوم الذي رد فيه على رسالة وزير الخليفة بما رد، وبعد أن حمل وزيره الكندري رده إلى وزير الخليفة.

فأمام الخطر الداهم الذي فاجأته أخباره عما جري في الموصل، والخشية من تفاقم الأمور وامتداد العصيان باتجاه بغداد، وقد بدت طلائعه بما جرى على ابن عمه وممثله (قتلمش) في سنجار أمام ذلك، لم يجد بدا من التراجع عن طغيانه، واسترضاء الخليفة والبغداديين، وإيجاد مخرج لذلك، لا يبدو فيه ضعيفا متخاذلا، متراجعا عما عزم عليه، خائفا من الآتي.

كان المخرج هو ادعاؤه أنه رأى في تلك الليلة في منامه النبي (ﷺ) عند الكعبة وكأنه يسلم على النبي وهو معرض عنه لم يلتفت إليه، وقال له: يحكمك الله في بلاده وعباده فلا تراقبه فيهم ولا تستحي من جلاله عز وجل في سوء معاملتهم وتفتر بإهماله عند الجور عليهم.

وتظاهر بأنه استيقظ فزعا، وأحضر وزيره الكندري وحدثه بما ادعى أنه رآه وأرسله إلى الخليفة يعرفه أنه يقابل ما رسم به بالسمع والطاعة.

وأخرج الجند من دور العامة، وأمر أن يظهر من كان مخفيا إلى غير ذلك...

ثم تجهز طغرل بك وترك بغداد لإخماد تمرد الموصل، فلما بلغ بجيشه (أوانا) نسي النبي (ﷺ) ونسي المنام، فأعمل جيشه النهب فيها وفي عكبرا وفي كل ما كان يمر به في طريقه. ووصل تكريت فسلمت البلدة بمال قدمه صاحبها لطغرل بك.

ولما وصل (البوازيج) أقام فيها حتى دخلت سنة ٤٤٩هـ فأتاه أخوه (ياقوتي) بالعساكر فسار بهم إلى الموصل واستخلصها.

ولما بدت لدبيس بن مزيد وقريش بن بدران مظاهر قوة طغرل بك أسرعا يوسطان من يشفع لهما عنده ويعفو عنهما ففعل.

ولكن إبراهيم (ينال) أخوه قال للوزير الكندري: من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان وتصلح بينهم؟. هذا هو احترام السلاجقة للعرب!...

ثم سار طغرل بك إلى ديار بكر وجزيرة ابن عمر، ولما كان يحاصرها سار جماعة من الجيش إلى (عمر اكمن) وفيه أربع مئة راهب فذبحوا منهم مئة وعشرين راهبا، وافتدى الباقون أنفسهم بستة مكايك ذهبا...

أرسلان البساسيري هو في الأصل مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي، ثم صار من جملة الأمراء عند البويهيين يرسلونه في مهماتهم، ثم ترقت به الحال وتقدم عند الخليفة القائم وقلده الأمور بأسرها وخطب له على المنابر وهابته الملوك، ثم جرت بينه وبين وزير الخليفة الملقب رئيس الرؤساء منافرات فخرج البساسيري من بغداد وجمع واستولى على بغداد، وأخرج الخليفة منها، وخطب للمستنصر الفاطمي وقتل رئيس الرؤساء شر قتلة. واستولى على بغداد سنة كاملة. - في تفاصيل سنعرض لبعضها بقدر ما له ارتباط بموضوعنا- .

ومما يدل على كفاءة البساسيري، ما يذكره ابن الأثير في أحداث سنة ٤٢٥ هـ من أنه فيها استخلف البساسيري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العيّارين اشتد أمرهم وعظم فسادهم وعجز عنهم نواب السلطان فاستعملوا البساسيري لكفايته ونهضته.

فهو يبدو هنا إدارياً حازماً معداً لمواجهة صعاب الأمور.

وفي أخبار سنة ٤٣٢هـ نقرأ أن خلافا قام بين جلال الدولة البويهى وبين قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل وأن جلال الدولة أرسل أبا الحارث البساسيري في مهمة عسكرية ناتجة من هذا الخلاف. وفي أحداث سنة ٤٤١ هـ نقرأ أن جمعا من بني عقيل ساروا إلى بلاد العجم من أعمال العراق وبادوريا فنهبوهما وأخذوا من الأموال الكثير، وكانا في إقطاع البساسيري فسار من بغداد بعد عودته من فارس إليهم، فالتقوا هم وزعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالا شديدا أبلى الفريقان فيه بلاء حسنا، وصبرا جميلا وقتل جماعة من الفريقين.

وابن الأثير راوي هذا الخبر لم يحدثنا من قبل عن سفر البساسيرى إلى فارس، ولا هو حدثنا هنا عما آلت إليه تلك الحرب!.

وإن نكن عرفنا أنه قد أصبح للبساسيري إقطاعات عديدة واسعة وأن له مقاتلين ينفرون معه لقتال أعدائه قتالا شديدا.

ثم لا نلبث أن نقرأ أن حرباً شديدة قامت بين نور الدولة دبيس بن مزيد وبين الأتراك الواسطيين، وأنه بعد وقوع الهزيمة على الواسطيين أرسلوا إلى بغداد يستنجدون جندها، وأنهم بذلوا للبساسيري أن يدفع عنهم نور الدولة، ويأخذ نهر الصلة ونهر الفصل لنفسه.

ثم نقرأ أن قرواشًا أساء السيرة في أهل الأنبار ومد يده إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها إلى البساسيري في بغداد وسألوه أن ينفذ معهم عسكرا يسلمون إليه الأنبار فأجابهم إلى ذلك، وسير معهم جيشًا، فتسلموا الأنبار، ولحقهم البساسيري وأحسن إلى أهلها، وعدل فيهم، ولم يمكن أحدا من أصحابه أن يأخذ رطل خبز بدون ثمنه، وأقام فيها إلى أن أصلح حالها وقرر قواعدها وعاد إلى بغداد.

فها هنا يبدو البساسيري صاحب عسكر مستقل بأمره يستنجد به فينجد...

ثم نراه بعد ذلك يسير من بغداد إلى طريق خراسان ويقصد ناحية الدزدار ويملكها ويغنم ما فيها، وكان سعدي بن أبي الشوك قد ملكها وقد عمل لها سورا

وحصنها وجعلها معقلا يتحصن به ويدخر بها كل ما يغنمه فأخذه البساسيري جميعه.

وفي سنة ٤٤٣هـ نرى البساسيري إلى جانب الملك البويهي الرحيم مع دبيس بن مزيد وغيره يشرفون على ما تحقق من نصر للملك الرحيم في التمرد الذي قام به جمع كثير من العرب والأكراد في خوزستان.

وفي أحداث سنة ٤٤٤هـ نري أن الملك الرحيم يسلم البصرة إلى البساسيري، وفي السنة نفسها يزوج نور الدولة دبيس بن مزيد ابنه بهاء الدولة منصورا بابنة أبي البركات بن البساسيري.

وفي سنة ٤٤٥هـ يصل الخبر إلى بغداد بأن جمعا من الأكراد وجمعا من الأعراب قد أفسدوا في البلاد وقطعوا الطريق ونهبوا القرى، فيسير إليهم البساسيري ويتبعهم إلى البوازيج فيوقع بطوائف كثيرة منهم ويقتل فيهم ويغنم أموالهم وينهزم بعضهم، فيعبرون الزاب عند البوازيج فلا يدركهم ولا يتمكن من العبور إليهم لزيادة الماء وبذلك نجوا وفي سنة ٤٤٦هـ يرد اسم البساسيري خلال ذكر فتنة في بغداد هكذا: (وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهبوها وأحرقوا البيع والقلايات ونهبوا دار أبي الحسن بن عبيد وزير البساسيري.

إذن فقد صار للبساسيرى وزير، ولكن ما هو المنصب الذي يشغله ليكون له وزير؟ إننا حتى الآن وفي جميع الأحداث التي تقدم ذكرها، لم نعثر فيما كتب عنه على اسم المنصب الذي يشغله أو المناصب التي تدرج فيها إلى أن بلغ المنصب الذي يصح أن يكون له فيه وزير.

على أنه في كل ما مر ذكره من تصرفاته يبدو مستقلا في هذه التصرفات لا يتلقى أوامره من أحد، مع أنه مقيم في عاصمة الحكم بغداد، وفيها الخليفة العباسي والملك البويهي!.

ويبدو استقلاله الطاغي فيما حدث هذه السنة نفسها من هجوم بني خفاجة على الجامعين وأعمال نور الدولة دبيس ونهبهم وفتكهم في تلك النواحي، فأرسل

نور الدولة إلى البساسيرى يستنجده فسار إليه منجدا وعبر الفرات فانهزم الخفاجيون وأوقع البساسيري بهم ونهب أموالهم وشردهم كل مشرد، وعاد إلى بغداد ومعه منهم خمسة عشرون رجلا فقتل جماعة وصلب جماعة.

وهذا كله يدل على تفرد في السلطة لا يرجع فيه لا إلى الخليفة ولا إلى الملك ولا إلى الوزير. ولما حصر قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها وخطب لطغرل بك فيها وفي سائر أعماله ونهب ما كان فيها للبساسيري وغيره، جمع البساسيري جموعاً كثيرةً وقصد الأنبار وحربي فاستعادهما.

ليس في النصوص التي هي في أيدينا ما يدل على أن البساسيري كان يرجع إلى أحد في تنفيذ ما يريد تنفيذه، ولا أن أحدا ممن أنجدهم كان يطلب الاستنجاد من سلطة أعلى من البساسيري فتنتدب هي البساسيري لإنفاذ النجدة، فيما عدا ما رأيناه في أول عهده بالبروز من انتدابه لحماية الجانب الغربي ببغداد من تسلط العيارين عليه.

ولا أنه كان يستأذن أحدا في استعمال القوة في حماية ما يعتقد أنه من حقه. ثم رأينا أنه كان له وزير.

هذا يدل على انحلال سلطة الملك الرحيم المفروض فيه أنه هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، ويدل على عدم جدارته لتولى المنصب الذي وصل إليه، مما كان له الأثر الأكبر في تسهيل سيطرة السلاجقة على الخلافة، ودخول طغرل بغداد دون أن يلقى مقاومة بويهية كان سبب فقدانها، فقدان الكفاءة القيادية عند الملك الرحيم .

السلطة المطلقة التي صارت للبساسيري كان من الطبيعي أن لا تكون موضع رضا لا من الخليفة ولا من وزيره الملقب (رئيس الرؤساء) لا سيما من الأخير، فكانا يكبتان غضبهما لعجزهما عن الوقوف في وجه تنامي نفوذ البساسيري.

وجد أن اثنين مخاصمين للبساسيري يسميهما ابن الأثير: أبا الغنائم، وأبا سعيد ابني المحلبان صاحبي قريش بن بدران وصلا سرا إلى بغداد، مما ساء للبساسيري وقال:

هؤلاء وصاحبهم لبسوا حلل أصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس، وأراد القبض عليهم فحيل بينه وبين ذلك.

ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء، واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء فمنعها، وطالب بالضريبة التي عليها، وأسقط ما كان يدفع للخليفة شهريا من دار الضرب، وكذلك ما كان يدفع لرئيس الرؤساء وبعض الحواشي، وأراد هدم دور بني المحلبان فمنع من ذلك. وقال: ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي خرب البلاد وأطمع السلاجقة وكاتبهم.

ثم مضي إلى الأنبار، وأحرق ناحيتي (دما) و(الفلوجة)، وكان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاها من بغداد. وجاء نور الدولة دبيس إلى البساسيري معاونا له على حصار الأنبار.

ونصب البساسيري عليها المجانيق، ورماهم بالنفط، ودخلها قهرا، فأسر مئة نفس من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم بن المحلبان بعد أن كان قد ألقى نفسه في الفرات فأخذ، ونهب الأنبار وأسر من أهلها خمس مئة رجل.

وعاد إلى بغداد، وأمامه أبو الغنائم على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه برنس، وفي رجليه قيد، وصلب جماعة من الأسري.

وبالرغم من شدة هذا التحدي لرئيس الرؤساء وللخليفة نفسه، فقد قوبل بالصمت والهدوء، ما دل على عجزهما عن كبح البساسيري.

ولكن صدف بعد حين أن صديقا نصرانيا للبساسيري كان ينقل في سفينة جرار خمر فاستغل هذا الأمر وحرضت العامة بزعم أن هذا الخمر مرسل إلى البساسيري فتجمهر خلق كثير.

ومما يدل على أن هناك تحريضا من رئيس الرؤساء أنه كان بين المتجمهرين موظف كبير من موظفي الدولة يصفه ابن الأثير بأنه (حاجب باب المراتب)، وهجم الجميع على السفينة وكسروا جرار الخمر وأراقوها.

وبلغ ذلك البساسيري، وبلغه ما أشيع باطلا بأن جرار الخمر مرسلة إليه فعظم الأمر عليه، ونسب ما جرى إلى رئيس الرؤساء.

فكان أن استصدر فتاوى من فقهاء الحنفية بأن الذي فعل، من كسر الجرار، وإراقة الخمر تعد غير واجب، وهي ملك رجل نصراني لا يجوز.

وحرض رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على الطعن في البساسيري وذمه والتشنيع عليه، ونسب إليه كل ما ينالهم من أذى.

فلم يلبثوا أن جاءوا إلى الخليفة، يستأذنونه في التعدي على دور البساسيري، ونهبها فأذن لهم فساروا إليها ونهبوها وأحرقوها ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه في بغداد.

وراح رئيس الرؤساء يتناول في مجالسه البساسيري ذاماً له، ناسباً إليه التآمر مع الخلافة الفاطمية في مصر ومراسلة الخليفة المستنصر.

وفسدت الأمور بين الخليفة، والبنساسيري إلى الحد الذي لا يمكن معه إصلاحها. وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده.

ويقرر ابن الأثير: أن هذه الحالة كانت من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرل بك العراق والقبض على الملك الرحيم.

ثم حدثت معركة سنجار، والاستيلاء على الموصل التي أشرنا إليها فيما تقدم، وبذلك جاهر البساسيري بالثورة ومارسها عملياً وأعلن الانتماء إلى الخلافة الفاطمية.

وفي سنة ٤٥٠هـ قام البساسيري بمحاولة ثانية للاستيلاء على الموصل، بالتعاون مع قريش بن بدران، فاستوليا على المدينة ، ولم يستوليا على القلعة إلا بعد حصار أربعة أشهر.

وهنا كانت ثورة البساسيري قد أصبحت ثورة على الحكم السلجوقي الذي صار هو المسيطر على العراق، فلما بلغ طغرل بك ما جري في الموصل سارع إليها فلم يجد أحدا؛ لأن البساسيري وقريش كانا قد غادراها، فمضى وراءهما إلى نصيبين.

على أن طغرل بك واجه هنا انشقاقا عائلياً هو انفصال أخيه إبراهيم (ينال) عنه وتوجهه إلى همذان.

وكان إبراهيم هذا قد انشق عن أخيه قبل اليوم، وكان أخوه طغرل يصفح عنه عندما يظفر به، ولكن بدا أن الانشقاق هذه المرة كان أبعد اتجاها، وأكثر خطرا من كل انشقاق سابق، إذ قيل: إنه كان نتيجة اتصال الفاطميين به، وتحالف بينه وبين البساسيري.

وسنعرض في مكان آخر لهذا الانشقاق في تفاصيل أوسع.

وكان البساسيري يواصل ثورته وتقدم فاحتل بغداد ومعه قريش بن بدران، ويفهم من نص ابن الأثير: أن قوته لم تكن تتجاوز أربع مئة غلام على غاية الضر والفقر، وقوة قريش بن بدران تبلغ مئتي فارس. كذلك يفهم منه أنه كان يقابله العسكر والعوام، ومع ذلك فإنه بهذه القوة القليلة واجه العسكر والعوام.

والعوام الذين يذكرهم ابن الأثير هنا ربما كانوا بعض المرتزقة، أو بعض من ينعقون مع كل ناعق. والدليل على ذلك أن ابن الأثير نفسه يقول بعد بضعة سطور من قوله هذا، وهو يذكر أن هناك من كان لا يرى الاصطدام عسكريا بالبساسيري بسبب ميل العامة إلى البساسيري يقول: أما الشيعة فللمذهب، وأما السنة فلما فعل بهم الأتراك (السلاجقة).

هذا القول الذي سجله ابن الأثير في تاريخه يرينا حقيقة النقمة الشعبية على السلاجقة، فهو قبل أن يقول هذا القول، يذكر أن البساسيري أعلن الانضمام إلى الخلافة الفاطمية، وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي المستنصر، وأمر بالأذان بحي على خير العمل.

والخلافة الفاطمية خلافة شيعية، تعتمد أحد المذاهب الشيعية، والمستنصر خليفة شيعي يمثل ذاك المذهب.

والأذان بحي على خير العمل كان يعتبر تحدياً للسُّنيين الذين لا يأخذون به، كما كان استبداله في أذان الصبح بالصلاة خير من النوم يعتبر تحدياً للشيعة.

وفي تلك العصور كانت إذا نشبت الحرب بين حكم شيعي وحكم سني، فإن انتصر الأول كان أول ما يفعله هو الأذان بحي على خير العمل وإلغاء: الصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وإذا انتصر الثاني كان يفعل العكس.

فنور الدين محمود، مثلا، عندما افتتح مدينة حلب - وكانت شيعية - كان أول أمر يصدره هو إبطال حي على خير العمل من الأذان، والإعلان بالصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وهدد كل من لا ينفذ هذا الأمر بالعقوبة الشديدة.

وأرسل مراقبين إلى مآذن المدينة كلها يرصدون له ما يجري، فجاء الجواب بأن أوامره نفذت في جميع المآذن ما عدا واحدة منها، رفض مؤذنها في أذان الصبح أن يؤذن بالصلاة خير من النوم. فأمر بأن يرمى من أعلى المئذنة إلى الأرض، ففعل به ذلك ومات تلك الميتة المروعة!..

وفي المقابل: عندما نجح إسماعيل الصفوي في إقامة الدولة الشيعية في إيران، كان إذا فتح مدينة، فأول شيء فعله: الأمر بالأذان: حي على خير العمل، وإلغاء: الصلاة خير من النوم من أذان الصبح.

وكان في ذهنه ما فعله نور الدين محمود في حلب، فأرسل مراقبين إلى جميع المآذن، فجاءه الخبر بأن مؤذناً واحدا أذن صباحا بالصلاة خير من النوم، فأمر بإلقائه من أعلى المئذنة إلى الأرض!..

بهذه الفظائع الوحشية كان التعامل نصرة للمذاهب، وتأييدا في زعمهم للدين!! أما السنيون في بغداد فلم يبالوا أن يؤذن في جامع المنصور بحي على خير العمل، وأن يعلن انضمامهم إلى خلافة شيعية ما دام في ذلك تخلصهم من حكم السلاجقة.

إن في هذه الأحداث البغدادية من العبر ما علينا إلا أن ننظر إليه بعمق وتفكر، وما يدل على أن العصبيات المذهبية التي طالما أدت إلى الفتن والتقاتل والتذابح ليست من أصالة الشعوب، بل إن الذين يحركونها إما أن يكونوا عمي البصيرة أو من المستغلين المستفيدين.

فهذا الشعب البغدادي الذي طالما قرأنا في كتاب (الكامل) لابن الأثير نفسه ما كان يثور فيه من الفتن المذهبية، نراه هنا صفا واحدا في مقاومة الظلم.

هذا الشعب وغيره من الشعوب ممن كانوا يهيجونه لمجرد كلمة تزاد في الأذان، أو تبدل بكلمة أخرى، أو ليغير ذلك من الأسباب، ها هو عندما يواجه الحقائق، يرى أنه لا ضير على هذا الفريق أن لا يرى الفريق الآخر عين ما يراه هو في الشئون المذهبية.

ولكن فقهاء السوء وحكام الجور هم الذين يؤججون العصبيات المذهبية والنعرات الدينية.

الأولون ليستغلوا براءة الشعب لمنافعهم، والآخرون ليشغلوه عن التصدي لجورهم والتمرد على ظلمهم.

فهذا البساسيري لما عدل بين الناس، ولم يتعصب لمذهب، كان السنيون والشيعة في مناصرته على السواء، ومضى السنيون على أصالتهم الفطرية يؤيدونه على الظالمين وإن كانوا من أتباع مذاهبهم، ولم ينظروا إليه على أنه على غير مذهبهم.

وبالرغم من الرأي القائل بتفادي الصدام العسكري بالبساسيري؛ لأن جماهير الشعب سنية وشيعية تؤيده، وأنه لا توجد قوى سلجوقية في بغداد تقاتله؛ لأن طغرل بك كان بجنوده في الري منشغلا بتمرد أخيه إبراهيم (ينال) عليه.

بالرغم من ذلك فإن رئيس الرؤساء استجاب للقائلين بالحرب، وكان بذلك يستجيب لأحقاده على البساسيري. فعندما جاءه القاضي الهمذاني واستأذنه في الحرب، وضمن له قتل البساسيري أذن له، فخرج ومعه الخدم وجماعات مختلفة، وأبعدوا، والبساسيري يستجرهم، فلما أبعدوا حمل عليهم فانهزموا، وقتل منهم جماعة، ومات في الزحمة جماعة من الأعيان، ونهب باب الأزج، وكان رئيس الرؤساء واقفاً دون الباب فدخل الدار، وهرب كل من في الحريم.

وبعد هذا النصر رجع البساسيري إلى معسكره مترقبا ما يحدث، وإذا بالخليفة يأمر بدوام القتال على سور الحريم، ولكنهم فوجئوا بالزعيق ونهب الحريم، وهنا رأى الخليفة أن يلجأ إلى هيبة الخلافة ومظاهر قوتها، فركب جواده لابسا السواد شعار الخلافة، وعلى كتفه البردة شاهرا سيفه، وعلى رأسه اللواء، وحوله زمرة من العباسيين، والخدم بالسيوف المسلولة، فإذا به يعلم أن النهب قد وصل إلى أبواب داره، وأن كل هذه التهويلات لم تجد شيئاً، فتراجع إلى الوراء، ومضى نحو أحد كبار رجاله صاحب لقب (عميد العراق) فوجده قد استأمن إلى قريش، فعاد وصعد المنظرة يائساً.

وبرز هنا وزير الخليفة رئيس الرؤساء الذي كان بحقده وقصر نظره سبب هذه المحنة برز محاولا حماية الخليفة الذي ورطه بهذا كله باستنهاض مروءة قريش، فصاح: يا علم الدين، يعني قريشا: أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا منه قريش، فقال رئيس الرؤساء: قد أنالك الله منـــزلة لم ينلها أمثالك. وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله (ﷺ) وذمام العربية.

ومعنى هذا: أن الخليفة يضع نفسه وأهله وأصحابه في حماية قريش، مستسلماً لقضاء الله!..

وكان قريش عند أمل الخليفة، فأجاب: قد أذم الله تعالى له، قال: ولي؟ ولمن معه؟ قال: نعم. وتوكيداً لذلك خلع قريش قلنسوته وأعطاها الخليفة، وأعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماما.

فنـــزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وصارا معه.

وبلغ خبر ما جرى البساسيري، فأرسل إلى قريش: أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه؟!.

وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما وأن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشيء .وحلا للإشكال، وحذرًا من وقوع الخلاف بينهما: اتفقا على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدوه وأن يحتفظ بالخليفة.

وهكذا انتهى الأمر به إلى أن يحفظ الذمام نصف حفظ فوفى للخليفة و لم يف لرئيس الرؤساء...

ومضى برئيس الرؤساء يا لضخامة اللقب!! مضى به إلى البساسيري، فلما وقعت عينه عليه قال له: مرحبا بمهلك الدول ومخرب البلاد.

فتذلل رئيس الرؤساء قائلا: العفو عند المقدرة.

فقال البساسيري: لقد قدرت فما عفوت وأنت صاحب طيلسان، وركبت الأفعال الشنيعة مع حرمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا، وأنا صاحب سيف.

يشير بذلك إلى أن رئيس الرؤساء لم يكن صاحب سلطة فعلية في ظل أصحاب السلطة الحقيقيين، ومع ذلك فقد فعل ما فعل.

وأما الخليفة، فإن قريشا نقله راكبا إلى معسكره، محتفظا له بكل مظاهر الكرامة: عليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء. وأنــزله في خيمة بالمعسكر، وأخذ زوجته، أرسلان خاتون، وهي ابنة أخي السلطان طغرل بك، فسلمها إلى أحد أخصائه ليقوم بخدمتها.

أما دار الخلافة فقد ظل النهب فيها أياما.

وقد اختار قريش أحد بني عمه ممن فيهم مروءة ودين، فسلمه الخليفة ليوصله إلى مأمن خارج بغداد، فحمله في هودج وسار به إلى بلدة (حديثة عانه) وتركه بها.

جرى هذا كله والسلطان طغرل بك غائب بجنوده عن بغداد، فأسرع أصحاب الخليفة وخدمه إليه مستنفرين.

سيطر البساسيري على بغداد، وجاء عيد الأضحى، فسار إلى المصلى تخفق عليه الألوية الفاطمية، معلنا بذلك التحاق بغداد بخلافة الفاطميين.

وأحسن السيرة في الناس، وبشهادة ابن الأثير: لم يتعصب لمذهب، وأجرى الجرايات على المتفقهة.

وكانت والدة الخليفة وقد بلغت التسعين لا تزال في بغداد، فأفرد لها دارا وأعطاها جاريتين من جواريها لخدمتها، وعين راتبا تعطاه لنفقاتها.

أما العدو اللدود رئيس الرؤساء، فقد كان رهين السجن فلما تفرغ له أخرجه من السجن مقيدا وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود بعير، وهو يقرأ:

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنـــزع الملك ممن تشاء) الآية.

ولما مروا به في الكرخ - وهو حي الشيعة - وكان شديد العصبية عليهم مؤذياً لهم، بصقوا في وجهه.

وبعد هذا التشهير به على ظهر جمل في شوارع بغداد، أعيد إلى معسكر البساسيري، وقد نصبت له خشبة وأنـــزل عن الجمل وألبس جلد ثور، وجعلت قرونه على رأسه، وجعل في فكيه كلابان من حديد، وصلب.. .

ومد البساسيري سلطته إلى واسط والبصرة. وأرسل إلى المستنصر الفاطمي في القاهرة يعرفه ما فعل، على أمل أن يمده المستنصر بما يقوى به للسيطرة على العراق كله، والحول دون سيطرة السلاجقة.

وقد كان يمكن أن يتم ذلك فتسود الخلافة الفاطمية العراق ويتغير مجرى التاريخ.. ولكن الأقدار كانت بالمرصاد، فقد كان وزير المستنصر أبا الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي، وهو ممن هرب من البساسيري، وفي نفسه عليه ما فيها، فلم يشأ له أن يفوز بهذه الأمجاد، وفضل أهدافه الشخصية على أهداف الدولة التي جعلته وزيرها، فوقع في البساسيري وخفف من شأنه وهون فعله وحذر من عاقبته.

فأهمل الجواب على رسائله مدة، ولما أجيب كانت الأجوبة بغير ما أمل ورجاء، وهكذا تُرك يواجه مصيره بنفسه.

كان طغرل بك خلال هذه الأحداث يعالج تمرد أخيه إبراهيم (ينال)، وأخيرا وقع الصدام بينهما بالقرب من الري، فانتهت المعركة بانهزام إبراهيم وأسره، وكان من قبل قد ثار على طغرل بك أكثر من مرة وظفر به وعفا عنه. أما هذه المرة فقد أمر بخنقه بوتر قوس. وكان ذلك في تاسع جماد الآخر سنة ٤٥١هـ، وقال: إن من عوامل قتله أن تمرده كان السبب في عدم استطاعته حماية الخليفة.

وبانتهاء طغرل بك من أمر إبراهيم تفرغ لأمر البساسيري، ويبدو أنه وازن بين قواه وقوى البساسيري فرأى أن يحل الأمر سلميا مع البساسيري، فأرسل إليه وإلى قريش أنه يكتفي بأن تكون الخطبة له في بغداد وأن تكون السكة باسمه وأن يعاد الخليفة إلى بغداد على أن لا يعود هو إلى العراق.

فرفض البساسيري هذه المقترحات، فعند ذلك تقدم طغرل بك بقواته إلى العراق، وبوصول طلائعه إلى قصر شيرين غير البعيدة عن حدود العراق، كان البساسيري يبعد حريمه وأولاده عن الخطر، ثم يتبعهم خارجاً من بغداد، بعد سيطرته عليها سنة، إذ كان دخوله بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ وخروجه منها في ذي القعدة سنة ٤٥١هـ.

وبرحيل البساسيري دبت الفوضى في بغداد، وحرك المحركون النعرات المذهبية فثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران، وهو على ما يقول ابن الأثير من أحسن الدروب وأعمرها.

ووصل طغرل بك إلى بغداد، وكان قبل وصوله قد أرسل من الطريق إلى قريش بن بدران أن يشكره على ما فعله للخليفة ولابنة أخيه زوجة الخليفة.

وكان الخليفة قد اتجه هو الآخر إلى بغداد فأرسل طغرل بك وزيره الكندري، وبعض الأمراء، والحجاب ومعهم الخيام العظيمة والسرادقات والخيل فلاقوا الخليفة وخدموه. وبوصول الخليفة إلى النهروان خرج طغرل بك لاستقباله، فقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر عن تأخره بانشغاله بإخماد تمرد إبراهيم.

وسبق طغرل بك الخليفة في الوصول إلى بغداد، ثم وصل الخليفة بعده.

والذي يثير العجب هذا الانهيار السريع لموقف البساسيري، لا سيما وأنه قد رفض مقترحات طغرل بك وكلها في مصلحته وتأمين سلطته، فعلى أي شيء كان يستند في هذا الرفض؟ هل كان لا يزال يأمل بتأييد القاهرة؟ الذي يلوح أنه كان في انسحابه من بغداد يريد التوجه إلى الشام، فطغرل بك يقول للخليفة في أول لقاء له

معه في النهروان: أنا أمضي خلف هذا الكلب (يعني البساسيري) وأقصد إلى الشام، وأفعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله.

وبعد استقرار طغرل بك في بغداد أرسل أحد قواده في ألفي فارس نحو الكوفة لمطاردة البساسيري، وكان قد قال لطغرل بك: أرسل معي هذه العدة حتى أمضي إلى الكوفة وأمنع البساسيري من الإصعاد إلى الشام.

وهذا كله يدل أنه كان في نية البساسيري التوجه نحو الشام، وأن هذه النية كانت معروفة عند طغرل بك ورجاله. وربما كان قصده من الوصول إلى الشام أن يكون أقرب إلى مصر حيث يسهل عليه الاتصال بمن فيها، وإقناعهم بتجهيز حملة يستطيع بها السيطرة على العراق.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدم من أرسلهم طغرل بك لمطاردة البساسيري، وسار هو في أثرهم، ووقع الصدام فسقط البساسيري جريحا، فأخذه عميد الملك الكندري وقتله، وحمل رأسه إلى طغرل بك، فأمر بنقله إلى دار الخلافة وطيف به وصلب.

ويقول ابن الأثير: وأخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيري مع نسائه وأولاده، وهلك من الناس الخلق العظيم.

أوجز ابن الأثير الحال في بغداد إثر سيطرة طغرل بك عليها من جديد: أخذت أموال أهل بغداد، وهلك من الناس الخلق العظيم.

وكان قد قال قبل ذلك: ثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران.

كانت الخطة المرسومة هكذا: أن التآلف الذي بدا بين السنيين والشيعيين يجب إبطاله، ويجب إعادة الفتن المذهبية من جديد، وتأريث الأحقاد بينهما، لذلك جرى تحريض أهل باب البصرة السنيين على نهب الكرخ الشيعي، وجرى إحراق درب الزعفران الذي كان من أحسن الدروب وأعمرها.

ونحن إذا كنا نعرف من مطالعاتنا لابن الأثير أن باب البصرة شيعي والكرخ سني، فإننا لا نعرف مذهب درب الزعفران. إننا نرجح أنه سني، وذلك استنتاجاً منا أن الذين أغروا السنيين بنهب الكرخ أغروا الشيعة بإحراق درب الزعفران. وبعد أن تم لهم تأجيج النفوس بالأحقاد المذهبية عطفوا على الفريقين معا فأعملوا فيهما النهب والقتل: (أخذت أموال أهل بغداد وهلك من الناس الخلق العظيم) هكذا قال ابن الأثير، وحسبه هذا القول لنرى الصورة الرهيبة لبغداد يومذاك.

وبعد فراغ طغرل بك من أمر بغداد انحدر إلى واسط، وعبر إلى الجانب الشرقي من دجلة. يقول ابن الأثير: وسار إلى قرب البطائح فنهب العسكر ما بين واسط والبصرة والأهواز..

طغرل بك يريد مصاهرة الخليفة طَمعَ السلطان طغرل بك بمصاهرة الخليفة القائم بأمر الله على ابنته، ففي سنة ٤٥٣هـ أرسل أبا سعيد قاضي الري خاطبا ابنة الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي وأمره أن يبلغ طغرل بك رفض طلبه، فإن أصر طغرل بك على الطلب فإن عليه أن يبعث ثلاث مئة ألف دينار ويسلم واسطا وأعمالها.

فاتصل التميمي أول ما اتصل بالوزير عميد الملك وأبلغه رسالة الخليفة، فرد الوزير: بأنه لا يصح أن يرد السلطان ولا يستجاب طلبه بعد أن سأل وتضرع، ولا يجوز مقابلته بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما طلب منه.

فقال التميمي: كما ترى، وما تقره يكون فيه الصواب، فاعتقد الوزير أن الموافقة قد حصلت. فأسرع وأخبر السلطان بذلك فسر كل السرور.

وقد كان مثل هذه الموافقة وقبول مصاهرة الخليفة السلجوقي أمرًا مستهجنًا فمهما سما هؤلاء وأمثالهم فإنهم لا يعتبرون أكفاء لمصاهرة الأسرة العباسية لا سيما الخليفة، ويعتبر طلبهم إهانة...

لذلك أسرع السلطان وجمع الناس وعرفهم أنه قد حصل على ما لم يسبق أن حصل عليه غيره من الملوك من مصاهرة الجهة النبوية. وطلب إلى الوزير عميد الملك

أن يذهب ومعه أرسلان خاتون زوجة الخليفة وأن يصحبها مئة ألف دينار وما شاكلها من الجواهر وغيرها، وأرفقه بعدد من وجوه الأمراء وأعيان الري.

ووصل الوزير إلى القائم بأمر الله وأوصل زوجة الخليفة إلى دارها، ثم ذكر للخليفة المهمة القادم بها وهي إتمام عقد الزواج. فاستنكر الخليفة ذلك وامتنع عن الإجابة إليها، وقال ما معناه: إنه يصر على الرفض فإن روعي رفضه وإلا فإنه يترك بغداد ويرحل إلى مكان آخر.

فقال عميد الملك ما مؤداه أن الامتناع لم يحصل من أول الأمر، وإذا حصل الآن فهو سعي على دمه، ثم ترك بغداد ونصب خيامه في النهروان.

وهكذا عاد التأزم من جديد بين السلطان والخليفة، فتوسط في الأمر قاضي القضاة وغيره وحذروا الخليفة مما يمكن أن يؤدي إليه رجوع الوزير عميد الملك إلى السلطان بهذه النتيجة.

فكتب الخليفة إلى عميد الملك: نحن نرد الأمر إلى رأيك ونعول على أمانتك ودينك. ويبدو أنه فهم من هذا الكلام موافقة الخليفة فجاء يوماً إلى الخليفة ومعه جماعة من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود وقال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

ولكن رد الخليفة كان حاسما فقال: قد سطر في المعنى ما فيه الكفاية. فانصرف عميد الملك مغضباً وترك بغداد. ولما بلغ السلطان ما جرى كتب إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف قائلا: هذا جزائي من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته وأنفقت أموالي في نصرته وأهلكت خواصي في محبته...

وأطال العتاب - على حد تعبير ابن الأثير - وكمقابلة بالمثل فقد طلب السلطان طغرل بك ابنة أخيه زوجة الخليفة أن تعاد إليه.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد وخيف حصول مضاعفات تؤدي إلى التقاطع التام، ورأى الخليفة شدة الأمر، اضطر إلى الاستسلام للواقع وأذن في إجراء عقد الزواج، فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٠هـ بظاهر تبريز.

وقد كان فيما جرى وَهَنٌ معنوي خطير للخلافة العباسية، إذ مهما علا شأن أمثال هؤلاء فإنه لا يمكن أن يكون كفؤاً للزواج من سليلات البيت العباسي الهاشمي.

ويقول ابن الأثير مشيراً إلى ذلك: (وهذا لم يجر للخلفاء مثله فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله).

وأرسل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولابنة الخليفة ولأمها ولآخرين. وكان لزوجة السلطان المتوفاة إقطاعات كثيرة في العراق منها (يعقوبا) وغيرها، فجعل ذلك كله لزوجته الجديدة ابنة الخليفة.

وفي شهر المحرم من سنة ٤٥٥هـ جاء السلطان إلى بغداد، وأتى الوزير عميد الملك يطالب الخليفة بانتقال زوجة السلطان إليه، فقوبل طلبه بالرفض، وقيل له: إن المقصود بهذه الوصلة الشرف لا الاجتماع!. كما قيل له: إن خطك موجود في الشرط.

وقد كان هذا الزواج من أعجب الزواجات في الدنيا!.. ويبدو جلياً أن ما ذكره الخليفة كان قد سجل في الورق ووقعه فيمن وقعه شاهدا الوزير عميد الملك نفسه.

ثم قال الخليفة: إنه إن كانت مشاهدة فتكون في دار الخلافة.

ومعنى ذلك: أن أقصى ما يوافق عليه الخليفة هو أن يتقابل العروسان مجرد مقابلة وأن تكون هذه المقابلة في دار الخلافة..

فقال السلطان: نفعل هذا.

ولكن يفهم من النص الذي ذكره ابن الأثير أن السلطان رأى، أن تكون المقابلة في مكان مخصص لها يليق بها، فأردف كلامه المتقدم بقوله: ولكن نفرد له من الدور والمساكن ما يكفيه، ومعه خواصه وحجابه ومماليكه فإنه لا يمكنه مفارقتهم.

وعلى ذلك نقلت العروس إلى دار المملكة.

ومضت مشاهد الرواية على هذا الشكل:

جلست العروس على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها. ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له. وحمل معه لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها. واستمر الحال على هذا المنوال: يحضر كل يوم يخدم وينصرف. ومع ذلك فقد ظهر عليه سرور عظيم، وخلع على الوزير عميد الملك؛ لأن كل الذي جرى إنما جرى على يديه وبتوسطه. وأقام الموائد عدة أيام ...

يقول ابن الأثير: إن السلطان ترك بغداد في شهر ربيع الأول ذاهباً إلى الري. وإذا كان قد جرى ما ذكرناه في المحرم فمعنى ذلك أن الأمر استمر على الصورة التي ذكرناها شهرين!..

إذ لم يذكر ابن الأثير ما يدل على أن شيئا قد تبدل خلال الشهرين.

لم يترك السلطان بغداد وحده، بل اصطحب معه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة لأنها شكت إطراح الخليفة لها فأخذها معه.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون زواج ابنته من السلطان السلجوقي زواجاً شكلياً، كل ما ينال السلطان منه مقابلة زوجته من وراء خمارها المسدول على وجهها. وإن في هذا من الشرف للسلطان ما يغنيه عن كل شيء.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون الأمر كذلك، رأى في مقابل هذا أن يطرح زوجته ابنة أخي السلطان، فلاذت بعمها فأخذها معه.

وقد كان لنا أن ننتظر اكتمال هذه الرواية العجيبة فصولا، لولا أن الموت أنهاها بسرعة إذ مرض السلطان طغرل بك في سفره هذا ومات في رمضان من السنة نفسها...

ويذكر ابن الأثيرك أن عمره كان حين مات سبعين سنة تقريباً، وأنه كان عقيماً لم يلد ولدا.

إذاً فقد خطب ابنة السلطان وعقد عليها وهو في السبعين من عمره. فلا بدع أن يقنع من عروسه بالنظر إليها من خلف الخمار... وأن يكون هدفه من هذا الزواج امتهان شموخ بيت الخلافة، والإدلال على منافسيه، بأنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

وإذا كنا قد حرصنا على ذكر هذا العرس العباسي السلجوقي ببعض تفاصيله، فلأن فيه نماذج من علاقات السلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين.

ونلاحظ هنا أن ما ربط سلطنة طغرل بك بخلافة القائم بأمر الله كان سبع سنين وأحد عشر شهرا واثني عشر يوما.

يرثي ابن الأثير السلطان طغرل بك قائلا: كان عاقلا حليماً من أشد الناس احتمالا، وأكثرهم كتمانا لسره، وكان يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين والخميس، وكان لباسه الثياب البيض، وكان ظلوماً غشوماً، قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك نهارا وليلا. وكان كريماً..(انتهى).

وحين نعود إلى ما رثى به ابن الأثير الملوك البويهيين - وهو ما مر بعضه - ونقارنه برثائه لهذا الملك السلجوقي ندرك البون الشاسع بين الحكام البويهيين والحكام السلاجقة، فابن الأثير لم يقل عن أحد من البويهيين أنه كان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، ولا قال: كان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة نهار وليلا.

بل قال عن معز الدولة مثل هذا القول - وهو يتحدث عن انتصاره -: ونادى في الناس بالأمان وبث العدل وأقام لهم شحنة يمنع الظلم.

ويقول عنه: كان حليماً، كريماً، عاقلاً.

ويقول عن ركن الدولة: كان حليما، كريما، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده، رءوفا بهم، عادلا في الحكم بينهم، وكان متحرجاً من الظلم مانعاً لأصحابه منه عفيفاً عن الدماء، يتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات.

إلى غير ذلك من الأقوال التي قالها عن غير هذين الحاكمين والتي مر ذكر بعضها.

بعد طغرل بك

أسرع الوزير عميد الملك الكندري بعد موت طغرل بك إلى إعلان حلول سليمان بن داود جغرى بك، أخي طغرل بك، مكان طغرل بك في السلطنة، لأن طغرل بك، الذي لم يكن له ولد، قد عهد له بالملك بعده.

على أن الأمر لم يمض بسلام فإن (باغي سيان) و(اردم) لم يقبلا بذلك وأسرعا إلى قزوين وخطبا فيها لعصر الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك.

وكان هذا يتولى في عهد طغرل بك خراسان ومعه وزيره نظام الملك، ويبدو أن ميل الناس كان إليه، فاستسلم عميد الملك الكندري لهذا الواقع فأمر بالخطبة في الري للسلطان ألب أرسلان، وبعده لأخيه سليمان.

على أن ذلك لم ينجه من انتقام ألب أرسلان، فإن عميد الملك زار نظام الملك وزير ألب أرسلان ودفع له مالا، واعتذر وغادر منصرفا، فانصرف بانصرافه أكثر الناس، فرأب ذلك ألب أرسلان مع ما كان من إعلان عميد الملك تسلطن سليمان فأمر بالقبض عليه واعتقله في مرو الروذ سنة ثم أرسل إليه من قتله.

ويبدو أنه كان يتهم نظام الملك بالسعي به عند ألب أرسلان، إذ إنه لما قرب للقتل قال للجلاد: قل لنظام الملك: بئس ما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر قليبا (بئرا) وقع فيه.

والوزير عميد الملك هذا كان على طريقة سادته السلاجقة من التعصب المذهبي الذميم.

وهو لم يكتف بالتعصب على الشيعة الذين سماهم الروافض، بأن طلب من السلطان أن يلعنوا على منابر خراسان فلبى طلبه، كما كان شديد التعصب على الشافعية وإمامهم الشافعي.

قوبل عهد ألب أرسلان بثورات عليه استطاع إخمادها واحدة بعد الأخرى، فكان أول الثائرين عليه أمير ختلان، ثم أمير الصاغانيان.

وكان عمه (بيغو بن ميكائيل) في هرات فثار طالباً الأمر لنفسه.

أما الثائران الأولان فقد قتل الأول منهما في المعركة، وأما الثاني فقد أسر وقتل. وأما عمه فقد استسلم بعد الحصار والتضييق فأبقى عليه وأكرمه وأحسن صحبته.

وكان مما فعله أن أعاد ابنة الخليفة التي عقد زواجها طغرل بك - أعادها إلى بغداد- وقال: إنه إنما قتل عميد الملك؛ لأنه نقلها من بغداد إلى الري بغير رضاء الخليفة.

كما أرسل إلى الخليفة طالبا إقامة الخطبة له في بغداد، فجلس الخليفة جلوسا عاما وأعلن أمام رسل ألب أرسلان تقليد ألب أرسلان للسلطنة، وسلمت الخلع بمشهد من الناس. كما أن الخليفة أرسل إليه بطلب البيعة.

وعادت رسل ألب أرسلان إليه يصحبها رسول الخليفة، وهو في (نقجوان) بأذربيجان، فلبس الخلع وبايع للخليفة.

ثم قامت عليه ثورة سلجوقية أخرى قادها قتلمش فقد بلغ ألب أرسلان خبر الثورة وهو في نيسابور، وأن قتلمش قصد الري ليستولي عليها، فسار إليه ألب أرسلان والتقيا في معركة هزمت فيها جموع قتلمش، ووجد قتلمش ميتا ملقى على الأرض لا يدري كيف كان موته، قيل: إنه مات من الخوف!... ونقول هنا ردا على قول الدكتور عمر تدمري المتقدم: (وكان الخلاف المذهبي بين العبيديين (الفاطميين) والإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية)، واللاتينية الرومانية (الغربية)، بل هو خلاف أشد وأدهى لطالما أدى إلى القتال، إذ كانت بلاد الشام مسرحا للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة

والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم).

نقول رداً على ذلك: إن هذا الكلام هراء في هراء، فعندما كان الفاطميون الشيعة الإسماعيليون يسيطرون على مصر، كان البويهيون الشيعة يسيطرون على العراق، ولم يكن هناك سلاجقة. وعندما زال حكم البويهيين عن العراق، وسيطر عليه السلاجقة كان حكم الفاطميين قد تضعضع في مصر، أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائيا في حياة المستنصر، باستيلاء الجماليين على الخلافة الفاطمية وإنشائهم الدولة الجمالية وحجرهم على الخلفاء الفاطميين، ومنعهم من التصرف في شئون الحكم، وتحكمهم في تعيين الخلفاء وأولياء عهودهم الذين أصبحوا أسرى في أيديهم.

وفي هذا الوقت - وقت احتلال السلاجقة للعراق - كان السلاجقة هم الذين أثاروا الخلاف لا بينهم وبين الفاطميين؛ لأنه لم يكن هناك فاطميون، بل بينهم وبين شيعة العراق بأن تدخلوا في شئونهم المذهبية، ثم أحرقوا مكتبتهم الكبرى في بغداد، وهاجموا بيت عالمهم الكبير أبي جعفر الطوسي، وأحرقوا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس، مما اضطره للهجرة من بغداد وإغلاق مدرسته فيها... إلى غير ذلك.

على أن طغرل بك بعد أن فعل ما فعل في العراق، كان هو البادئ بالتحرش بالخليفة الفاطمي المستنصر في مصر.

فإنه وهو في عنفوان طغيانه في بغداد، كاتب المستنصر طالباً إليه الدخول في طاعته.

إن الدكتور عمر تدمري من أجل أن يسيء إلى الفاطميين ظلما وعدوانا حشرهم مع السلاجقة عملا بقول من قال: اقتلوني ومالكاً.

ورأى أنه لا بأس بأن يذكر السلاجقة بالشر ما دام هذا الذكر يوصل إلى ذكر الفاطميين بالشر.

قلنا أن طغرل بك هو الذي بدأ بالتحرش بالفاطميين الذين كانوا في أيامهم الأخيرة، بأن كاتب المستنصر في القاهرة طالباً إليه الدخول في طاعته.

ونريد أن نـــزيد الأمر إيضاحا وتفصيلا فنقول:

إن الدور الفاطمي كان قد انتهى قبل الزحف الصليبيـــي بما يقارب ربع القرن، وأنه لم تكن هناك خلافة فاطمية حاكمة عند ابتداء الغزو الصليبيـــي، وأن سلطنة هذه الخلافة كانت قد انتهت بفعل التسلط الجمالي، وقيام الدولة الجمالية، وأصبح الخلفاء سجناء قصورهم، لا يملكون من الأمر شيئاً، كما سنفصله في الآتي من القول.

ونحن نريد هنا أن نوضح حقيقة أخرى، وهي أنه لم يقم صراع بين الفاطميين والسلاجقة، لسبب واحد، لأنه لم يكن هناك حكم فاطمي يصارع السلاجقة ويزاحمهم على امتلاك البلاد؛ لأن الحكم الفاطمي عند بدء الهجمات السلجوقية على بلاد الشام، كان قد بدأ بالانهيار، ثم انهار فعلا بالتسلط الجمالي.

وإن الموقف الفاطمي الوحيد في مواجهة السلاجقة كان في أواخر عهد المستنصر، عندما بدأ تضعضع حكم المستنصر واضحاً في سنة ٤٤٦هـــ بسيطرة المجاعة على البلاد ومحاولة المستنصر استيراد القمح من بلاد البيزنطيين، واشتراط الإمبراطورة البيزنطية (تيودورا) عليه أن يمدها بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد، وكان المفهوم أن هذا المعتدي المفترض وجوده هو السلاجقة، فبالرغم من حراجة موقف المستنصر في بلاده وما تهدده به المجاعة فقد رفض هذا الشرط لأنه يأبى أن يعين البيزنطيين على المسلمين..

ولما اشتد الأمر عليه حاول أن يحقق طلبه القمح بقوة السلاح ففشل.

والسلاجقة الذين رفض الخليفة الفاطمي المستنصر أن يعد الإمبراطورة البيزنطية بمعاونتها عليهم، لم يأبوا أن تحالفوا مع الإمبراطورة عليه وأن يستغلوا الموقف فيتقربوا منها!..

بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد الكنيسة.

ولما ولّي قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع المستنصر وبعث إليه سنة ٤٣٧هـ هدية عظيمة (اشتملت على ثلاثين قنطارا من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية).

استغل المستنصر فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ يطلب منه أن يمده بأربع مئة ألف أردب من القمح فأبدى الإمبراطور استعداده لمعونة مصر.

ولكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الإمبراطورة (تيودورا) فاشترطت لتقديم هذه المساعدة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها معتد. وكان المقصود بهذا المعتدي (السلاجقة). فرفض المستنصر الموافقة على هذا الشرط.

فأجابت تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة، غضب الخليفة المستنصر وعول على محاربتها، فجهز جيشا بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، وما لبث هذا القائد، أن نــزل بالقرب من إفامية، ثم تجول في أعمال إنطاكية. فأرسلت الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ، وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، فلم تحفل الإمبراطورة بوجوده.

فاستغل طغرل بك ذلك وعمل على التقرب من البيزنطيين والتحالف معهم، فأرسل من العراق رسولا إلى القسطنطينية حاملا رسالة ودية منه إلى الإمبراطورة تيودورا، ملتمسا فيها أن يصلي رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي.

ولما وقف المستنصر على سياسة الإمبراطورة تيودورا العدائية إزاءه والإساءة التي لحقت بسفيره بعث بطلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها فأرسلت إليه.

وازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين.

واستمر العداء مستمرا بين الدولتين حتى حل الجماليون محل الفاطميين في حكم مصر فظل على استمراره إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام.

هنا يكمن الفارق بين الفاطميين والسلاجقة: يرفض الخليفة الفاطمي الوعد - مجرد الوعد - بإنجاد البيزنطيين على السلاجقة الذين جاهره ملكهم طغرل بك بالعداء، بإرساله إليه رسالته من بغداد طالباً إليه الدخول في طاعته - كما تقدم ذكره - يرفض المستنصر ذلك مع ما فيه بلاده من خطر المجاعة ويضطر للدخول في حرب مع البيزنطيين، فيسارع ملك السلاجقة طغرل بك عارضا خدماته على البيزنطيين، فيتناصر السلاجقة والبيزنطيون على الفاطميين...

ومن هذه الحقائق يتبين أن كل ما ذكره التدمري عن الخلاف المذهبي بين الفاطميين الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق، وتشبيهه له بالخلاف بين الكنائس، وقوله أنه أدى إلى القتال وأن بلاد الشام كانت بذلك مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم. -إلى غير ذلك من أمثال هذه الأقوال- يتبين من الحقائق التي ذكرناها أن كل ما ذكره التدمري إنما هو تمويش في تمويش وأباطيل في أباطيل!.

فالصراع كان قائماً بين الفاطميين والبيزنطيين، تعاون فيه السلاجقة مع البيزنطيين.

وفي خلال ذلك انتهى أمر المستنصر، وسيطر بدر الجمالي على مصر، وأنهى الحكم الفاطمي، وحل محله الحكم الجمالي، وأصبح الصراع سلجوقياً جمالياً.

وكان البادئون بالصراع هم السلاجقة، مستغلين تعاطف البيزنطيين معهم، وتأييدهم لهم، ففي سنة ٤٦٣ هـ قصد (أتسز بن أوق) الخوارزمي وهو من أمراء

ملك شاه السلجوقي - قصد الشام فجمع الأتراك وسار إلى فلسطين ففتح الرملة، وسار منها إلى القدس، وحاصرها، وكان ذلك في أواخر عهد المستنصر، وبدء انهيار الدولة الفاطمية فاستطاع الاستيلاء على القدس وما جاورها عدا عسقلان.

كان هذا الصدام الذي بدأه السلاجقة منصرفين عن قتال البيزنطيين إلى قتال المسلمين، ومن التزاحم مع الروم على امتلاك البلاد، إلى التزاحم مع العرب شاهرين السيوف عليهم مقتحمين ديارهم، مقاتلين جنودهم!..

وبعد ثلاث سنوات من هذه الوقائع، أي في سنة ٤٦٦هـ كانت السيطرة الجمالية قد تمت على الخلافة الفاطمية، وكان بدر الجمالي قد أحكم قبضته على مصر، وأقصى المستنصر محجورا عليه. وهنا أصبحت المواجهة سلجوقية جمالية بحتة بعد أن كانت في بدئها مواجهة سلجوقية بدأها السلاجقة مع بقايا فاطمية ماشية إلى التلاشي، ولذلك رأيناها لا تلبث أن تتحطم أمام أول هجمة سلجوقية فتفقد القدس وجل فلسطين.

وهنا لم يكن للصليبيين وجود ليقال: إن الفاطميين استغلوا وجودهم للاستعانة بهم على السلاجقة، بل كان الوجود للبيزنطيين الذين استعان السلاجقة بهم على الفاطميين.

وظل جهد السلاجقة متجهاً لقتال المسلمين والعرب، منصرفين عن البيزنطيين، حتى كانت السنة ٤٦٩هـ، أي بعد ثلاث سنوات من سيطرة بدر الجمالي على مصر.

ففي هذه السنة صمم السلاجقة على غزو مصر نفسها فاتجه إليها قائدهم (أتسز) فتصدى له صاحب أمر مصر بدر الجمالي فهزمه ورده عن مصر.

فما دخل الفاطميين هنا وبعد هنا.. إلى وصول الصليبيين ليحشر اسمهم في الصراع السلجوقي الجمالي، ثم ليفتري عليهم عند وصول الصليبيين إلى حدود بلاد الشام؟! إذا كان من مأخذ، وإذا كان من تهم، فيجب أن يوجه ذلك إلى المتصارعين، لا إلى المقصيين، المحجور، عليهم المغلولة أيديهم عن كل تصرف...

ويمضي الصراع السلجوقي الجمالي في حدته ففي سنة ٤٧٠هـ كان قائد جيش بدر الجمالي يحاصر دمشق فاستنجد (أتسز) ممثل الحكم السلجوقي فيها بالملك السلجوقي تتش بن ألب أرسلان، فأقبل تتش لنجدته في جمع كثير من التركمان، و لم يلبث عند وصوله إلى أسوار دمشق أن قتل أتسز ودخل دمشق ورد جيش بدر الجمالي عنها.

وابن الأثير يسمي في كل هذه الوقائع الجيش المصري بجيش بدر الجمالي كما هو واقع الحال.

وفي سنة ٤٧٨هـ وصل بدر الجمالي في عساكر مصر إلى الشام، فحصر دمشق وفيها صاحبها السلجوقي (تتش) فضيق عليه وقاتله فلم يظفر منها بشيء، فرحل عنها عائدا إلى مصر وفي سنة ٤٨٥هـ هاجم تتش حمص وعرقة وأفامية فملكها، وهاجم طرابلس وفيها جلال الملك بن عمار فلم يظفر بها.

وهكذا يستمر الجهد السلجوقي متجهاً إلى قتال المسلمين والعرب، ويظل الصراع سلجوقياً – جمالياً، فيما عدا فجوة صغيرة فيه – لم يطل أمدها – انحرف فيها فكان سلجوقياً – عمارياً في طرابلس.

كل ذلك يجرى والفاطميون غائبون أو مغيبون مضيق عليهم، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ومع ذلك فإن مزيفي التاريخ يجعلون الصراع سلجوقياً – فاطمياً ليجدوا منفذاً يلجونه للافتراء على الفاطميين..

وفي سنة ٤٨٩هـ كان بدر الجمالي يسير إلى القدس فيستخلصها من أيدي السلاجقة.. والفاطميون في معتقلاتهم يكابدون فقدان حريتهم، وكف أيديهم، وزوال سلطانهم..

كيف سيطر الجماليون؟

نريد هنا أن نزيد الأمر إيضاحاً، لنري القارىء أن الشام لم تكن أبدا مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين مما جعلها – على زعم التدمري– منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال

ديـــارهم، وأن كل ما ذكره التدمري في هذا الموضوع هو تزييف للتاريخ، وتحريف للحقائق.

طالـــت خلافة المستنصر الفاطمي ستين سنة وأربعة أشهر، تحقق له في القسم الأول مـــنها ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خطب باسمه في بغداد بعد أن طرد منها الخليفة العباسي - القائم بأمر الله - واستمر ذلك سنة في تفاصيل مرّ ذكرها..

كما أنه في أواخر عهده عند استبداد الناصر الحمداني به أقيمت الخطبة باسم القائم العباسي في القاهرة، وفي القسم الثاني من عهده بدا التضعضع بسيطرة بدر الجمالي، أو بما يمكن أن تسميه انتهاء العهد الفاطمي وحلول العهد الجمالي محله حكماً وسيطرة.

فقد قامت فعلا الدولة الجمالية، بكل ما للدول في تلك العصور من واقعية الحكم ومظاهره، وصار سجين قصره محجورا عليه بما نستطيع أن نطلق عليه بلغة العصر الحاضر اسم: الإقامة ولم يكن في مصلحة الدولة الجديدة قتله أو الجبرية طرده، بل كان من مصلحتها الاحتفاظ به أسيرا في يديها لاستغلال اسمه بما يمكن أن يستغل به.

يقول المقريزي عن بدر الجمالي: (تحكم في مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر).

ويقول المقريزي: (واستناب ولده (الأفضل) وجعله ولي عهده).

وبتسميته ابنه (ولياً للعهد) يكون قد أكمل إعلان قيام الحكم الملكي الجديد على أنقاض الحكم الفاطمي المنهار. وتكون دولة جديدة قامت في مصر هي (الدولة الجمالية)، وهي وحدها المسئولة عما جرى في عهدها من أحداث ومنها الصدام مع السلاجقة، ثم مع الصليبيين.

وإذا كان بدر وابنه لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين أنهما ألغياها عملياً، فلأنهما لا يستطيعان ادعاء الخلافة لنفسيهما، فكانا يريدان غطاءً شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ولما مات المستنصر كان الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار خليفته. يقول المقريزي:

(لما مات المستنصر بادر الأفضل بن بدر الجمالي إلى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله).

وهو أصغر أخوته: نـــزار، وعبد الله، وإسماعيل.

ثم يقول المقريزي: (ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة).

وكما قلت من قبل، فإن الدكتور تدمري يتبع مبدأ: اقتلوني ومالكاً، فهو من أجل أن يفتري على التاريخ الفاطمي لا يبالي أن يقرنه بالتاريخ السلجوقي فيقول:

(إن السلاجقة والفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه، أو الحد من خطره ونفوذه، وهكذا تيسر للصليبيين دخول الديار الشامية، واحتلال القسم الساحلي بكامله، والاستيلاء على بيت المقدس).

ونقول: لقد انتهت سلطة الفاطميين قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي - لا سيما بلاد الشام - بربع قرن.

فإن بدرا الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦هـــ، وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠هـــ وسقطت إنطاكية في أيديهم سنة ٤٩١هـــ.

إذن فلم يكن هناك فاطميون يرون في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهدافهم في القضاء على خصمهم أو الحد من خطره ونفوذه. بل كان هناك جماليون

أنهوا حكم الفاطميين وحلوا محلهم، فإن كان من مسئولية فهى تقع على هؤلاء الجماليين..

ولكن هل صحيح أن الجماليين مسئولون عن تيسير دخول الصليبيين الديار الشامية واحتلال القسم الساحلي بكامله والاستيلاء على بيت المقدس؟!.

ذلك ما سنتحدث عنه في الآتي من القول.

ويوغل الدكتور عمر تدمري في الهوس فيقول: انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام، وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين، وكان على الإمارات العربية المحايدة بين السلاجقة والفاطميين أن تنتظر المساعدة أو النجدة منهم، إذ كان النـــزاع مستمراً بين الدولتين سياسياً ومذهبياً، وكان الوقت ذهبياً بالنسبة للصليبيين، وهم يشهدون الحالة التي عليها المسلمون من التفكك والتنازع والضعف، فاستطاعوا في حملة واحدة أن يستولوا على القدس، ولو أن القوى الإسلامية في المنطقة طرحت خلافاتها جانبا، ووحدت صفوفها أمام العدوان الصليبي لما تعرض الساحل الشامي للذي لحقه، أو على الأقل لما لبث الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي نحو قرنين من الزمان، وبقدر ما يتحمل الفاطميون من تبعة لموقفهم المتخاذل، فإن السلاجقة يتحملون أيضا مثل ذلك.(انتهى).

ليختر الدكتور عمر تدمري إحدى الصفتين: إما أنه جاهل بوقائع تاريخ تلك الحقبة جهلا يضعه مع أشباه الأميين في التاريخ، وإما أنه متعصب أعمى التعصب بصيرته فجعله ينطق بهذا القول، ما هي الحقيقة في ذلك؟..

أولا: كان الحكم الفاطمي قد انتهى قبل ربع قرن من وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي، ثم إلى بلاد الشام كما بينا من قبل .

يقول المقريزي في خططه: (لم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة).

في عهد المستعلي الفاطمي هذا الذي لم يكن له مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الأفضل بن بدر الجمالي، فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟.

إنما يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين.

أما قول التدمري: (انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام... إلى آخر كلامه.. فإننا نقول له: إن الجيوش الصليبية انساحت ووطئت أرض الشام واحتلت القدس على مرأى ومسمع وخيانة من السلاجقة وأمثالهم من غير الفاطميين).

وإليك التفاصيل:

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه عن زحف كربوقا السلجوقي أمير الموصل لإنقاذ إنطاكية كما يلي:

(جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام، تركها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوا إنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بإنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوما يجدوا ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر.

فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلا بالسيف. وكان معهم من الملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب إنطاكية، وهو المقدم عليهم...) إلى أن يقول ابن الأثير: (فخرجوا (الإفرنج) متفرقين من خمسة وستة، ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لا تفعلوا! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه، منعهم ونهاهم.

فلما تكامل خروج الإفرنج، ولم يبق بإنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافا عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، وثانيا من منعهم من قتل الإفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الإفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة، فقتل الإفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم)(انتهى).

وعندما ينهي ابن الأثير كلامه هذا، يشير إلى أن ما أتاحه تصرف كربوقا وخيانة القادة الآخرين، هي التي رسخت عزم الصليبيين على الزحف إلى القدس بعدما كان قد عراهم من اليأس والانخذال، حتى طلبوا الأمان والاستسلام، فيقول: لما فعل الإفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى معرة النعمان... ثم تابعوا السير بعد ذلك إلى القدس.

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسئولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس، مع اختلاف نوع المسئولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيش الجيوش الإسلامية من الموصل حتى بلاد الشام وكل من في طريقه من شمال العراق حتى شمال الشام. وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون الوهن وقلة الأقوات - كما يقول ابن الأثير- بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدءوها من قلب أوروبا وصولا إلى إنطاكية.

ومما زاد في وهنهم وانخذالهم ما عانوه في حصارهم لإنطاكية حتى عادوا وكأنهم هم المحاصرون. لا المحاصرين وكانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوات فيهم. فدب اليأس فيهم، وبدأوا يتسللون من جيشهم هاربين. وحين نعلم أنه كان في طليعة الهاربين، الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، وبطل جمع جموعها، وتحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعني - بطرس الناسك - وحين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبـــي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة، ففر أمثال (ستيفن كونت بلوا)..

حين نعلم ذلك ندرك إلى أي مدى كان الصليبيون يائسين منخذلين واهنين جائعين وهم يحاصرون إنطاكية.

ولولا خيانة خائن كان داخل إنطاكية لعجز الصليبيون عن دخول إنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم وجوعهم، وظلوا على هذا الوهن والجوع، وهم داخلها؛ لأن أسباب الوهن والجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع وتدفع عنهم الوهن.

وصلت حملة كربوقا إلى إنطاكية والصليبيون على تلك الحال، ووصلتهم أخبار عن ضخامة الجيوش التي أخذت تحاصرهم، لذلك قرروا الاستسلام وطلب الأمان كما ينص على ذلك ابن الأثير...

وهذا يعني أن الحملة الصليبية قد فشلت وأن جيوشها وقوادها قد قرروا الاستسلام، وأن القدس التي كانت هدفهم قد نجت، وانتهى أمرهم ولم تعد تقوم لهم قائمة...

فماذا غير ذلك كله، وماذا أحال وهنهم إلى قوة، وجوعهم إلى شبع، وماذا بدلهم من موقف طالب استسلام إلى مهاجم منتصر؟!.

إن ابن الأثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة فهو يقول:

(.. ولما سمعت الإفرنج (بقدوم الجيوش الإسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم).

ثم يسترسل ابن الأثير قائلا:

(وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة).

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفس كربوقا التواضع لله على أن وفقه لقيادة هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويلين لهم، عوضا عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، وفي أولئك الأمراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر وتجبر، وعامل الأمراء بمهانة أحفظتهم وغيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحفزين لنصرة الإسلام إلى ناوين خيانة الإسلام.

فالأمر يلخص، كما ذكر ابن الأثير، كما يلي:

١ - كان الصليبيون داخل إنطاكية في منتهى الوهن وانعدام الأقوات.

٢ - قرروا الاستسلام بلسان قيادهم الموجودة كلها داخل إنطاكية.

٣ - رفض كربوقا استسلامهم وقرر دخول إنطاكية بالسيف.

٤ - بدأوا بالتسلل من إنطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم، وهم شراذم تسهل إبادهم تدريجياً، وبالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض كربوقا ذلك وجاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥ - كان كربوقا قد أساء معاملة الأمراء المنضمين إليه وعاملهم بمهانة.

٦ - حقد هؤلاء الأمراء عليه وقرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٧ - أصر كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد الأعداء وهم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

٨ - وجدت جماعة في الجيش الإسلامي رفضت ذلك فقررت الاستشهاد تقرباً إلى الله.

فأول ما يطال كربوقا من المسئولية في ذلك هو: تنفيره قلوب الأمراء منه، والاستعلاء عليهم.

وثاني ما يطاله -وهو الأخطر في الأمر- هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال.

وثالث ما يطاله - وهو ما لا يقل خطورة عن الثاني - هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة ومقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادهما.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟..

يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة فنحن لا ننسبها إليه. ولكننا لا نتردد أبداً باتهامه بالأنانية وحب الذات وتغليبهما على كل شيء مهما تعارض هذا الشيء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته، وحبه لذاته، وحرصه على مجده الشخصي، جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال وخروجهم من إنطاكية ورجوعهم إلى بلادهم.

لأنه وقد أيقن بوهنهم وحلول المجاعة فيهم اعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر.

واستسلامهم بلا قتال سيحرمه من التباهي بالانتصار عليهم في معركة حاسمة.

وكذلك القول في منعه جمهور المسلمين المقاتلين من تصيد الصليبيين أفرادا وشراذم، وهزيمتهم بهذه الطريقة، فإن ذلك سيحرمه من المجد الشخصي والتفاخر بالانتصار.

وهكذا فإن الأنانية، وحب الذات، وطلب المجد الشخصي، عند كربوقا وخيانة الأمراء وجمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين وبين إنهاء الحروب الصليبية عند إنطاكية، وعرضتهم لما عرضتهم من فجائع دخول الصليبيين للقدس فاتحين واستمرار الاحتلال الصليبيـــي لبلاد الشام مئتي سنة، وما اقتضى ذلك من إذلال وسفك دماء.

هكذا كله يتناساه مزيفو التاريخ ويتجاهلونه!! ويفتشون عن بريء يتهمونه وبطل يخونونه!.

وهذا ما نأسف أن يتمسك به في هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون وحملة دكتوراه وأساتذة جامعيون!.

الاسترسال في التزييف

ويستطيب الدكتور عمر تدمري تزييف التاريخ فيقول:

إن أول مـــا يؤخـــذ على الفاطميين هو عدم اكتراثهم بالهجمة الصليبية على الشـــام، بل إنهم رحبوا بها لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في إنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها بين أيديهم شماتة بالسلاجقة.

أولا: لقد قلنا ونقول: إنه لم يكن هناك فاطميون عند الهجمة الصليبية على بلاد الشام، بل كان هناك: جماليون، وقد فصلنا ذلك فيما تقدم من الكلام.

أما جرأته على الحق والصدق في قوله عن الفاطميين (الذين لم يكن لهم يومذاك وجود) بأنهم رحبوا بالهجمة الصليبية على الشام، لأنهم وجدوا فيها عونا على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في إنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة - أما هذه الجرأة على الحق والصدق، فإننا لا نعرف في تاريخ التعصب الأعمي لها مثيلا.

في أي كتاب وجدت أن الفاطميين لم يكترثوا بالهجمة الصليبية؟ وفي أي كتاب قرأت أنهم رحبوا بها؟ في أي كتاب طالعت أن رسلهم إلى زعماء الصليبيين في إنطاكية عبروا عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة؟!.

نعيد ونكرر وسنظل نعيد ونكرر أن الفاطميين لم يكن لهم وجود عند الهجمة الصليبية، بل كانوا محجورا عليهم، وكانوا سجناء دورهم، وأن الذين حلوا محلهم هم: الجماليون..

ولكن هل فعل الجماليون هذا الذي يفتريه عمر تدمري؟.. لن نجيب نحن على هذا السؤال، بل نترك للدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه: (النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق) ليجيب عليه، وليبين حقيقة مهمة الرسل الذين أرسلهم الأفضل الجمالي إلى إنطاكية:

يقول الدكتور سرور في الصفحة ٦٧ من كتابه:

(لما وصل إلى الحكومة الفاطمية في مصر نبأ هجوم الصليبيين على إنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن يتفردوا بإنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وأن لا يدخلوها بسيوفهم). ومن هذا يتبين أن الأفضل بن بدر الجمالي لما رأى سقوط إنطاكية وانهزام قوى كربوقا بخيانة أسلاف الدكتور عمر تدمري أيقن أنه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية

تستطيع التغلب عليهم والحول بينهم وبين الوصول إلى القدس، فحاول أن يقنعهم بالوقوف عند إنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفرادا غير مسلحين وأن يغادرها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

وأحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح لهذا الرجل؟!.

هذا إذا صح أن الأفضل أرسل سفارة، فنحن لم نجد ذكراً لهذه السفارة المزعومة في أي مصدر عربي!..

ومع افتراض وجود السفارة نقول: إنه لما فشلت محاولة الأفضل السلمية لإيقاف الصليبيين عند إنطاكية استعد لحربهم.

فالاستعداد لحربهم كان واقعاً سواءً سلمنا بوجود السفارة أم لم نسلم. استعد الأفضل لحرب الصليبيين مع علمه بقوتهم وضعف قوته أمام حشودهم، فقام واليه على القدس بتسميم الآبار التي في طريقهم وطم القنوات لئلا يستفيدوا من مائها، وعهد بحراسة أسواق القدس إلى جماعة من العرب والسودان.

ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالي المدافع عن القدس: (وأدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصما يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعا لهيبته السياسية وانتهاكا لحرماته الدينية).

ونقول: كان ذلك على عكس أسلاف الدكتور عمر التدمري الذين لم يروا حرجا في أن يخونوا الإسلام والمسلمين حين انحازوا عن طريق الصليبيين عند إنطاكية، ففتحوا لهم باب الوصول إلى القدس!.

ثم يصف الدكتور حسن حبشي الدفاع البطولي عن القدس قائلا: (شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ (٤٩٢هـ) ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعا قويا رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية).

واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م فأين هذا الدفاع: دفاع جيش الأفضل بن بدر الجمالي عن القدس، من خيانة أسلاف عمر تدمري وأسلاف محمد علي الجوزو عند إنطاكية.

وبعد سقوط القدس واصل الأفضل قتال الصليبيين، وقاد حملة لاسترداد القدس في رمضان سنة ٤٩٢هـ (آب ١٠٩٩م) وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفري في القدس أرسل على عجل رسولا إلى تنكريد الذي كان في نابلس يستدعيه هو والقوات التي معه للمشاركة في دفع الخطر الداهم، كما استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا في بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، ولم يتخلف منهم أحد على الرغم مما كان قائما بينهم من خلاف يومذاك. وهكذا وحد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد، ففشلت معركة استرداد القدس في تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها.

يقول المقريزي في خططه: (وفي سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الإفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة). ويقول ابن الأثير: سير الأفضل ولده شرف المعالي في السنة الحالية إلى الإفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم.

ويقول المقريزي في خططه: (وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان، باجتماع الإفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكناً من مال، وسلاح، وخيل، ورجال، واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه، وقصد استنقاذ الساحل من يد الإفرنج، فوصل إلى عسقلان، وزحف عليها بذلك العسكر).

ولكن الحملة لم تنجح.

وقال المقريزي أيضا: وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمس مئة ما يحث على غزو الإفرنج ومسيرها مع حسام الملك، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله، وتوجه إلى الجامع بالمقس، وجلس

بالمنظرة في أعلاه، واستدعى مقدم الأسطول الثاني، وخلع عليه، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة.

وقال المقريزي: قال ابن المأمون البطائحي في حوادث سنة تسع وخمس مئة: ووصلت النجابون من والي الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الإفرنج وصل إلى أعمال الفرما، فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها، ويسير الراجل من المعطوفية، وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا في الطوالع، ويطاردوا الإفرنج، ويشارفوهم في الليل قبل وصول العساكر إليهم، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، وتجهيز الأصحاب والحواشي. فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان، وطاردوا الإفرنج، وعلم بغدوين ملك الإفرنج أن العساكر متواصلة إليه، وتحقق أن الإقامة لا تمكنه، أمر أصحابه بالنهب والتخريب والإحراق وهدم المساجد، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد، وعزم على الرحيل... إلى أن يقول: وأما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان... ثم يقول: وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا...

وظلت غارات الأفضل على شكل عصابات تغير على الصليبيين، ووصل بعضها إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤(١١١٠م) وسنة ٥٠٧هـ(١١١٣م)، وإلى يافا سنة ٥٠٩هـ(١١١٥م).

وهذا يدل على أن الأفضل لم يهدأ، أو لم يترك الصليبيين يهدءون، بل ظل يغير عليهم ويقاتلهم، فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقريزي.

وإذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثف وأقوى مما استطاع الأفضل حشده، وإذا كان لقوى الصليبيين امتدادًا دائمًا من الخارج، وليس للأفضل أي إمداد من العالم الإسلامي الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالي.

وبالرغم من أن من جاءوا بعد الفاطميين والجماليين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه من مآثر تلك العهود، وما قيل فيها من الشعر والنثر فقد أمكن أن يصل إلينا

بعض ما خلده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالي في جهاده للصليبيين. فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبي الصلت، يشير فيها إلى انصراف البلاد الإسلامية الأخرى، عن مواجهة الخطر الصليبـــي، واقتصار المواجهة على الأفضل وجيشه. وفيها يقول مخاطبا الأفضل:

جردت للدين والأسياف مغمدة سيفاً تفل به الأحداث والغير

ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

وإن هم نكصوا يوماً فلا عجب قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

العـــود أحـــمد والأيام ضامنة عقبى النجـــاح ووعــــد اللّه ينتظر

ثم يتبنى الدكتور عمر تدمري أقوال زملائه المتقدمين عليه في الزمن، والمساوين له في العصبية العمياء والتوغل في الباطل والافتراء على الحقيقة، أمثال: محمد كردعلي الذي ينقل قوله غير المستند إلى سند إلا اتقاء جذوة اللوم في نفسه حيث يقول:

(ومما يثير الاستغراب والدهشة أن الفاطميين ظلوا مكتوفي الأيدي، وهم يرون المدن الإسلامية تُدمر، ويقتل رجالها ونساؤها وأطفالها، وتهدم مساجدها، وكأن الأمر لا يعنيهم طالما أنهم يعتقدون أن المتضرر الأول هم السلاجقة، وأنهم بعدم التصدي للصليبيين، يصرفون نظرهم عن الدخول إلى مصر).

ونقول لمحمد كردعلي، ولعمر تدمري: أن خيانة أسلافكم السلاجقة هي التي فتحت الباب للصليبيين لكي يدمروا المدن الإسلامية ويقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ويهدموا مساجدها.

أما الفاطميون فلم يكن لهم وجود، والجماليون الذين خلفوهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وقد عناهم الأمر كل العناية، وقد رأينا فيما تقدم من القول ما فعلوه في قتال الصليبيين...

وأمثال ابن كثير الذي قدم التدمري لشتائمه بقوله:

ولقد هاجم المؤرخون الخلفاء الفاطميين، ودولتهم على مواقفهم المتخاذلة فكتب ابن كثير كلاما مقذعا قال فيه: ...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالا، وكانوا من أغنى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع، والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد. وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية، والحشيشية، وتغلب الإفرنج على سواحل الشام بكمالها حتى أخذوا القدس، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك، والشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وإنطاكية، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد أياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك. وقتلوا من المسلمين خلقا وأمما لا يحصيها إلا اللّه، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف.

هذا الكلام ينقله، ويتبناه، ويحاضر به على المنابر، رجل يعيش في العقد الأخير من القرن العشرين، ويحمل شهادة دكتوراه ويدرس في الجامعة.

لقد كان على عمر تدمري أن يخجل من مجرد وجود هذا الكلام في كتاب عربي، لو كان عمر تدمري فعلا رجل علم وفكر وتحقيق.

لقد استولى الإفرنج على ما ذكره ابن كثير من بلاد وفعلوا فيها ما عدده من الأفعال، وقد رأينا فيما تقدم أن الذين فتحوا للفرنج باب الشام على مصراعيه، هم أسلاف ابن كثير، ومحمد كردعلي، وعمر تدمري، ومحمد علي الجوزو.

فالعار في ذلك على أسلافكم، ويمتد العار إليكم، لأنكم لم تنكروا عليهم خيانتهم، أما الفاطميون فسنظل نكرر ونكرر ونكرر أنهم لم يكونوا موجودين، وأن الجماليين الذين خلفوهم دافعوا دفاع الأبطال لذود الصليبيين لا سيما عن القدس...

وابن كثير هذا الذي يفيض قلمه بتلك البذاءات عن الفاطميين هو نفسه الذي يقول عن واحد من أولئك الفاطميين في الصفحة ٢٨٤ من المجلد الحادي عشر من كتابه: البداية والنهاية:

كان المعز قبحه الله فيه شهامة، وقوة حزم، وشدة عرام، وله سياسة، وكان يظهر أنه يعدل، وينصر الحق.

هذه هي الصفات التي كان يتحلي بها الفاطميون والتي أنطق الله بها ابن كثير رغماً عنه: الشهامة، وقوة الحزم، وشدة العرام، والسياسة، والعدل، ونصرة الحق.

ومع ذلك فابن كثير لا يتورع عن أن يقول عن صاحب هذه الصفات: قبّحه الله، وأن يصف قومه الذين لا يقلون عنه في التحلي بهذه الصفات بما وصفهم به، وأن يشتمهم بما شتمهم.

نحن لا نريد أن نتحدث عن أمجاد الفاطميين إلا بما ذكره ابن كثير نفسه، وبما أرغمه الله على تدوينه في كتابه نفسه فهو يقول عن إحدى وقائعهم وهو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥١هـ:

وفيها فتح المعز الفاطمي حصن طبرمين من بلاد المغرب، فتحه قسرًا بعد محاصرة سبعة أشهر ونصف. وقصد الإفرنج جزيرة أقريطش فاستنجد أهلها المعز فأرسل إليهم جيشا فانتصروا على الإفرنج.

وقال في أحداث سنة ٣٥٣هـ: وكان من عزمهم (الروم) أن يستحوذوا على البلاد الإسلامية كلها... ثم يقول: وفيها كانت وقعة المجاز ببلاد صقلية، وذلك أنه أقبل من الروم خلق كثير، ومن الإفرنج ما يقارب مئة ألف، فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمي يستنجدونه، فبعث إليهم جيوشاً كثيرة في الأسطول، وكانت بين المسلمين والمشركين وقعة عظيمة، صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويل، وفرت الروم، وانهزموا هزيمة قبيحة، فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وسقط الإفرنج في وادٍ من الماء عميق، فغرق أكثرهم، وركب الباقون في المراكب، فبعث الأمير أحمد صاحب صقلية في آثارهم مراكب أُخر، فقتلوا أكثرهم في البحر أيضا، وغنموا في هذه الغزوة كثيراً من الأموال، والحيوانات، والأمتعة، والأسلحة.

هو يعترف أنه كان من عزم الروم الاستحواذ على البلاد الإسلامية، ويعترف أن جيوش الفاطميين هي التي أحبطت عزمهم وردهم عن البلاد الإسلامية. كما اعترف من قبل أن جيش الفاطميين هو الذي أنجد مسلمي جزيرة أقريطش من الغزو الفرنجي فانتصر المسلمون على غازيهم من الإفرنج.

يعترف بذلك، ثم يصف الفاطميين بما وصفهم به، ويأتي اليوم أستاذ الجامعة الأكاديمي، أستاذ الجامعة حامل الدكتوراه: عمر تدمري فيستشهد بأقواله ويرددها على المنابر.

ولتزداد معرفة بابن كثير ومتبني أقواله، نقول: إنه وهو يذكر أحداث سنة ٣٥١هـ، يذكر انتصار البيزنطيين على سيف الدولة الحمداني في إحدى المعارك ودخولهم حلب، فيقول: إن سيف الدولة فيه تشيع، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء!..

إن ابن كثير الذي يدعي الإسلام، والغيرة عليه لا يبالي أن يشمت بانتصار البيزنطيين على الحمدانيين ما دام الحمدانيون شيعة.

ولكن الله يخزي ابن كثير بقلم ابن كثير نفسه، إذ تضطره الأحداث لأن يتمم كلامه السابق قائلا عن سيف الدولة: بعث مولاه نجا، فدخل بلاد الروم، فقتل منها خلقاً كثيراً، وسبى جمعاً غفيراً، وبعث صاحبه مع جيش طرطوس فدخلوا بلاد الروم فغنموا وسبوا، ورجعوا سالمين.

ولتعرف من هو ابن كثير، هذا الذي يتبنى الدكتور عمر تدمري أقواله ويخطب بها على المنابر نذكر لك شيئاً مما سجله في تاريخه: (البداية والنهاية):

فهو عندما يتحدث عن وفاة الأشرف بن العادل الأيوبي يقول عنه في الصفحة ١٤٧ من المجلد الثالث عشر: إنه كان يعاني الشراب أي أنه كان سكيرًا. ثم يقول عنه في الصفحة التالية:

ولما توفى رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال: ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم، وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم.

ثم يعقب ابن كثير على هذا القول بقوله: ولقد صدق -رحمه اللّه-، قال رسول اللّه (ﷺ): المرء مع من أحب. وهكذا فعلى رأي ابن كثير: لا بأس بارتكاب المعاصي ومنها شرب الخمر، ما دام مرتكبها يحب بعض الصالحين على أن الطامة الكبرى هي ما ذكره في الصفحة١٢٩ من المجلد الثاني عشر: عن الاختلاف في إباحة الولدان في الجنة، وما قيل في الإباحة وعدم الإباحة بين أبي علي بن الوليد وأبي يوسف القزويني، وأنه يباح لأهل الجنة وطء الولدان في أدبارهم، فمال هذا إلى أباحة ذلك، لأنه مأمون المفسدة هناك. وقال أبو يوسف: إن هذا لا يكون، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومن لك أن يكون لهم أدبار، وهذا العضو وهو الدبر إنما خلق في الدنيا لحاجة العباد إليه لأنه مخرج الأذى عنهم، وليس في الجنة شيء من ذلك، وإنما فضلات أكلهم عرق يفيض من جلودهم، فإذا هم ضُمر فلا يحتاجون إلى أن يكون لهم أدبار، ولا يكون لهذه المسألة صوره بالكلية!! هذا هو المؤرخ الذي يستشهد بأقواله الدكتور عمر تدمري ويخطب بها على المنابر!.. وإنه ليشرف الفاطميين وغير الفاطميين أن يشتمهم من تشغله في تاريخه أدبار الولدان!..

ولا يشرف الدكتور عمر تدمري أن يكون هذا مقتداه ومصدر أفكاره..

وابن كثير هذا الذي افترى على الفاطميين ما افترى، عندما يمر بخيانة الأيوبيين يمر بها مرًا سريعًا لا يلفت النظر، فهو مثلا عندما يتحدث عن تنازل العادل عن البلاد للصليبيين يقول:

وأطلق لهم شيئًا من البلاد، وعندما يذكر تحالف الأيوبيين، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص - عندما يذكر تحالف هؤلاء الأيوبيين مع الصليبيين على قتال قريبهم الأيوبي الآخر الصالح أيوب صاحب مصر، يذكر ذلك بدون أي اهتمام وأي إنكار. وعندما يذكر انضمام

القاضيين صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى هولاكو، وانضمام الملك السعيد بن العزيز بن العادل الأيوبي إلى المغول أيضاً وقتاله معهم في معركة عين جالوت، ومكاتبة الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل الأيوبي لهولاكو، وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجواب المغول له بالثبات، ونيابة البلاد، وأنهم قادمون عليه لفتح الديار المصرية - عندما يذكر ابن كثير ذلك لا يرى فيه شيئاً، ولا يرى أن هؤلاء الخونة يستحقون حتى كلمة تقريع!..

ثم لا يبالي أن يفتري على الأبرياء الشرفاء المخلصين! والدكتور عمر تدمري لم ترعه هذه الخيانات الصريحة المملوء بها وبأمثالها كتاب ابن كثير، فلم يشر إليها بشيء في كل ما كتب ودون، بل تمسك بالافتراءات والأباطيل والبذاءات والشتائم! ولا يكتفي التدمري بالتمسك بأذيال ابن كثير، بل لجأ إلى نظير لابن كثير، هو ابن الفرات، فنقل عنه ما كان عليه أن يخجل من قراءته، ولكنه - وهو يوافق هواه وعصبيته - انحدر مع ابن الفرات إلى دركات الخزي حين نقل عنه هذا القول الذي مهد له بقوله: وها هو ابن الفرات يورد رواية فيها الكثير من السخرية بالخليفة الفاطمي المراهق (الآمر بالله) وهو يتحدث عن سقوط مدينة طرابلس يقول فيها:

... وحكي أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الإفرنج كتب من فيها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ويسألوه الميرة، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فبينما هم في ذلك إذا بمركب قد أقبل، فما شكوا أن فيه نجدة، فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي فعند ذلك أيسوا من نصره وضعفت قواهم.

إلى هذا المستوى انحط عمر تدمري، إلى هذا المستوى انحط من يعتبر نفسه مؤرخ الإسلام في بلاد الشام في هذا العصر!.

لقد انحط إلى حد تبني السفاهات، والمناداة بها شعارًا يواجه به جماهير الناس!..

يا عمر تدمري، إن طرابلس بلدك، وأنت تعرف أنها صمدت بأبطالها الشيعة بني عمار عشر سنين في وجه الصليبيين تقاتلهم، وتذودهم، وتتحمل مرارة حصارهم لها.

وإنها لم تستنجد بمصر؛ لأن مصر كانت هي الأخرى تقاتل الصليبيين، وتدفعهم عن حمى الإسلام بقواها المحدودة التي لا تستطيع أن تستغني عن جندي واحد منهم..

لقد استنجدت بأسلافك في بغداد الراتعين في دعة العيش المتنعمين بغضارة الحياة!..

لقد استنجد وفدها بهم فردوه خائبا! وتركوها تلاقي مصيرها وحيدة!..

لقد كنت انتظر منك كل شيء.. ولكن لم يدر بخلدي أبدا أنك ستتبنى الأكاذيب المصوغة بالبذاءة وانعدام الحياء!..

بين السلاجقة والصليبيين

سنة ٤٩١هـ كان الصليبيون يحتلون إنطاكية ويتوغلون منها في بلاد الشام قاصدين القدس.

ويقول ابن الأثير عن حاكم إنطاكية السلجوقي (باغي سيان) إنه بمجرد أن سمع صوت بوق الإفرنج يضرب عند السحر، وكان مع البوق عدد من الصليبيين لا يزيد على الخمسمائة لما سمع (باغي سيان) صوت البوق دخله الرعب، ففتح باب البلد وخرج هارباً على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل إنه هرب، فخرج من باب آخر هاربا، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ويقول ابن الأثير بعد ذلك بسطور: وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحبي حلب ودمشق (السلجوقيين) بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكرا منهم وخديعة، حتى لا يساعدا صاحب إنطاكية.

هكذا سلم السلاجقة باب العالم الإسلامي مفتوحًا للصليبيين، فدخلوا منه حتى وصلوا إلى القدس! هرب حامي الباب بسماعه صوت البوق فلم يرم بسهم،

ولم يجرد سيفًا، ولم يشرع رمحًا دفاعا عن البلد الذي أنفذ فيه سلطانه، واستصفى أمواله، وعاش فيه آمرًا ناهياً مترفاً، فلما جد الجد لم يكن له هم إلا نفسه ففر هارباً لا يلوي على شيء، ولم يترك البلد وأهله وحدهم عرضة لمذابح الصليبيين، بل ترك حتى أسرته للقتل والسبي والأسر.

وصاحبا حلب ودمشق (السلجوقيان) لم يعنهما أن يحتل الصليبيون إنطاكية، ثم ينطلقوا منها إلى أولى القبلتين وثالث الحرمين، لم يعنهما ذلك ما دام الصليبيون قد طمأنوهما بأنهم لن يتعرضوا لهما.

وفي السنة التي كان الصليبيون يزحفون فيها على العالم الإسلامي فيحتلون إنطاكية ويتقدمون إلى بيت المقدس، كان السلجوقيون في مكان آخر لا يكترثون بهذا، وإنما يتقاتلون فيما بينهم فيقود دولتشاه مع بيغو أخي طغرل بك فريقاً، ويقود السلطان سنجر فريقا ويدخلون فيما بينهم بمعارك دامية. وفي السنة الثانية من احتلال القدس (سنة ٤٩٢هـ) كان السلاجقة في شاغل عن هذا الاحتلال، وعن مذابح المسلمين في القدس، وعن الذل الذي غرق فيه المسلمون كانوا في شاغل عن ذلك، وكانوا يتحاربون في مكان آخر، كان القتال دائرا بين السلطان (بركيارق) وواليه (أنر)، وبين (إيران شاه) وحلفائه (الشوانكاره).

ومؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك (الوزير السلجوقي) لم يعنه وهو في بغداد ما يجري في القدس بل عناه الخلاف السلجوقي، فسار من بغداد لا إلى القدس لإنجادها واستنقاذها، بل إلى حيث يقيم (أنر) لإنجاده واستنقاذه.

وأنر هذا لم يعنه هو الآخر ما يجرى في القدس على المسلمين، بل عناه أن الإسماعيليين قد انتشر أمرهم في أصفهان فندب نفسه لقتالهم، وحصر قلعة على جبل أصفهان!.

أنر السلجوقي لم ير في انتشار أمر الصليبيين في بلاد الشام ما يحفزه على أن يندب نفسه لقتالهم، وأن يسرع لحصار قلعة من قلاعهم. بل رأى في انتشار أمر مواطنيه الإسماعيليين ما يحفزه على ذلك!.

وتسقط القدس ويجري ما يجري فيها على المسلمين، ويأتي المستنجدون من الشام إلى بغداد، بغداد السلجوقية في ذلك الوقت.

ويروي قصتهم ابن الأثير على هذا الشكل:

(وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد بصحبة القاضي (قاضي دمشق) أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكونا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال). (انتهى).

كان يومذاك في بغداد سلطتان: سلطة روحية بحتة هي سلطة الخلافة، وسلطة فعلية حاكمة هي سلطة السلاجقة.

وكل ما استطاع الخليفة أن يفعله هو أن يقنع ستة من الفقهاء أن يسيروا نجدة لإخوانهم في الشام، ومع أن هذه النجدة لا طائل وراءها، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن رجعوا من أول الطريق..

أما السلطة الفعلية سلطة السلاجقة فقد أصمت أذنيها عن سماع الاستغاثة، وتجاهلت وصول المستغيثين منصرفة إلى شئونها الخاصة.

هذه السلطة التي لم تتوان عن أن يسير بها رأس من رءوسها الكبيرة، مؤيد الملك بن نظام الملك لإنجاد سلجوقي متنازع مع سلجوقي آخر.

ويعبر ابن الأثير عن الموقف أحسن تعبير حين يقول: (واختلف السلاطين فتمكن الإفرنج من البلاد). والمقصود بالسلاطين: سلاطين السلاجقة إذ لم يكن يومذاك من يدعى بالسلاطين غيرهم.

ويبدو أن الخليفة المستظهر قد أحرج السلطان السلجوقي (بركيارق) فأرسل بركيارق إلى كربوقا أتابك الموصل فذهب لإنقاذ إنطاكية. فكان من كربوقا ومن معه من القواد أن تحكمت بكربوقا أنانيته، وتغلبت على القواد وجنودهم الخيانة فأضاعوا إنطاكية، وفتحوا البلاد للصليبيين... - كما سيأتي بيانه -.

أما بركيارق فقد كان مشغولا عن الصليبيين بالاقتتال مع السلاجقة الآخرين!.

ففي سنة الزحف الصليبيـــي واحتلال القدس، ومجيء الوفد الشامي للاستنجاد بالسلطة السلجوقية سنة ٤٩١هـــ وعودته خائبا، في هذه السنة نفسها كان السلاجقة مشغولين بالتزاحم على التسلط على بغداد، فالسلطان محمد بن ملكشاه ينازل أخاه بركيارق على السلطنة ويعلن نفسه سلطانا ويقطع خطبة أخيه من بلاده ويقبض على زبيدة خاتون والدة أخيه السلطان بركيارق ويسجنها ثم تقتل خنقا.

وكان زعماء السلاجقة يتعاضدون، لا على التوجه إلى فلسطين لقتال الصليبيين، بل على التوجه لتوطيد أمر السلطان محمد، فيأتي سعد الدولة كوهرائين من بغداد، وكربوقا من الموصل، وجكرمش من الجزيرة، وسرخاب بن بدر من كنكور، وغيرهم من غيرها ويتوجهون إلى السلطان محمد في مدينة (قم)، فيوفد كوهرائين إلى بغداد ليحمل الخليفة على أن يخطب فيها للسلطان محمد، فيستجيب الخليفة لذلك، ويلقب السلطان محمد بلقب: غياث الدنيا والدين!.

أي دين وأي دنيا كان هذا السلطان السلجوقي غياثهما؟ أما دنيا الإسلام في الأرض المقدسة فكانت موزعة في أيدي الصليبيين، وأما الدين فقد كان موعودا بسيوفهم!.

والسلاجقة مع ذلك يسمون سلطانهم الجديد اللاهي عن ذلك، العاكف على استغلال سلطته في المسلمين يسمونه: غياث الدنيا والدين!..

لقد كان غياث دنياهم فعلا، أما الدين فلم يكن له فيهم من غياث، وأما دنيا القدس فقد كانت في مضيعة أي مضيعة.

ولم يسكت بركيارق فجمع جموعه وأمير عسكره ينال بن أنوشتكين الحسامي وسار ومعه غيره من الأمراء إلى واسط، يظلم جنوده الناس وينهبون البلاد، حتى بلغ بغداد، فلما بلغها كان قد خطب له فيها قبل وصوله إليها بيومين!..

وهنا ضعفت عزائم الحلفاء الذين كانوا أجمعوا على تعضيد مزاحمة السلطان محمد، فأما جكرمش فاستأذن كوهرائين في العود إلى بلده بدعوى أن الأحوال قد اختلت، فأذن له!..

واتفق الآخرون على أن يصدروا عن رأي واحد لا يختلفون...

ولما كانت الدنيا قد أخذت تقبل على السلطان بركيارق، فقد كان رأيهم الواحد الذي لم يختلفوا فيه: أن كتبوا إلى بركيارق يقولون له: أخرج إلينا، فما فينا من يقاتلك!.

فسار بركيارق إليهم، فترجلوا وقبلوا الأرض وعادوا معه إلى بغداد!.

هذا السلطان وهؤلاء الأمراء، لم يذكر منهم ذاكر القدس وأفاعيل الصليبيين فيها، و لم يكن في خواطرهم التفكير في إنقاذها!.

لقد احتمعوا من كل مكان، وما من مكان جاءوا منه إلا وفيه المقاتلة الأشداء، لقد استغلوا هؤلاء المقاتلة لتوطيد سلطانهم وإحكام أمرهم، وجردوا السيوف بعضهم على بعض، لا على أعداء الإسلام: فاتحي القدس، وذابحي المسلمين فيه.

وبغداد هذه التي عادوا إليها مجتمعين، ليوطدوا فيها سلطان بركيارق بعد أن كانوا قد وطدوا فيها من قبل سلطان عدوه محمد بن ملكشاه.. بغداد التي لم تثرهم فيها استغاثة المستغيثين بهم لإنقاذ القدس، بغداد التي شهدت القادمين من الشام يبكون العيون ويوجعون القلوب بذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال.

بغداد التي شهدت كل ذلك، وشهدتهم معرضين عن الإغاثة، متجافين عن المعونة فلم تبك عيونهم، و لم تتوجع قلوبهم، و لم تتحرك سيوفهم، بل أعرضوا عن الصوت المستغيث!..

بغداد تشهدهم اليوم متجمهرين فيها حول سلطانهم القديم الجديد بسيوف مشهورة، وألوية منشورة، ونفوس مسرورة!.

أما بركيارق هذا، الذي اكتفى عند الاستنجاد به لإنقاذ مسلمي بلاد الشام من مذابح الصليبيين، وتخليص القدس من براثنهم، اكتفى بانتداب من خانوا الأمانة وعلى رأسهم كربوقا، ولم تحفزه النخوة على أن يسير على رأس جموعه الغفيرة لجهاد الصليبيين.

أما بركيارق هذا فهو يدخل بغداد اليوم ظافرا، مزهواً بترديد اسمه في الخطب على منابرها، غير متذكر أن الصليبيين دخلوا القدس ظافرين، مزهوين بترديد شعاراتهم على منبر المسجد الأقصى ومحاريب بيت المقدس..

وعوضاً عن أن يتوجه بجموعه إليهم، قاد تلك الجموع لقتال أخيه محمد، وكان أخوه مستعدا هو الآخر للقتال، وبدلا من أن يمحوا كل من الأخوين ما في قلبه من ضغائن على الآخر، ويملئا قلبيهما بالضغائن على الصليبيين الذين أجروا سيول الدماء في رحاب أولى القبلتين عوضاً عن ذلك صمما أن يتقاتلا ويتركا الصليبيين في القدس آمنين مطمئنين، متحفزين للانطلاق إلى كل مكان إسلامي.

ويصف ابن الأثير القتال بين الأخوين بهذا الوصف:

(كان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، وكان محمد في القلب ومعه الأمير سرمز، وعلى ميمنته أمير آخر، وابنه آياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية.

وكان السلطان بركيارق في القلب، ووزيره الأعز أبو المحاسن، وعلى ميمنته كوهرائين، وعز الدولة بن صدقة بن مزيد، وسرخاب بن بدر، وعلى ميسرته كربوقا وغيره. فحمل كوهرائين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد، وهما مؤيد الملك والنظامية، فانهزموا ودخل عسكر بركيارق، في خيامهم فنهبوهم. وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت الميسرة، وانضافت ميمنة محمد إليه في القلب على بركيارق ومن معه، فانهزم بركيارق، ووقف محمد مكانه، وعاد كوهرائين من طلب المنهزمين الذين انهزموا بين يديه، وكبا به فرسه فأتاه خراساني فقتله، وأخذ رأسه، وتفرقت عساكر بركيارق، وبقي في خمسين فارسا).

وعادت الخطبة للسلطان محمد ببغداد

إذا كان بقيادة محمد بن ملكشاه عشرون ألف مقاتل، فلا شك أن بقيادة أخيه بركـيارق ما لا يقل عن هذا العدد إن لم يزد عليه، فهذه أربعون ألف مقاتل كان عـلى السـلاجقة أن يسـيروا بها لقتال الصليبيين، وصدهم عن التمدد في البلاد الإسلامية، وكانوا مستطيعين أن يضيفوا إليها أمثالها، لو استجاشوا الناس واستنفروا الرجال من أقصى خراسان إلى أقصى الشام، لقتال الصليبيين. ولكن قتال الصليبيين لم يكـن يعنـيهم، وإنمـا كان الذي يعنيهم هو الاقتتال فيما بينهم، وسفك دماء المسلمين في سبيل مطامعهم الشخصية.

على أن بركيارق لم ييأس فاتجه إلى (الري) ثم إلى نيسابور، ووجد من يحالفه على قتال أخيه الآخر (سنجر) في معركة طاحنة انهزم فيها بركيارق.

وعاد فاستطاع جمع جيش مكون من خمسين ألف مقاتل، تقابل به مع جيش أخيه السلطان محمد المكون من خمسة عشر ألفا، فانتصر هذه المرة بركيارق بجيشه الأكثر عددا على جيش أخيه الأقل عددا .

ولا بد من أن نشير هنا إلى أن عبيد الله مؤيد الملك بن نظام الملك كان في صف السلطان محمد، فأسر في هذه المعركة، فقتله بركيارق بيده بعد أن سبَّه وأهانه، وبقي ملقى على الأرض عدة أيام إلى أن أذن بركيارق بدفنه، فحمل إلى تربة أبيه بأصبهان فدفن فيها.

هكذا كان يموت هؤلاء الناس هذه الميتات الذليلة، بدل أن يموتوا في ساحات الشرف أعزاء في قتال أعداء البلاد.

وهكذا يتبين أن بركيارق الذي استطاع بعد هزائمه المتتابعة أن يجمع جيشا مؤلفًا من خمسين ألف مقاتل، فيقاتل به أخاه في سبيل الملك، كان يستطيع جمع أضعاف هذا الجيش ليقاتل به الصليبيين. ومضى بركيارق بعد هذا النصر إلى (الري) فوافاه إليها فيمن وافاه (كربوقا) صاحب الموصل.

إن كربوقا هذا المسئول الأول عن هزيمة المسلمين في إنطاكية، والذي كانت الحروب الصليبية ستنتهي عند إنطاكية لولا ما جناه هو ومن معه من القواد، والأمراء، والجمهور، من جنايات الأنانية، والخيانة. إن كربوقا هذا قد عاد، بعد أن جنى ما جنى إلى إمارته في الموصل، وكأن شيئا لم يحدث، وكأنه لم يكن هو ومن معه السبب، فيما جرته الحروب الصليبية على المسلمين.

وها هو يظهر دائمًا في الأحداث، مشاركًا فيها مع هذا الجانب، أو ذاك الجانب، وقد رأيناه من قبل ينضم إلى جانب السلطان محمد على أخيه بركيارق، وها هو الآن ينضم إلى بركيارق.

إن الذي لم يبال أن يكون هو وأعوانه السبب في نكبة العالم الإسلامي، ويعود بعد أن فعل ما فعل عند إنطاكية، يعود أميرًا مزهوًا، هل يبالي بأن يتلون كل يوم بلون، وأن ينصر هذا السلطان اليوم، ثم يعود فيخذله منضما إلى عدوه؟!.

إنه على خطي بركيارق، وغير بركيارق من أولئك السلاجقة الذين يرون تهدم العالم الإسلامي بالأيدي الصليبية، فيشاركون في التهديم بخياناتهم، وأنانياتهم، وسفك دماء المسلمين فيما بينهم، بدل أن تسفك في جهاد الصليبيين.

على أنهم بلغوا أحط دركات النذالة في أخلاقهم الشخصية، فمحمد بن ملكشاه يقبض على زوجة أبيه وأم أخيه زبيدة خاتون فيهينها ويسجنها ثم يقتلها خنقا. وبركيارق يقبض على زوجة أبيه ووالدة أخويه محمد وسنجر ويبادل بها الأسرى مع أخيه سنجر.

ومن هذه صفاتهم الشخصية التي لا يبالون معها أن يهتكوا نساء آبائهم وإخوتهم، أيطلب منهم أن يحافظوا على شرف الإسلام وعزة المسلمين؟!.

مضى محمد بعد هزيمته إلى جرجان مستنجدا بأخيه سنجر- وهما لأم واحدة - وكان لم يبق مع محمد سوى ٣٠٠ فارسا فوافاه أخوه سنجر من خراسان في عساكره.

يقول ابن الأثير:

سارا من جرجان إلى دامغان فخربها العسكر الخراساني (عسكر سنجر) ومضى أهلها هاربين إلى قلعة كردكوه، وخرب العسكر ما قدروا عليه من البلاد، وعم الغلاء بتلك الأصقاع حتى أكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس بعضهم بعضا. وسارا إلى الري، فلما وصلا إليها انضم إليهما النظامية وغيرهم فكثر جمعهما وعظمت شوكتهما وتمكنت من القلوب هيبتهما (انتهى).

كان الصليبيون يفتكون بغرب العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه كان السلاجقة يفتكون بشرق هذا العالم. وليتهم حين لم يهبوا لإنقاذ ذلك الغرب كفوا شرورهم عن ذاك الشرق.

في الأيام التي كان فيها الصليبيون يخربون طرابلس وصيدا وصور ويشردون أهلها وأهل غيرها من مدن وقرى بلاد الشام، كان السلاجقة يخربون (دامغان)، ويخربون ما قدروا عليه من البلاد، وإذا كان ابن الأثير قد اكتفى بذكر مدينة دامغان فإن قوله: خربوا ما قدروا عليه من البلاد كاف للدلالة على عظم التخريب؛ لأن ما قدروا عليه كان كبيرا.

وإذا كان الصليبيون قد بلغوا بالمذابح أقصى مداها في القدس، فلا شك أن المذابح قد بلغت حدا بعيدا في دامغان وغير دامغان مما سيطر عليه السلاجقة. والدليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من فرار من سلم إلى القلاع المنيعة.

ومهما يكن من أمر فلم يبلغنا أن المسلمين في السيطرة الصليبية قد أكلوا الميتة والكلاب، وأكلوا بعضهم بعضا. ولكن ذلك جرى على المسلمين في السيطرة السلجوقية المزامنة للسيطرة الصليبية.

الأحداث التي تحدثنا عنها فيما تقدم من القول، والتي جرت في السيطرة السلجوقية على شرق العالم الإسلامي جرت سنة ٤٩٤ هجرية.

فلنر ماذا كان يجري في السنة نفسها على غرب العالم الإسلامي: في سنة ٤٩٤هـ التي كان الملكان السلجوقيان الأخوان المسلمان يدخلان بعسكرهما مدينة دامغان فيخربانها ويشردان أهلها فيهيمون على وجوههم، ثم يخربون كل ما قدروا

على تخريبه من البلاد، ثم يضطر المسلمون إلى أكل الميتة والكلاب وأكل بعضهم بعضا.

في تلك السنة (٤٩٤)هـ كان الصليبيون يتقدمون فيحتلون مدينة سروج من بلاد الجزيرة ويقتلون كثيرا من أهلها ويسبون حريمهم وينهبون أموالهم، و لم يسلم إلا من مضى منهزما. دامغان في شرق العالم الإسلامي، وسروج في غرب هذا العالم.

مصير واحد لقياه في زمن واحد.. مصير مأساوي فاجع..

القوى التي دخلت دامغان وامتدت منها إلى ما استطاعت الامتداد إليه من بلاد.. هذه القوى لم تكن وظيفتها احتلال دامغان وتخريبها وتشريد أهلها، كانت وظيفتها الدفاع عن سروج وحمايتها من التخريب وحماية أهلها من القتل والسبي والنهب.

لم يكن مكان محمد بن ملكشاه ومكان أخيه سنجر في دامغان، بل كان مكانهما في سروج.

في السنة نفسها التي كان ينطلق فيها ابنا ملكشاه السلجوقي سنة ٤٩٤هـ - ينطلقان من دامغان حتى يبلغا (الري)، كان الصليبيون ينطلقون فيبلغون مدينة حيفا فيملكونها عنوة..

ويظلون في انطلاقهم فيملكون مدينة (أرسوف) بالأمان ويخرجون أهلها منها... وينطلقون فيملكون مدينة (قيسارية) بالسيف ويقتلون أهلها وينهبون ما فيها...

حملتان على العالم الإسلامي في سنة واحدة، حملة شرقية وحملة غربية، حملتان توحدتا في الهدف: تخريب المدن وذبح أهلها وسبيهم ونهبهم!.

حملتان توحدتا في الهدف، وكان من حق الإسلام أن تتناقضا، كان من حق الإسلام أن لا يكون ميدان إحداهما في الشرق وميدان الأخرى في الغرب، بل إن تلتقيا معا في الغرب، أن تلتقيا متصادمتين تصادما دمويًا يرد الغربية إلى غربها البعيد الذي قدمت منه!..

لم تنته الحرب بين السلاجقة فالنصر الذي أحرزه بركيارق لم تدم نتائجه طويلا. لقد كان من نتائج هذا النصر أن أقبل الناس على بركيارق فاستطاع أن يجمع جيشا مكونا من مئة ألف مقاتل!.

وهنا نعود إلى ما قلناه من قبل من أن استصراخ العالم الإسلامي كان ممكنًا، وأن تأليف جيش قوي كبير يضم مئات الألوف يزحف للقضاء على الصليبيين كان مستطاعا لو كان هؤلاء القادة مخلصين للإسلام مهتمين بحاضر المسلمين ومستقبلهم.

فإذا كان بركيارق قد جمع حوله مئة ألف مقاتل، من أجل هدف تافه لا يعدو أطماع الدنيا، فإنه مستطيع أن يجمع أضعاف هذا العدد من أجل هدف سام، لو كانت له أهداف سامية!. وما أبعد هؤلاء السلاجقة عن الأهداف السامية!.

على أن بركيارق بعد أن تحقق له النصر لم يفكر بعيدا، ولم يعد لهذا الجيش ما يكفل له دوام التجمع، والواقع هو أن مثل هذا الجيش كان يجب أن يكون له هدف واضح كبير يكفل استمرار بقائه، ولكن لا السلطان كان يملك هذا الهدف، ولا من هم حول السلطان كانوا يملكونه.

ففوجئوا أول ما فوجئوا بفقدان الحيرة، فلم يحاولوا تلافي أمر فقدانها، لفقدان الهدف، لذلك أخذوا يتفرقون فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه في الحلة.

وقامت ثورة على السلطان بركيارق بقيادة الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بأذربيجان، فسير إليه كربوقا في عشرة آلاف فارس.

دائما هذا الاسم الكريه كربوقا أمامنا، ودائما هو في صميم الأحداث، لا يلويه عنها الخزي الذي لحق به في إنطاكية، ولا العار الذي حلله بفتحه باب بلاد الشام أمام الصليبيين ليلجوا منه إلى فتح القدس.

واستأذن الأمير (آياز) في أن يقصد داره بهمذان يصوم بها شهر رمضان ويعود بعد الفطر فأذن له، وتفرقت العساكر لمثل ذلك، وبقي بركيارق في العدد القليل.

على أن بركيارق فوجيء بأن أخويه محمد وسنجر قد جمعا الجموع، وحشدا الجنود، وأنهما لما بلغهما تفرق ما كان لديه من جيوش جدا في السير إليه، مسرعين

في طي المراحل مرحلة بعد مرحلة، عازمين على مباغتته قبل أن يستطيع تجميع من كانوا مجتمعين حوله. ولما أصبحا غير بعيدين عنه صمم على اللحاق بآياز في همذان.

ولكن الناس هم الناس فلما لاح لهم أن الدنيا قد بدأت تدبر عنه، طمع فيه من كان يهابه وأيس منه من كان يرجوه، كما قال ابن الأثير.

وكان من أول المنقلبين عليه آياز نفسه، فقد بلغه وهو في الطريق إليه أن آيازاً قد بعث إلى السلطان محمد لينضم إليه.

لذلك حول بركيارق وجهة سيره عن همذان إلى خوزستان فكتب وهو في الطريق إلى بني برسق يطلب إليهم الوصول إليه. وكان هؤلاء قد بلغهم امتناع آياز عليه، كما بلغهم تعاظم قوة محمد فرفضوا الاستجابة.. لذلك اضطر للتوجه إلى العراق، وفي طريقه إلى العراق وعند وصوله إلى حلوان فوجيء بتطور لم يكن ينتظره، ذلك أن آياز قد بعث إليه أن يتوقف عن السير إلى العراق لأنه سائر إليه.

ولم يكن ذلك كرم أخلاق من آياز، بل كان حلقة من سلسلة الانتهازية والتذبذب والوصولية، فإن محمد بن ملكشاه قد رفض قبول آياز بعد أن صار مستغنيا عنه بما أصبح يملك من قوة واقتدار، وأكثر من ذلك فقد وجه حملة إلى همذان مما اضطر محمدا إلى الفرار عنها متخليا عن ذخائره فيها من مال وكراع ودواب، ما كان شيئا كثيرا وقع كله غنيمة في يدي محمد.

والتقى بركيارق بآياز فكان كل ما بقي لهما من الجند معًا خمسة آلاف فارس.

وقد كان جديرا ببركيارق أن لا يقبل آيازا بعد ما بدا له من خيانته، ولكنه كان بحاجة لأي رجل ولأن المحنة وحدت بينهما.

ولم يكن أمام الرجلين سوى مواصلة السير إلى العراق حيث وصلا بغداد، بعد أن كان الخليفة قد أرسل موكبا لاستقبال بركيارق، على أن بركيارق باعتباره السلطان الشرعي كان يعوزه المال للإنفاق على نفسه وعلى عساكره فأرسل إلى

الخليفة طالبا إنجاده بالمال، وبعد المداولات والمراجعات تقرر أن يصرف له خمسين ألف دينار.

ولم يكن ذلك كافيا فامتدت أيدي بركيارق وأصحابه إلى أموال الناس، ولم يتورعوا في ذلك عن أي شيء حتى ضج الناس وتمنوا زوالهم.

على أن من أفظع ما فعلوه هو استصفاؤهم أموال قاضي جبلة أبي محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صلحية، فقد كان لهذا الرجل نكايات في الصليبيين أقضت مضاجعهم، ثم أدرك أنهم لن يتركوه بعد أن فعل بهم ما فعل فرحل بأهله وماله إلى العراق لائذا به وترك أمواله في مدينة الأنبار، وجاء بغداد ليقرر كيف يستقر؟

ولما عرف بركيارق بوصوله أرسل إليه أنه بحاجة إلى ثلاثين ألف دينار فاستجاب الرجل لذلك وقال إن أمواله في الأنبار بالدار الذي نـزلها، فلما عرفوا ذلك أرسلوا إلى الأنبار من استولى على كل ما يملك الرجل من مال.

التلاقي في بغداد

واصل السلطان محمد وأخوه سنجر سيرهما إلى بغداد بعد أن استولى محمد على همذان وغير همذان، وكان قد استطاع أن يجمع جيشا يزيد على عشرة آلاف فارس، كان عدته في الزحف إلى بغداد. وكان بركيارق في بغداد مريضًا يتوقع أصحابه موته في كل ساعة.

وكانت أخبار تقدم محمد إلى بغداد تصلهم. يقول ابن الأثير:

(فماج أصحابه وخافوا واضطربوا وحاروا، وعبروا به في محفة إلى الجانب الغربي فنـزلوا بالرملة ولم يبق في بركيارق غير روح يتردد وتيقن أصحابه موته وتشاوروا في كفنه وموضع دفنه).

ويتابع ابن الأثير كلامه قائلا: (فبينما هم كذلك إذ قال لهم:

إني أجد نفسي قد قويت وحركتي قد تزايدت، فطابت نفوسهم وساروا، وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط).

إذن فإن محمدا قد دخل بغداد دون أن يلقى مقاومة، فمرض بركيارق، وقد شغله وشغل أصحابه عن التفكير في الدفاع، وكان همهم النجاة بأنفسهم.

وكان من الطبيعي أن يضطربوا ويخافوا ويحاروا، فموت بركيارق سيجعلهم وجهًا لوجه أمام انتقام محمد، ومع ذلك فقد تماسكوا وحملوا سلطانهم في محفة عابرين به دجلة من جانب بغداد الشرقي إلى جانبها الغربي؛ لأن وصول محمد إلى بغداد سيكون في الجانب الشرقي وبذلك يكون دجلة حاجزا بينهم وبين جيوش محمد.

على أننا لا بد لنا من أن نتساءل عن حقيقة هؤلاء الأصحاب، حقيقتهم العددية، وحقيقتهم العسكرية، وحقيقتهم الخلقية.

ونعني بالحقيقة الخلقية هنا: ما إذا كان ثباتهم مع بركيارق بعد أن صار إلى ما صار إليه من الوهن: الوهن الجسدي والوهن العسكري، هو وفاء منهم للرجل الذي كان بالأمس سلطانهم القوي الراتعين في ظله في خفض من العيش ودعة ونفوذ سلطان، أم أن ذلك خوف من المصير المجهول الذي ينتظرهم من العدو المنتصر، خوف يدعوهم إلى التماسك لمواجهة الخطر الداهم؟!.

ثم ما هي حقيقتهم العددية الموصلة إلى حقيقتهم العسكرية؟ إن ابن الأثير يقول: (وساروا وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة، وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط).

وهذا يدل على أن بقايا جيش كان لا يزال يحيط ببركيارق، بقايا جيش ليس مؤهلا للصدام بجيش محمد، وكل ما استطاعته هذه البقايا هو أن ترامي أعداءها بالنبل من وراء نهر دجلة وأن تتبادل وإياها السباب.

ومن فجائع هؤلاء الحكام المتنازعين على التحكم بالشعوب أنهم يستحلون نهب تلك الشعوب، فهؤلاء جماعة بركيارق نهبوا البلاد التي مروا فيها، من بغداد إلى واسط.

والخليفة المستظهر بالله وقد أيقن برحيل بركيارق، بل ربما كان متوقعًا موته - أسرع فأرسل إلى محمد توقيعًا يتضمن الامتعاض من سوء سيرة بركيارق ومن معه والاستبشار بقدومه!..

ويقول ابن الأثير: وخرج الخلق كلهم إلى لقائه!.

على أن إقامة محمد وأخيه سنجر لم تمتد في بغداد أكثر من حوالي شهرين قصدا بعدهما العودة إلى موقعيهما: محمد إلى همذان، وسنجر إلى خراسان.

وإذا كان جماعة بركيارق قد نهبوا البلاد من بغداد إلى واسط، ثم نهبوا واسط نفسها كما سيأتي، فإن جيش محمد الذاهب إلى همذان لم يقصر هو الآخر في النهب، فيقول ابن الأثير عنهم:

فنهبوا البلاد وخربوها!..

بركيارق من جديد

يبدو أن ممــــاشاة الخليفة لمحمد وطعنه ببركيارق قد بلغت بركيارق، فاعترض المنتمين إلى الخليفة في واسط، وأسمعهم من القول في الخليفة ما قال ابن الأثير: أنه يقبح نقله، وبلغ ذلك الخليفة فأرسل يطلب إلى محمد العودة إلى بغداد فعاد، وإذا كان ابن الأثير يقول إن الخليفة عزم على الحركة مع محمد لقتال بركيارق، فلنا أن نقول: إن استدعاء الخليفة لمحمد لم يكن في الأصل للانضمام إليه في مهاجمة محمد، بل خوفًا من أن يستفرد بركيارق الخليفة فينقض عليه في بغداد.

على أن محمدا طمأن الخليفة بأنه يستطيع وحده تأديب بركيارق ولا حاجة لمسير الخليفة معه، وبالفعل ترك محمد بغداد معاودا السير إلى مقصده.

أما بركيارق الذي وصل إلى واسط مريضًا، فإن وصوله إليها أرعب عسكر واسط، كما أرعب أهلها؛ لأن الجميع لا يدرون أي موقف يتخذونه منه، فإذا

والوه فربما غلب محمد على الأمر فانتقم منهم، وإذا قاوموه، فهو مقيم فيهم يستطيع أذيتهم، لذلك ارتأوا حلا وسطا، لا هو موالاة، ولا هو معاداة. بل هو موقف سلبي إذا كان أقرب إلى عدم الموالاة فهو ليس صريح المعاداة.

أما العسكر فقد أخذوا نساءهم وأولادهم وأموالهم وانحدروا إلى الزبيدية وأقاموا هناك.

وأما الأهلون فقد لزموا أول الأمر بيوهم، فلم يكن يرى في الطرق والأسواق أحد منهم، ولكنهم لم يسلموا، فإن عسكر بركيارق نهب البلد.

وهكذا نرى أن لا صلة تربط بين هؤلاء الحكام وبين الشعب، وأن لا ولاء لهم في قلوب أبنائه، ولا محبة تربطهم به، فإذا قوي أمر أحدهم انصاع الناس له ماداحين، وإذا ضعف انقلبوا عليه ناكثين.

وهكذا فبعد أن شفي بركيارق من مرضه وبدأ أنه قد استقر في واسط، بعث إليه العسكر من الزبيدية يطلبون الأمان ليحضروا إليه، فأمنهم وجاءوا فاستقوى بهم، ثم عضدوه في السير معه إلى بني برسق الذين لم يلبثوا أن قدموا إليه، وهكذا أخذ يتقوى شيئًا فشيئًا حتى صارت له قوة عسكرية مرموقة، فرأى عند ذلك أن يهب لمطاردة أخيه محمد، فالتقيا ومحمد في طريقه إلى نهاوند، وكانا في قوتين متساويتين، هي أربعة آلاف فارس لدى كل واحد منهما.

ولما كادت القوتان تتصادمان، التقى بعض مقدمي القوتين وتذاكروا في أمر الصلح بين الأخوين بعد أن رأوا ما آل إليه أمر الناس من البلاء للنـزاع بينهما.

ولم يكن أبلغ في التعبير عن نفور الشعب مما يجري، واعتقاد الناس أنهم أخوان يحملهم حكامهم على التذابح، من أنه حين التصاف بين الفريقين وخروج مبارز من أحد الصفين، وخروج مبارز له من الصف الآخر، كانا بمجرد أن تقع عين أحدهما على الآخر يعتنق كل واحد منهما مبارزه ويسلم عليه، ثم يعود عنه.

وانتهى أمر مفاوضات الصلح إلى أن يتقاسم الأخوان البلاد، ويتقاسما اللقب، فيكون لقب بركيارق: (السلطان) ولقب محمد: (الملك)، على أن يكون له جنزة وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل ومضى كل منهما إلى مقره.

ثم عاد محمد فاقتنع أنه مغبون في هذه المصالحة، وأن الأمراء خامروا عليه فعاد الأمر إلى ما كان عليه من التنازع في تفاصيل مهلكة دامية نتجاوز ذكرها.

في الجانب الآخر من الوطن الإسلامي

في الوقت الذي كان فيه هؤلاء السلاجقة يتناحرون في المشرق الإسلامي وينحرون الشعب معهم ويبهضونه بما لا يطيق حمله، في الوقت الذي كان فيه بركيارق مثلا يحاصر أخاه محمدا في أصفهان ويضيق عليها، فتعدم فيها الأقوات، ويرغم محمد أعيان البلد على أن يقرضوه، فيأخذ منهم مالا عظيما، ثم يعود فيقسط على البلد شيئا آخر فيأخذه بالشدة والعنف، ثم يضطر للفرار من البلد، فيصبح أمر أصفهان كما وصفه ابن الأثير: (فلما فارق محمد أصفهان اجتمع من المفسدين والسوادية ومن يريد النهب ما يزيد على مئة ألف نفس وزحفوا إلى البلد بالسلالم والدبابات وطموا الخندق بالتبن والتصقوا بالسور، وصعد الناس في السلالم فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد أن يحمي حريمه وماله فعادوا خائبين).

وفي الوقت الذي كان الوالي السلجوقي إسماعيل بن سلانجق يقتل من أهل مدينة (الري) مقتلة عظيمة، ويرسل من شعورهم إلى سلطانه بركيارق ما عمل منه مقاود وشكلات للدواب. في هذا الوقت بالذات وفي السنة نفسها كان صنجيل الصليبي يحاصر طرابلس ويرغم أهلها على أن يدفعوا إليه مالا وخيلا ويتقدم منها إلى مدينة (أنطرسوس) فيحصرها ويفتحها ويقتل من بها من المسلمين، ثم يسير إلى حمص فينازلها ويحصر أهلها ويملك أعمالها. وكان القمص ينازل عكا ويضيق عليها، وكان الصليبي صاحب الرها يسير إلى بيروت ويحصرها ويضايقها.

ومن بين هذه الظلمات تتوقد شعلة في القاهرة فتخرج عساكرها إلى عسقلان ليمنعوا الإفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية على حد تعبير ابن الأثير،

فيسمع بهم بردويل صاحب القدس فيسير إليهم فيقاتلهم فينصر الله المسلمين وينهزم الإفرنج ويكثر القتل فيهم، وينهزم بردويل ويختفي في أجمة قصب، فيحرق القاهريون تلك الأجمة وتلحق النار بعض جسد بردويل، وينجو منها إلى الرملة فيتبعه القاهريون ويحيطون به فيتنكر ويخرج منها إلى يافا، ويكثر القتل والأسر في أصحابه.

وبركيارق الذي أوفد كربوقا إلى أنطاكية فكان من أنانيته وحبه لذاته وخيانة جيشه أن فر منهزما تاركًا باب العالم الإسلامي مفتوحًا بلا حارس أمام الصليبيين، كربوقا هذا كان بركيارق نفسه يرسله هذه المرة إلى أذربيجان فيستولى على أكثرها، ثم يمرض بها ويموت...

وباغي سيان حاكم إنطاكية الذي لم يكد يسمع صوت بوق الصليبيين حتى فر هاربا تاركًا أسرته عرضة للسبي، باغي سيان هذا الذي لم يكن فيه ذرة من النخوة والحمية تحملانه على أن يستميت دفاعًا عن شرف أسرته، بل تركها تسبى بأيدي الإفرنج، استطاع الدانشمند في هذا الوقت أن يجعل من شروط إطلاق بيمند من الأسر إطلاق ابنة باغي سيان من السبي.

في هذا الوقت الذي لم يستقر فيه أمر السلاجقة لا في بغداد ولا ما وراء بغداد وصولا إلى أبعد مكان، وظلت البلاد في تجاذب بينهم تسفك فيها الدماء وتنهب الأموال ويذل الناس. كان أمر الصليبيين قد استقر في القدس ويافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية، وفي فلسطين كلها ما عدا عسقلان، وفي اللاذقية وإنطاكية. ومن الجزيرة: استقر أمرهم في الرها وسروج.

وكان صنجيل يحاصر طرابلس، وفيها فخر الملك بن عمار يقود الدفاع عنها ويرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الإفرنج ويقتلون من وجدوا، وقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لنقل المواد من الإفرنج فيرحلوا عنه.

ونذكر هنا - للاعتبار - حادثة تدل على حقيقة هؤلاء السلاجقة، فإن أحدهم بلك بن بهرام بن أرتق كانت له مدينة سروج فأخذها منه الصليبيون،

فبدلا من أن يعمل لاستردادها منهم، توجه إلى مدينة عانة الإسلامية فملكها ونهبها وسبي جميع نسائها!.

ثم كان الصليبـيون يمتدون فيحتلون جبيل، ثم عكا.

نقطة بيضاء

نحن لا نبخس الناس أشياءهم فإذا سجلنا تلك الصفحات السود فإننا حين نرى نقطة بيضاء نسرع إلى تسجيلها وننصف أصحابها فمن ذلك الهوان الذي ارتمى فيه السلاجقة أمام الصليبـيين يطل اثنان بنخوة إسلامية وحمية فائقة، اثنان كان بينهما ثارات وفي قلبيهما أحقاد، وكان كل منهما يستعد للقاء صاحبه، هذان الاثنان هما: معين الدولة سقمان، وشمس الدولة جكرمش، وفيما كل منهما يتهيأ للانقضاض على صاحبه، تذكرا ما عليه المسلمون من الذل وما أحاق بديارهم من الاغتصاب والانتهاب والانتهاك، فنسيا ذحولهما، وأرسل كل منهما إلى صاحبه عارضا عليه أن يلتقيا، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فاستجاب كل منهما لطلب صاحبه، فاجتمعا على (الخابور) وتحالفا وسارا إلى لقاء الصليبـيين.

وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا مع الصليبـيين على نهر البليخ فكان النصر لسقمان وجكرمش، فقتلوا من الصليبـيين، وأسروا، وفاضت الغنائم، وكان بين الأسرى القمص بردويل صاحب الرها، وكانت معظم الغنائم في أيدي جماعة سقمان، وكذلك كانوا هم الذين أسروا القمص، وكادت الفتنة أن تقع لأن أصحاب جكرمش أخذوا القمص من خيام سقمان.

وركب أصحاب سقمان للقتال فردهم، وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين.

وفي المقابل فإنه حين توفي الملك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق اختلف الورثة بين ولد له صغير، وبين عمه بكتاش بن تتش، وانضم إلى تتش الأمير إيتكين صاحب بصرى، وخرج هذان الاثنان إلى حوران، ولحق بهما كل من

يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الصليبـــيين يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك وسار إليهما فاجتمعا به واتفقا معه.

والسلاجقة الذين تخلوا عن البلاد للصليبيين، لم يتخلوا عن البلاد لأهل البلاد، والسلاجقة الذين عاش الصليبـــيون في جوارهم بأمان واطمئنان، لم يمنحوا هذا الأمان وهذا الاطمئنان لمواطنيهم، ففي عنفوان ذاك المد الصليبـــي المتدافع دفعة. كان الأمير (بزغش) قائد عساكر السلطان سنجر، يتقدم لا إلى الوقوف في وجه ذاك المد، ويجمع الجموع لا لقتال الصليبـــيين، بل كان يتقدم للقضاء على جمهرة من أبناء البلاد وسكانها، ويجمع الجموع لتخريب البلاد ونهبها وقتل رجالها وسبي نسائها.

وكما قلنا، ونكرر هذا القول: كان الغرب الإسلامي يعاني المحنة على أيدي الصليبـــيين، وكان الشرق الإسلامي يعاني المحنة نفسها على أيدي السلاجقة.

وأنقل هنا عبارة ابن الأثير نفسها، فابن الأثير يقول: (جمع بزغش كثيرًا من عساكر خراسان، وأتاه كثير من المتطوعة، وسار إلى قتال الإسماعيلية، فقصد طبس وهي لهم فخربها وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيها القتل، والنهب، والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة!).

لم يكن هؤلاء السلاجقة أرحم في الأرض الإسلامية من الصليبـــيين، وبزغش هذا أين هو من الصليبـــيين الطاغين في أرض الإسلام، وهؤلاء المتطوعة أين هم عن التطوع لإنقاذ القدس من براثن مغتصبها؟! وابن الأثير يقر بأن الإسماعيليين كانوا مواطنين مسالمين ككل المواطنين، فهو لم يشر إلى هفوة أو كلمة أو حركة لهم يستحقون معها ذرة مما ارتكبه فيهم القائد السلجوقي حليف الصليبـــيين وإن لم يحالفهم؛ لأن من يسالمهم وينكل بمواطنيه هو الحليف الطبيعي لهم...

وابن الأثير: هذا المؤرخ المندفع بحميته للبكاء على ما آل إليه أمر المسلمين، والشاكي إلى الله تفرق السلاطين، وانشغالهم عن حماية الإسلام والمسلمين.

ابن الأثير يعلق على ما حدث قائلا:

(ثم إن بزغش، بعد عوده من هذه الغزاة، توفي، وكانت خاتمة أمره: الجهاد، -رحمه الله-.

تخريب المدن والقرى في بلاد الإسلام وقتل رجالها وسبي نسائها ونهب أموالها، يعده ابن الأثير غزاة ويعتبره جهادا، ويدعو الله لمرتكب ذلك بالرحمة!.

وتدخل سنة ٤٩٨هـ وفيها يموت السلطان بركيارق بعد أن أوصى بولاية العهد لولده ملكشاه ذي الأربع سنين وثمانية أشهر من عمره. وكانت بوفاته في بروجرد وهو في طريقه من أصفهان إلى بغداد، فلما أيقن بالموت أحضر جماعة الأمراء وأوصاهم بولده وأمرهم بمتابعة السير إلى بغداد، وبقي هو في بروجرد على أمل العودة إلى أصفهان فمات دون تحقيق ذلك، ولكن جثته حملت إلى أصفهان فدفنت فيها.

مات بركيارق وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة كانت حافلة بالأحداث التي شهدنا بعضها فيما مر من القول.

وخطب لملكشاه الثاني الطفل على منابر بغداد، ولكن الشقاق لم يكن قد انتهى فهذا محمد بن ملكشاه أخو بركيارق الذي مر اسمه معنا كثيرا يهاجم الموصل ليقضي فيها على (جكرمش) فيكثر القتل في عسكرها، ولما وصل خبر موت بركيارق إلى جكرمش سلم الأمر إلى محمد.

ثم سار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وغيره من الأمراء يحاول انتزاع ملكها من ابن أخيه، وكان المباشر لأمور السلطان الطفل: الأمير (آياز).

ووصل السلطان محمد إلى بغداد ونـــزل في الجانب الغربي منها بأعلاها، فخطب له في هذا الجانب من بغداد، ولملكشاه بن بركيارق في الجانب الشرقي!.

خطبتان تمثلان سلطتين في مدينة واحدة هي عاصمة الخلافة!.

وكان قسم من بغداد لم يدخل في نفوذ إحدى السلطتين وفيه جامع المنصور، فلم يخطب لأحد من السلطانين، بل قال الخطيب عوضا عن الخطبة لأحدهما: اللهم أصلح سلطان العالم، وسكت.

لنا أن نفسر موقف هذا الخطيب بأحد تفسيرين: إما أن يكون الخطيب مذبذبًا انتهازيًا لا يدرى لمن تكون الغلبة في الغد، فهو لا يريد أن يتورط بإعلان الولاء لأحد المتنازعين. وإما أن يكون مخلصا ساءه هذا الخلاف، لا سيما في هذه الظروف التي يعاني فيها المسلمون ما يعانون من إذلال الصليبـيين لهم، بينما ينشغل حكامهم بأنفسهم وشقاقهم وتقاتلهم فيما بينهم، فأرسلها دعوة صالحة موجزة...

نحن نريد أن نميل إلى الرأي الثاني، لأننا نحسن الظن بالأمة، ونوقن أن فيها من كوامن الخير والحمية والنجدة والشهامة ما لو أهيب بها لدفعت شر الصليبـيين وعدوانهم.

وخير ما يمثل الأمة، وصفتها الحقيقية، هو هذا الخطيب المجهول...

وبعد أن كاد القتال أن ينشب بين الفريقين المتنازعين سلم (آياز) بالأمر الواقع ومشى للسلطان محمد. وتوالت الأحداث حدثًا بعد حدث، وفيها من التنازع والتقاتل والقتل ما فيها.

ومن أهم ما كان فيها أن الإسماعيليين الذين أصيبوا بما أصيبوا به من التخريب والقتل والسبي والنهب، ما مر ذكره، وجدوا فرصة للانتقام فكانوا في انتقامهم شرا ممن انتقموا منهم، إذ نالوا في انتقامهم من الأبرياء والضعفاء والقريبين والبعيدين، لا سيما قاصدي بيت الله للحج.

وكما نقلنا هناك عبارة ابن الأثير في وصف ما جرى على الإسماعيليين لننقل هنا أيضا إنصافا للحقيقة عبارة ابن الأثير فيما أجراه الإسماعيليون. قال ابن الأثير:

(في هذه السنة (٤٩٨) سار جمع كثير من الإسماعيلية من (طريثيث) عن بعض أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم...

وفي هذه السنة اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، ولم يكفوا أيديهم عمن يريدون قتله، لاشتغال السلاطين عنهم. فمن جملة فعلهم: أن قفل الحاج تجمع، هذه السنة، مما وراء النهر، وخراسان، والهند، وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى خوار الري،

فأتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً).

ونحن هنا لا نستطيع أن نتهم ابن الأثير بالمبالغة، لأنه حين تحدث عما جرى على الإسماعيليين وصف الشدة التي نـــزلت بهم بمثل ما وصف ما أنـــزلوه هم من الشدة في الحجاج وغيرهم.

ولا يشفع للإسماعيليين أنهم كانوا يثأرون لما نــزل بهم ظلمًا، وأن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على من فعلوا بهم ما فعلوا، فالثأر لا يكون من الحجاج البريئين القادمين من كل مكان، والحقد على الحكام لا يجوز أن يبعث على الانتقام من الشعب.على أننا ونحن نقول ذلك لا ننسى مسئولية الحكام عما جرى، هذه المسئولية التي أوضحها ابن الأثير بقوله:

(لاشتغال السلاطين عنهم).

لقد كان أول واجبات السلاطين حفظ الأمن، ورعاية أمور الشعب، وحمايته من عبث فريق منه بفريق آخر، ولكن سلاطين السلاجقة كانوا في شاغل عن ذلك بالاقتتال فيما بينهم، والتنازع على الاستئثار بظلم الناس. وإذا كانوا هم وجنودهم لا يتورعون عن السلب والتخريب والقتل والنهب فكيف يطلب من الناس أن يتورعوا عن ذلك؟! إنهم وهم الذين اعتدوا على الإسماعيليين الذين لا ذنب لهم، جروا الإسماعيليين على أن يعتدوا على من لا ذنب لهم.

في غرب العالم الإسلامي

إذا كان الجانب الشرقي من العالم الإسلامي ظل يموج ويمور بمحن السلاجقة فيه، فكذلك كان الجانب الغربي يموج ويمور بمحن الصليبـــيين فيه، غير أن السلاجقة الذين اعتبروا أنفسهم غير ملزمين بشيء تجاه العالم الإسلامي، وإن استباحه الصليبـــيين له لا تعنيهم، فانفردوا بالجانب الشرقي من هذا العالم مشغولين بأنفسهم، غير مبالين بما يجري في الجانب الآخر من ذبح للمسلمين وانتهاك لحرماتهم، إذا كان الأمر كذلك حتى الآن، فإننا سنرى أن فيهم من تعاون مع

الصليبـــين، وقد مر معنا شيء من هذا من قبل، وسنرى هنا لا تعاونا منهم مع الصليبـــين مجرد تعاون، بل انضماما كاملا إلى صفوفهم.

لم تهدأ المعارك مع الصليبـــين، فهذا (طنكرى) الصليبيـــي صاحب إنطاكية يحاصر حصن أرتاح، وفيه نائب الملك رضوان، وضاق الأمر على المسلمين، فأرسل النائب إلى رضوان يستنجد به، فسار رضوان في نجدة قوية من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة بينهم ثلاثة آلاف متطوع.

وبعد أن بدأت المعركة بنصر المسلمين عادت الهزيمة فحاقت بهم وقتل وأسر الكثير منهم، ولم ينج إلا الشريد، وسقط أرتاح بأيدي الصليبـــين.

وأخرج الأفضل بن بدر الجمالي حمله من القاهرة، فتصدى لها بغدوين الصليبيـــي صاحب القدس، فوقعت المعركة في مكان بين عسقلان ويافا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر، بل ثبتا كلاهما.

يقول ابن الأثير عن هذه المعركة: وكان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تتش (السلجوقي).

هذي هي الأمجاد السلجوقية، لا يكتفون بأن يتخلوا عن العالم الإسلامي، بل ينضموا إلى الصليبـــين لقتال جيوشه..

وهنا نعود إلى الدكتور عمر التدمري لنقول له: لم يكن الأمر كما زعمت من أن الصراع في بلاد الشام كان بين السلاجقة والفاطميين، بل كان بين الجماليين، وبين الصليبـــين متحالفين مع السلاجقة.

وبينما الفتن مستمرة بين السلاجقة في الشرق يستمر الصراع بين المسلمين والصليبـــين في الغرب. وقد يعن لأحد من السلاجقة أن يوائب الصليبـــين، ثم لا يلبث أن يعود إلى حقيقته كهذا الذي حدث للملك رضوان بن تتش حين عزم على حرب الصليبـــين فاجتمع إليه بعض الأمراء السلاجقة لهذه الغاية، ولكنهم ارتأوا أن يهاجموا أولا (جكرمش) صاحب الموصل وما والاها، فساروا إليه، فلم يلبث الأمر

أن انقلب إلى فتنة بينهم، وتآمر بعضهم على بعض واقتتلوا، ونسوا الصليبيين وقتالهم، وانصرف أتباعهم من التركمان إلى نهب مواشي المسلمين.

وتملك الصليبيون حصن (أفامية)، ومدينة سرمين من أعمال حلب، كما كانوا قد ملكوا مدينة جبيل، وتقدم (صنجيل) الصليبيي منها إلى حصار طرابلس التي كان يحكمها بنو عمار، وثبت له بنو عمار فلم يقدر عليها، ولما رأى أن الحصار سيطول، بنى بالقرب منها حصنا وأقام تحته ربضًا، ولبث محاصرًا لطرابلس يلتمس منها غرة تمكنه من التغلب عليها.

ولكن فخر الملك أبا علي بن عمار كان له بالمرصاد، فهاجمه وأحرق ربضه، وشاء قدر صنجيل أن يقف هو وبعض قادته وفرسانه على أحد سقوف الربض المحترقة، فانخسف بهم السقف، فأصيب صنجيل إصابة بالغة، لم يلبث بعدها أكثر من عشرة أيام مات بعدها متأثرًا من إصابته بانخساف السقف.

وعز على الصليبيين ما جرى عليهم في حصار طرابلس، فأرسلوا إليهم من اللاذقية التي كانوا يحتلونها ميرة في البحر، فلم يكن ابن عمار غافلا عنهم، فأرسل في البحر قطعًا من أسطوله اعترضت قطع الصليبيين فقامت معركة بحرية بين الفريقين ظفر فيها أسطول ابن عمار، وأسر قطعة بحرية للصليبيين عاد بها وبمن فيها من أسرى ومؤن إلى طرابلس.

ودام القتال بين بني عمار وبين الصليبيين على طرابلس عشر سنين.

ويقول ابن الأثير: وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد، ثم يقول ابن الأثير: وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفي، فلماَ قلّتْ الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الإفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقة والجبل، فجعل الإفرنج جمعًا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد..

فأرسل ابن عمار وبذل للإفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين إليه، فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة.

هكذا كان فخر الملك أبو علي بن عمار بطل الموقف بكل ما في البطولة من شجاعة وحزم وتضحية وحسن تدبير.

ولو كان الأمريكيون واليهود سائدين يومذاك بوسائلهم الإعلامية، لنبزوه بلقب الإرهابي. فحيا الله ابن عمار: الإرهابي الأول في التاريخ الإسلامي.

ويصف ابن الأثير حال الناس في طرابلس قائلا: فعدمت الأقوات وخاف الناس على نفوسهم وأولادهم وحرمهم...

هكذا كانت الحال في الغرب الإسلامي جهادا ونضالا للصليبيين، وكذلك كانت في الشرق على أيدي السلاجقة:

جهادا ونضالا للمسلمين!.

يذكر ابن الأثير- خلال سرده للأحداث المتقدمة - خبرًا موجزًا لا بد من الوقوف عنده بعض الوقت: في هذه السنة ورد إلى بغداد إنسان من الملثمين ملوك المغرب، قاصدا دار الخلافة، فأكرم، وكان معه إنسان يقال له: الفقيه، من الملثمين أيضا، فوعظ الفقيه في جامع القصر، واجتمع له العالم العظيم، وكان يعظ وهو متلثم لا يظهر منه غير عينيه. وكان هذا الملثم قد حضر مع الأفضل (بن بدر الجمالي) أمير الجيوش بمصر وقعته مع الإفرنج، وأبلى بلاء حسنا.

وكان سبب مجيئه إلى بغداد: أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين، أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحج، يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه، فأمر بقتل من ظفر به منهم، فلما ولي ابنه الأفضل أحسن إليهم واستعان بمن قاربه منهم على حرب الإفرنج، وكان هذا من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الإفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدا، وكان شجاعا فتاكا مقداما.

من هم الملثمون؟

لا بد لنا أولا من التعريف بالملثمين الذي ينتمي إليهم هذا الرجل الذي تحدث عنه ابن الأثير هذا الحديث الموجز:

الملثمون هم الذين عرفوا في التاريخ باسمهم الآخر الأشهر: (المرابطون).

وهناك اختلاف في سبب تسميتهم بالملثمين وأقربها إلى المنطق: أنهم كانوا يتلثمون دفعًا لهجير الصحراء صيفا، وزمهريرها شتاء، وقيل: إن سبب اللثام لهم، أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا المشايخ، والصبيان، والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه، حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأي جمعًا عظيماً، فظنه رجالا، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق الغنم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم.

فبينما هم في جمع الغنم من المراعي إذ أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا.

ابتداء الحركة وتطورها

كـــان ابتداء حركة المرابطين (الملثمين) سنة ٤٤٨هـــ، ويرد ابن الأثير نسبهم إلى (حمير) فيقول: هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، أشهرها: لمتونة، وجدالة، ولمطة. وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق ﷺ فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها. والله أعلم بحقيقة هذا النسب..

الرجل المحب للدين وأهله - كما يصفه ابن الأثير- المسمى:

(الجوهر) من قبيلة جدالة، ساقه حبه للدين إلى الذهاب للحج، فمر بفقيه في مدينة (القيروان) يعظ جماعة ويفقههم في الدين.

والجوهر القادم من الصحراء، حيث البداة هناك كالبداة في كل صحراء لا يعرفون من الدين إلا ألفاظا يرددونها، أصغى إلى هذا الفقيه وكلما طال إصغاؤه كثر تعجبه مما يسمع، فالدين إذن ليس الشهادتين فقط، إن له أحكاما لا يدرون في الصحراء منها شيئًا.

ومضى الجوهر إلى الحج ثم عاد مارا بالفقيه المفقه وأطلعه على ما في نفسه قائلا: ما عندنا من هذا في الصحراء من شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام..

وقفة (الجوهر) على الفقيه في طريق مسيره إلى الحج، ثم وقفته عليه حين عودته من الحج وحديثه معه كانتا السبب في نشوء حركة دينية واسعة، ثم في نشوء دولة مترامية الأطراف امتدت من شمال أفريقيا حتى أقاصي الأندلس، نشبت فيها المعارك وسفكت الدماء وكثر القتلى، وكان بينهم (الجوهر) نفسه...

لقد لبى الفقيه طلب (الجوهر) فبعث معه رجلا اسمه عبدالله بن ياسين الجزولي، وكان في نظره فقيها صالحا، فسارا حتى بلغا قبيلة لمتونة، فأول ما فعله الجوهر ليرفع منـــزلة الفقيه بين القبيلة أن نـــزل عن جمله وأخذ بزمام جمل الجزولي يقوده، فأقبل الناس يهنئونه بالإياب ويسألونه عن رفيقه، فأخبرهم أنه قادم ليشرح لهم العقائد الإسلامية ويدعوهم إلى تطبيقها، فلما أفاض الجزولي في الحديث، قالوا له:

أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه.

اذهب إلى غيرنا.

إن هذه الصورة من الحوار هي قبل كل شيء طريفة كل الطرافة، ثم هي تدلنا على حقيقة تطبيق الإسلام لا في هذه الصحراء وحدها، بل في الصحراوات كلها: فلا صلاة ولا زكاة ولا حدود، إنهم لم يذكروا الصيام، فهل كانوا يصومون؟.

إنهم لم يعدوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن قالوا: إن أمرها قريب، وأما غير القريب، والبعيد كل البعد فهو أن تطبق عليهم الحدود!.

فإذا كان كل قاتل يقتل، وكل سارق يقطع، وكل زان يجلد أو يرجم، فيا لكثرة من سيقتل منهم وسيقطع وسيجلد أو يرجم!.

لذلك رفضوا قبول الفقيه الجزولي بينهم.. وإذا كان لنا أن نستنتج تفشي تلك الآثام بينهم، فإننا نستنتج كذلك أن إثمًا كبيرا لا أثر له بينهم، هو: شرب الخمر.

عمل الجوهر والفقيه بالنصيحة فقررا الرحيل إلى مكان آخر.

وكان بين المستمعين لكلام الفقيه شيخ أثقلته السنون وحنكته التجارب، فاستشف من بيان الفقيه وعزمه واستفاضته في الحديث، قدرة على الإقناع وما بعد الإقناع من نجاح.

فعندما رأي الفقيه على جمله راحلا في الصحراء قال:

لا بد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم!.

وصحت نبوءة هذا الشيخ الصحراوي وصدقت فراسته، فكان للجمل وصاحبه في تلك الصحراء وما وراء الصحراء شأن أي شأن!.

ترك الرحلان قبيلة لمتونة ومضيا إلى قبيلة (جدالة)، وهي قبيلة الجوهر، فدعا عبد الله بن ياسين هذه القبيلة والقبائل المجاورة لها إلى مثل ما دعا إليه قبيلة لمتونة.

وهنا اختلف الأمر عما كان عليه في لمتونة، ففي لمتونة كان إجماع على رفض عبد الله بن ياسين ودعوته، وفي جدالة وما جاورها وجد من يستجيب ووجد من يرفض.

عند هذا المفترق انقلب ذاك الشيخ الزاهد العابد المتقشف العازف عن الدنيا انقلب إلى متنمر مقاتل مخطط عازم على سفك الدماء في سبيل إنجاح أمره!.

فصارح المستجيبين إليه بوجوب إعلان الحرب على الرافضين، مخاطبا إياهم بهذا القول: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا شرائع الإسلام واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية وقدموا عليكم أميرا.

فقال الجوهر: أنت الأمير.

وهنا تبدًا دهاء الفقيه وحنكته السياسية وتخطيطه المحكم، فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة. ثم التفت إلى الجوهر قائلا:

ولكن أنت الأمير وكان الجوهر حكيما مخلصا حين رفض الإمارة قائلا:

لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس، وكان وزر ذلك علي.

فقال ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد مشكور الطريقة مطاع في قومه فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة وتتبعه قبيلته فنتقوى بهم.

فعادا إلى لمتونة التي خرجا منها وعرضا الأمر على أبي بكر بن عمر.

عندما جاءا أول الأمر إلى لمتونة ودعيا بدعوهما، لم يذكرا أمره ورئاسته، لذلك لقيا إعراضًا وتجهما، أما اليوم، وقد جاءا يقدمان مع الدعوة ما يقدمان من الإمرة والرئاسة فقد أسرع أبو بكر بن عمر إلى تلبيتهما، فعقدا له البيعة.

ولكن المشكل كان في اللقب الذي يضفي على الأمير الجديد، فالدعوة دينية وليست سياسية. وبالرغم من أنها اعتمدت السيف في طلب انتشارها، وبالرغم من أنها عازمة على التسلط على الناس، فلا بد لأميرها من لقب يميزها عن غيره من المعتمدين على السيف العازمين على التسلط.

و لم يكن ذلك ليعجز الفقيه الداهية البارع في التخطيط، فكما كان حكيما في اختيار رئيس لمتونة للإمارة، كان حكيما في اختيار لقبه، إذ لقبه بأمير المسلمين. فإذا كان هناك من يلقب (أمير المؤمنين)، فهنا من يلقب: (أمير المسلمين).

ولما كانوا قد ضمنوا ولاء لمتونة باختيار رئيسها للقيادة، فقد ذهبوا جميعًا إلى جدالة التي فيها أنصار لهم، فضموا أولئك الأنصار إلى رجال لمتونة، فتآلف لهم من ذلك نواة جيش يمكن الاعتماد عليها في القتال. فقام ابن ياسين يحرض على الجهاد، وأطلق على الجماعة اسم (المرابطون).

أما مخالفوهم فقد أقلقهم هذا التجمع، فتكتلوا لمقاومته، ولكن ابن ياسين منع المرابطين من الاصطدام بهم أملا بإصلاح من يمكن إصلاحه منهم وإضعافهم. فوفق في ذلك ولم يبق على عداء المرابطين سوى ألفي رجل، فعمل ابن ياسين على حصارهم فخندق عليهم، ثم صار المرابطون يخرجونهم جماعة بعد جماعة فيقتلونهم.

هكذا بدأ ابن ياسين يعاونه أبو بكر بن عمر دعوته الدينية بمذبحة رائعة لا شفقة فيها ولا رحمة، وهكذا مشى إلى هدفه الديني دائسًا على الجثث خائضًا في الدماء!..

وإن دعوة – مهما سمت أهدافها – تفتتح بذبح ألفي رجل لهي دعوة جبارة تأباها الإنسانية، ويأباها الدين!.

وأي ضلال يكون فيه الناس، لهو أهون من هدي يقود إلى ذبح الأسارى وتضريج الأرض بدم ألفي رجل في غير قتال..

ونحن لا ندري إذا كان (الجوهر الجدالي) – وهو الثالث في القيادة المرابطية – قد كان من الأمرين بهذه المذبحة أم كان من الناهين عنها أو من المحايدين فيها، ولا نعلم مقدار ما يتحمل من المسئولية في تنفيذها، ولكن الذي نعلمه أن الذبح قد وصل إليه.

لقد كان هو الأصل في قيام هذا الكيان (المرابطي)، وكان هو الذي حمل الفقيه القيرواني على إرسال عبد الله بن ياسين، وكان هو الذي أخذ بزمام جمل ابن ياسين وقاده بنفسه تواضعًا للدين وتعظيمًا للداعي إليه.

ويبدو أن (الجوهر) لم يكن يحسب أن الأمر سيصل إلى قيام مذبحة، بل كان في حسبانه أن ابن ياسين سيعمل بمنطوق الآية القرآنية الكريمة: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل:١٢٥].

وقد رأيناه يرفض القيادة حين عرضها عليه ابن ياسين خوفا من تسلط قومه على الناس. لذلك فإنه يخيل إلى أنه عارض المذبحة واستنكرها فاستحق العقاب.

يقول ابن الأثير: (ولما استبد ابن ياسين بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سرا في إفساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس وثبت عليه ما نقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلبا للقاء الله تعالى!.).

وفي هذا الكلام ما يغني عن أي تعليق، سوى القول بأن إظهاره السرور بالقتل كان حقيقيًا لأنه رأي في هذا القتل تكفيرا عن تسببيه ما سبب...

جرى كل ذلك، وابن ياسين مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة يتفقهون! - كما يقول ابن الأثير - .

اشتغل بالعلم وترك الذبح لأبي بكر بن عمر، وتفقه عليه جماعة، وذبح على يدي ابن عمر جماعات. وبالعلم الذي اشتغل به صدرت فتاواه بالقتل الجماعي.

هكذا تقاسما الأدوار، ولما لم يبق للجوهر الجدالي دور سوى الاعتراض كان يجب أن يذبح، فذبح بفقه ابن ياسين وسيف ابن عمر..

يعلق ابن الأثير على نتائج المذبحة قائلا: (فحينئذ دانت لهم قبائل الصحراء وهابوهم فقويت شوكة المرابطين)، ثم يقول معقبا على قتل الجوهر: (فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه).

وهكذا ظلت المذبحة مستمرة: ابن ياسين يشتغل بالعلم ليستنبط الفتاوى بالذبح، وابن عمر ينفذ الفتاوى! ولم يكن استنباط الفتاوى يحتاج إلى كثير من العلم فابن الأثير يحدد الجريمة بقوله (فمن خالفهم قتلوه).

وإذا كان الحكم بقتل الجوهر قد احتاج إلى (حيثيات) وتعليلات، لمكانة الجوهر، فالحكم على غيره بالقتل لا يحتاج إلى (حيثيات)؛ بل إلى تطبيق مادة وحيدة ذكرها ابن الأثير: من خالف اقتلوه..

ظل المرابطون في نطاق صحراوي بحت فلم يتمددوا في مناطق أخري، وفي سنة ٤٥٠هـ أي بعد سنتين من بدء دعوتهم قحطت بلادهم، فقرر ابن ياسين أن

يطلق المحتاجين إلى مناطق أخرى، فأمر تسعمائة شخص بالذهاب إلى (السوس) والتسلط على الناس هناك بطلب الزكاة، فجاءوا إلى (سلجماسة) وطالبوا بالزكاة. ويبدو أن أنباء المذابح كانت وصلت في حينها إلى السجلماسيين فأسرعوا بجمع مقدار كان من المال عاد به المرابطون إلى مقرهم...

ونجاحهم في جمع المال من سلجماسة فتح عيونهم على ما وراء الصحراء، فصمموا على الوصول إلى الأندلس.

يقول ابن الأثير: (إن الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار..).

وابن الأثير هنا يقع في التناقض: أنه يجعل في أول القول سبب تطلعهم إلى ما وراء الصحراء هو أن الصحراء ضاقت بهم.. ثم يعود فيجعل سبب ذلك إرادتهم إظهار كلمة الحق ومجاهدة الكفار...

أما إن الصحراء ضاقت بهم فصحيح، فابن ياسين وابن عمر اللذان استطابا السلطة، وجدا أن السلطة حين لا تتجاوز الصحراء، هي سلطة محدودة المكان، محدودة السكان، والمهم جدًا أنها محدودة المال، وقد رأيا أنها قابلة للقحط في كل وقت، وحين تقحط يعوزهما حتى ضمان العيش للمحتاجين، وقد كانت تجربة إرسال التسعمائة رجل إلى سلجماسة كافية لأن تجعلهما يصممان على الخروج من نطاق الصحراء، إلى حيث الري والخصب والمال الوفير.

وأما جهاد الكفار فمسألة فيها نظر كما يقولون إذ كان لا بد من مبرر للانطلاق من الصحراء! لقد جاهدا بما فيه الكفاية، جاهدا فيمن خالفهم من المسلمين فأكثرا فيهم الذبح!..

جاهدا حتى في ذبح المؤمن المخلص الذي ساق إليهما ما هما فيه من سلطان وعنفوان، جاهدا في ذبح الجوهر!..

قاد أبو بكر بن عمر وعبدالله بن ياسين جماعة المرابطين في الخروج من الصحراء والنية في الوصول إلى الأندلس، ومشوا إلى السوس الأقصى، فرفضهم أهله وتصدوا لهم وقاتلوهم، فانهزم المرابطون وقتل عبدالله بن ياسين في المعركة.

على أن ابن عمر لم ييأس فعاد وجمع جيشا سار به إلى السوس، واصطدم بالسوسيين وزلاقة فتغلب عليهم وهزمهم، ثم تقدم إلى سلجماسة فسار إليه صاحبها فهزمه ابن عمر واستولى على سلجماسة (سنة ٤٥٣هـ).

وهكذا صار في يد ابن عمر ملك فيه مدينة مثل سلجماسة، فبادر إلى تعيين أحد بني عمه الأقربين يوسف بن تاشفين واليًا عليها.

وبعد أن بدرت بوادر الملك، وبدا أن هذا الملك قابل للاتساع هنا في شمال أفريقيا، نسي ابن عمر الهدف الذي أعلن أنه يبغي في تحركه تحقيقه، وهو الوصول إلى الأندلس ومجاهدة الكفار!.. وانصرف همه إلى التخطيط لبلوغ الهدف البديل وهو الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه مما حوله من بلاد ومجاهدة المسلمين فيها..! فعهد بولاية سلجماسة إلى ابن أخيه أبي بكر بن إبراهيم بن عمر وجهز جيشا إلى السوس مع يوسف بن تاشفين فاستولى عليه.

وفي سنة ٤٦٢هـ توفي أبو بكر بن عمر، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم وتلقب بلقب أمير المسلمين، وتوسع في ملكه حتى استولى على المغرب حصنا حصنا، وبلدا بلدا. ثم اختط مدينة مراكش واتخذها عاصمة لملكه. واستولى على سبتة وطنجة وسلا وغيرها، وصار له جيش كبير.

تساقط بلاد الاندلس

في سنة ٤٧٨هـ، كانت مدينة طليطلة تسقط بيد الإسبان، وكان المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وإشبيلية وغيرها يؤدي لهم الجزية، وقد نبه سقوط طليطلة عقلاء المسلمين إلى الخطر الذي ينتظر الحواضر الإسلامية الأخرى في الأندلس.

ويصف ابن الأثير الموقف بهذه الكلمات:

(وسمع مشايخ قرطبة بما جرى ورأوا قوة الإفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالإفرنج على بعض) إلى أن يصل ابن الأثير إلى القول بأن المعتمد التقى بالمجتمعين، فتقرر إرسال رسول استنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين. ولبى ابن تاشفين الاستنجاد وعبر البحر بعسكره إلى الأندلس، ووافى المعتمد وعسكره وعسكر قرطبة والمتطوعة الأندلسيين، والتقوا بالأذفونش وجيشه في (الزلاقة) فكان النصر الكبير للمسلمين، وذلك في العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٩هـ.

وعاد يوسف بن تاشفين بمرابطيه إلى مراكش. وفي العام الثاني عاد إلى الأندلس والتقى المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلكين الصنهاجي صاحب غرناطة، وساروا جميعًا إلى حصار (ليط) وهو حصن منيع للإسبان، فعجزوا عن فتحه ورحلوا عنه.

وعاد ابن عباد إلى إشبيلية، واجتاز ابن تاشفين في طريق عودته بغرناطة ومعه ابن بلكين. فأعلن ابن تاشفين استيلاءه على غرناطة غادرًا بابن بلكين الذي اضطر لعبور البحر إلى أفريقيا، وعاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش تاركا في غرناطة من يحكمها نيابة عنه.

وامتد حكمه في أفريقيا إلى ما لم يكن قد امتد إليه حتى الآن مثل: بلاد السوس، وورغة، وقلعة مهدى.

وفي سنة ٤٨٤هـ كان يوسف بن تاشفين يرسل حملة عسكرية إلى القسم الإسلامي من الأندلس فتستولي على مرسية، وشاطبة، ودانية، وبلنسية. ثم تتجه إلى إشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد فتحتلها بعد معارك عنيفة.

ويصف ابن الأثير ما فعلته حملة المرابطين في إشبيلية قائلا: (واشتد الأمر على أهل البلد ودخله المرابطون من واديه، ونهبوا جميع ما فيه، ولم يبقوا على سبد ولا لبد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم وأبيحت

المخدرات وانتهكت الحرمات، فأخذ المعتمد أسيرا ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بلغة زاد.

وسير ابن عباد وأهله إلى مدينة أغمات، فحبسوا فيها، وفعل أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهم أفعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه هذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدره) (انتهى).

وقد ظل المعتمد بن عباد مسجونا حتى توفي في السجن، وكان وهو في السجن مقيد الرجلين وفي ذلك يقول من أبيات:

تعطف في ساقي تعطف أرقم　　　يساورها عضا بأنياب ضيغم

ويقول ابن الأثير أيضًا: (ولما أخذ المعتمد وأهله قتل ولداه بين يديه صبرا).

ثم سار المرابطون من إشبيلية إلى المرية وبطليوس، وكان عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المرابطين على المعتمد، فساروا إليه واستولوا على بلده وأخذوه أسيرا هو وولده الفضل فقتلوهما، فقال عمر حين أرادوا قتله: قدموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي، فقتل ولده قبله. و لم يتركوا من ملوك الأندلس سوى بني هود لأنهم كانوا أقوياء ولاعتبارات أخرى.

ويقول ابن الأثير: (ولما استقصى عسكر أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) ملوك الأندلس، وأخذ بلادهم جمع ملوكهم وسيرهم إلى بلاد المغرب وفرقهم فيها).

ومما يلفت النظر هنا أن ابن الأثير الذي بدا في كل ما كتبه عن المرابطين متعاطفًا معهم، بدا هنا منكرا لفعلة يوسف بن تاشفين ، حاملا عليه.

وربما كان لصفة الغدر التي يمكن أن يوصف بها ما ارتكبه ابن تاشفين في الأندلس، أثر في غضب ابن الأثير وهجومه على ابن تاشفين ونعته بما نعته به من (صغر نفس ولؤم قدره).

وفي سنة ٥٠٠ هـ توفي يوسف بن تاشفين. وهنا تعود إلى ابن الأثير رقته فيتناسى ما وصف به ابن تاشفين من صغر نفس ولؤم قدره، ويقول في رثائه: (توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس وكان حسن السيرة خيرا عادلا، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم!).

ثم يقول: (كان حليما كريما، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام!).

ونحن نسأل ابن الأثير من وراء قبره: هل من حسن السيرة أن يفعل ما فعل بالمعتمد بن عباد؟! وهل من العدل أن يقتل ولديه صبرا أمام عينيه؟ وهل من الميل إلى العلم والدين أن ينتهي أمر بنات المعتمد إلى ما انتهى إليه؟.

وهل أدماه سجن المعتمد حتى الموت ووضع القيد في رجليه وقتل ولديه بلا ذنب، هل كل ذلك صادر عن رأي أهل العلم والدين؟!.

وهل ما جرى - مما ذكره ابن الأثير نفسه - يدل على أن ابن تاشفين كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام؟ وتولى بعد يوسف ابنه علي بن يوسف، ويقول المراكشي (المعجب ٢٤١) عن عهده: (واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يدفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال).

على أن ابن الخطيب (تاريخ المغرب العربي ٢٥٣) يقول عن عهده: (كان ملكا كبيرا فاضلا معتدلا عظم في أيامه الملك، واتسق العز وملك جميع بلاد المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها).

وإننا نقول: إن اتساع الرقعة التي يحكمها، والصفات التي ذكرها له لا تتنافى مع ما ذكره عنه المراكشي في المعجب، ولا ندري أي كبر وفضل واعتدال يقصد ابن الخطيب؟..

وفي زمن علي بن يوسف هذا سنة ٥٠٥هـ أي بعد توليه الملك بخمس سنين زحف الأذفونش صاحب طليطلة لمهاجمة المناطق الإسلامية، فزحف علي لمقابلته والتقى الفريقان في معركة شديدة هزم فيها الأذفونش وعاد خائبًا.

ويعزو ابن الأثير هجوم الأذفونش إلى تصوره ضعف البلاد بعد وفاة ابن تاشفين، ويعلق على نتيجة المعركة قائلا: (وذل أذفونش حينئذ وعلم أن للبلاد حاميا لها وذابا عنها).

ثورة قرطبة

وفي سنة ٥١٤هـ في عهد عليّ بن يوسف ثارت مدينة قرطبة على المرابطين. ويعزو ابن الأثير سبب الثورة إلى أن عبدا من عبيد الوالي مد يده خلال الاحتفالات بعيد الأضحى إلى امرأة فأمسكها فاستغاثت فوقعت الفتنة (العظيمة) - كما يصفها ابن الأثير- بين العبيد وأهل البلد ودامت جميع النهار، والحرب قائمة على ساق وأدركهم الليل فتفرقوا.

فوصل الخبر إلى الوالي أبي بكر يحيى بن رواد، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحدا من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك وغضب منه، وأصبح من الغد وقد حشد مسلحية لقتال أهل البلد، فقاتلوه فهزموه، وتحصن بالقصر فحصروه وتسلقوا إليه فهرب منهم بعد مشقة وتعب فنهبوا القصر، وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من البلد على أقبح صوره.

واتصل الخبر بأمير المسلمين (علي بن يوسف) فاستعظم الأمر، وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم فاجتمع له منهم جمع عظيم، فزحف بهم واجتاز البحر إلى الأندلس وحصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله.

فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك.

هذه النصوص التي أوردها ابن الأثير عن ثورة قرطبة على المرابطين ذات دلالات كبيرة عن هؤلاء المرابطين الذين قامت دعوتهم في الأساس على وعظ الناس ودعوتهم إلى التمسك بالدين، فإذا بهم يفتتحون الدعوة بذبح ألفي رجل، وصار الشعار من يخالف يقتل.

ثم جرى ما جرى على المعتمد بن عباد، على يدي يوسف بن تاشفين، ثم كان الأمر في عهد ولده علي: أن استولى النساء على الأحوال، وصارت كل امرأة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور...

ثم هذه هي الثورة عليهم في قرطبة من أجل محاولة اعتداء عبد من عبيدهم على امرأة...

ونستنتج من ثورة قرطبة ما يلي:

١ - لم يستطع المرابطون الاندماج في الشعب ولم تتغلغل دعوتهم في الجماهير، بل ظلوا عضوا منفرزا عن الشعب، ينظر إليهم الناس على أنهم غرباء عنه.

٢ - من أجل أن يستمر القتال طول النهار بين أهل قرطبة وبين العبيد، يجب أن يكون عدد هؤلاء العبيد كبيرًا جدا. وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الإسلام الذي حض على تحرير العبيد لا على الإكثار منهم، وهذا يدل - كما تدل أحداث يوسف بن تاشفين من قبل - على أن الحركة المرابطية كانت منذ تأسيسها على يد مؤسسها (التنفيذي) أبي بكر بن عمر، بعيدة عما تظاهرت بأنها تدعو إليه من التمسك بأهداب الدين.

ولا نشك أبدا بإخلاص عبد الله بن ياسين المؤسس (النظري) للحركة، ولكن الذي نشك به هو مقدار تفهمه لجوهر الإسلام والدعوة الإسلامية، فالذي يأمر - أو على الأقل يرضى - بذبح ألفي مسلم صبرا من أجل أنهم لم يستجيبوا لتعاليمه، ويكون شعار دعوته: من لم يكن معنا قتلناه، هو إما مغفل استغله أبو بكر بن عمر، أو إنسان لا صلة له بروح الإسلام وجوهره وأسلوبه في الدعوة إلى الحق.

٣ - إذا كان ما أجمع عليه الفقهاء والأعيان من أخذ أحد العبيد وقتله، يرضي أهل قرطبة، فهو لا يرضي لا الإسلام ولا العدالة ولا الحق، فكيف يصح في الشريعة أن تأخذ رجلا لم يثبت عليه أنه ارتكب ما يوجب قتله فتقتله؟! وإذا كان الأعيان قد أجمعوا على ذلك، فكيف يصح ذلك للفقهاء؟!.

٤ - هذه الجموع التي جمعها (أمير المسلمين) علي بن يوسف ليته كان جمعها لهدف أسمى من تأديب أهل قرطبة.

٥ - وصف ابن الأثير لثبات أهل قرطبة وقتالهم بأنه: قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله. هذا الوصف يدلنا على ما كان يتوقعه أهل قرطبة من (المرابطين) أصحاب الدعوة الإسلامية!! أن يرتكبوه بنسائهم ودمائهم وأموالهم.

مات علي بن يوسف بعد أن قامت حركه إسلامية أخرى في المغرب الأفريقي عرفت باسم (الموحدون) بقيادة ابن تومرت وقاتلت جيوش المرابطين، ودام القتال في عهد الخليفة علي حتى انتصر الموحدون وانتهى أمر المرابطين سنة ٥٤٢هـ بعد أن ختموا عهدهم أسوأ خاتمه إذ استنجدوا بالإفرنج على قتال الموحدين.

يقول ابن الأثير: عن فتح الموحدين لمراكش عاصمة المرابطين: (وكان بمراكش جيش من الإفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاءوا إليهم نجدة).

وكان قتل آخر ملوكهم إسحاق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين - وهو صبي - سنة ٥٤٢هـ، وبه انقرضت دولتهم بعد أن دامت سبعين سنة، وولى منهم أربعة: يوسف وعلي وتاشفين وإسحاق.

وابن الأثير الذي رأيناه أول الأمر يهاجم يوسف بن تاشفين ويحمل عليه، ثم يثني عليه عند موته، يعود هنا بعد أن أصاب المرابطين ما أصابهم فيقول عن يوسف بن تاشفين: (ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله عليه في عقابه من أربى في الأخذ عليه وزاد).

ونقول: ابتدأوا أمرهم بذبح ألفي مسلم صبرا، وانتهوا بالاستنجاد بالإفرنج!. ومع ذلك فهم أصحاب دعوة إسلامية!!...

كان لا بد من هذا الحديث غير القصير عن المرابطين (الملثمين) لإيضاح ما ذكره ابن الأثير عن (الملثم) الذي جاء إلى بغداد خلال الحروب الصليبيـــية، وأشار ابن الأثير إلى سبب قدومه إلى بغداد.

يقول ابن الأثير عن سبب قدومه - كما تقدم - إنه ممن قاتلوا الصليبيـــين مع الأفضل بن بدر الجمالي وأبلى بلاء حسنا.

أما لماذا جاء إلى بغداد و لم يعد إلى بلاده المحكومة من جماعته (المرابطين)، فلأن هؤلاء المرابطين الذين افتتحوا دعوتهم بذبح ألفي مسلم صبرا، وختموها بالاستنجاد بالإفرنج واستقدموا جيشا منهم إلى عاصمتهم مراكش - إن هؤلاء المرابطين يعتقدون بالعلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح - كما يقول ابن الأثير-، والمقصود بالعلويين هنا: الفاطميون، الذين اصطلح ابن الأثير في كل ما كتبه عنهم في كتابه (الكامل) على تسميتهم بالعلويين لا بالفاطميين، فهو ينسبهم إلى علي (ع) لا إلى فاطمة (ع).

أما لماذا يعتقدون فيه الاعتقاد القبيح فلأنهم على غير مذهبهم!.. وقد قاطعوهم بحيث أنهم إذا أرادوا الحج لا يمرون في مصر.

ويؤكد ابن الأثير أن بدرًا الجمالي الذي كان قد سيطر على الخلافة الفاطمية وأصبح هو الحاكم الفعلي لمصر- أن بدرا هذا حاول إصلاحهم، بمعنى التقرب إليهم وإزالة ما في نفوسهم، فلم يميلوا إليه ولا قاربوه.

ولما أعياه أمرهم قرر معاملتهم بالشدة، فكان يقتل من ظفر به منهم، ومن أجل أن يفعل بدر ذلك فلا ريب أنه كان يخشى إفسادهم الناس عليه.

وعندما خلف الأفضل والده بدرا عاد يستصلحهم ويحسن إليهم، ولقد كان في حرب متصلة مع الصليبيـــين، ويريد الاستعانة بكل من يمكنه الاستعانة به في هذه

الحرب، فاستطاع استمالة فريق منهم فانضموا إليه في جهاد الصليبيين، وكان ممن انضم إليه: الملثم الذي تحدث عنه ابن الأثير.

وبالرغم من أن اتصال هذا الملثم ببدر الجمالي كان اتصالا جهاديا أبلى فيه في قتال الصليبيين بلاء حسنا، فإنه كان يخشى العودة إلى بلاده، خوفا من أن يقتله قومه المرابطون، الذين يرون الاستنجاد بالإفرنج حلالا، أما التعامل مع المسلمين الذين هم على غير مذهبهم، ولو كان تعاملا جهاديا فهو حرام يستحق فاعله القتل. لذلك آثر الذهاب إلى بغداد لفترة، ثم عاد إلى مصر.

وكما رأينا فيما قال ابن الأثير: لم يكن للمصريين حرب مع الإفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدا... وهذا القول يدلنا فيما يدل على أن الأفضل قد ظل مواصلا الحرب على الصليبيين دون انقطاع.

مع السلاجقة

سنة ٥٠٠هـ أقطع السلطان محمد جاولي سقاوو الموصل وديار بكر والجزيرة كلها، مقابل أن يسير إلى الإفرنج ويأخذ البلاد منهم. ولنعرف من هو جاولي هذا ننقل وصف ابن الأثير له:

(كان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس وأقام بها سنين، وعمر قلاعها وحصنها، وأساء السيرة في أهلها وقطع أيديهم وجدع أنوفهم وسمل أعينهم..

هذه هي سيرة الوالي الذي اختاره السلطان محمد ليحكم تلك الأرض الواسعة.

والسلطان محمد الذي يعرف ما يجري في الغرب الإسلامي، ويعرف استيلاء الصليبيين على الديار المقدسة، ويعرف عيث الصليبيين بالمسلمين وإذلالهم لهم، لم يكن من همه أن يهب بنفسه إلى إنجاد الإسلام ودفع الضيم عنه، بل عهد بهذه المهمة إلى من يعلم هو قبل غيره أنه ليس من رجالها.

عهد بهذه المهمة إلى (جاولي سقاوو)!.. الرجل الذي قطع أيدي المسلمين في بلادهم وجدع أنوفهم وسمل أعينهم..

الرجل الذي استحل في المسلمين كل ذلك.. يطلب إليه السلطان محمد أن يسير إلى الإفرنج ليأخذ البلاد منهم!..

في موازاة قطع أيدي الرعايا وجدع أنوفهم وسمل عيونهم، عمر القلاع وحصنها، عمرها وحصنها بما خرب من البيوت ونقض من الديار!..

عمرها وحصنها حذرا من أن يثور عليه الذين خرب دورهم وهدم منازلهم، فيحتمي بها منهم.. هذا هو الرجل الذي طلب إليه سلطان السلاجقة قتال الصليبـــيين واسترجاع ما أخذوه من بلاد.

فماذا فعل؟ ماذا فعل جاولي سقاوو المنتدب لإنقاذ المسلمين؟..

ذهب من بغداد إلى الموصل وجعل طريقه على البوازيج فملكها، ونهبها أربعة أيام، بعد أن أمن أهلها وحلف لهم أنه يحميهم. هذا الذي أرسل لإنقاذ المسلمين من النهب والذل، حول مهمته إلى نهب المسلمين وإذلالهم، هذا الذي أرسل ليحمي شرائع الإسلام استباح شرائع الإسلام فنكث بالأمان، وحنث بالأيمان..

ومضى بعد البوازيج إلى إربل، وفي الطريق لقيه (جكرمش) بجنوده ليحول بينه وبين الوصول إلى الموصل؛ لأن حكمها كان له فاقتتلا وانتصر جاولي سقاوو.

ووصل خبر الهزيمة إلى جماعة جكرمش في الموصل فتحصنوا بها لقتال جاولي سقاوو، وبدا الطمع بالموصل وأرادها قلج أرسلان فصارت له.

واستنجد الملك رضوان بن تتش بجاولي ليقدم إلى الشام لقتال الصليبـــيين قائلا له: إن الإفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم، فسار جاولي إلى الرحبة وحاصرها، فاشتد الحصار على أهلها وضاقت عليهم الأمور، واستطاع جاولي دخولها فأول شيء فعله هو نهبها.

ثم التقى جيشه بجيش قلج أرسلان فهزم قلج ودخل جاولي الموصل في أحداث وخطوب جمة.

أما المهمة التي انتدب لها جاولي، وهي الذهاب لقتال الإفرنج فقد نسيها جاولي في غمار النهب والسلب، واستعاض عن استرداد أرض الشام من الإفرنج باسترداد الموصل من المسلمين.

وفي سنة ٥٠٢هـ كانت نهاية حكم جاولي للموصل، فالسلطان محمد كان قد جعل إليه ولاية كل بلد يفتحه فاستولى على كثير من البلاد والأموال وما دام النهب يرافق استيلاءه على البلاد، فمن الطبيعي أن تكثر لديه الأموال لكثرة ما استولى عليه من البلاد.

والسلطان السلجوقي محمد الذي أطلق يده في الفتح والنهب كان ينتظر أن يشركه جاولي بالمنهوبات، ولكن جاولي استأثر بها فقرر السلطان استبداله بغيره من الولاة الذين يتقاسمون مع سلاطينهم ما ينهبونه من الشعب، فاتفق مع جماعة من الأمراء والولاة أن يتوجهوا إلى الموصل وبقية البلاد التي يحكمها جاولي ويأخذوها منه، فتوجهوا إلى الموصل.

فقرر جاولي ترك الموصل بعد أن أحكم أمر الدفاع عنها، وأوكل إلى زوجته إدارة الدفاع بعد أن مهد لها الأمور بأن حبس أعيان الموصل، وأخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفا، وأعلن أنه متى اجتمع عاميان على الحديث في هذا الأمر قتلا..

أصبحت الموصل في يد زوجة جاولي في شر حال من الذل والرعب وتوقع البلاء.

الأعيان في السجون، والشبان في قبضة جاولي، وعامة الشعب في فوضى لا قيادة فيها، فإذا خطر لاثنين أن يلتقيا فيتشاكيا قتلا في الحال..

أما هو فقد ترك الموصل، يقول ابن الأثير: خرج عن البلد، ونهب السواد..

نهب الشعب... هذا هو شعار العصر السلجوقي ومنهجه وعمله.

أهل السواد الوادعين الآمنين المطمئنين، يفاجئهم القائد المنتدب لإنقاذ القدس بالنهب والترويع..

أما زوجته القائمة مقامه في الموصل فقد رأت أن زوجها قد اكتفى باضطهاد الرجال، فرأت هي أن تساوي في الاضطهاد بين الرجال والنساء، وأن تبرهن بأن المرأة ليست أقل كفاءة من الرجل... يقول ابن الأثير: (وصادرت زوجته من بقى بالبلد وعسفت نساء الخارجين عنه..).

لقد عمدت إلى أمرين: استولت على أموال من بقي في البلد من الرجال، وعسفت النساء اللواتي لم ينضو رجالهن تحت إمرة جاولي.

يقول ابن الأثير واصفا حالة الموصل: (فتمادى الحصار بأهلها من الخارج، والظلم من الداخل)، هذه الشدة التي كانت فيها الموصل ووصفها ابن الأثير بهذا الوصف أدت إلى ثورة داخل الموصل يمكن أن نسميها ثورة الجصاصين، ولم يكن من الممكن أن تقوم ثورة أوسع منها، ومع أن الجصاصين محدودو العدد فقد استطاعوا إحكام أمرهم فنجحوا.

لم يكن بالإمكان قيام ثورة عامة فقادة الشعب في السجون، وأحداثه مصادرون، ونساؤه مضطهدون. ولكن نفرًا من الجصاصين يصفهم ابن الأثير بهذا الوصف: فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين، ومقدمهم جصاص يعرف بسعدي على تسليم البلد.

والنفر في اللغة: من هم دون العشرة، أي: أن الذين صمموا ونجحوا كانوا أقل من عشرة، وهكذا بتدبير هؤلاء النفر دخل عسكر السلطان البلد.

أما زوجة جاولي فتحصنت بالقلعة، ثم راسلت الأمير مودود قائد الحملة السلطانية في أن يفرج لها عن طريقها.

ويبدو أن الأمير مودود أنف من أن يتصدى لامرأة ويقاتلها، فأفرج لها وخرجت من الموصل.

ويقول ابن الأثير: إنها خرجت بأموالها وما استولت عليه. وبهذا أصبح مودود حاكما على الموصل وما ينضاف إليها.

أما جاولي الذي ذكرنا أنه ترك الموصل ومضى ينهب السواد، فقد أخذ معه (القمص بردويل) صاحب الرها وسروج وغيرها، وهو الذي كان قد أسره سقمان وأخذه منه جكرمش، وبقي في الموصل مسجونا خمس سنين، وبذل الأموال الكثيرة فلم يطلق.

وحاول جاولي أن يتحالف على السلطان مع بعض الأمراء السلاجقة فلم يوفق إلى ذلك. وهنا اتجه إلى القمص بردويل فأطلقه وخلع عليه، وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله.

إن الشرط الأخير هو الهدف من إطلاق القمص، والشرطان الأولان شرطان ثانويان. الهدف من إطلاق القمص هو أن يذهب إلى مملكته ويجمع جيوشها ويجعلها على استعداد تلبيه لنداء جاولي حين يناديها لنصرته على قومه، وأن يكون القمص نفسه على رأسها فلا يقودها غيره.

وهكذا فإن القائد السلجوقي الذي انتدب لإنجاد المسلمين على الإفرنج، يستنجد بالإفرنج على المسلمين!..

وتتشابك الأمور بعد ذلك وينتهي الأمر إلى أن يغري الملك رضوان بن تتش صاحب حلب - يغري (طنكري) الصليبي صاحب إنطاكية بجاولي فيتحالفا عليه، ويتحالف جاولي مع القمص وجوسلين وتقع حرب من أعجب الحروب: تحالف إسلامي صليبي على تحالف إسلامي صليبي، وتنتهي الحرب بهزيمة جاولي وحلفائه. ويقول ابن الأثير: وقتل من المسلمين خلق كثير ونهب صاحب إنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الإفرنج، وحدثت في هذه السنة معركة جانبية بين طغتكين والفرنج أدت إلى هزيمة الإفرنج أولاً ثم عقد هدنة بين الفريقين، تخللتها معركة، يقول ابن الأثير عن نتيجتها: بأن عسكر طغتكين انهزموا وخلوا ثقلهم ورحالهم ودوابهم للإفرنج ووصل المسلمون على أقبح حال من التقطع.

الحال في غرب العالم الإسلامي

رأينا ما يجري في شرق العالم الإسلامي وصولا إلى أطراف غربه. وسنرى هنا ما كان يجري في الوقت نفسه في غرب هذا العالم.

لقد ذكرنا من قبل أنه بينما كان السلاجقة يتناحرون في الشرق كان الصليبـيون يستولون في الغرب على يافا، وأرسوف، وقيسارية وحيفا، وطبرية، واللاذقية، وإنطاكية بعد أن كانوا استولوا على القدس والرها، وسروج. وكانوا يحاصرون طرابلس.

أما الآن في سنة ٥٠٣هـ فإن الصليبـيين كانوا يشددون الحصار على طرابلس ويرسلون من أوروبا أسطولاً كبيرا لإحكام حصارها، كما وقووا قواهم البرية المحاصرة.

وكان فخر الملك أبو عليّ بن عمار لما رأى قبل ذلك اشتداد الحال على بلده طرابلس وضاقت عليه الأقوات وقلت واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، وعلم أن الأمور قد استتبت للسلطان محمد كما مر في الأبحاث السابقة عزم على الذهاب إلى بغداد للاستنجاد بالسلطان محمد، بعد أن رتب في طرابلس الأجناد برا وبحرا، وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه، ودفع للأجناد راتب ستة أشهر مقدما.

ثم مضي إلى بغداد فاستقبل فيها بحفاوة بالغة سواء من الخليفة أو من السلطان السلجوقي محمد. ويقول ابن الأثير: إن السلطان سأله عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم، فذكر حالة وقوة عدوه وطول حصره، وطلب النجدة، وضمن أنه إذا سيرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. فوعده السلطان بذلك. وحضر دار الخلافة، وذكر أيضًا نحوًا مما ذكره عند السلطان.

فكان من أمر السلطان أن طلب من الأمير حسين بن أتابك قتل تكين ليسير معه العساكر التي سيرها إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال جاولي سقاوو ليمضوا معه. ثم ترك السلطان بغداد قاصدا أصفهان.

يقول ابن الأثير: فلم يجد ذلك نفعا..

أما العساكر الذي تظاهر السلطان بأنه طلب إرسالها مع ابن عمار بقيادة الأمير مودود، فقد كانت لها مهمة أخرى لاستنقاذ طرابلس من الصليبـيين، بل استنقاذ الموصل من جاولي.

يقول ابن الأثير: في هذه السنة استولى مودود والعسكر الذي أرسله معه السلطان على مدينة الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوو.

في الوقت الذي كانت عساكر السلطان السلجوقي تهب بقيادة الأمير مودود لاستنقاذ الموصل من جاولي. وفي الوقت الذي كان الأمير مودود ينجح في الاستيلاء على الموصل.

في هذا الوقت بالذات كان أسطول صليبـي كبير مشحون بالرجال والسلاح والمياه يهب من أوروبا بقيادة ريموند بن صنجيل لاستنقاذ طرابلس من المسلمين.

وفي الوقت الذي كان القائد السلجوقي مودود يستولي على الموصل كان الملك الصليبيـي بغدوين ملك القدس ومعه ريموند بن صنجيل وغيره من القادة الصليبيين يستولي على طرابلس.

يقول ابن الأثير واصفًا الحال:

(ومد الإفرنج القتال عليها (طرابلس) من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوه وقهرًا ونهبوا ما فيه وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال. وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة.

وعاقب الإفرنج أهلها بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم).

وأغرى سقوط طرابلس الإفرنج فساروا إلى بانياس ففتحوها، وإلى جبيل ففتحوها أيضًا. ثم واصلوا زحوفهم فامتدوا إلى صيدا فضايقوها برا وبحرا فاضطرت

لطلب الأمان فدخلوها وهجرها قسم من أهلها وبقي آخرون ففرضوا عليهم الأموال حتى أفقروهم واستغرقوا أموالهم فأخذوا يهاجرون من مدينتهم.

وامتد الصليبيـــيون من الجانب الآخر فملكوا حصن (الأثارب) بالقرب من مدينة حلب وقتلوا من أهله ألفي رجل وسبوا وأسروا الباقين. ومنه مضوا إلى حصن (زردنا) ففتحوه وفعلوا بأهله مثل الأثارب.

فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفا منهم وكذلك أهل بالس. وقصد الإفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنهما. ودبّ الذعر في بلاد الشام كلها.

يقول ابن الأثير:

(فعظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر، وأيقنوا باستيلاء الإفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الإفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة.

فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار).

فلما بلغ الأمر إلى هذا الحد لم يعد الشعب يحتمل ما صار إليه من الهوان ومن توقع الشر الأكبر. فقرر جماعة من أهل حلب وهي المدينة التي وصل الإفرنج إلى حصن الأثارب الذي لا يبعد عنها إلا ثلاثة فراسخ قرر جماعة من أهل حلب الذهاب إلى بغداد حيث السلطان السلجوقي والخليفة لإثارة القضية والاستنجاد بالمصدر الأساسي للقوة، فلما وصلوا كان أول من تعاطف معهم خلق كثير من الفقهاء، وغيرهم من طبقات الشعب، فكان أن سارت يوم الجمعة مظاهرة كبرى إلى جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر.

لقد كانوا في تصرفهم هذا يقصدون إلى أن الدين ليس صلاة فقط ولا خطبة الجمعة وحدها، وماذا تفيد صلواتكم وخطبكم إذا كان الإسلام يباد ويهان في الجانب الآخر وإذا كنتم لا تنفرون لإنفاذ الركن الأهم من الإسلام وهو الجهاد..

وأمام هذه المظاهرة الصاخبة اضطر السلطان السلجوقي لأن يعدهم بإنفاذ العساكر للجهاد.

وفي يوم الجمعة الثاني جدد الحلبيون مظاهرتهم فمشوا ومشى معهم أهل بغداد إلى جامع القصر بدار الخلافة، فلما وصلوه منعهم حاجب الباب من الدخول فأزاحوه من طريقهم ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا على المنبر فكسروه، وبطلت الجمعة أيضًا.

فلما رأى الخليفة تفاقم الأمور وليس في يده شيء يستطيعه أرسل إلى السلطان السلجوقي وهو صاحب الحل والعقد يطلب إليه الاهتمام بالموضوع وتصريف أمر هذا الفتق ورتقه، على حد تعبير ابن الأثير.

فالخليفة هنا يرى أن الأمر عاد نقمة شعبية عارمة على الدولة كلها، وهو فتق انفتق عليها لا بد من رتقه خوف تماديه واتساعه، فهو بذلك ينصح السلطان بالتلافي قبل اتساع الخطر.

وهنا قرر السلطان أن يفعل شيئًا، فجمع من في بغداد من الأمراء وطلب إليهم العودة إلى بلادهم والتجهز للجهاد. وزاد على ذلك فضم ولده مسعود إليهم وأرسله مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلتحق بهما الأمراء ويسيروا مجتمعين لقتال الإفرنج.

وهنا حدث حادث فريد نجهل الآن تفاصيله، فيبدو جليا أن الصراع بين البيزنطيين والصليبيين قد بلغ أقصى مداه بحيث أدى ذلك إلى أن يرسل إمبراطور القسطنطينية رسولا إلى السلطان السلجوقي في بغداد يستنفره على الصليبيين ويحثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد. وكان وصول هذا الرسول إلى بغداد قبل وصول الحلبيين إليها، فعلموا وهم في بغداد بمهمة الرسول البيزنطي، فكانوا يقولون

للسلطان: أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!.

وإذا كان الأمر على غير ما تصور الحلبيون من أن استنفار الملك البيزنطي للسلطان السلجوقي هو حمية منه للإسلام، وإنما هو مصلحة مشتركة بين الاثنين تقضي بالقضاء على الصليبيين الذين باتوا ينازعون ملك القسطنطينية ملكه، ويهددونه في بلاده.

فإنه كان يمكن للسلاجقة أن يغتنموا هذا الغضب البيزنطي فيتحالفوا مع صاحبه للتخلص من الصليبيين. ولكن السلاجقة كانوا في هَمٍّ آخر غير هَمٍّ تخلص الأرض الإسلامية من الصليبيين، هو تخلص بعضهم من بعض.

وفي خلال هذا التجهم الإسلامي الذي أصبح يعم العالم الإسلامي تزف ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، فلا يكتفي بأدنى حد من الابتهاج احترامًا لأحزان المسلمين العالمية، بل زينت بغداد وغلقت، وكان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلها كما يقول عنها ابن الأثير.

التقى أمراء السلاجقة في الموصل إنفاذا لما تقرر في بغداد نتيجة للمظاهرات الحلبية التي استجاب لها البغداديون فضغطوا على الخليفة والسلطان، فدعا السلطان إلى الجهاد.

والأمراء الذين التقوا هم: الأمير مودود صاحب الموصل، الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر، والأميران الأخوان إيلبكي وزنكي ابنا برسق، ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمديل صاحب مراغة.

وكوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين، والأمراء البكجية باللحاق بالأمير مودود.

لقد كان ملتقى عسكريًا ضخمًا يمكن ربط الأمل الكبير به. ولا أخال إلا أن الناس كانوا وهم يتسامعون بهذا الحشد الكبير من الأمراء والمقاتلين أيقنوا بالخلاص.. ونحن لا ندري أين كان الوفد الحلبي في هذه الأثناء، هل كان قد عاد إلى حلب

حاملا البشرى لا إلى حلب وحدها، بل إلى بلاد الشام كلها بنجاح مساعيه، واستجابة أولي الأمر إلى صوت الاستغاثة المنبعث من أعماق القلوب.. أم أن الوفد قد ظل في بغداد يراقب وينتظر؟ أغلب الظن أنه كان قد عاد إلى حلب بعد أن لمس اليد أن ما يشبه النفير العام قد أعلن بين الأمراء.

والذي يلفت النظر هو اتساع الرقعة التي يسيطر عليها هؤلاء الأمراء وما يمكن أن يحشد منها من مقاتلين فمن تبريز إلى ديار بكر من جانب، ومن مراغة إلى همذان وما جاورها من جانب آخر، ومن إربل إلى الموصل إلى ماردين...

هذه الأرض الواسعة إذا أهيب بها بنداء: اللّه أكبر، نداء منبعث من قلوب مخلصة، وضمائر حية، وحناجر متحمسة إذا أهيب بها ستتدفق منها الجماهير تدفق أمواج البحر الهائج صارخة: اللّه أكبر، فتكتسح كل شيء..

ولكن لا القلوب كانت مخلصه، ولا الضمائر كانت حية، ولا الحناجر كانت متحمسة!..

مشت جموع الأمراء إلى سنجار، ففتحت عدة حصون للإفرنج، حتى انتهت إلى حصار مدينة (الرها)، ولكن الحصار لم يلبث أن فك عن الرها، وعاد عنها الأمراء دون أن يفتحوها.

فقد قابل هذا التجمع الإسلامي تجمع صليبـــي استعد لمقابلته، على أن لم يتعد مناوشات ومناورات وتبادل أمكنة استطاع معها الإفرنج إحكام أمر الرها، فاستعاض الأمراء عن حصارها بحصار قلعة تل باشر فلم ينجحوا في فتحها فرحلوا عنها.

وتخلوا نهائيًا عن قضيه الجهاد، وعادوا إلى التآمر بعضهم على بعض، وعوضًا عن أن يتوجهوا إلى الأرض المحتلة، توجهوا إلى حلب فاستراب بهم صاحبها الملك رضوان فحال بينهم وبين دخولها و لم يجتمع بهم.

ومرض أحدهم الأمير سكمان القطبي، ومات في بالس، فجعله أصحابه في تابوت، وحملوه عائدين إلى بلاده. فاغتنم هذه الفرصة رفيق سكمان في الجهاد!!

إيلغازي، واستضعف جماعته بعد موته، فقصدهم ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحزموا أمرهم وجعلوا تابوت أميرهم في القلب وقاتلوا بين يديه، فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، ومضوا إلى بلادهم!..

هكذا عاد مصير حملة الجهاد، وإنقاذ المسلمين في بلاد الشام! و لم ينته الأمر، فإن الجيش السلطاني كما يسميه ابن الأثير بعد أن حيل بينه وبين دخول حلب، ورفض صاحبها رضوان لقاءهم تركوا حلب ومضوا إلى معرة النعمان، واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق فاطلع منهم على نيات فاسدة في حق رفيقهم الأمير مودود، فنـــزل عليه وأطلعه على أمرهم.

ولما رأي طغتكين ما رأى وعلم من نياتهم الفاسدة ما علم خاف أن يقصدوه إلى دمشق فيأخذوها منه فاتصل سرا بالإفرنج وأحكم أمره معهم وهادنهم.

ثم تفرقت العساكر وعاد كل أمير إلى حيث جاء!!.

النهاية التي صار إليها حملة الجهاد السلطاني جرأت الإفرنج على الانتشار في بلاد المسلمين واستصفائها بلدا بعد بلد، فكان أن بدأوا بمدينة صور، وسار إليها بغدوين صاحب القدس يقود حشودًا صليبية لحصارها، فلما وصلها تفنن في الحصار فأعد ثلاثة أبراج خشب علو البرج سبعون ذراعًا وفي كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال.

فأحضر الوالي أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم، فقام شيخ من أهل طرابلس، يبدو أنه ممن كان لجأ إلى صور بعد احتلال طرابلس، وضمن على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الإفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب من جهاته، وألقى فيه النار، ثم خاف أن يشتغل الإفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلصوا، فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار من البرج، فهلك كل من فيه إلا القليل. وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب،

ثم أخذ سلال العنب الكبار، وترك فيها الحطب بعد أن سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة، وأحرق البرجين الآخرين.

وعلم الصوريون أنهم وحدهم غير مستطيعين الصمود أمام الحملة الصليبية الكبيرة فاستنجدوا بطغتكين صاحب دمشق، ووعدوه بأن يسلموا البلد إليه.

وإذا كان طغتكين هذا قد أقام علاقات مع الإفرنج وسالمهم وهادنهم كما ذكرنا فيما تقدم من القول؛ فإنه اليوم قد نقض هدنتهم وقرر إنجاد الصوريين. ونريد أن نحسن الظن به، فلا نقول إن الطمع بتملك صور وامتداد سلطته إليها هو الذي حمله على ذلك، بل إن النخوة الإسلامية هي التي دفعته، وربما السببان معا...

وسار حتى بلغ بانياس، وسير إلى صور نجدة مئتي فارس، فدخلوا البلد، فاشتدت عزائم من فيه، واستبسلوا في قتال الإفرنج. وقابل الإفرنج استبسالهم بمثله، خوفا من تتابع النجدات.

وراح طغتكين يغير على أعمال الإفرنج حول دمشق، ثم واصل السير باتجاه صور، فقطع المياه عن الإفرنج، فاستقدموها بحرا.

وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر.

على أن موضع التساؤل هنا: لماذا لم يقدم هو نفسه بعسكره على إنجادهم وقد رأينا ما فعل وصول المآتى فارس إليهم؟!.

كان أهل صور يقاتلون قتال من أيس من الحياة، كما يصفهم ابن الأثير، وذلك لأنهم يعلمون المصير الفظيع الذي سيصيرون إليه إذا انتصر الإفرنج ودخلوا عليهم البلد. وأخيرا يئس الإفرنج من النصر فانسحبوا من صور إلى عكا.

هذا الذي مر ذكره كان من أحداث سنة ٥٠٦هـ، وفي مطلع السنة ٥٠٧ هـ، في شهر المحرم منها كان بغدوين ملك القدس يواصل غاراته على دمشق نفسها وينهب ويخرب، حتى إن دمشق أصبحت في شبه حصار اقتصادي انقطعت فيه المواد عنها فعم الغلاء وقلت الأقوات، فرأى حاكمها طغتكين أن يستعين بصديقه الأمير

مودود صاحب الموصل، فأرسل إليه يصف له ما هو فيه من الضيق، والعجز عن دفع شر الإفرنج، ويطلب إليه إنجاده بقوات بأسرع ما يستطيع من الوقت.

فاستجاب الأمير مودود للاستنجاد وسار بعساكره من الموصل عابرا بهم الفرات، فمضى طغتكين لملاقاته فالتقيا في مدينة سلمية وقررا مهاجمة طغتكين، فاصطدما به عند مدينة طبريا في معركة انهزم فيها بغدوين ووقع أسيرا، ولكن آسريه لم يعرفوه، وكل ما فعلوه أن أخذوا سلاحه وتركوه.

وكان لهذه المعركة ذيول كانت كلها في صالح المسلمين فساروا إلى بيسان ونهبوا البلاد المحتلة بين عكا إلى القدس وخربوها.

وبعد هذا النصر صرف الأمير مودود عساكره فعادوا إلى بلادهم على أمل العودة في الربيع لمعاودة الغزو، وبقي هو في خواصه بضيافة طغتكين في دمشق منتظرين الربيع. على أن الأقدار لم تمهله إلى الربيع فقد اغتيل في يوم جمعة في المسجد بعد أداء الصلاة برفقة طغتكين..

وهنا تتشعب الآراء في تحديد القاتل، فالذين يعرفون دخائل هؤلاء الأمراء وما تنطوي عليه نفوسهم من الغدر بعضهم ببعض طمعًا من كل واحد منهم بما في يد الآخر، يوجهون التهمة إلى طغتكين، ويقولون: إنه دبر له من اغتاله بعد أن رآبه منه بقاؤه في دمشق. ويؤكدون اتهامهم بأن القاتل قتل في الحال، واحتز رأسه، وأخفي ثم أحرق لئلا تكشف حقيقته. وطغتكين وجماعته يوجهون التهمة إلى من سموهم الباطنية، ويبدو أن اتهام طغتكين كان هو السائد بين الناس على اختلاف مواقعهم، حتى إن السلطان كان يوجه إليه التهمة علانية، كما سنرى.

وهكذا فإن ذاك الاستنفار انتهى إلى لا شيء سوى النهب والتخريب واغتيال من لبى الاستنفار!.

وطغتكين هذا الذي يضج اليوم من الإفرنج ويستنصر المسلمين عليهم، ألم يسبق له بالأمس أن استنصر بهم على المسلمين؟! وهل ترجو ممن لا يرى بالاستنصار على المسلمين بالإفرنج إثمًا أن يخلص في قتال الإفرنج؟! وأن يتورع عن اغتيال ضيفه

ومنجده إذا رآبه أمره ولو في الخيال؟! وتوالت الأيام حتى سنة ٥٠٨هـ فعاد السلطان محمد يتذكر الإفرنج، وكان حين علم بمقتل مودود أرسل واليا على الموصل وأعمالها: الأمير آق سنقر البرسقي، وسير معه ولده الملك مسعود في جيش ليذهب بهذا الجيش لقتال الصليبيين، وكذلك أرسل إلى جميع الأمراء في تلك المناطق لينضموا إلى آق سنقر ويسيروا جميعا للجهاد.

وسنرى أن ذلك كله كان عملا استعراضيا بحتا لم يحقق أي نتيجه!.

فإن البرسقي سار إلى جزيرة ابن عمر فسلمها إليه نائب مودود بها، ومنها سار إلى ماردين، فلما تمرد عليه صاحبها إيلغازي نازله فأذعن له وسير معه عسكرا مع ولده آياز، فاتجه إلى الرها على رأس خمسة عشر ألف فارس فنازلها على غير جدوى، فاتجه منها إلى سميساط وسروج، فلم يكن منه سوى التخريب فيها، ثم نهب سواد ماردين.

ونسي الجهاد فقبض على رفيقه آياز بن إيلغازي، لأن أباه لم يحضر بنفسه، بل أرسل ولده آياز مكانه. وبلغ إيلغازي خبر القبض على ولده، فسار إلى حصن كيفا، وصاحبها الأمير ركن الدولة ابن أخيه سقمان فاستنجده، فسار معه في عسكره وجمع جمعًا من التركمان، ومضيا لاستنقاذ آياز من البرسقي.

والتقى الجمعان في معركة ضارية، انتهت بانهزام البرسقي، وتخليص آياز بن إيلغازي.

هذا هو الجهاد الذي نادى به السلطان السلجوقي محمد.. وهذه معارك قائده ومبعوثه لقتال الصليبيين: آق سنقر البرسقي! على أن الأمر لم يتم فصولا بعد، فسنرى ما هو أدهى وأمر...

السلطان محمد هذا لم يغضبه على قائده أن حول جهاده للتخريب والنهب ثم لقتال المسلمين، بل أغضبه أن إيلغازي هزم آق سنقر، فأرسل إليه يتهدده، فرأى إيلغازي أن يلجأ إلى حمية طغتكين صاحب دمشق.

وكان طغتكين هذا متهما عند السلطان بأنه غدر بالأمير مودود وقتله، فاتفق رأي الاثنين: إيلغازي وطغتكين على الاستنصار بالصليبيين، فراسلا صاحب إنطاكية وحالفاه، ثم رأوا جميعًا أن يمتنوا الحلف بينهم، فالتقى الثلاثة على بحيرة قدس عند حمص، فأحكموا أمر التحالف، ووضعوا خطط تنفيذه.

وعاد صاحب إنطاكية إلى بلده، وعاد طغتكين إلى دمشق. أما إيلغازي فاتجه إلى ديار بكر مارا بالرستن فنزل بها ليستريح، فعلم به قرجان بن قراجة صاحب حمص، وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه، فقبض عليه قرجان ومعه جماعة من خواصه، وأرسل إلى السلطان محمد يعرفه ذلك ويطلب إليه الإسراع بإرسال نجدة يقاوم بها طغتكين إذا حاول إنقاذ إيلغازي.

ولما عرف طغتكين بما جرى على إيلغازي عاد إلى حمص وأرسل يطلب من قرجان إطلاق إيلغازي، فرفض قرجان ذلك وهدد بقتل إيلغازي إن لم يرجع طغتكين إلى دمشق. وعلم إيلغازي بذلك فأرسل يلح على طغتكين بالعودة إلى دمشق.

وهنا تشابكت المصالح، فلم تصل لقرجان نجدة من السلطان، فخاف أن يستضعفه أصحابه فيسلموا حمص لطغتكين، فقرر مصالحة إيلغازي فيطلقه ويأخذ ابنه آياز رهينة ويصاهره، ويحول بينه وبين طغتكين وغير طغتكين، فوافق إيلغازي على ذلك فأطلقه قرجان وترك عنده ابنه آياز، ثم عقدا حلفا بينهما.

وسار إيلغازي من حمص إلى حلب، وجمع التركمان، وعاد إلى حمص مطالبا بولده آياز، وضايق قرجان وحصره.

واتصل الخبر بالسلطان فأرسل عسكرًا كثيرًا وأمرهم أن يقاتلوا إيلغازي وطغتكين أولا فإذا فرغوا منهما مضوا إلى قتال الإفرنج، فكانت نتيجة ذلك أن إيلغازي وطغتكين ذهبا إلى إنطاكية واستنجدا بصاحبها الصليبي (روجيل).

وبعد أحداث تفرقت عساكر السلطان، وعادت إلى بلادها الحملة الجهادية السلجوقية التي أرسلها السلطان محمد لمكافحة الصليبيين انتهى أمرها إلى تقاتل المسلمين، والتحالف مع الصليبيين.

والجيوش التي قال السلطان أنها موجهة إلى حرب الإفرنج رأينا إلى من عادت توجه في حين كان الصليبيون يتمددون في البلاد ويتحكمون بالعباد..

وفي سنة ٥١١هـ توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، هذا الذي رأينا من جهاده ما رأينا!.. وتولى بعده ابنه محمود.

وظل السلاجقة على تشاحنهم، فإن مسعود بن السلطان، أراد الاستيلاء على بغداد والعراق وحقق ذلك، فمشى عماد الدين منكبرس ليخرجه منها، فمشى مسعود للقائه، فكان من نتيجة ذلك أن الفريقين نهبا السواد نهبًا فاحشًا، على حد تعبير ابن الأثير.

وانتهت المفاوضات بين الفريقين إلى أن صار منكبرس صاحب (شحنكية) بغداد، وهي مديرية الشرطة العامة.

ويقول ابن الأثير عن عهد منكبرس في بغداد: وأقام منكبرس ببغداد يظلم ويعسف الرعية ويصادرهم، فاختفى أرباب الأموال، وبطلت معايش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتى إن بعض أهل بغداد زفت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه وكسر الباب، وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنى بزوجته، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق، فأخذ الجندي إلى دار الخلافة فاعتقل أياما ثم أطلق.

وقد ظل الصليبيون في تماديهم وامتدادهم، فإذا بإيلغازي صاحب حلب وماردين، الذي ذكرنا من قبل استنجاده هو وصاحبه طغتكين بالصليبيين، إذا بإيلغازي هذا يعود فيرسل رسولا إلى بغداد يستنفر على الصليبيين، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين بالديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة الرها، وقتلوا أميرها.

ومن يأمن لمن استنجد بالصليبـــيين أن لا يعود فيغدر بالمسلمين وينضم إلى الصليبـــيين، وهل يمكن أن يؤتمن من خان المسلمين، وهل يمكن أن يخلص في الجهاد من نكث بالمجاهدين؟! وكل ما كان من الأثر لاستنجاد إيلغازي أن أرسلت الكتب بذلك إلى السلطان محمودا..

أما السلطان محمود فقد كان مشغولا عن ذلك بالشقاق بينه وبين أخيه طغرل، وبالحرب بينه وبين عمه سنجر، عمه أخي أبيه وهو في الوقت نفسه أبو زوجته، فقد التقى الاثنان في معركة كان فيها مع سنجر عشرون ألف مقاتل ومع محمود ثلاثون ألفا.

خمسون ألف مقاتل كان يمكن أن يسير بهم محمود وعمه سنجر السلجوقيان لإنقاذ الديار الجزرية من الصليبـــيين، ولكنهما بدلا من ذلك تقاتلا بها وسفكا دماءها بأيديها!..

لقد انتصر سنجر.. ولكن على ابن أخيه لا على الصليبـــيين!.

وظل الإفرنج يستضعفون المسلمين فامتدوا حتى بلغوا نواحي حلب فملكوا بزاعة وغيرها، وخربوا ما قدروا على تخريبه من حلب ونازلوها، وقاسموا أهلها على أملاكهم التي بباب حلب.

فأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يغاثوا. وإيلغازي الذي حالف الصليبـــيين في وقت من الأوقات هو اليوم صاحب حلب، يتلقى بلده الضربات من حلفائه السابقين، فمضى إلى ماردين يجمع العساكر والمتطوعة، فاجتمع له نحو عشرين ألف مقاتل قاتل بهم هذه المرة الإفرنج وانتصر عليهم.

وفي سنة ٥١٤ هـــ قام الصراع بين السلطان محمود وأخيه مسعود، وقامت المعارك الدامية بينهما، ثم انتهت بهزيمة مسعود.

ولكي نعرف رأي الشعب بحكامه، نشير إلى أنه في هذه السنة نـزل في العراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير وبقي مغطيًا الأرض خمسة عشر يوما فقال بعض الشعراء:

يا صدور الزمان ليس بوفر ... ما رأيناه في نواحي العراق

إنما عم ظلمكم سائر الخلق ... فشـابـت ذوائـب الآفاق

وكان من تقدم الصليبيين هذه السنة أن أكثروا من الإغارة على حلب وأعمالها، وأعملوا هناك التخريب والتحريق حتى أدى الأمر إلى أن سلمهم صاحب حلب حصن الأثارب القريب من حلب.

وعوضا عن أن يثير هذا التسليم الحمية في نفوس المتسلطين، أثار أطماعهم في صاحب حلب، فإن بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حران اعتقد ضعف صاحب حلب فلم ينتدب نفسه لتقويته والتقدم معه لاسترجاع حصن الأثارب، بل تقدم لأخذ حلب منه، فنازلها وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها، فاستسلمت حلب له.

وطغتكين صاحب دمشق الذي رأيناه فيما مضي يستنجد بالصليبيين نراه اليوم يهاجم مدينة حمص وينهبها ويحرق كثيرا منها، ثم يهاجم مدينة حماة ويستولي عليها.

كان كل ذلك يجري بين حكام السلاجقة غير معنيين بأمر الصليبيين وتمددهم في البلاد. وكان الصليبيون يعدون العدة لاستصفاء بلاد الشام وكبريات مدنها، فقرروا الاستيلاء على مدينة صور.

فاستنجدت بطغتكين بعد أن أشرف أهلها على الهلاك، فسار طغتكين حتى نـزل بانياس ليقرب من صور لعل الصليبيين إذا رأوا ذلك يرحلون عن صور، ولكنهم لم يفعلوا، وانتهى الأمر باستيلاء الصليبيين على صور وخروج أهلها منها وتفرقوا في البلاد.

يقول ابن الأثير: (كان فتح صور وهناً عظيمًا على المسلمين فإنها من أحصن البلاد وأمنعها..) ونقول: إن سقوط صور بقدر ما أوهن المسلمين قوى الصليبيين وشدد عزمهم في الاستيلاء على بلاد الشام، فكان أن قرروا التقدم إلى حلب، وكانت حلب في ذلك الوقت شيعية، وهنا تبرز خيانة من نوع آخر، فإن دبيس بن صدقة وكان عربيا شيعيًا يحكم منطقة الحلة في العراق، فأغرته المطامع فاتصل بالصليبيين وأطمعهم بحلب، وقال لهم: إن أهلها شيعة، وهم يميلون إلي من أجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إلي، وإنني أكون هنا نائبا عنكم ومطيعا لكم..

لقد طمع هذا النذل بتوسيع حكمه بخيانة أمته، والتعاون مع أعدائها، فسار مع الصليبيين لفتح حلب، ولكن شيعة حلب نبذوه واحتقروه، وقرروا الاستماتة في الدفاع عن مدينتهم، وطال القتال، واشتد الحصار، وقلت الأقوات، فقرر الحلبيون الاستنجاد بآق سنقر البرسقي صاحب الموصل، فأرسلوا إليه يسألونه المجيء إليهم ليسلموا إليه البلد، فاستجاب لذلك وقدم بقواته، فرأى الإفرنج أنهم سيقعون بين القوات الحلبية والقوات الموصلية فرحلوا عن حلب.

بين السلاجقة والخوارزميين

مؤسس الدولة الخوارزمية

محمد بن أنوشتكين هو الذي نعتبره مؤسس الدولة الخوارزمية، أما أنوشتكين أبوه فقد كان مملوك أمير من أمراء السلاجقة اسمه (بلكباك) اشتراه من بائع من (غرشستان) فقيل له: أنوشتكين غر شحه.

وكأمثاله من المماليك في كل مكان وزمان لا تحول صفته المملوكية دون بروز مواهبه إن كانت له مواهب برزت مواهبه وكان لها من التقدير ما تستحقه، حتى لقد وصفه ابن الأثير:

بقوله: فكبر وعلا أمره، وكان حسن الطريقة، كامل الأوصاف، وكان مقدما مرجوعًا إليه.

لأنوشتكين هذا الموصوف بهذه الصفات ولد سماه محمدا، ومحمد هذا هو الذي قلنا: إنه يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمية، وقد عني أنوشتكين بابنه هذا، فعلمه وخرجه وأحسن تأديبه. ويضيف ابن الأثير على ذلك في حديثه عن محمد بن أنوشتكين: وتقدم بنفسه وبالعناية الأزلية. وقد صدق ابن الأثير بهذا القول، فالصفات الشخصية وحدها لا تكفي للنجاح والتقدم إذا لم ترافقها العناية الأزلية. والمر كما قال الوزير المغربي: والفضل ليس بنافع أربابه إلا بمسعفة من الأقدار، كان السلطان السلجوقي بركيارق قد ولّى سنة ٤٩٠هـ على خوارزم من اسمه (أكنجي) ولقبه خوارزم شاه فجمع عساكره ليلحق السلطان إلى مرو، ولكن أميرين آخرين تآمرا عليه وقتلاه، وسارا إلى خوارزم، وأظهرا أن السلطان قد ولاهما فسيطرا عليها.

وبلغ ذلك إلى السلطان وكان في طريقه إلى العراق لإخماد تمرد عليه، فأرسل أمير ذاد حبشي في جيش للقضاء عليهما، فانتهى أمرهما في تفاصيل لا شأن لنا بها في موضوعنا هذا، ثم ولّي السلطان على خراسان (أمير ذاد حبشي)، فكان أن ولّي على خوارزم محمد بن أنوشتكين ولقبه خوارزم شاه.

وسار محمد هذا في ولايته سيرة حسنة فساد فيها العدل، وقرب أهل العلم والدين، واشتهر أمره بكل خير. وظل محمد في منصبه بتولي السلطان سنجر خراسان، وبرزت كفايته، فقدره سنجر أحسن تقدير، وحاول بعض ملوك الأتراك مهاجمة خوارزم ومحمد غائب عنها عند السلطان سنجر، فأسرع محمد إلى خوارزم، وأرسل إلى سنجر يستمده وكان بنيسابور فسار لإنجاده بجيشه، ولكن محمدا كان قد استطاع إخماد الفتنة قبل وصول سنجر.

ولما توفي محمد خوارزم شاه، تولى بعده ابنه أتسز الذي كان قد تدرب على يدي أبيه فقاد الجيوش وباشر الحروب، فسار سيرة أبيه.

فقربه السلطان سنجر، ورفع من شأنه، وجعله من أركان حكمه معتمدا عليه واستصحبه معه سلما وحربا، فبرزت كفاءته وازداد عند سنجر تقدما ومنـــزلة.

وإذا كنا قد قلنا من قبل بأننا نعتبر محمد بن أنوشتكين مؤسس الدولة الخوارزمية، فلأنه هو أول من حمل لقب (خوارزم شاه) وأول من تولى سلطة فعلية، وإن كان توليه هذا لم يعد كونه واليا تابعا لغيره.

ونقول هنا: إن أتسز في الحقيقة هو الذي ابتدئ به قيام ملك بيته الخوارزمشاهي مستقلا مقاتلا عن هذا الاستقلال، مناهضا للسلطان سنجر نفسه.

فساد ما بين سنجر وأتسز

أتسز الذي تقدم عند السلطان سنجر لكفاءته، والذي أصبح من قواعد ملك سنجر التي يعتمد عليها في مسار هذا الملك، أتسز هذا، وجد أنه في مواهبه ما يدفعه إلى تسنم أعلى المناصب، وما يجعله في منـــزلة لا تقل، لا عن سنجر، ولا غير سنجر من المعاصرين الذين يتصارعون على الملك والاستقلال به فيما تحت أيديهم من بلاد.

وإذا كان أتسز لم يفصح عما في نفسه من الطموح، ولم يتصرف تصرفا انفصاليا عمليا، فإن كوامن نفسه لم تكن لتخفي على سنجر، وربما تسرب إليه شيء من هذه الكوامن، مما يفيض به في خلواته لخاصته من إشارات وتعابير، تنم عما في نفسه، فأبلغها بعض المخلصين لسنجر محذرين له عما قد يفاجؤه به أتسز من وثوب متوقع.

لذلك رأينا سنجر لا يترك للأيام أن تفعل فعلها، بل رأي أن يستبق هو الأيام فيفعل فعله قبلها، ففي سنة ٥٣٣هـ سار السلطان سنجر بحملة عسكرية قاصدًا خوارزم لانتزاعها من أتسز والقضاء عليه..

فلما قرب من خوارزم وعلم به أتسز خرج بما لديه من قوات لقتاله، وصده عن خوارزم، ولم تكن القوتان متكافئتين، ولم يكن أتسز قد أعد للثورة، بل فوجئ بزحف سنجر بجيوشه عليه، لذلك لم يلبث أتسز أن انهزم وقتل العدد الكثير من رجاله وبينهم ابنه الذي حزن عليه حزنا عظيمًا.

واستولى سنجر على خوارزم، وملكها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه بن محمد، ونظم له حكومته من تعيين أتابك، ووزير وحاجب وما إلى ذلك من مقومات السلطة، وعاد إلى مرو.

والكراهية المتأصلة في نفوس الشعوب المحكومة من السلاجقة، كانت متأصلة في الشعب الخوارزمي، وكان أتسز يعرف ذلك، فلهذا لم يكد سنجر يغادر خوارزم حتى أسرع أتسز إلى العودة إلى خوارزم، فأعانه شعبها على التخلص من سليمان شاه الذي ترك خوارزم عائدا إلى عمه السلطان سنجر.

وهكذا حل العداء بين الاثنين بعد ذاك الولاء، وكانت فجيعة أتسز بابنه فجيعة ملأت قلبه حقدا على السلطان سنجر.

بين الخطا وسنجر

قبل أن ندخل في التفاصيل لا بد لنا من أن نعرف من هم الخط:

يقول ابن خلدون عن الخطا: (هم أعظم الترك فيما وراء النهر) وأنهم: (أمة بادية يسكنون الخيام وهم على دين المجوسية) وأنهم: (كانوا موطنين بنواحي أوزكنده وبلاد ساغون وكاشغر).

وهم كذلك أتراك في رأي ابن الأثير إذ يعبر عنهم: (بالأتراك الخطا) ولكنه وهو يصف وقعة لهم يقول: (وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان).

وعندما يسترسل في الحديث يقول: (وعنده جنود الترك والصين، والخطا). ويقول أيضا: (واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر).

والخطا فيما يقول الدكتور حسين مؤنس: (إن العرب سموا التتار: الخطا، وهي تسمية خاطئة؛ لأن الخطا أو الخطاى في الحق هم أهل الصين).

يتهم خوارزم شاه أتسز بأنه بعد أن ناله ما ناله من هزيمته أمام السلطان سنجر وقتل ابنه، حرض الخطا على غزو سنجر، وأرسل إليهم يطعمهم في بلاده، ويحثهم على قصده في عقر داره.

هذه رواية، وفي رواية أخرى أسباب غير هذا السبب هي التي دفعت الخطا على غزو مملكة السلطان سنجر. ومهما يكن من أمر، فإن الذي وقع هو أن الخطا تقدموا مهاجمين بلاد سنجر بجيش يقدر ابن الأثير عدده بثلاث مئة ألف فارس، فالتقوا بجيش سنجر فيما وراء النهر، واقتتلوا أشد قتال، فحاقت الهزيمة بجيش سنجر وقتل منه على تقدير ابن الأثير مئة ألف قتيل. ويقول ابن الأثير: أن بين القتلى أحد عشر ألفا كلهم صاحب عمامة و لم اهتد لما يقصده ابن الأثير بقوله: صاحب عمامة. ومن هم الذين كانوا يتميزون يومذاك بأنهم أصحاب عمائم؟..

إذا أردنا أن نطبق الوصف على ما هو متعارف عليه في هذا العصر، فإن أصحاب العمائم تعني الفقهاء، فهل كان الفقهاء في ذلك العصر يتميزون باعتمار العمائم؟ الذي نعرفه أن العمائم لم تكن ميزة الفقهاء، بل كانت لباس الرأس للناس كلهم ابتداء من أفقر فقير حتى رأس الدولة: السلطان.

وإن التخلي عن العمائم لباسا للرأس ابتدأ في عصر السلطان محمود الثاني العثماني في أواسط القرن التاسع عشر، فقد خلعها السلطان فمن دونه إلى أن غدت عمرة للرأس للفقهاء بشكل غير شكلها الأول.

فهل كانت العمامة ميزة الفقهاء وحدهم في عهد السلاجقة، قبل أن تكون كذلك في البلاد العثمانية ومنها الوطن العربي؟..

ثم هل كان الجيش السلجوقي يضم هذا العدد الكبير من الفقهاء ليكون من قتل منهم فقط أحد عشر ألفا؟ وإذا كان هذا عدد القتلى فكم كان عدد مجموعهم في الجيش؟ الواقع أن هذا الذي ذكره ابن الأثير عن أصحاب العمائم القتلى يثير الكثير من التساؤلات التي أعترف بأني لا أجد جوابا لها..

ثم يقول ابن الأثير: إن بين القتلى أربعة آلاف امرأة. وهذا أيضًا موضع الغرابة والتساؤل، فهل كانت نساء السلاجقة تقاتل ليكون بين القتلى هذا العدد منهن؟! وإذا لم يكن يقاتلن فلماذا هذا القتل فيهن، في حين أنهن إذا لم يقتلن يسبين، وفي هذا كل المصلحة للمنتصرين؟! ثم لماذا هذا العدد الكبير منهن مع الجيش بحيث يبلغ عدد

قتلاهن أربعة آلاف امرأة!! وقد كانت زوجة السلطان سنجر نفسه مع الجيش، فلما انهزم الجيش أسرت... على أن الخطا أطلقوها. ويقول ابن الأثير: ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه، ولا أكثر ممن قتل فيها. ثم يقول: واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر.

توسع ملك خوارزم شاه

أما خوارزم شاه أتسز فقد أخذ يوسع ملكه فسار إلى خراسان فاحتل سرخس، واتجه منها إلى مرو الشاهجان، فلقيه الإمام أحمد الباخرزي، وشفع في أهل مرو، وسأل أن لا يتعرض لهم الجنود فأجابه إلى ذلك، ولم يدخل البلد بل ظل في ظاهرها، واستدعى إليه أعيانها وأحد فقهائها.

ولكن أهل مرو ثاروا وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه، وأخرجوا أصحابه من مرو، وأغلقوا أبوابها، وابستعدوا لمواجهة خوارزم شاه، فعند ذلك هاجمهم، ودخل مرو فاتحًا، وقتل كثيرا من أهلها وفيهم فقهاء وعلماء، وقتل من الأعيان كثيرون. ثم غادرها مستصحبا معه عددا من علمائها.

وبعد مرو اتجه إلى نيسابور، وخشي من في نيسابور أن يجري عليها ما جرى على مرو، فتوجه إلى خوارزم شاه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها طالبين إليه أن لا ينفذ في نيسابور ما نفذه في مرو من الإباحة للدماء، فوعدهم خيرا.

وتتبع أموال أصحاب السلطان فصادرها، ثم أمر بقطع خطبة السلطان سنجر، وأن يخطب باسمه هو، فلما نفذ ذلك ولم يذكر الخطيب اسم سنجر وذكر بدلا منه اسم خوارزم شاه صاح الناس وثاروا، وكاد الأمر أن يؤدي إلى تمرد عام، ولكن تدارك الأمر ذوو الرأي والعقل خوفا مما يجر ذلك من البلاء على الناس.

ثم سير خوارزم شاه جيشا إلى أعمال بيهق، ولكن أهلها صمدوا للجيش يقاتلونه خمسة أيام فعاد عنها. يقول ابن الأثير: (ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخراسان أعمالا عظيمة).

ثم يقول ابن الأثير: (ومنع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفا من قوة الخطا بما وراء النهر، وبجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان).

هذه الوقائع التي عرضنا أحداثها موجزة لا يمكن أن نمر بها بمجرد مرور دون التمعن بما فيها من دلالات تستوقف المؤرخ للنظر فيها طويلا.

لماذا يثور أهل مرو على خوارزم شاه فيمعن فيهم وفي علمائهم قتلا؟! ولماذا يرفض أهل نيسابور قطع الخطبة للسلطان سنجر وإبدالها بالخطبة لخوارزم شاه، ويثورون من أجل ذلك؟! لم يكن في حكم السلاجقة للشعوب التي حكموها ما يجعل تلك الشعوب تأسف على زوال حكمهم وتنقم على من يحل محلهم، فما الذي حدث فجعل أهل مرو وأهل نيسابور يقفون هذا الموقف الغاضب لسنجر الناقم على خوارزم شاه؟! ليس في النصوص التي يقدمها لنا مؤرخو تلك الأحداث ما يوضح لنا العوامل التي أدت إلى هذا التحول من النقمة على حكم السلاجقة إلى النقمة على من جاء يحل محلهم فبقي علينا نحن أن نستخلص الأسباب مما لدينا من وقائع.

الذي يخيل إليّ أن النقمة على خوارزم شاه سببها ما اشتهر عنه من أنه هو الذي حث الخطا على غزو البلاد الإسلامية وما جره هذا الغزو من سفك دماء عشرات الألوف من المسلمين بما فيهم النساء، وما ألحقه بالمسلمين من الذل والفجائع.

فلم يغفر الناس لخوارزم شاه هذه الخيانة، وظلت تملأ نفوسهم حقدا عليه، فكان من مظاهر هذا الحقد رفض حكمه لهم والثورة على هذا الحكم..

ثم إن ما أحاق بسنجر من الهوان على أيدي الخطا أكسبه عطف المسلمين فرفضوا أن يكونوا عليه مع الخطا فيلغوا اسمه من الخطبة ويحلوا محله اسم الخائن محرض الأعداء على احتلال الوطن..

والذي يثير الاهتمام هو قول ابن الأثير: ومنع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفا من قوة الخطا بما وراء النهر، وبجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان.

ليس المقصود بهذه الجملة واضحا كل الوضوح، وليس المراد بها صريحا كل الصراحة. ولكن لها عندي تفسيرا واحدا أعتقد أنه الصواب:

أن سنجر بعد أن رأى القوة العسكرية الكبرى التي يستند إليها الخطا، وأنهم بذلك يهددون البلاد الإسلامية التي أمامهم، أغضى عما جناه عليه خوارزم شاه، و لم يعد يهمه إلا مصير الوطن الإسلامي، ورأى أن في تقاتل المسلمين زيادة في إضعافهم وتقوية للخطأ عليهم، لذلك منع من مقاومة خوارزم شاه فيما يسعى لاحتلاله من بلاد، لأن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسينقضون عليه في الغد عندما يصبح في مواجهتهم. لذلك منع سنجر من مقاتلة خوارزم شاه إبقاءً على القوى الإسلامية متماسكة.

وكما ذكر ابن الأثير: فإن وجود الخطا فيما وراء النهر يجعلهم على حدود خوارزم نفسها وخراسان كلها.

وإنني وأنا الذي لم أرحم السلاجقة في تاريخهم حين لا يستحقون الرحمة، وإنني وأنا الذي أدنت مساوئ السلاجقة فيما دونت من قبل لأنها تقتضي الإدانة، إنني هنا أنحني إجلالا لهذا السلجوقي الكريم، وأبعث إليه من وراء العصور بأسنى التحية، وأكبره أسمى الإكبار...

ويبدو أن سنجر ظل يخشى فساد خوارزم شاه، ويخشى معاودة اتصاله بالخطا، ورأى أن الأفضل القضاء عليه، فجمع قوة مضى بها لقتاله فتحصن خوارزم شاه في المدينة و لم يخرج للقتال، وبالرغم من فشل الاستيلاء على المدينة ، فإن خوارزم شاه أرسل رسلا إلى سنجر (يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد).

فرأى سنجر أن من الحكمة أن يقبل منه ذلك، وسار سنجر إلى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم. ولا بد لنا من أن نعرف مصير هذا السلطان السلجوقي وإن كان ذلك لا يرتبط بما نحن فيه من الحديث عن الخوارزميين:

كان من إجراءات الخطا أن طردوا الأتراك الغز من منازلهم فيما وراء النهر فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فأقاموا بنواحي بلخ يرعون في مراعيها، فأراد أميرها إبعادهم فجمعوا جموعهم وانضم إليهم غيرهم من الأتراك فقاتلوا أمير بلخ فهزموه وانتهى في هزيمته إلى مرو حيث السلطان سنجر، فراسلهم سنجر مهددا لهم فلم يستمعوا إليه، فهاجمهم بجيشه فهزموا الجيش ووقع سنجر في أسرهم، واستولى الغز على البلاد، مكثرين في قتل الناس مسترقين النساء والأطفال موغلين في النهب جاعلين من بعض المدن قاعا صفصفا.

ويقول ابن الأثير: (ويتعذر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها) في تفاصيل لا مجال لذكرها هنا.

ويقول أيضا: (وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة، وهو معتقل لا يلتفت إليه، حتى إنه أراد كثيرا من الأيام أن يركب، فلم يكن له من يحمل سلاحه، فشده على وسطه وركب. وكان إذا قدم إليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر، خوفا من انقطاعه عنه، لتقصيرهم في واجبه، ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه).

ثم استطاع أن يهرب من الأسر ويسير إلى قلعة ترمذ، وأن يصل بعد أحداث إلى قاعدته (مرو) قويا بعد أسر امتد من سادس جماد الأول سنة ٥٤٨هـ إلى رمضان سنة ٥٥١هـ وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ توفي.

وتلخص حياته بما يلي:

هو سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان، أبو الحارث. ولد في سنجار، من ديار الجزيرة سنة ٤٧٩هـ، وسكن خراسان، واستوطن مدينة مرو، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، فعهد الخليفة المستظهر بالله بالسلطنة إلى أخيه وجعل سنجر ولي عهده. فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره، وأطاعه السلاطين، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وظل رفيع المكانة حتى أسره الأتراك الغز، وبعد أن تخلص منهم وبدأ يستجمع أمره حتى ليكاد يعود إلى شأنه جاءه قضاء الله.

العودة إلى الخوارزميين

في سنة ٥٥١هـ توفي خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين، فتولى بعده ولده أرسلان وافتتح ملكه بقتل أعمامه، وسمل أخيه، فمات أخوه المسمول بعد ثلاثة أيام، وقيل: إنه قتل نفسه بعد أن أصابه ما أصابه.

وكان ذلك بعد خلاص السلطان سنجر من أسر الغز، فأرسل إليه أرسلان يذكر طاعته له، وانقياده لسلطته، فكتب له سنجر منشورا بولاية خوارزم مصحوبًا بخلع. فبقي أرسلان ساكنًا مطمئنًا.

ويرثي ابن الأثير أتسز قائلا: كان حسن السيرة، كافا عن أموال رعيته، منصفًا لهم محبوبًا إليهم، مؤثرًا للإحسان والخير إليهم، وكانت الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل.

ولا ندرى كيف نوفق بين هذه الصفات التي يغدقها ابن الأثير على أتسز وبين ما ذكره هو نفسه عن مجازره في مرو، وعن فظاعة النهب في بلاد بيهق وعظم الأهوال في خراسان؟!..

الخطا والخوارزميون

قلنا فيما تقدم: إن سنجر بعد هزيمته أمام الخطا، وأخذ خوارزم شاه في الانتشار، منع من قتال خوارزم شاه، وقلنا: إنه يرى أن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسينقضون عليه في الغد.

وقد جاء الغد الذي ينقضون فيه على خوارزم.

ففي سنة ٥٦٧هـ عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم، وكان يحكمها يومذاك أرسلان بن أتسز، فجمع عساكره، وسار لصد هجومهم، فمرض في الطريق، فتابع الجيش سيره بقيادة أمير اختاره أرسلان، فلما تقابل الجيشان انهزم الخوارزميون، وأسر قائدهم، فاقتاده الخطا معهم إلى ما وراء النهر دون أن يتابع سيره إلى خوارزم، وعاد أرسلان إلى خوارزم مريضًا.

وفي سنة ٥٦٨هـ توفي خوارزم شاه أرسلان وملك بعده سلطان شاه محمود، ودبرت والدته أمور الملك، وكان ولده الأكبر علاء الدين تكش مقيمًا في الجند قد أقطعه إياها أبوه فلما علم بتولي أخيه الأصغر رفض ذلك وراح يستنجد ملك الخطا على أخيه. ونسي علاء الدين أن الخطا هم الأعداء الذين يستنجد عليهم لا بهم.

وقد لبى ملك الخطا استنجاده فسير معه جيشًا كثيفًا فساروا حتى قاربوا خوارزم، فسار إليهم سلطان شاه، فلما تراءى الجمعان انتصر علاء الدين بمن معه، وفر سلطان شاه إلى دهستان فسار إليه علاء الدين تكش، واقتحم المدينة فهرب سلطان شاه وقبض على أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم يثبت قدمه فيها..

وملك الخطا الذي أنجده عاد يطالب بالثمن، فتوالت رسله، فحاول التحكم وتبدي المطالب فنفر من ذلك وأنف. وجاءه أحد أقارب الملك مع جماعة موفدين من الملك مطالبين بالمال، فثارت به الحمية فقتل هو قريب الملك، وأمر أعيان خوارزم أن يقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا، فقتلوا جميعا.

فلما بلغ هذا الأمر إلى سلطان شاه هب بدوره يستفز ملك الخطا ويستنجده على أخيه علاء الدين تكش زاعما له أن أهل خوارزم يؤيدونه.

فاستجاب له ملك الخطا، وبعث معه جيشًا كثير العدد، فوصل به إلى خوارزم وحاصرها، فاستطاع علاء الدين تكش أن يحول عليهم مياه نهر جيحون حتى كاد يغرقهم، فاضطروا لفك الحصار والرحيل عن خوارزم.

وتروى روايات أُخر عن هذه الوقائع، ومهما كان الأمر فالذي يهمنا معرفته، هو أن سلطان شاه قد توفي خلال هذا الصراع، وأن خوارزم شاه تكش لما بلغه خبر وفاة أخيه عاد إلى خوارزم، وكان قد خرج منها لقتاله، ثم قام صراع بينه وبين المؤيد صاحب نيسابور؛ لأنه حاول التعرض لطوس التي هي للمؤيد، بعد أن سيطر على مرو، وسرخس، ونساوبور وغيرها فانتهى الأمر، بأسر المؤيد ثم قتله، واستيلاء خوارزم شاه على نيسابور، وكل ما كان للمؤيد ولولده الذي خلفه طغان شاه.وبذلك قوي أمر خوارزم شاه علاء الدين.تكش، وعظم شأنه، باستيلائه على

مملكة المؤيد، ومملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه.واستدعى ابنه علاء محمد، وكان بخوارزم فولاه نيسابور، وولى ابنه الأكبر ملك شاه (مرو).

الصدام الأول: خوارزميا، سلجوقيا، عباسيا

سنة ٥٨٨هـ سار السلطان السلجوقي طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان فملك همذان، وغيرها، وانهزم صاحبها قتلغ أينانج بن البهلوان وتحصن بالريّ، فأرسل قتلغ إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فأنجده، ولكن عاد فندم على هذا الاستنجاد، وخاف على نفسه، فمضى متباعدا عن خوارزم شاه، وتحصن في قلعة له، ووصل خوارزم شاه إلى الري، وملكها وملك قلعة طبرك.

وفي سنة ٥٩٠هـ أغار السلطان طغرل، على من بالري من أصحاب خوارزم شاه، وفر قتلغ أينانج بن البهلوان، فيمن فر من طغرل، وأرسل إلى خوارزم شاه، يعتذر، ويسأل إنجاده مرة ثانية.

وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله، قد بدأ بالإعداد للتخلص من السلاجقة، وكانت قد سبقت لجنده وقعة مع طغرل سنة ٥٨٤هـ، حين أرسل الجند بقيادة وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، لمساعدة أحد المتمردين على طغرل، فالتقوا بالقرب من همذان، وانهزم عسكر الخليفة.

أما اليوم فقد وصل رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، ويطلب منه مهاجمة بلاده، ومعه منشور بإقطاعه البلاد. فسار خوارزم شاه من نيسابور إلى الري، فتلقاه قتلغ أينانج، وانضم إليه وسارا معا. فالتقوا بطغرل بالقرب من الري فدارت الدائرة على طغرل وقتل في المعركة، فأرسل خوارزم شاه رأسه إلى بغداد.

وسار خوارزم شاه إلى همذان وضم تلك المناطق إلى مملكته، وسلمها إلى قتلغ أينانج، وأقطع كثيرا منها لمماليكه وعاد إلى خوارزم.

صدام المتحالفين

وإذا كانت قد تمت سيطرة الخوارزميين على ما سيطروا عليه وانتهى أمر السلاجقة، واستراح الخليفة العباسي الناصر منهم بمعونة الخوارزميين، فلم يكن لتخفي عليه تطلعات هؤلاء إلى الحلول محل السلاجقة في بغداد، والعودة بالخلافة إلى الخضوع للمسيطرين لذلك كان حذراً من الخوارزميين كل الحذر.

فعندما أرسل إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده وأقطعه البلاد وانتهى الأمر بقتل طغرل بك كما مر. كان الناصر قد أرسل نجدة لخوارزم شاه تعينه في مقاتلة طغرل، وبعث إليه بالخلع مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنــزل الوزير على فرسخ من همذان.

ورأى الوزير نفسه ممثل الخليفة وأن خوارزم شاه مهما كان شأنه يظل تابعًا من أتباع الخليفة. لذلك رفض طلب خوارزم شاه بأن يحضر إليه، وأجابه: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة في خيمتي.

وترددت الرسل بينهما في ذلك، واستراب كل واحد منهما بالآخر.

لذلك صمم خوارزم شاه على قصد الوزير مؤيد الدين ليعتقله وسار إليه، ولكن الوزير أسرع في الابتعاد عنه واللجوء إلى الجبال والاحتماء بها، فرجع خوارزم شاه إلى همذان.

وهكذا فإن الصدام بين الخوارزميين والناصر قد وقع منذ اليوم الأول الذي انتصرا به معا على السلاجقة. ثم أخذ الناصر سنة ٥٩١هـ يتوسع في سيطرته فأرسل نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن عليّ المعروف بابن القصاب إلى خوزستان فملك مدينة تستر وغيرها من البلاد، وسيطر على القلاع والحصون. ثم اتجه من تستر إلى ميسان.

وهنا برز من جديد قتلغ أينانج بن البهلوان هذا الذي كان لا يستقر على ولاء؛ بل يتقلب حسب الأهواء، ومرت بنا أحواله من قبل، ونراه هنا مقبلا على الوزير ابن القصاب فأكرمه الوزير، وكان سبب قدومه أنه كان قد انقلب على

خوارزم شاه وجرت بين جيشيهما معركة عند زنجان انهزم فيها قتلغ أينانج وعسكره، فالتجأ هذا إلى وزير الخليفة فأعطاه الوزير الخيل والخيام وكل ما يحتاج إليه واتجها إلى كرمنشاه.

ثم تركاها إلى همذان، وكان فيها أولاد خوارزم شاه مع عساكرهم، فلما دنا عسكر الخليفة منها جلا عنها الخوارزميون وتوجهوا إلى الريّ.

وبعد استيلاء الوزير على همذان رحل عنها وخلفه فيها قتلغ أينانج، فاستولى الوزير على كل ما مر به من بلاد منها: خرقان ومزدغان وساوه وآوه، ومضى إلى الريّ، فجلا عنها الخوارزميون إلى (خوار الري) فسير الوزير خلفهم عسكرًا يطاردهم، فتركوها إلى دامغان وبسطام وجرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الريّ وأقاموا بها.

وعاد قتلغ أينانج إلى طبيعته، فلما رأى رحيل الخوارزميين طمع بالتغلب على الوزير فدخل الريّ محاربًا، ولكن الوزير سارع وحصره فيها فاضطر قتلغ أينانج إلى مفارقتها فدخلها فكانت عرضة للنهب.

ومضى قتلغ أينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوه فحال بينهم وبينها عامل الوزير فتركوها والوزير يطاردهم نحو همذان، ثم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ أينانج ونجا بنفسه، وتقدم الوزير إلى همذان ونــزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر. فوصله رسول خوارزم شاه منكرا أخذه البلاد ويطلب أعادتها، فأعرض الوزير عن ذلك، فسار خوارزم شاه مُجدًّا إلى همذان.

وكان الوزير قد توفي، فالتقى خوارزم شاه بعسكر الخليفة فانهزم عسكر الخليفة وملك خوارزم شاه همذان، فكان أول ما فعله أن نبش قبر الوزير وقطع رأسه وأرسله إلى خوارزم وأظهر أنه قتله في المعركة. ثم عاد إلى خراسان.

وأرسل الخليفة الناصر جيشًا إلى أصفهان، وكان فيها عسكر لخوارزم شاه مع ولده، وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فنــزل عسكر الخليفة بظاهر البلد، فترك الخوارزميون البلد عائدين إلى خراسان، فدخله عسكر الخليفة.

عود إلى الخطا

سنة ٥٩٤هـ جاهر خوارزم شاه تكش بالحلول محل السلاجقة في بغداد بأن يكون سلطانا يخطب باسمه على منابرها، وذلك بعد أن سيطر على الري وهمذان وأصفهان وما بينها من بلاد ثم عاد إلى خوارزم، فطلب الخليفة الناصر إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة (أفغانستان اليوم) أن يهاجم خوارزم شاه في بلاده لإشغاله عن التوجه إلى بغداد، فبادر غياث الدين إلى مراسلة خوارزم شاه مؤنبًا متوعدا مهددا بغزوه في عقر داره والاستيلاء على بلاده.

فالتجأ خوارزم شاه إلى الخطا منذرا لهم بأن غياث الدين إذا انتصر عليه فسيستولي بعد ذلك على بلخ ويتجه إليهم في بلادهم فلا يستطيعون مدافعته ورده عن بلاد ما وراء النهر.

فاقتنع ملك الخطا بهذا القول وأرسل جيشًا كثيفًا عبر نهر جيحون مفاجئًا غياث الدين الذي كان مريضًا بالنقرس، وكان أخوه شهاب الدين قد سار بالعساكر الغورية إلى الهند فلم يكن لغياث الدين المريض من القوة العسكرية ما يعتد به، وواصل الخطا زحفهم في بلاد الغور فاستولوا على مناطق فيها وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى.

فالتجأ الناس إلى غياث الدين مستنجدين فلم يكن لديه من الجند ما يمكن أن يقاتل به، واشتد الحال على المسلمين، فتحرك أحد الأمراء الغوريين الأمير حروش وكاتب غيره من الأمراء فاجتمعوا جميعا واتجهوا إلى الخطا فبيتوهم ليلا مفاجئين لهم وأكثروا القتل فيهم ولم يكن لهم سبيل إلى الفرار، فالغوريون وراءهم ونهر جيحون أمامهم فعظم القتل فيهم.

ولكنهم عادوا في الصباح فتجمعوا أو ثبتوا وثبت المسلمون فدارت الدائرة على الخطا فمن ثبت منهم قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق.

كانت الصدمة مروعة لملك الخطا واعتبر خوارزم شاه مسئولاً عما جرى لجنده فأرسل إليه يطالبه عن كل قتيل بعشرة آلاف دينار، وكان عدد القتلى اثني عشر ألف قتيل.

فعاد خوارزم شاه إلى غياث الدين يستعطفه، فرد عليه غياث الدين بلزوم طاعة الخليفة. ومن جهة ثانية فقد رد على ملك الخطا بأنك في الحقيقة لم ترسل جيشك مناصرة لي وإنما أرسلته للفتح ودخول بلخ، ولست أنا الذي أمرت الجيش بعبور النهر لأكون مسئولاً عن هزيمته. وأنا الآن في صلح وحسن حال مع الغوريين وطاعة لهم.

فأغضب هذا الجواب ملك الخطا وصمم على قتال خوارزم شاه وأرسل جيشًا للاستيلاء على خوارزم فحصرها الجيش فكانت تدور مناوشات بينه وبين من يخرجهم خوارزم شاه لقتاله، وتطوع كثير من المسلمين لنصرة خوارزم شاه فاستطاع رد جيش الخطا عن خوارزم، ولم يكتف بذلك؛ بل سار وراءهم إلى بخارى فحصرها فقاتله أهلها المسلمون مع الخطا وامتنعوا عليه، ولكنه تغلب على بخارى فلم يسئ معاملة أهلها وتجاوز عما فعلوه في قتاله.

وفي سنة ٥٩٦هـ توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان في بلده (شهرستانة) بين نيسابور وخوارزم وكان في طريقه من خوارزم إلى خراسان، فتولى بعده ابنه قطب الدين محمد الذي لم يلبث أن ترك لقبه (قطب الدين) واتخذ لقب أبيه (علاء الدين).

وبعد صراعات طويلة مع الغوريين والخطا وغيرهم استقر ملكه واتسع. وكان الخطا قد تمكنوا من تركستان وما وراء النهر وطالت أيامهم بها وثقلت وطأتهم على أهلها ما حمل سلطان بخارى وسمرقند سنة ٦٠٤هـ على مراسلة خوارزم شاه في وجوب التحالف للتخلص من الخطا وشدتهم على المسلمين، ووعده بأن يذكر اسمه في الخطبة وعلى النقود، وأن يحمل إليه ما يحمل إليهم.

فلم يطمئن خوارزم شاه إلى الوفاء بوعود السلطان، فسير إليه السلطان وفدا من البخاريين والسمرقنديين يطمئنه، فعزم على المسير إلى الخطا بعد أن دبر أمور بلاده وأوكلها إلى من يحفظها. ومضى بجيشه عابرا نهر جيحون والتقى بسلطان سمرقند فثبتا حلفهما.

فحشد له الخطا جيشا كبيرا سنة ٦٠٦هـ فالتقى الجيشان في حروب طاحنة انتهت بهزيمة الخطا هزيمة منكره قتل فيها منهم وأسر العدد الكثير. ومضى خوارزم شاه متوغلا في بلاد ما وراء النهر يفتحها مدينة مدينة ومنطقة منطقة، وعين فيها نوابًا له وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، فزوجه خوارزم شاه ابنته ورده إلى سمرقند، ومعه ممثل له وهو ما اصطلح على تسميته (شحنة) .

وظل الأمر هادئًا قارا حوالي سنة، ويبدو جليًا أن الخوارزميين خلال هذه السنة قد أساءوا السيرة في سمرقند وتصرفوا تصرف السادة الحاكمين، وعاملوا السمرقنديين معاملة أغضبت صاحب سمرقند، ما عبر عنه ابن الأثير بقوله: (رأى من سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ما ندم معه على مفارقة الخطا) ا.هـ. ولا شك أنه قد ناله هو نفسه الشيء الكثير من سوء السيرة وقبح المعاملة، ويتراءى لنا أن (الشحنة) الذي أرسله خوارزم شاه إلى سمرقند ممثلا سلطته فيها قد تَصرفَ تصرُّفَ السيد المطلق متجاوزًا صاحب سمرقند الذي يعتبر نفسه صاحب الكلمة العليا فيها مما أحنق السيد السمرقندي رب السلطة الشرعية الحاكمة.

لذلك رأينا ابن الأثير يقول: (إنه على مفارقة الخطا...).

وندمه هذا لم يبق مجرد ندم نفسي مكتوم، بل تحول إلى فعل عنيف بلغ الغاية في نقمته وشراسته وفظاعته! فأول ما فعله أنه أرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه ويعود إلى طاعته فهو بهذا يتنازل عن استقلال بلاده ويسلمها إلى الأجنبي!..

ونحن ندرك أنه من أجل أن يصل الأمر بصاحب سمرقند إلى هذا الحد، يجب أن تكون أفعال الخوارزميين في سمرقند قد وصلت إلى شرحد!.

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نستسيغ تسليم سمرقند إلى الخطا.

لقد كان الداعي لصاحب سمرقند إلى طلب تدخل خوارزم شاه هو النقمة على ما أصاب المسلمين فيما وراء النهر وغيره من طغيان الخطا، والغيرة على المسلمين هي التي دفعت صاحب سمرقند إلى الاستنجاد بخوارزم شاه على الخطا.

وابن الأثير يصف الوضع بهذه الجمل: (... فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارى، ويلقب بخان خانان، يعني سلطان السلاطين، وهو من أولاد الخانية، عريق النسب في الإسلام والملك، أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك، وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم. ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة).

ونحن لنا أن نستنتج من هذا القول:

١- أن صاحب سمرقند مسلم عريق في الإسلام، سليل مسلمين عريقين كذلك في الإسلام.

٢- بالرغم من قول ابن الأثير من أنه أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فإننا نستنتج مما جاء في آخر كلام ابن الأثير أن هذا الضجر كان من تحكم هؤلاء به هو نفسه، إذ كان خاضعًا لسيطرتهم. وهذا لا يمنع من أنفه وضجره من تحكم الخطا بعموم المسلمين.

٣- كان يحسب أن إرضاء خوارزم يكفي فيه أن يحمل إليه المال وأن يخطب باسمه في بلاده ويذكره على السكة، وبذلك يتخلص من نفوذ الخطا المتحكم به وبأمواله ويعود مستقلا كامل الاستقلال. ولكن آماله خابت فبعد أن كانت سيطرة الخطا على بلاده سيطرة غير مباشرة عادت سيطرة الخوارزميين سيطرة مباشرة. ولكي يستدعي هذا (الخان خانان) المسلم العريق في الإسلام سليل المسلمين العريقين في الإسلام من أجل أن يستدعي الخطا الكفار لتسلم بلاده الإسلامية، يجب أن

تكون سيرة الخوارزميين في بلاده قد بلغت الغاية في الظلم والتعسف والقهر والإذلال.

ولم يكتف صاحب سمرقند باستدعاء الخطا لتسليمهم البلاد، بل عمد إلى الانتقام من الخوارزميين الموجودين في سمرقند انتقاما بلغ أقصى الوحشية.

وكان قد سكن سمرقند الكثيرون بعد التحالف الخوارزمي السمرقندي، كما كان يسكنها غيرهم من قبل، فأمر صاحب سمرقند بقتل الجميع قتلا عاما، أما من كانوا منهم منتسبين شخصيًا إلى خوارزم شاه فكان يقطع الواحد منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق (كما يعلق القصاب اللحم).

وبلغ حقده حتى إلى زوجته الخوارزمية ابنة خوارزم شاه، فمضى إليها ليقتلها، فأغلقت الأبواب، ووقفت بجواريها تمنعه، وأرسلت إليه تقول له: أنا امرأة وقتل مثلي قبيح، ولم يكن مني إليك ما أستوجب به هذا منك، ولعل تركي أحمد عاقبة، فاتق الله في..

فتركها ووكل بها من يمنعها من التحرك بحرية.

ووصلت أخبار ما جرى إلى خوارزم شاه فأقامته ولم تقعده وكان رد فعله يكاد يكون أفظع من فعل صاحب سمرقند، فإذا كان هذا قد قتل الخوارزميين وحدهم، فإن خوارزم شاه صمم علي قتل كل من في خوارزم من الغرباء!.. ولكن أمه حالت بينه وبين ذلك، وقالت له: إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل. فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى.

وانصرف إلى إعداد جيش لإرساله إلى ما وراء النهر، فكلما أعد جماعة سيرها فعبرت جيحون، وتتابع التسيير حتى عبرت جموع غفيرة، ثم عبر هو وراءهم زاحفًا بهم إلى سمرقند، فلما وصلها بعث إلى صاحبها قائلا: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر. وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت..ولكن صاحب سمرقند رفض ذلك وبعث إليه: لا أخرج وافعل ما بدا لك.

ويبدو لي أن رفضه هذا مع علمه بكثافة القوى التي يقودها خوارزم شاه كان اعتمادا على قوى الخطا التي كان يأمل أن تأتي لإنجاده بعد أن استنهض ملكها لهذه المهمة، وأنه كان يحسب أنه يستطيع بقواه الذاتية مصاولة خوارزم شاه إلى أن تصل قوى الخطا.

ولكن خوارزم شاه عاجل سمرقند وأمر بالزحف إليها. وهنا بدرت من بعض أصحابه بادرة إنسانية كريمة استجاب لها خوارزم شاه. فقد كان التجار الغرباء يسكنون دربًا خاصا بهم، فطلب إليه صاحبه أن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلد أن يقصدوا الدرب الذي يقيم فيه هؤلاء التجار فيمنع من نهبه والإساءة إليهم، فإنهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل، فأمر بعض الأمراء بذلك.

ونادى بالهجوم العام فكان أن نصبت السلالم على السور وصعد عليها المقاتلون وبادروا سمرقند من كل ناحية، فلم يكن أسرع من أن اقتحموها، فأبيحت ثلاثة أيام نهبا وقتلا، ويقول ابن الأثير: إنه يقال إنهم قتلوا مئتي ألف إنسان.وسلم ذلك الدرب بأهله وأموالهم.

وهنا نتساءل عن شيئين اثنين: عن صاحب سمرقند أين هو في هذا المعمعان الدموي، ثم عن الخطا الذين كان اعتماد صاحب سمرقند عليهم؟.. أما صاحب سمرقند الذي هو وحده المسئول عن كل ما جرى، منذ استدعائه خوارزم شاه، إلى رفضه طلب خوارزم شاه الرحيل عن البلاد.

أما صاحب سمرقند وصاحب هذه المسئولية الكبرى فإننا نفتش عليه في قيادة معركة الدفاع عن عاصمته سمرقند فلا نجده، ونفتش عليه في كل ما جرى بعد رفضه الرحيل، ورفضه أن يكون ثمن رحيله سلامة الناس والبلاد، ورده على خوارزم شاه: لا أخرج وافعل ما بدا لك!..

ومن يرد هذا الرد ويقول هذا القول كنا سنجده حيث نفتش عليه على رأس قيادة الجموع المدافعة عن سمرقند؛ لأن خوارزم شاه قد فعل ما بدا له وهو الهجوم على سمرقند، في مقابل رفضه هو الخروج وترك البلاد!.

لم يكن صاحب هذا الرد الاستفزازي العنيف لا على رأس القيادة، ولا حتى على ذيلها!..

إن اسمه يختفي نهائيًا... لم يكن في القيادة، و لم يكن في القتلى ولا الجرحى ولا الأسرى!..

يروى ابن الأثير قائلا في متابعة الأحداث: ثم أمر (خوارزم شاه) بالكف عن النهب والقتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفا فأرسل بطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي، فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزم شاه، فقبل الأرض وطلب العفو، فلم يعف عنه وأمر بقتله، فقتل صبرا، وقتل معه جماعة من أقاربه، و لم يترك أحدا ممن ينسب إلى الخانية.

ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه، و لم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

من يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة؟ إنه لم يشر إليه من قبل أبدا، مع أن ذكره هنا بالشكل الذي ذكره يوهم بأنه معروف من القارئ، وما من أحد معروف من القارئ في هذه الأحداث إلا صاحب سمرقند، فهل يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة صاحب سمرقند، وسماه هنا صاحب القلعة لالتجائه إلى القلعة بعد سقوط المدينة ؟.

قد يكون هذا مستبعدا... على أنه قد يقربه قول ابن الأثير في آخر الكلام: وقتل معه جماعة من أقاربه، و لم يترك أحدا ينسب إلى الخانية.

فالمفروض أن من ينسبون إلى الخانية هم أقرباء (خان خانان) صاحب سمرقند..

إن كلام ابن الأثير المتشابك الموجز تركنا نجهل حقيقة مصير هذه الحرب الفظيعة بما جرى فيها. هذا عن صاحب سمرقند فماذا عن الخطا الذين استنجد بهم صاحب سمرقند وكان اعتماده عليهم في رده الحاسم على عرض خوارزم شاه؟ لا يذكر عنهم ابن الأثير خلال حديثه عن المعركة شيئًا، ولكنه يعود فيقول وهو

يتحدث عما بعد المعركة (لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم فإنه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده).

في حين أنه لم يذكر شيئا عما فعله خوارزم شاه بالخطا، ولم يشر أدنى إشارة إلى جماعة الخطا في الدفاع عن سمرقند، وما ذكره عن المذابح فيها، كانت عبارته صريحة، بأن هذه المذابح نالت السمرقنديين وحدهم، فهو يقول عن خوارزم شاه: (وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال إنهم قتلوا منهم مئتي ألف إنسان).

الذي يلوح لنا أن ملك الخطا اكتفى بأن أرسل إلى سمرقند نجدة ساهمت بالدفاع القصير الأمد عن سمرقند فأصيبت بما أصيب به أهل سمرقند.

التتر والمغول

مؤرخو العرب القدامى يعتبرون التتر والمغول اسمين لمسمى واحد، فهم يعبرون مثلا عن جنكيز خان وقومه بالمغول تارة وبالتتر تارة أخرى.

وابن الأثير يقول عن أحداث خوارزم شاه والخطا والتتر والمغول: إن التتر بقيادة ملكهم كشلي كانوا أعداء الخطا. ثم لا يلبث أن يقول ما نصه: (ثم اتفق خروج التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكيز خان النهرجي على كشلي خان التتري الأول).

فهم كلهم عنده تتر، وللتمييز بينهم يصنفهم: بالأول والآخر.

وفيما نرى: أن التتر في الأصل فرع من المغول خرجوا منهم، ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصالا تاما جعلهم شعبا مستقلا لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد، وإن ظل يجمعه به تشابه الملامح وتقارب بعض الخصائص. وبذلك يكون كشلي ملك التتر. ولا حاجة لابن الأثير لأن يعبر عنه بقوله: (التتر الأول)، ويعبر عن قوم جنكيز خان: (بالتتر الآخر). فكما أن كشلي ملك التتر، فإن جنكيز خان ملك المغول.

التتر يتحركون

التتر الذين كان قد نــزح فريق كبير منهم إلى تركستان واستقروا فيها كان بينهم وبين الخطا عداء متأصل وحروب متتابعة، فانتهزوا فرصة التقاتل بين خوارزم شاه والخطا، والهزيمة التي مني بها الخطا في سمرقند، فمشى ملكهم كشلي للانقضاض على الخطا في حالة ضعف.

وعرف ملك الخطا عجزه عن صد التتر المتدفقين عليه كالسيول، فأغض عما بينه وبين خوارزم شاه من الشحناء، وعما أنــزله خوارزم شاه بجيشه، فأرسل إليه يعرض التحالف معه على التتر الذين يشكلون خطرًا عليهما معًا، قائلا: (أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفونا عنه. وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا، فلا دافع لهم عنك. والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من بلاد ونقنع بما في أيدينا).

وإذا كان ملك الخطا قد رأي نفسه بحاجة إلى خوارزم شاه في الخطر المحدق به مما أدى به إلى أن يطلب نصرته في حال هي في حقيقتها توسل، فإن كشلي ملك التتر لم يكن بغافل عما يمكن أن يتأثر به موقف أحد الفريقين في حالة انضمام خوارزم شاه إلى الفريق الآخر، لذلك سارع هو الآخر إلى خطب ود خوارزم شاه طالبًا إليه التحالف معه على الخطا قائلا: (إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا، فساعدنا عليهم، ونحلف لك إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك، ونقنع بالمواضع التي ينــزلونها).

هكذا وجد خوارزم شاه نفسه موضع تجاذب عدوين شرسين، يسعى كل منهما إلى كسب رضاه واستعطافه، فرأى أن يرضيهما ويمنيهما معا، فأجاب كلا منهما: إنني معك ومعاضدك على خصمك!..

ومضى بجيشه فنــزل قريبا من مكان تواجههما، بحيث يظن كل فريق أنه جاء لمناصرته، ووقعت المعركة فكانت هزيمة الخطا هزيمة كاسحة، فأسرع خوارزم شاه

عند ذلك إليهم وجعل يقتل فيهم ويأسر وينهب، قاطعًا عليهم بجيشه الكبير طريق الهروب فأوقع فيهم مذبحة مروعة بحيث لم يكد ينجو منهم أحد إلا عدد قليل مضوا مع ملكهم إلى بعض الجبال المنيعة، كما انضم إلى جيش خوارزم شاه منهم جماعة...

وراح خوارزم شاه يمنن على كشلي بما فعل، قائلا: إنه قدم لمساعدته ولولاه لما انتصر على الخطا، فلم ينكر كشلي عليه ذلك واعترف به. ولكن خوارزم شاه عاد بعد حين يطلب ثمن ما فعل، وكان ثمنًا باهظًا، إذ طلب من كشلي أن يتقاسما بلاد الخطا.

فرد كشلي عليه ردًا عنيفًا قائلا: ليس لك عندي إلا السيف، وأنت وقومك لستم أمنع من الخطا، فإن سكت، وإلا كان مصيركم مصيرهم.

واتبع قوله بالعمل وتقدم بجيشه حتى كان قريبًا منهم، فراغ منه خوارزم شاه لأنه كان يعلم أنه لا يستطيع لقاءه بجيشه وجهًا لوجه، فراح يحاربه حرب العصابات، وكذلك أرغم أهل الشاش وفرغانة وغيرها من مثيلاتها وما جاورها أن ينـــزحوا عنها ويلتحقوا بالبلاد الإسلامية الأخرى، وكانت بلادًا زاهرة زاهية فراح يخربها لئلا يستولي عليها التتر، حتى عمها الخراب.

وشاءت الأقدار أن تكون في صف خوارزم شاه، فإذا بالمغول يتجهون إلى غزو بلاد التتر، فأصبح النصر على الخوارزميين لا يعني لكشلي شيئًا، فاتجه بقوته لمجابهة المغول، وعاد خوارزم شاه إلى الاستقرار.

ثم يمضي حوالي سبع سنوات لا يبرز لنا فيها شيء من أخبار خوارزم شاه حتى تكون سنة ٦١١هـــ فإذا بأخباره تتابع ممتدًا سلطانه امتدادا واسعًا، مسيرًا جيشه لفتح كرمان ثم مكران واصلا سلطانه إلى السند من حدود كابل.

وخطب له في هرمز وقلهات وبعض عمان.

وفي سنة ٦١٢هـــ يكون قد استولى على خراسان كلها وملك باميان. وفي سنة ٦١٤هـــ ملك بلاد الجبل، ويصف ابن الأثير جيشه في تلك الفترة قائلا: (فسار مجدًا في عساكر تطبق الأرض)، وبعد ما ملكه: ساوه، وقزوين، وزنجان، وأبهر،

وهمذان، وأصفهان، وقم، وقاشان. ويقول: واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته.

هذه السطوة التي بلغها خوارزم شاه، وهذا الملك العريض الذي صار إليه، أطمعه بأن يسيطر على الخلافة في بغداد وأن يحل فيها محل السلاجقة ومن قبلهم البويهيين، وأن يخطب له فيها ويلقب بالسلطان. ولكن خلافة بغداد كانت معرضة عنه محاذرة منه لا تريد لأحد أن يعود فيحد من سلطتها ويجعلها رهينة قصرها. وكما يقول ابن الأثير: (كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا، وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد أن يقدم غيره عليه، ولعل في عسكره مئة مثل الذي يقدم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يغضبه).

وإذا كان قد استطاع حتى الآن أن يكبت غضبه في نفسه وأن لا يجاهد الخلافة بالعداء، فقد رأى الآن أن يضع لصبره حدًا وأن يفرض نفسه على الخليفة الناصر بحد السيف.

فأعد جيشًا ليسير به إلى بغداد فاتحًا، وقدم طليعة لهذا الجيش مؤلفة من خمسة عشر ألف فارس يقودها أحد كبار أمرائه فمضى بها الأمير متجها صوب العراق حتى بلغ حلوان على حدود العراق، ثم أتبعها بقطعة أخرى من الجيش واصلة سيرها حتى همذان، فلما تجاوزتها فاجأتها العواصف الثلجية التي يقل مثيلها، فهلك الكثير من الجنود والكثير من الدواب، وقضى على من سلم بنو برجم الأتراك وبنو هكار الأكراد ولم يصل إلى خوارزم منهم إلا أقل من القليل.

كانت الصدمة شديدة على خوارزم شاه فهدت عزيمته، وصمم على الرجوع إلى خراسان خوفًا من التتر، فقد كان يحسب أنه يستطيع إنهاء أمر السيطرة على بغداد بسرعة، ثم يتفرغ للتتر فلما حل بجيشه ما حل يئس وقرر إلغاء مشروع احتلال بغداد، وعاد إلى خراسان، ومن مرو توجه إلى ما وراء النهر، فلما وصل إلى

نيسابور في يوم جمعة جلس عند المنبر وأمر الخطيب بأن لا يخطب للخليفة الناصر. وكذلك فعل ببلخ وبخارى وسرخس.

ومن سنة ٦١٤هـ حتى سنة ٦١٦هـ تختفي أخبار خوارزم شاه حتى كانت هذه السنة، وهي السنة التي زحف بها المغول بقيادة جنكيزخان على العالم الإسلامي قاصدين أول ما قصدوا خوارزم شاه الذي كان من أمره معهم ما ليس هنا مكان تفصيله، وقد كنا فصلناه في كتابنا: (المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام) وطوى أمر خوارزم شاه..

دولة بني عمار في طرابلس

بنو عمار أسرة تعود أصولها إلى قبيلة كتامة المغربية الأفريقية. وعند قيام الدولة الفاطمية كان شيوخ هذه القبيلة ممن لهم الصدارة في مؤسساتها الإدارية والعسكرية، نذكر منهم الحسن بن عمار الذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

ثم كان بنو عمار قضاة طرابلس، ثم أصبحوا أمراءها فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، المتوفي سنة ٤٦٤هـ، ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار المتوفي سنة ٤٩٢ هـ، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار المتوفى حوالي سنة ٥١٤ هـ، وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار المتوفى سنة ٥٠١ هـ.

كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م). وكانت إمارتهم تمتد حتى تخوم بيروت من جهة وحتى أرباض إنطاكية من جهة ثانية. وتمتد من نواحي جبلة في سوريا إلى قلعة صافيتا وحصن الأكراد والبقيعة. وفي لبنان حتى الهرمل والضنية وجبة بشرى وبلاد العاقورة شرقي بلاد جبيل.

وكانت جونية من أعمال طرابلس في عصر الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، والذي زار طرابلس سنة ٣٦٢هـ.

تأسيس الدولة وازدهارها

وقد نمت إمارتهم نموا عظيما حتى أصبحت طرابلس، في القرن الحادي عشر، أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت أساطيلها تتنقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحري الرئيسي لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وتنقل منتجات الشام والمشرق إلى أوروبا، وإليه تفد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشام. وكان بنو عمار، وهم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البر والبحر يسيرون أسطولهم التجاري إلى ثغور البحر المتوسط. وظلت طرابلس، ومعها دمشق، تموّنان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك وكان التاجر الأوروبي القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده وهو يحمل سلال السكر وأكياسه من طرابلس. وجمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر (أبو على) وفي بساتين طرابلس. وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه، بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى، وكان من حسن سياسة بني عمار وصلاح حكمهم أن أثرت المدينة وكانت على أحسن حال اقتصادي حتى خلال الحصار الصليبي لها برا وبحرا، إذ ظلت صامدة تقاتلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها.

وعندما أوفد القائد الصليبي ريموند خلال الحصار، وفدا لمفاوضة فخر الملك، ومر الوفد بأسواق طرابلس أدهشه ما رأى من تنوع البضائع ورواج التجارة وعظيم الثروة والرخاء الذي تنعم به المدينة. وقد دفع فخر الملك أثناء الحصار الصليبي إلى جميع المدافعين عن المدينة من الأجناد برا وبحرا رواتب ستة أشهر مقدما، كما كان أثرياء المدينة يشاركون بأموالهم في مقاومة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الصليبيون على المدينة .

وكان فخر الملك عمار بن عمار يلقب بملك الساحل.

وإذا كنا نعلم أن الحسن بن عمار هو الذي أرسل، في عهد العزيز بالله، أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي إلى دمشق، وأن أبا تميم هذا أرسل أخاه

علي بن جعفر بن فلاح واليا على طرابلس سنة ٣٨٦هـ، إذا كنا نعلم ذلك، فإننا لا نعلم شيئًا عن عوامل وصول بني عمار إلى طرابلس: قضاة ثم حكاما، فليس في المصادر التاريخية التي في أيدينا ما يدل على بدء قيامهم فيها. فبعد وفاة جد الأسرة الحسن بن عمار سنة ٣٨٦هـ، لا نرى أمامنا شيئًا من أخبارها، ويمتد ذلك حوالي ثلاثة أرباع القرن حتى يبرز لنا اسم أبي الكتائب عمار صاحب أبي الفتح الكراجكي، المتوفي سنة ٤٤٩هـ والذي ألف له الكراجكي كتاب (عدة البصير في حج يوم الغدير).

أما أول من استقل بطرابلس من بني عمار فهو أبو طالب الحسن بن عمار المشهور بأمين الدولة، وقد ظل يعد نفسه تابعا للدولة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م)، حيث استقل بطرابلس فقامت بذلك إمارة بنى عمار.

ومات أمين الدولة سنة ٤٦٤هـ. (١٠٧٢م). فتولى بعده ابن أخيه علي بن محمد بن عمار المعروف بجلال الدولة الذي استمر حكمه حتى سنة ٤٩٢هـ. وتولى بعده أخوه عمار بن محمد بن عمار ذو السعدين المعروف بفخر الملك وبقي حتى سنة ٥٠١هـ، حيث ذهب إلى بغداد مستنجدًا بالسلاجقة على الصليبيين. وفي سنة ٥٠٢هـ (١١٠٩م). احتل الصليبيون طرابلس بعد نضال طويل.

منقبة مؤسس الإمارة، أمين الدولة الحسن بن عمار

كان أمين الدولة كبير العقل سديد الرأي، عالما، فقيها، كاتبا مجيدا، ألف كثيرا من الكتب النفيسة. أما منقبته الكبرى فهي تأسيسه (دار العلم) التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. وكان يبعث، في التفتيش عن الكتب، إلى جميع الأقطار ويبذل في شرائها باهظ الأثمان، ويجلب لها الكتب النادرة.

واستمر الأمر بعده في عهد خلفائه، هذا فضلا عن عنايته بالعلم وطلابه فيها وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة.

وإلى جانب دار العلم قامت (دار الحكمة) التي قدم إليها العدد الكثير من طلاب العلم، حتى لقد أصبحت طرابلس كعبة علم ومركزا من أعظم المراكز العلمية

في العصر الوسيط يفد إليها طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وهندسة وطب.

وعدا طلاب العلم فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة المؤلفات لأشهر المؤلفين في العلوم والمعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء ينضم إليها العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم. وقد جدد (دار العلم) التي أنشأها أمين الدولة ابن أخيه وخليفته جلال الدولة سنة ٤٧٢هـ (١٠٨٢م)، إذ كانت الظروف مواتية لجلال الدولة أكثر مما كانت مواتية لعمه وسلفه أمين الدولة.

ففي عهد الأول كانت الإمارة في دور التأسيس، كما أن عمر حكمه كان قصيرا. أما جلال الدولة فقد استمر في الحكم زهاء ثمانية وعشرين عاما اتسعت فيها أطراف الإمارة وعظم شأنها ونشطت تجارتها.

دار العلم في طرابلس

وقد عني جلال الدولة بدار العلم عناية فائقة، وجعل لطلاب العلم فيها رواتب، وفرق على أهلها ذهبا، وجعل لها نظارًا يتولون القيام بذلك.

وكان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عمار ونيل جوائزهم فيلقون الترحيب والتكريم. وكثرت حلقات التدريس وازدحمت المدينة بأشهر الأعلام، من أدباء وفقهاء وشعراء ولغويين، من الذين يفدون إليها من كل مكان، وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم كما كان يفد إليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد.

كما ازدهرت فيها ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية والفارسية وغيرهما إلى اللغة العربية، ومنها إلى اللغات الأخرى، ولدينا شهادة بذلك من المستشرق (دي لاسي أوليري)، في كتابه: (علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب)، وساوت في ذلك كبريات الحواضر العربية، فكثر فيها المترجمون والنساخون والكتاب والخطاطون.

ويقول (ستيفن نسيمان) في كتاب (تاريخ الحروب الصليبيــية) عن المكتبة: إنها أصبحت أروع مكتبة في العالم.

وعندما سقطت طليطلة، في الأندلس، في أيدي القشتاليين، سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م.) يبدو أنه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، وكان منهم: أحمد بن محمد أبو عبد الله الطليطلي، فاحتضنه بنو عمار وجعلوه متوليًا لدار العلم. إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم، من أمثال: الحسين بن بشر بن علي بن بشر وأسعد بن أبي روح. . . . . وغيرهما من أمثالهما.

وكان في المكتبة مئة وثمانون ناسخًا عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود منها نسخ في المكتبة وإضافتها إلى الكتب الموجودة فيها. ولم يقتصر الأمر على الكتب العربية، بل ضمت المكتبة الكثير من كتب اليونان والرومان والفرس، وبين الكتب العربية عدد كبير منها بخطوط مؤلفيها. ومكتبة كهذه تحتاج إلى الإنفاق الكثير عليها لما تضمه من عاملين فيها ومشرفين عليها ونساخين وخطاطين ومترجمين ومجلدين ووراقين وباعة يحملون إليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها.أما عدد الكتب التي احتوتها مكتبة بني عمار فقد تعددت الأقوال في شأنه:

فابن أبي طي يقول: إن العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، ويؤيد ذلك ابن الفرات. وعلى هذا القول كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين منهم: أرنولد وغروهمان وغيبون وشوشتري الذي يقول، في كتابه (مختصر تاريخ الثقافة الإسلامية): إن مكتبة طرابلس كانت تحتوي أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب. والمستشرق الفرنسي كاترمير لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب.

ويبدو أن المكتبة بدأت، في عهد منشئها الأول، أمين الدولة بمئة ألف كتاب، وأن العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين.

وكان في المكتبة، قاعة خاصة للنُساخ والخطاطين مزودة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها. وهؤلاء الوافدون لم يكونوا من أبناء طرابلس فقط، فقد كان العلماء وطلاب العلم

يفدون إليها من كل مكان للإفادة مما تحويه في كل فن من فنون العلم. فاكتظت طرابلس بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدثين والفقهاء وبالطلاب الآخذين عنهم. حتى صارت مدينة طرابلس تسمى دار العلم، قد وردت هذه التسمية في عدة مصادر تاريخية. وفي ذلك يقول الشاعر شهاب الدين محمود: (وهي أيضا بدار علم تسمى).

وأسهم عدم بُعد طرابلس عن دمشق في ازدهار الثقافة في طرابلس، إذ كان ينتقل إليها، في كل عام، زائرون من دمشق ليشاركوها الحياة العلمية ثم يعودوا إلى بلدهم.

وعندما حاصر (أتسز الخوارزمي) دمشق سنة ٤٦٨هـ. واعتقل عددا من رجالها وغلت الأسعار وضاق أمر الناس، قامت هجرة جماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس، وممن هاجر الشاعر ابن الخياط صاحب الديوان المطبوع في دمشق، سنة ١٩٥٨.

ومن المقرر، عند جميع من كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ووصولها إلى أوروبا، أن من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التجارية بقوافلها المتنقلة بين الشرق والغرب.

وقد كان لطرابلس بني عمار الأثر الفعال في ذلك، فإليها كانت تفد القوافل التجارية البرية من بلاد الشام، ثم ينقلها إلى مرافئ أوروبا أسطول بني عمار التجاري الذي أعدوه أحسن إعداد، ناقلا معها جذور الحضارة الإسلامية العربية.

وليس كالعلائق التجارية بين الأمم ما يداني في التقدم الحضاري.

وقال ناصر خسرو (القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي) عن طرابلس: (وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة).

وقد ذكر المؤرخ (الإسلامي)، في كتابه، إن مدينة طرابلس كانت مملوءة بالعلماء حين دهمها الصليبيـــون، وإن من يتصفح كتب التاريخ والتراجم ليقف على هذه الحقيقة، وسيجد أن طلاب العلم ورجالاته جاءوا إلى طرابلس من الأندلس وبلاد المغرب ومصر والحجاز والعراق وبلاد فارس وأنحاء بلاد الشام وآسيا الصغرى

وغيرها. ونذكر هنا نماذج من أسماء الوافدين إليها، فمنهم الشاعر الشهير (ابن حيوس) وسديد الملك بن منقذ الأمير الشاعر، وابن السراج العالم المؤلف المقرئ، وابن النقار القاضي الذي درس بطرابلس وتولى الخطابة بجبلة، ثم تولى كتابة الديوان بدمشق، وله ديوان شعر، وشاعر الشام ابن القيسراني، إلى عشرات من أمثال هؤلاء.

ومن أشهر الوافدين على طرابلس للإفادة من (دار العلم) أبو العلاء المعري. وقد شكك المؤرخ ابن العديم بذلك وتابعه آخرون. قال ابن العديم: (... وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء المعري رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن أحمد بن عمار في اثنتين وأربعمائة.

وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع وأربعين وأربعمائة).

على أن الدكتور مصطفى جواد قد فند هذا القول قائلا:

ومن الحق أن في النفس ما فيها من قول ابن العديم: (وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك) فالتجديد عند أهل العربية: إعادة شيء عتيق إلى حالة حسنة مستأنفة فليس هو بتأسيس ولا بناء. ولو كان هذا العالم الكبير متثبتًا في قوله لقال: (وإنما أنشأ دار العلم) أو (إنما أسس دار العلم) فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والإنشاء، وبذلك تسقط دعوى من أنكر دراسة أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأن التجديد يدل على أن دار العلم كانت منشأة قبل ذلك فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها.

ثم يذكر الدكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدولة الحسن بن عمار، المعاصر لأبي العلاء المعري، لدار العلم، ولا يتعارض هو وقول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها.

وممن نبغ، من الطرابلسيين، في عهد بني عمار، نذكر أمثال:

ابن خرسان الأديب الشاعر المتوفى سنة ٤٩٧هـ.، وابن زريق المهندس العالم الفلكي المتوفى سنة ٥١٦هـ، نذكرهما مثالين لنشير إلى تنوع الثقافات التي لم تنحصر في علوم اللغة وعلوم الدين.

ومن الحلقات العلمية، في عهد بني عمار في طرابلس، حلقة أبي عبد الله الطليطلي الذي مر ذكره، وكانت حلقته تخرج الأدباء والشعراء واللغويين والنحويين، ومنها تخرج الشاعر الفارس أسامة بن منقذ والشاعر ابن الخياط.

وعدا الحلقات العلمية فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم أحيانا في حوانيت صغار الباعة وكبارهم، ومنها لقاءات العطار أبي المفضل ولقاءات المنتزهات والأسواق وينابيع المياه خارج طرابلس، حيث يتطارح الملتقون الأشعار، ونذكر مثالا على ذلك أن أحمد بن محمد، أبا عبد الله المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي، خرج مع بعض خِلانه إلى ضفاف غدير في ظاهر طرابلس فقال ابن الخياط:

أوما ترى هذا الغدير كأنه   يبدو لعينك منه حلي مناطق
مترقرق لعب الشعاع بمائه   فارتج يخفق مثل قلب العاشق
فإذا نظرت إليه راعك لمعه   وعللت طرفك من سراب صادق

فقال أحد رفاقه:

قد كنت آمل أن أجيء مصليًا   حتى رأيتك سابقا للسابق

وسبب مجيء ابن الخياط إلى طرابلس يدلك على الشهرة التي كانت لبني عمار في حماية الأدب والأدباء وتشجيعهم، فقد خرج هذا الشاعر من دمشق، في الحقبة الممتدة ما بين سنة ٤٦٣ و٤٦٩هـ، إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه، فقصد حماة واتصل هناك بالأمير أبي الفوارس محمد بن مالك. ثم ذهب إلى حلب فالتقى بالشاعر ابن حيوس فشكا له حاله وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم   وكفاك مني منظر عن مخبر
إلا صبابة ماء وجه صنتها   عن أن تباع وأين، أين المشترى؟

فقال ابن حيوس: لو قلت: (وأنت نعم المشتري). لكان أحسن، ثم قال: كرمت عندي ونعيت إلى نفسي، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد، فأنت وارثي، فاقصد بني عمار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن. وبحدود سنة ٤٧٦هـ. جاء ابن الخياط طرابلس وهو ابن ٢٦ سنة. وكان صاحب طرابلس يومها جلال الملك أبو الحسن عليّ بن محمد بن عمار فاتصل به ومدحه، كما مدح فخر الملك وغيره من بني عمار. كما كان يتردد على دار العلم ويحضر الدروس فيها، وتدفع له الجرايات التي كان بنو عمار يصرفونها للطلبة في الدار.

وتقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

وفي قصور بني عمار كانت تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء والشعراء، وكان بنو عمار يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد.

أمراء الدولة علماء مؤلفون

ومن الكتب التي صدرت، يومذاك، نذكر هذه النماذج. شرح الإيضاح، وشرح ديوان الحماسة لزيد بن علي الفارسي المتوفي سنة ٤٦٧هـ.

وكتاب (جراب الدولة) لأبي طالب أمين الدولة الحسن بن عمار. وقد وقع بعض المؤلفين في خطأ كبير، حين قالوا إن اسم الكتاب هو: (ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجراب الدولة)، ونسبوه إلى أمين الدولة الحسن بن عمار.

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على هذه النسبة التي أخطأ فيها (ابن الفرات)، وتابعه غيره من المؤلفين على هذا الخطأ.

علق الدكتور مصطفى جواد بما نأخذه هنا لأهميته في التاريخ الفكري الثقافي لتلك الحقبة:

لقد وجدنا من الغريب قول المؤلف المصري، ناصر الدين بن الفرات، في ذكر أمين الدولة أبي طالب الحسن بن عمار: (وهو الذي صنف كتاب ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجراب الدولة).

أما أولا: فلأن كتاب (ترويح الأرواح) من كتب الفكاهة والهزل والباطل، وهذا قاض وأمير ذو ديانة متينة.

وأما ثانيًا: فلأن (جراب الدولة)، عند المطلعين على التاريخ الإسلامي، جاء في حالتين: أولاهما كونه لقبًا للإنسان الذي ألف (ترويح الأرواح) والأخرى كونه اسمًا لكتاب ألفه ابن عمار المذكور في اقتصاديات الدولة الإسلامية وشئونها الأخرى. وقد أخذ ابن الفرات المصري اسم الكتاب الهزلي ولقب مؤلفه فجعلهما اسمًا لكتاب ابن عمار، وهذا من أشنع الغلط وأفظعه، وجل من لا يسهو ولا يغلط.

قال ياقوت الحموي في ترجمة الهازل الملقب (جراب الدولة):

(أحمد بن محمد جراب الدولة: هو أحمد بن محمد بن علوية من أهل سجستان ويكنى أبا العباس، وكان طنبوريا، أحد الظرفاء والطياب. كان في أيام المقتدر وأدرك دولة بني بويه فلذلك سمى نفسه بجراب الدولة، لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدولة وكان يلقب بالريح وله أيضا كتاب (ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح) لم يصنف في فنه مثله اشتمالا على فنون الهزل والمضاحك).

أما (جراب الدولة) الذي ألفه أبو طالب الحسن بن عمار فهو من أجل الكتب وأجزلها فوائد وأشرفها موضعًا، قال القاضي وليّ الدين عبد الرحمن بن خلدون في فصل: (إن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها). (وكذلك وجد بخط أحمد محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جراب الدولة: غلات السواد... كسكر.. كورد جله... حلوان... الأهواز... فارس). وذكر الارتفاع أي: الواردات لمملكة المأمون بأسرها.

فأين موضوع هذا الكتاب من موضوع الكتاب الباطل العاطل؟ (انتهى).

وهكذا نرى أمراء بني عمار كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين، يؤلفون في ما يسمى اليوم بالاقتصاد السياسي. ومن المؤلفات التي صدرت في ظل حكم بني عمار، مؤلفات أسعد بن أحمد بن أبي روح التي مر ذكر بعضها.

وديوان ابن خرسان المتوفى سنة ٤٩٧هـ، وديوان أحمد بن منير المتوفى سنة ٥٤٨هـ، وروضة النفس لابن البراج المتوفى سنة ٨١هـ، وديوان ابن النقار المتوفى سنة ٥٦٧هـ، وديوان ابن هبة الله العلوي الحسيني المتوفي بعد سنة ٥١٥هـ، والتصريح في شرح قصيدة كثير، وابن ذريح للراشدي بن بركات المتوفي سنة ٥٤٠ هـ، وغير ذلك.

حركة شعرية ناشطة

وكان بنو عمار من المقصودين بالمدح من شعراء عصرهم، فمن الشعراء الذين مدحوهم: ابن الخياط، وابن النقار، وأبو المواهب المعري، وابن العلاني المعري، وأبو الفتيان بن حيوس.

فمن مدائح أبي المواهب المعري قوله، في ذي السعدين، فخر الملك عمار بن محمد بن عمار من قصيدة جاء فيها:

أأحبابنا جرتم مع البين فاعدلوا ... وجزتم مدى هجرانكم فترفقوا
ورب فلاة جبتها وهو مؤنسي ... وخيفانه تجري مرارا وتعنق
وظلت أخطيها البلاد ودونها ... طرابلس حيث الأماني وجلق
ورجحت ما بين الملوك فما بي ... رجاء بذي السعد بن أوفي وأوفق
مليك به الآمال ألقت عصا النوى ... فقرت وفي أوصافه المدح يصدق
وعرض لي غيث على الشيم مرعد ... من الشام نجاح السحائب مغدق
هو البحر إلا أنه غير مالح ... هو البدر إلا أنه ليس بمحق
حمى الثغر من رشف المواضي فقد كفى ... تأشب ما يحميه سور وخندق
لكم آل عمار على الجود مسحة ... سحاب الندي فيها من التبر مغدق
وفيك أطاعتني القوافي كأنها ... لمدحك تهوى أو لنظمي تعشق
وقد كسدت هذي البضاعة برهة ... ولم تك إلا في زمانك تنفق

ويقول فيه من قصيدة أخرى:

عــزت طــرابلس فــيا لــك بلدة طالــت بمالكهــا عــلى البلدان

مــوج بظاهــرها ومــوج بــاطن ســبحان محــرزها مــن الطوفان

يفديــك قــوم ضــاع شعري فيهم وغــدوت جــارهم فضاع زمان

آنســت طــرابلس بمــا أوليــت لــلمملوك طيــب معرة النعمان

وفي أحد المجالس الشعرية التي كان يلتقي فيها الشعراء بفخر الملك اقترح عليهم أن يعارضوا قصيدة محمد بن هانيء الأندلسي الرائية الشهيرة التي مطلعها:

فتقــت لكــم ريــح الجــلاد بعنبر وأمدكــم فلــق الصباح المسفر

بأن ينظم كل واحد منهم قصيدة على وزنها وقافيتها، فسبقهم في ذلك أبو الحسن عليّ بن إبراهيم، المعروف بابن العلاني، بقصيدة أعجبت فخر الملك فأجازه عليها واستغنى بها عن قصائد بقية الشعراء.

وكان فخر الملك يقود، يومذاك، الكفاح الإسلامي على الصليبيين، ويتحمل حصارهم لمدينته ويدافعهم عن وطنه، وإلى ذلك يشير الشاعر في بعض أبيات القصيدة، كما أشار أبو المواهب المعري في قصيدته المتقدمة بقوله:

حمــى الثغر من رشف المواضي فقد كفى تأشب ما يحميه سور وخندق

قال ابن العلاني في بعض ما قال:

حمــى الثغر من رشف المواضي فقد كفى تأشب ما يحميه سور وخندق

ولرواج سوق الشعر، يومذاك، أولع متداولوه باستكتاب الخطاطين للقصائد بخطوطهم الجميلة، فيدفع أحدهم للخطاط أكثر من سبعة دنانير لكتابة القصيدة الواحدة. ولقد قبض الشاعر أحمد بن حمزة، المعروف بابن الخيشي الحلبي، نحو مئتي دينار في شهر رمضان لكتابته سبعًا وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين.

بنو عمار من الكتاب إلى السيف

عندما وصل القائد الصليبـي (صنجيل) (ريموند دي سان جيل) إلى مشارف الشام كان أول من أدرك الخطر الصليبـي فخر الملك بن عمار، فصمم على الإعداد لهذا الخطر قبل أن يتغلغل في البلاد الشامية، وذلك بالدعوة إلى حلف إسلامي يقف في وجهه، فراسل الأمير (ياخز) في حمص والملك (دقاق بن تتش) في دمشق يقول لهما على ما يروي ابن الأثير: من الصواب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة.

فاستجابا له، فخرج الأمير (ياخز) بنفسه وسير (دقاق) ألفي مقاتل، وخرجت الإمدادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس وصادفوا (صنجيل) هناك.

يقول ابن الأثير: فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق، وحمل (صنجيل) بمن معه فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل (صنجيل) طرابلس وحصرها.

إلى هنا، والأمر طبيعي، فالحروب سجال: ينتصر هذا الفريق وينهزم ذاك الفريق... ولكن غير الطبيعي والذي يجعلنا نكثر من التساؤل والاستغراب هو المقدمة التي قدم بها ابن الأثير لهذه الحرب وهزائمها، فهو يقول عن أحداث سنة ٤٩٥هـ، بعد أن يتحدث عن هزيمة (صنجيل) أمام (قلج أرسلان): ومضى (صنجيل) مهزوما في ثلاث مئة فوصل إلى الشام فأرسل فخر الملك بن عمار إلى الأمير ياخز وإلى الملك دقاق... إلى آخر القول الذي تقدم... ثم يقول: فأخرج (صنجيل) مئة من عسكره إلى أهل طرابلس ومئة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص، وبقي هو في خمسين. فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق.

وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المئة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ذلك (صنجيل) حمل في المئتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل (صنجيل) طرابلس وحصرها.

يستطيع الإنسان أن يقول: إن في كلام ابن الأثير هذا تخليطًا لا نعرف عوامله!...

والذي يهمنا الآن هو أن حصار الصليبـــيين لطرابلس برا وبحرا قد بدا وأنه سيستمر عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمار:

السيف، بعد أن كان شعارهم الكتاب، وإن ظل للكتاب عندهم مكانه الرفيع ومنـــزلته الكبرى.

يقول المؤرخون: اجتمع على منازلة طرابلس كل من (برتران) الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، ودوليم غوردان، ابن أخت ريموند المذكور، و(تانكريد) أمير إنطاكية واللاذقية، و (بلدوين) ملك بيت المقدس، و(بلدوين) كونت الرها و (غوسلين) أمير قلعة تل باشر.

وكانت القوي المهاجمة للمدينة تتألف من ٤٠٠٠ فارس بروفنسي قدموا مع برتران، وعدد كبير من الجنوية جاءوا بعشرين سفينة، إلى جانب سفن برتران وعددها أربعون، و٥٠٠ فارس أتى بهم بلدوين ملك القدس إلى جانب عدد كبير من الرجالة و٧٠٠ فارس من خيرة فرسان تانكريد، بالإضافة إلى بلدوين كونت الرها، وجوسلين وحرسيهما، ثم جموع المردة ومن أتى من جبل لبنان.

كان هذا الجمع قد تجمع على طرابلس بعد أن كلت قواها بعد عشر سنوات من الحصار المضروب والقتال الدائم، وكان هو الذي دخل طرابلس.

يقول ابن الأثير، في أحداث سنة ٥٩٦هـــ وكان صنجيل يحاصر مدينة طرابلس الشام، والمواد تأتيها، وبها فخر الملك بن عمار، وكان يرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الإفرنج ويقتلون من وجدوا. ويقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقل المواد من الإفرنج فيرحلوا عنه.

سنة كاملة مرت على الحصار كانت مهمة فخر الملك فيها مزدوجة ذات شقين: شق دفاعي وشق هجومي، فهو يقف في وجه اقتحام الصليبـــيين لمدينته

فيقاتلهم دفاعا عنها، ثم هو ينفذ بمراكبه من بين سفن الصليبـــيين المحاصرة له، فيهاجم الصليبـــيين في ما يحتلونه من بقاع.

كان فخر الملك هنا بطل الدفاع والهجوم معا، وكان (العماريون) أهله يشدون من أزره، وشعبه الطرابلسي بصبر ويصابر معه. وتأتي سنة ٥٩٧هـ فيقول ابن الأثير: في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الإفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك، واستعان بهم صنجيل الإفرنجي على حصار طرابلس، فحصروها معه برا وبحرا وضايقوها وقاتلوها أياما، فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل...

سنتان مرتا وفخر الملك محصور في مدينته، وهو صامد يدافع عنها دفاع الأبطال، ويستعين الأعداء بقوى جديدة فلا ينالون من صموده منالا...

وفي سنة ٤٩٩هـ يقول ابن الأثير: كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة، وأقام على طرابلس يحصرها حيث لم يقدر أن يملكها، بني بالقرب منها حصنًا وبنى تحته ربضًا، وأقام مراصدا لها ومنتظرا وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، فأحرق ربضة ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحمل إلى القدس فدفن فيها.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الإفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمار أسطولا فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا.

ويتابع ابن الأثير كلامه:

ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والإفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم، فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمار صبر عظيم، وشجاعة، ورأي سديد.(انتهى).

هذا الكلام الذي نأخذه بنصه عن ابن الأثير يغني عن كل تعليق.

ويواصل ابن الأثير قائلا:

وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الإفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من (عرقة) والجبل.

فجعل الإفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد.

فأرسل ابن عمار وبذل للإفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين إليه فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة. لم يكن ابن عمارا بطلا شجاعا فقط، بل كان إلى ذلك حازما بعيد النظر محكم التدبير جلدا أمام الأهوال.. في كل شعوب الأرض يوجد ضعاف النفوس خوارو العزائم، ويوجد حريصون على المال لا يبالون في هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم.

فلا يضير الشعب الطرابلسي أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين الذين لا نشك في أنهما جمعا مالهما من الحرام ومن كل مصدر غير شريف؛ لأن من يقدم على ما أقدما عليه يكون قد أقدم على كل رذيلة في جمع المال!.

كان ابن عمار كما قلنا حازمًا بعيد النظر محكم التدبير جلدًا أمام الأهوال، فلم يشغله ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين. إن تركهما سليمين يشجع أمثالهما على الخيانة فأحكم تدبير أمر اغتيالهما، واستطاع اختراق صفوف أعدائه والوصول إلى اغتيالهما، وفي هذا ما فيه من قوة العزم وسداد الرأي وإحكام الأمر..

ابن عمار والسلاجقة

وفي أحداث سنة ٥٠١هـ. يقول ابن الأثير: ورد فخر الملك أبو علي بن عمار، إلى بغداد قاصدًا باب السلطان محمد (السلجوقي)، مستنفرا على الإفرنج، طالبا تسيير العساكر لإزاحتهم، والذي حثه على ذلك أنه لما طال حصر الإفرنج لمدينة طرابلس، ضاقت عليه الأقوات وقلت، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد.

ويتابع القول: فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل مخالف رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به ا.هـ.

لقد استقبل فخر الملك في بغداد من السلطان ومن الخليفة بحفاوة بالغة، فطالب بالنجدة وتعهد أنه إذا أجيب استنجاده وأرسلت معه العساكر يوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. قال ذلك للخليفة وللسلطان، فلم ينل غير الوعود، فعاد إلى دمشق خائبًا!..

وقد حدثت في غيابه مؤامرات عليه ساهم فيها نائبه، ما أخرج الأمر من يده وحيل بينه وبين العودة إلى طرابلس. وفي سنة ٥٠٣هـ. كان الصليبيون يدخلون طرابلس. ويوجز ابن الأثير ذلك بهذه الجمل:

ومد الإفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهرا ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر بلاد الله أموالا وتجارة. وعاقب الإفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم في مكامنهم.

وكانت المكتبة الكبرى من ضحاياهم إذ أحرقوها بكل ما فيها.

بنو عمار والعمران

لم يغفل بنو عمار النواحي العمرانية في إمارتهم، فمن أهم ما عنوا به المشاريع المائية، فأمنوا لطرابلس ريًا منظمًا من النهر الذي عرف بعد ذلك باسم نهر (أبو علي)، ولا يزال حتى اليوم يعرف بهذا الاسم، فقد كان نهر قاديشًا يفيض فيحدث أضرارا ولا ينتفع منه، فوضع فخر الملك أبو عليّ ابن عمار خطة إنمائية تنظم أمور النهر وتمنع فيضانه، وتجريه في أقنية للريّ، فعاد على المدينة ومنطقتها بالخير العميم، ونمت المزروعات والبساتين والحدائق، وتشكل من ذلك ثروة زراعية ساعدت على رقي المجتمع، وازدهرت الحقول والأرضين المحيطة بالمدينة بوفرة مزروعاتها وتنوعها

وفاضت عن حاجاتها فاحتفظت بأموالها واستدرت أموالا من الخارج ما كان عاملا في نهوض الحركة الصناعية والاقتصادية والثقافية.

وعرفت طرابلس، في كتب المؤرخين والرحالين، بكثرة ما تنتجه من الفواكه والثمار، حتى لقد قالوا: (إن فيها ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلا، إذ لا يكاد يوجد دار بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه، فهي تجمع بين ثمار الشام ومصر). والفرنج عرفوا قصب السكر، لأول مرة، في بساتين طرابلس، فنقلوا غروسه إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.

ومن إنجازات بني عمار إنشاء مصانع للورق، فقد كان الورق السمرقندى هو المشهور في العالم الإسلامي بجودته، فإذا بالورق الطرابلسي يفوقه جودة.

وقد كان لوجود مصانع الورق أثر كبير في رواج العلم والتدوين والتأليف في طرابلس وساعد على نهضتها الثقافية العلمية الأدبية، فكثر الوراقون، ونشأت للتجليد صناعة فنية على الطريقة الصينية من زخرفة وتوشيح بالخطوط الملونة. ومن الصناعات التي نهضت في طرابلس صناعة الحرير التي امتدت مصانعها على ضفاف النهر، بما فيها من ألوف الأنوال والمغازل ما أدهش الفرنج وأثار عجبهم.

وقد عني بنو عمار بالملاحة البحرية فأنشاوا أساطيل تجارية كانت تجوب البحر حاملة من طرابلس أو ناقلة إليها حاجات الناس هنا وهناك ما أشرنا إلى بعضه فيما تقدم من القول، هذا عدا عن أسطولهم الحربي الذي تولى قتال أساطيل الصليبيين طوال عشر سنوات.

ومن طرابلس عرف الأوروبيون (البوصلة) وكيفية استعمالها، عرفوا ذلك من البحارة الطرابلسيين.

وقد امتدت آثار بني عمار إلى خارج إمارتهم، فهم الذين بنوا الجهة الشرقية من الجامع الكبير في مدينة حلب، كما يثبت ذلك المؤرخ ابن الشحنة الحلبي في

كتابه (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب). كما كانوا يبعثون القضاة والخطباء إلى المدن الشامية، ومن ذلك ما ذكره (ابن تغري بردي) في كتابه (النجوم الزاهرة) عن ابن قلتمش أنه عندما فتح حصن أنطرطوس من الروم سنة ٤٧٥ هـ، بعث إلى صاحب طرابلس حلال الملك يطلب منه قاضيًا وخطيبًا ليقيما بها.

مقدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حَمْدِ اللهِ عَلَى نِعَمِهِ الجسام، ومننه العظام، والصلاة والسلام على خير الأنام، سيدنا نبيه محمد وعلى آله البررة الكرام. فإني لما فرغت من انتخاب الكتاب الموسوم بالبرق الشامي من إنشاء الإمام السعيد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب، -رحمه الله-، طالعت كتابه الموسوم ((**بُنْصرة الفَترة وعُصْرة الفطرة ، في أخبار الوزراء السلجقية**)) فصادفته قد سلك فيه منهجه المعروف في إطلاق أعنة أقلامه في مضمار بيانه، وإسباغ أزيال القرائن المترادفة من وشائع ما يحبِّره راقم بنانه، بحيث صار المقصود مغموراً في تضاعيف ضمائر الأسجاع، وربما كان.لا يرفع للإصغاء إلى بدائعها حجاب بعض الأسماع. فانتخبت منه هذا المختصر الذي هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب محتو على عيون قرائنه البديعة، وزواهر ألفاظه الفصيحة، خدمة للملك اجتمع فيه من الفضائل ما تفرّق في جميع سلاطين الأمم، وصار نظامـــا لمحاسن يتزين بأفرادها سائر ملوك العرب والعجم .. مولانا السلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، لا زالت معارج دولته راقية في مدارج الإقبال، وعتبات مجده مطمحا لعيون الإعظام والإجلال، ومصابيح علومه متوقدة يهتدي بها الشاردون فيخرجون من ظلم الزيغ والضلال وينابيع أياديه متفجرة يكرع فيها الهائمون فينقعون غلل الآمال.

وقد افتتحت به في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٣هـــ مستعينا بالله تعالى ومستمدا من حوله وقوته ومبتهلا إليه، وسائلا إياه أن يوفقني في ذلك وفي جميع أموري بفضله ورحمته، وهو حسبي وكفى.

ذكر نبذة من بداية حال السلجقية

قال -رحمه الله- [1] كانت السلجقية ذوي عُدَدٍ وعَدَدٍ، وأيد ويد، لا يدينون لأحـد ولا يدنـون من بلـد، وميكائيل بـن سلجق زعيمهم المبجّل، وعظيمهم المفضل. وقـد سكنوا مـن أعمال بخارى موضعا يقال لـه نور بخارى، ومـا زالوا في أنصر شيعة، وأنضر عيشة. وهـم في الرعي يكلئون الكـلأ، وفي الربيع يملأون الملأ. لا يذعرهم ذاعر، ولا يردعهم داعر. والسلاطين يرعونهم للملمات ولا يروعونهم، ويدعونهم للمهمات ولا يدعونهم. حتى عبر السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى بخارى لمساعدة قدر خان فرأى مكيال فرغب في استرغابه، وانجذب إلى اجتذابه، وأراد أن يعبر إلى خراسان به وبأهله، وبكنف أكنافها الذي الحفظ والحفيظة بنَبْله ونُبْله. وامتنع ميكائيل عليه، ومال عنه و لم يمل إليه، فغاظ السلطان تمنعه، فقبضه واعتقله، وعبر به وبأصحابه إلى خراسان ونقله. وقال له أرسلان الحاجب إني أرى في أعين هؤلاء عين الهول، وإنهم لمعروفون بالجراءة والقوة والحول. والرأي عندي أن تقطع إبهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره، ولا يخاف شره. فما قبل خطابه في هذا الخطب، وقال له إنك لقاسي القلب.

فلما أقاموا بخراسان، تقربوا إلى عميدها أبي سهل أحمد بن الحسن الحمدوني، وأهدوا إليه ثلاثة أفراس ختلية، وسبعة أجمال بختية، وثلاثمائة رأس غنم تركية. وهداه إقباله إلى قبول الهدية. وكانوا سألوه أن يمرجهم في المروج، ويسد بمواشيهم مخارم تلك الفروج. فعين لهم مروج دندانقان فقروا بها وبما قاربها، وتحاماها عن عداهم وجانبها.

وتوفي محمود بن سبكتكين وهو كاره لأمرهم، مشفق من وميض جمرهم، مستشف ستر القضاء في قضية شرهم. وعد أبو سهل الصعب فيهم سهلا، واتخذهم لارتفاقه بهم صحبا وأهلا. ونفذ مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكرا من غزنة إلى خراسان، فواقعهم وقتل منهم عدة، وأسر منهم جماعة، حملهم إلى غزنة، منهم بيغو أرسلان، فاستعطفوه فلم يعطف، واستعفوه فلم يعف. ولما غلق رهنهم وتوثق

(١) المقصود عماد الدين الكاتب.

سجنهم، شربوا كأس اليأس، وأبدلوا إيناس الناس بإيحاش الحاشية. ومشى شحنة طوس لاستياق ما لهم من الماشية، واستلان خشونتهم، واستسهل صعوبتهم، ولما ظن أنه آب بالغنم والغنيمة، وباء بعز العزيمة، ركبوا إليه صهوات الحنق، وصرفوا نحوه أعنة الخبب والعنق. حتى لقوه فتركوه لقى، وتبعوا المنهزمين ودخلوا إلى طوس فملكوها، وجاسوا خلال ديارها وسلكوها، وتشاوروا فيما بينهم وقالوا: هذا بحر خضناه، وفتح ابتكرناه، وطوس مدينتنا التي تؤوينا، وحصننا الذي يحمينا، فلا نفرج عنها، ولا نخرج منها.

وشرع أبو سهل الحمدوني في استدراك ما فرط، واستمساك ما اختبط. وكادوا يجيبونه بالجمل ويحملون في الجواب، ويميلون بممالأته إلى صوب الصواب. فتسرع شحنة نيسابور وتعسّر، وجنّد وعسكر. وشن على سرحهم غارة على غرة، ونهض لمنفعة نهضت بمضرة. فركبت السلجقية إليه وإلى جماعته أرسالا، ونشبوا معهم وشبوا قتالا، وهزموهم وكسروهم وقتلوهم وأسروهم. وامتدوا إلى نيسابور فدخلوها، ووجدوا في خلوها فرصة فاهتبلوها. وذلك في شهر رمضان سنة ٤٢٩هـ. وعزموا على مد اليد، ونهب البلد. فمنعهم طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق وهو أميرهم وكبيرهم، وقال لهم نحن في شهر حرام نهتك حرمته، ولا نهتك عصمته، ولا يحصل من النهب أرب، وإنما تسوء به السمعة ويشيع الشنعة. فنفرت جماعته من مقاله وسخّفوا رأيه في تبين حرام الفعل وحلاله. فما زال بهم طغرلبك يقول لهم: أمهلوا بقية هذا الشهر، واعملوا ما شئتم بعد الفطر. وفي أثناء ذلك وصل إليهم كتاب القائم بأمر الله أمير المؤمنين، يخوفهم ويذكرهم بالله، ويحملهم على رعاية عباده وعمارة بلاده، فخلعوا على الرسول المعروف بأبي بكر الطوسي ثلاث عشرة خلعة. وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة.

ولما كان يوم العيد اجتمعوا من القريب والبعيد وهمّوا بالنهب، فركب طغرلبك لمنعهم، وجد في ردعهم. وقال: الآن وقد جاء كتاب الخليفة المفترض الطاعة على الخليقة. وقد خصنا من توليته إيانا بالحق والحقيقة. فلجّ عليه أخوه جغري بك داود وأخرج سكينه وقال: إن تركتني وإلا قتلت نفسي بيدي. فرق له وسكنه، وأراه أنه مكنه، وأرضاه بمبلغ أربعين ألف دينار قسطه، ووزن أهل البلد معظمه، وأدى هو من

ماله الباقي وغرمه. وجلس على سرير الملك الذي كان لمحمود بن سبكتكين في نيسابور، ونهى وأمر، وأعطى وأخذ، وأبرم ونقض، وأحكم وقوض. وجلس يومي الأحد والأربعاء لكشف المظالم. وبسط المعدلة وبث المكارم. وسير أخاه داود إلى سرخس فملكها، ونهج له طريقة في العدل فسلكها،وسيّر إلى دار الخلافة المعظمة رسولا يعرف بأبي إسحاق الفقاعي، صبيح البهجة، فصيح اللهجة، بكتاب مضمونه أنهم لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو، مشتغلا بالشر والعتو، غاروا للمسلمين والبلاد. وهم عبيد أمير المؤمنين في حفظ البلاد والعباد. وقد سنّوا سنة العدل، وأسنوا سنا الفضل. وبطلوا مراسم العسف، وعطلوا مواسم الحيف.

ومضى رسولهم، وقضى سؤلهم. وتواصلت مع مسعود بن محمود بن سبكتكين حروبهم، وهزموه في سنة ٤٣٠هـ. واشتدت منعتهم، وقويت شوكتهم واستولوا على خراسان وتجاوزوها إلى العراق. وطرأوا على ملك الديلم، ورموه بالصيّلم[١]. وغلبوا الأملاك، وبلغوا الأفلاك، واقتسموا البلاد، وطرفوا طرافها والتلاد.

قال: وللسلطان طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق، ولأخيه جغري بك أبي سليمان داود بن ميكائيل بن سلجق، من نهر جيحون إلى نيسابور، ولأخيه من أمه، وهو ابن عمه، إبراهيم بن ينال بن سلجق، قهستان وجرجان، ولابن عمه أبي عليّ الحسن بن موسى بن سلجق، هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور.

وقال: وامتد طغرلبك إلى الريّ، وقد كانوا جعلوا له جميع ما يفتحه من هذا الصوب، فحمد الرأي بالري، ونجزت عدة جدته بعد الليّ. ووجد في دور الديلم دفائن وخزائن، سفرت بها أيامه عن أيامن. فتأثل وتأثث، وورّى زند سعده بما ورّث. وقدّم قدامه إبراهيم بن ينال فقر بقرميسين وانتزعها من الأمير أبي الشوك فارس بن محمد بن عنّاز، وحل بحلوان. وتوفي أبو الشوك في شهر رمضان، وذلك سنة ٤٣٧ هـ. وفي هذه السنة وُزّر رئيس الرؤساء أبو القاسم عليّ بن الحسن بن مسلمة للقائم بأمر الله وهي أول سنة ورد فيها الأتراك إلى العراق، وانتشروا منها في الآفاق.

قال: وكان عند طغرلبك رسول الخليفة، وهو أبو محمد هبة الله بن محمد ابن

(١) الصيّلم: السيف.

الحسن بن المأمون مقيما يدعوه إلى بغداد ولا يدعه يقيم، ويروم منه صدق القصد ولا يريم. وطال بالحضرة حضوره، حتى حرك عزمه، فعزم على الحركة واندفع كالسيل، وكسا العلق عجاج فيلقه صبغة الليل، ولم يترك الترك وردا إلا شفهوه، ولا حُسنا إلا شوّهوه، ولا نارا إلا أرّشوها، ولا دارا إلا شعّثوها، ولا عصمة إلا رفعوها، ولا وصمة إلا وضعوها، وأحفل الملوك من الخوف أقدامهم، وتنحوا من طريق ضرامهم. فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها، وملأوا مسالكها، وأرعبوا ساكنيها وأسكنوها الرعب، وغلبوا ولاتها وولوها الغلب. وأزورُّوا إلى الزوراء، وأشاعوا مد اليد بالغارة الشّعواء.

ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبك أبي شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد في ٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧هـ ومعه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد ابن منصور الكندُريّ وهو أول وزراء السلجقية

قال: كان حصيفا فصيحا رجيحا نجيحا، متسلطا بمكانه، متمكنا من سلطانه، يرجى ويخشى، ويقصد ويغشى. والسّلطان، بأذُنه وناظره يسمع ويبصر، وبإذنه ونظره يرفع ويضع. وله البهجة المهيبة، واللهجة المصيبة. وكان مع السلطان طغرلبك يوم وصوله إلى بغداد، وقد خرج رئيس الرؤساء وزير الإمام القائم لاستقبال السلطان، ومعه أرباب المناصب وأصحاب المراتب. وقاضي القضاة والشهود، والجنود والبنود. فلما وصل إلى نهر بين، لقيه صاحب للسلطان من المقربين. وقدّم للوزير فرسًا وقال: هذا مركوب السلطان وقرّبه، فنـزل عن بغلته وركبه. وجاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر الكندري في موكب ضخم، وفخر فخم. وقد وقف يتوقع مطلعه. فلما بصر به قصد عميد الملك أبو نصر أن يترجل فمنعه، وتعانقا راكبين وخلطا الموكبين.

ووصل السلطان إلى بغداد ونـزل على دجلة، عند مسناة عز الدولة رائع الهيبة، رائق الهيئة، قد ضاقت الأرض بجنوده، وضاقت السماء عذبَات بنوده. فقبض على

الملك الرحيم أبي نصر الديلمي من نسل عضد الدولة، وسيره إلى الري فقطع عليه الأجل الطريق في طريقها، وآذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها. وقبض عميد الملك أبو نصر الكندري الوزير الأعز أبا سعد وزير الملك الرحيم، ثم استدام صحته حين ألفاه في الكفاية صحيح الأدم، وأطلقه وأطلق يده في الحل والعقد والحبس والإطلاق. وعول عليه وفرض إليه النظر في العراق.

قال: وتوفى هذه السنة قاضي القضاة الحسين بن على بن ماكولة، فخاطب عميد الملك في توليه قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن الدمغاني، فتسنت قاعدته في ذي القعدة من السنة. وأحسن العناية به لمعانيه الحسنة. قال: هو قدوتنا بخراسان الموصوف بجميع الألسنة. وحضر عميد الملك الكندري في بيت النوبة الشريفة، وخص من دار الخلافة بالمنـــزلة اللطيفة. وانفذت معه برسم السلطان خلع سنية، وتشريفات سرية.

قال: وتقدم طغرلبك ببناء مدينة على دجلة، وهي التي جامعها اليوم باق، وكانت حينئذ ذات أسوار وأسواق.

قال: ودخلت سنة ٤٤٨هـــ، وفي المحرم منها عقد الخليفة على ابنة أخي طغرلبك أرسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل، وقصد بذلك تعظيمه والتبجيل، ولئلا يجد الأعداء بهذه الوصلة إلى قطع سبيل المودة بينهما.

ذكر الحال في ذلك

قال: في المحرم جلس الإمام القائم بأمر الله، أمير المؤمنين. وأحضر عميد الملك الكندري وقدمه على المقدمين وتقدم إليه بإحضار من يجوز إحضاره، ويقع عليه إيثاره. فشد وسطه وأخذ دبوسا في يده، وجرى في حفظ آداب الخدمة على جدده، واستدعى أماثل دولة السلطان فخدموا الخليفة، وشاهدوا السدة الشريفة. ثم شرع رئيس الرؤساء في خطبة النكاح، وجاء بها على وفق الاقتراح، واستوعب شرائط الإيجاب بالذكر، من تسمية المخطوبة والمهر. ثم قال: إن رأى سيدنا ومولانا أن ينعم بالقبول. فقال الخليفة: قد قبلنا هذا العقد بهذا الصداق. فامتزجت الدولتان بالاستحقاق واستمرت البركة، واستقرت المملكة.

قال: وفي هذه السنة كانت ولادة المقتدي سحرة الأربعاء، ثامن جماد الأول، وسمي: عبد الله، وكني: أبا القاسم وأمه جارية لذخيرة الدين أبي العباس بن القائم بأمر الله. وكانت وفاة الذخيرة في ذي القعدة سنة ٤٤٧هـ وعمره ١٤سنة. وبوفاته قامت قيامة القائم، فإنه كان ولي عهده ولم يكن له ولد سواه، فلما ولدت جاريته ابنًا استجدَّ به جدًّا وبهاءً ويمناً وأمناً. وجلس رئيس الرؤساء ثلاثة أيام للهناء. وحضر عميد الملك وجماعة الأمراء.

قال: وتوفي في هذه السنة عميد الرؤساء أبو طالب بن أيوب عن ٧٠ سنة، وقد كتب للخليفة ١٦ سنة، وكانت حسناته سائرة، وسيرته حسنة.

ذكر عوارض عرضت وحوادث حدثت

قال: كان ابن عم طغرلبك بالموصل وديار بكر، وهو قتلمش بن إسرائيل بن سلجق، متسق الأمر، متسع الصدر. فاجتمع البساسيري، وهو أبو الحارث أرسلان، وقريش بن بدران العقيلي، ونور الدولة دبيس بن عليّ بن مزيد الأسدي على حربه، وأوقعوا به وبحزبه. وكانت الوقعة بسنجار. ومضى قتلمش إلى همذان موليا. فانتحى طغرلبك من ذلك وتوجه إلى الموصل، فأجفل البساسيري إلى الرحبة. فأذعنت لطغرلبك البلاد، وواتاه الأدب، ووافاه العرب، وأطاعه الأميران دبيس وقريش. واتصل به أخوه ياقوتي بن داود، فزادت قوته، وأرعبت بالناس صولته. وكان على أهل سنجار حاقدا، فإنهم مثلوا بقتلى قتلمش، وتركوهم بالعراء. وأظهروا الرءوس على القصب، وأخذوا النفوس بالوصب. فسار طغرلبك إلى سنجار واجتاحها واستباحها، وسلب أرواحها وأشباحها، إلى أن شفع فيهم إبراهيم بن ينال فعفا بعد أن عفى. وكف بعد ما اكتفى.

قال: وفي هذه السنة مات أبو العلاء المعري.

ذكر عودة السلطان إلى بغداد وحضوره بين يدي الخليفة

قال: وعاد إلى بغداد ظافر اليد وافر الأيادي، وجلس له الخليفة يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة، فركب دجلة بحريًا تياره في تيارها، حتى وصل إلى باب الرقة من السدة الشريفة ودارها. وقُدم له فرس فركبها ودخل راكبا إلى دهليز صحن السلام،

وحصن الإسلام. ثم نــزل ومشى، والأمراء بين يديه بغير سلاح يمشون، إلى حيث الجلالة مقيمة، والدلالة بالقائم قائمة، والرسالة ملائمة، والإمامة دائمة، والنبوة مستمرة الإرث، والمروّة مستقرة البعث. وستارة البهاء مسدولة على البهو، وطهارة الانتماء مجبولة بالزهو. والقائم بأمر الله جالس من وراء الستر، على سدة مشرفة مُشرقة، في إيوان منه للجلال إيواء، ودار أرضها للإقبال سماء. وعلى كتفه وبيده البردة والقضيب النبويان، وهما بماء الطهر المحمدي رَويّان.

ولما قرب طغرلبك من المقر الأشرف، والمرقى المسجف، ورفعت ستارة البهو، وأنار وجه الخليفة، كالقمر في سدفة السدة الشريفة، أدّى الفرض، وقبل الأرض. ثم مثل قائما للقائم، ووقف لترقب ما يقف عليه من المراسم. وصعد رئيس الرؤساء إلى سرير لطيف فقال له الخليفة: أصعد ركن الدولة إليك ومعه محمد بن المنصور الكندري مفسرًا ومترجمًا، ومعربًا عنه ما كان معجمًا. ثم وضع لطغرلبك كرسي جلس عليه. وفسر عميد الملك له تفويض الخليفة إليه. ثم قام طغرلبك إلى مقام الرفعة، ومكان الخلعة، واحتبى بعز الاحتباء، واحتاب خلع الاجتباء. وتُوّج وطوق وسور، وأفيضت عليه سبع خلع سود في زيق واحد، واتخذت له مملكة الأقاليم السبعة، وشرّف بعمامة سمكية مذهبة، فجمع له بين تاجي العرب والعجم. وسما بهما وتسمى بالمتوج والمعمم، وقلد سيفا محلى بالذهب. فخرج في أحلى الحلي وأهيب الأهب. وعاد وجلس على الكرسي، ورام تقبيل الأرض، ولم يتمكن لموضع التاج الخسروي. وسأل مصافحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين، فقلبها ووضعها على العين. وقلده سيفا آخر كان بين يديه، فتم له بتقليد السيفين تقلد ولاية الدولتين. فخاطبه بملك المشرق والمغرب، وأحضر عهده وقال: هذا عهدنا يقرأه عليك، محمد بن منصور بن محمد، صاحبنا ووديعتنا عندك، فاحفظه واحرسه، فإنه الثقة المأمون، وامض في دعة الله محفوظا، وبعين الكلأة ملحوظا.

قال: ولأبي الفضل صرّدرّ في عميد الملك من قصيدة:

ملكٌ إذا ما العزمُ حثَّ جياده ... مَرَحت بأزهرِ شامخ العِرْنينِ

بأغرّ، ما أبصرتُ نورَ جبينه ... إلا اقتضاني بالسجود جبيني

عمّت فواضلهُ البريةَ فالتقَى شكرُ الغني ودعوةُ المسكِين
لو كان في الزمن القديم تظلمّت منه الكنوزُ إلى يَدَي قارون

قال: وفي سنة ٤٥٠هـ انتقض على طغرلبك أمر الموصل، فقد كان استخلف بها الأميرين آدم وباتكين. فقصدهما البساسيري وقريش بن بدران وحاصراهما أربعة أشهر، واخرجاهما بأمان، فعاود طغرلبك الخروج إلى الموصل لطلب الداء المعضل، ونصب بنصيبين مضاربه، فخالفه إبراهيم بن ينال خالعاً للطاعة، ومضى إلى همذان ناويًا للمناوأة. فسار السلطان ورأوه من نصيبين إلى همذان في سبعة أيام، ونفذ وزيره عميد الملك وزوجته خاتون إلى مدينة السلام. ثم كتب إليهما يستدعيهما، فتمسك بهما الخليفة، وتواترت الأراجيف المخيفة، فتارة بوصول البساسيري، وتارة بانهزام السلطان من أخيه.

قال: وشرع عميد الملك الكندري في أخذ العهد بالمملكة لأنوشروان ابن خاتون، وأنفق من ماله الظاهر والمخزون. فما وفقا ولا استوثقا. وأرادت خاتون القبض عليهما فهربا. فأما عميد الملك فإنه انحدر إلى الأهواز، وأمن عند هزار سب بن بنكير بن عياض من الإعواز. وسارت خاتون تطلب السلطان، ولحق بها ولدها أنوشروان، وذلك في سنة ٤٥١ هـ. وفي هذه الفترة تمت فتنة البساسيري، ودخل إلى بغداد سادس ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ وخرج سادس عشر ذي القعدة سنة ٤٥١، وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة. فإنه دعى إلى الدعي بمصر مصرا، ولم يجد الخليفة بمقره من دار الإمامة مقرا. وحصل من تلك الحادثة بالحديثة، وتوالت منه إلى طغرلبك إمداد كتبه ورسله المستصرخة المستغيثة. وهو مشغول بحرب أخيه، مهموم بما هو فيه، مغلوب الجند مسلوب الجد.

قال: وصلب البساسيري رئيس الرؤساء وأبا محمد بنّ المأمون رسول الخليفة في استدعاء السلطان طغرلبك وقتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر أحمد ابن عليّ واختل نظام الإسلام، واعتلت دار السلام، وطالت غربة الإمام، وهالت كربة الأنام. إلى أن استنجد السلطان أولاد أخيه ألب أرسلان وياقوتي وقاورد بني داود وهو بالريّ، فأنجدوه وأسعفوه وأسعدوه، فخرج بهم إلى إبراهيم بن ينال بهفتان بولان

فكسره، ثم وجده وقد وقف به فرسه فأسره، وخنقه بوتر لوتره، وحنقه، واستراح من حث زميله إليه عميد الملك وجهز هزارسب جهاز مثله، وأفضل عليه لفضله. ولم يبق لطغرلبك بعدها سوى رد الخليفة إلى داره، وإظهار قمره من سراره. ورحل نحو بغداد فأحس البساسيري بريحه، وأيقن بتياره ووقع في تباريحه. ولما قربت العساكر السلجقية من بغداد بَعُد، وقامت قيامته وما قعد، وكان الخليفة بحديثة عانة فطلبه قريش بن بدران من ابن عمه مهارش بن مجليّ فحماه، وما أباح حماه.

قال: وخرج مهارش بالخليفة إلى تلعفر، فقصد بدر بن مهلهل ومعه الفقيه ابن فورك وقد تيمن به وتبرك، وهناك فاز من وحّد، وهلك من أشرك. ولما وصل السلطان إلى بغداد سير إلى الخليفة عظماء مملكته، وصدر وزارته عميد الملك وأنوشروان ابن خاتون ومعهم المهد والسرادق، والخيل السوابق. ولما مثلوا بالحضرة الشريفة، وشاهدوا أحوال الخليفة، أراد عميد الملك أن يكتب إلى السلطان كتابا بشرح الحال، وبوصف ما اجتلاه من المهابة والجلال. ولم يكن بين يدي الخليفة دواة، ولا أداة للكتابة مسوّاة. فأحضر من خيمته دواة عليها من الذهب ألف وسبعمائة مثقال وأضاف إليها سيفاً ذا فرند وصقال، وقال: هذه خدمة محمد بن منصور أصغر الخدم، وقد جمع في هذه الدولة بين السيف والقلم. وأحسن الخليفة قبوله وخطابه، وتوج بخطه الشريف كتابه.

ولما وصل الخليفة إلى النهروان، وصل إليه السلطان، وتباشرت بقدومه الأوطار والأوطان، واستأذنه عميد الملك في حضور السلطان، فأذن ودخل، وقبّل الأرض سبع مرات، وأتى من أدب الخدمة الممكن.وقدم له الخليفة مخدة من دسته وقال: اجلس. فقبلها وجلس، وآنسه فأنس. وجعل عميد الملك يفسر لهما ويترجم، ويعرب ويعجم. والسلطان يعتذر عن تأخره وتراخيه، بما شغله من وتر أخيه. فمهد عذره، وهمّد ذعره، وقلده الخليفة سيفا تبّرك به. وكان قد خرج معه من الدار وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي القعدة، واستقر أن يدخل إلى الدار غدًا، ويعيد بعودة عيش الإسلام رغدًا. فلما أصبح السلطان تقدم إلى باب النوبي وجلس مكان الحاجب. فلما قرب الخليفة، قام وأخذ بلجام بغلته، ومشى في خدمته إلى باب حجرته، وذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ ، فعادت الأنوار إلى الطلوع،

والأنوار (١) إلى الهموع، وحلّ الشرف في موطنه، وفاض الكرم من معدنه.

قال: وهرب البساسيري إلى حلة دبيس بن علي بن مزيد، وقد ولّت سعادته فهو مطلق في زي مقيّد. فسير السلطان وراءه عسكرا، مُقدموه: سرهنك ساوتكين وأنوشروان وخمارتكين الطغرائي وأردم، وأنفذ معهم ابن منيع الخفاجي، فواقعوا البساسيري وأوقعوه، ووقع في فرسه سهم رميت به فرمته، وحام حوله حماته فما حمته. وصادفت وجهه ضربة أدمته. وكمش كمشتكين العميدي فأسره، ثم احتز رأسه، وحمل إلى بغداد، وعلق قبالة باب النوبي، وزالت بزواله نوبة النبوة الحالة بالمحل النبوي، واستقام الأمر، وأرّج النشر، وتولت الغماء، وتوالت النعماء. وكان طغرلبك بواسط فقدم بغداد في صفر سنة ٤٥٢ هـ ، فعمل له الخليفة في روشن التاج سماطا، وأحضر عليه من أكابر دولته رؤساء وأوساطا. ثم عمل للسلطان في ثاني ربيع الأول سماطا آخر، فاضَلَ به من قبله من الملوك وفاخر. وتوجه في خامس الشهر إلى الجبل. ودخل عميد الملك إلى الخليفة فأقامه في موضع الاصطفاء، ولقبه سيد الوزراء.

قال: وفي سنة ٤٥١ هـ احترقت ببغداد دار الكتب التي وقفها الوزير شابور ابن أردشين بين السورين، وأخذ عميد الملك ما سلم من النار وكان أحد الحريقين. وتوفيت في ذي القعدة سنة ٤٥٢ هـ خاتون زوجة السلطان بزبخان.

قال: ولما رحل السلطان استصحب معه أرسلان خاتون ابنة أخيه زوجة الخليفة. فلما استقر الرأي، عزم على نشر ما كانَ من رغبته في الطيّ. وسير قاضي الري أبا ساعد صاعدًا إلى دار الخلافة رسولا، وضمن رسالته في خطبة السيدة ابنة القائم سؤالا وسُؤلا، وذلك في سنة ٤٥٣ هـ. فندب الخليفة للجواب أبا محمد بن التميمي للاستعفاء، وأنه لم تجر بهذا سنة الخلفاء. ثم قيل له: إن عدمت في الاستعفاء الوسائط، فاطلب صداق ثلثمائة ألف دينار وأعمال واسط. فلما وصل ابن التميمي، أعلم عميد الملك بالحال، فقال: أما الاستعفاء فلا يحسن مع رغبة السلطان وضراعته في السؤال، وأما طلب المال والأعمال، فيقبح لأنه يفعل أكثر ما يدور في خواطر الآمال، والصمت

(١) هكذا في الأصل ولعله تصحيف من الناسخ وهو يريد أن يقول: "والأمطار إلى هموع" أي: إلى النـــزول.

أولى من هذا المقال. فخلني أحل سرك من هذا السر، ودعني أتول هذا الأمر. فقال ابن التميمي: الأمر إليك، والاعتماد عليك، والصواب ما تدبره، والتدبير ما تستصيبه، وأنت أعرف بما تخاطب به صاحبك وبما تجيبه. فقال عميد الملك للسلطان: إن القضية قد تسهلت، وإن العقدة قد تحللت، وإن المنية قد أمكنت، وإن البغية قد تمكنت.

فأشاع السلطان خطبته، وأذاع رغبته. وتقدم إلى عميد الملك بالمسير مع أرسلان خاتون بنت أخيه زوجة الخليفة إلى دار الخلافة، واستصحب ما جاوز حد الكثرة من الدنانير المبدرة والجواهر المثمنة، وسيَّر معها عدة من الأكابر وذوي العلى، ومن عظماء الديلم: فرامرز بن كاكويه وسرخاب بن كامروا. وكان قد وزر للخليفة في تلك السنة مجد الوزراء أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، فخرج لتلقي الواصلين إلى قرب النهروان، والتقى هو وعميد الملك وهما راكبان، ودخل عميد الملك بغداد وجلس على باب النوبي. فلما وصلت خاتون، سار في خدمتها إلى دارها، ثم حضر بيت النوبة وأخذ دواة الوزير ابن دارست. وأنهى حضوره وحضور الأمراء الذين معه، وأدى من الرسالة ما أودعه. فنفر الخليفة وغضب، وغاض ماء بشره ونضب، وقصد الامتناع ومنع المقصود وسد الباب ولم يفتح الباب المسدود. فشرع عميد الملك يتكلم بكل فن، ويقعقع بكل شن، ويقول: ما بالكم اقترحتم، ثم امتنعتم؟ وفيم ذهبتم إلى أبعد غاية في الطلب ثم رجعتم؟ وقد خاطرتم عند السلطان بدمي، وأزلتم بما قدمتم من التقدم قدمي. فأخرج إلى النهروان مضاربه، وخلع الأهبة السوداء ولبس البياض، فاستوقفه ابن يوسف وقاضي القضاة ليستنـــزلوه من المضارة إلى المراضاة. وما زالا يتلطفان به، حتى حضر بعد ذلك عند الخليفة دفعتين، ومعه جماعة من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود، وبلغ في الخطاب وبذل المجهود. وذلك في جماد الآخر سنة ٤٥٣ هـــ.

وقال الخليفة: ((**نحن بنو العباس، خير الناس. فينا الإمامة والزعامة، إلى يوم القيامة. من تمسك بنا رشد وهدى، ومن ناوأنا ضل وغوى**)).

وكان الخليفة قد كتب إلى عميد الملك: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به الخادم الناصح شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه، وسمت نفسه

إليه. وأراد أن يقول الخليفة ما يلزمه من الإجابة، ففطن لذلك وغالطه وقال: قد سطر في الجواب ما فيه كفاية. فانصرف عاتبا، وذهب مغاضبا. وراح راحلا ورد المال إلى همذان، وأخبر بالحال السلطان.

وكان الخليفة قد كتب إلى خمارتكين الطغرائي يشكو من عميد الملك وإلحاحه. فكتب في جوابه يشير بالرفق والتطلف، وينص على التثبيت والتوقف. فنسب عميد الملك قطع الحديث في الوصلة إلى مخامرة خمارتكين فتغير، السلطان عليه فرهب وهرب، وتسرع وتسرب. وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور يوسف بالعتب المُمِضّ، والخطب المقض، وقال: هذا جزائي من الإمام القائم وقد قتلت أخي في طاعته، ووهبت عمري لساعته، وأنفقت أموالي في خدمته، وطلبت فقري لثروته! فما باله ما بالي بردّ قولي، وقال بردي، وصدّ قصدي، وقصد صدي! وكتب إلى عميد الملك بأن يقبض الإقطاعات ولا يترك للخليفة إلا ما كان باسم الإمام القادر قديما، وأن يكون لمعارضة أسبابه مستديما. فحضر العميد رئيس العراقيين بيت النوبة وعرض الكتب، وأعاد العتب. فخرج جواب الخليفة: ما رجونا من ركن الدين ما صنع، وما توقعنا ما وقع، وبين يديك الإقطاعات فاقطعها، وقد ارتفعت الموانع فامنعها.

قال: وخرجت السَّنَة، والوحشة القائمية قائمة، وعين التأنيس عن إزالة أسبابها نائمة. فلما دخلت سنة ٤٥٤ هـ أجاب الخليفة في المحرم منها إلى الوصلة، وكتب وكالة باسم عميد الملك شهد فيها قاضي القضاة وابن يوسف بما سمعاه من تلفظه بالإجابة، وضبطت الشهادات بالكتابة. وسير أبو الغنائم بن المحلبان في الرسالة، واستصحب كتابة الوكالة: فسر السلطان واحتفل، ووفّى له القدر بما كفل. وعقد العقد في ظاهر تبريز بالمخيم. وكان رئيس العراقيين بالمعسكر فأعيد إلى بغداد في صحبة ابن المحلبان، وسيرت على يده الهدايا، وأصحبه برسم الخليفة ثلاثين غلامًا وجارية أتراكا، على ثلاثين فرسا وخادمين، وفرسا بمركب ذهب وسرج مرصع بالجواهر الثمينة، وعشرة آلاف دينار، وبرسم السيدة عشرة آلاف دينار، وتوقيعا ببعقوبا وما كان لخاتون المتوفاة بالعراق، وعقداً فيه ثلاثون حبة، كل لؤلؤة مثقال، وبرسم عدة الدين خمسة آلاف دينار، وبرسم السيدة والدة المخطوبة ثلاثة آلاف دينار، وذلك في شوال من السنة. فلما قرب رئيس العراقيين من بغداد، تلقاه الناس

واستبشروا بانتظام الألفة بين الإمامة والسلطة، فلما وصل إلى باب النوبي نــزل وقبل الأرض، ثم وصل إلى باب أرسلان خاتون زوجة الخليفة، وأدى من خدمتها الفرض، وأوصل إليها ما حمله. فتولت تسليمه، وباشرت عرضه بالمقام النبوي وتقديمه.

ذكر سبب تولي ابن دارست وزارة الخليفة إلى حين انصرافه

قال: كانت وزارته في سنة ٤٥٣ هـــ وسبب ذلك أن الخليفة لما عاد إلى الدار عدم الوزير، وفقد من يتولى التدبير. فحدث رأيه بأنه يستخدم رجلا خدمه بالحديثة، وهو أبو تراب الأثيري، وقد وجده أثير الأثر فلقيه حاجب الحجاب عزّ الأمة، واستخدمه في الإنهاء وحضور المواكب وتنفيذ الأوامر المهمة.

قال: وكانت بين ابن يوسف وبين الأثيري وحشة، حملت ابن يوسف على أن ذكر ابن دارست وقرّظه، وقال: إنه مع أمانته يخدم بغير إقطاع ويؤدي مالا. فمضت الكتب إليه وهو في شيراز باستدعائه، فقدم الجواب باستعفائه. فخرج إليه ابن رضوان ومعه ظفر الخادم لاستقدامه، وقوي عزمه أبو القاسم صهر ابن يوسف، فورد بقوة اعتزامه. وكتب عميد الملك عن السلطان إلى الخليفة بأنه كاره لاستقدامه واستخدامه، لا ملاقة مع ثروة المال من الكفاية وإعدامه. فأجاب الخليفة: أنه مع وصوله إلى واسط ومفارقته وطنه، لا يجوز رده، ولا يخلف وعده. وقدم بغداد ثامن ربيع الأول سنة ٤٥٣هـــ، ووصل إلى الخليفة في منتصف شهر ربيع الآخر، وأفيضت خلع الوزراة عليه،وأفضت مع الوزارة الأمور إليه. وبقي في المنصب منتصبا إلى رابع ذي الحجة سنة ٤٥٤هـــ ، فإنه صرف من تلك المراتب بل ترك الخدمة مستعفيا، ولرقة جاهه مستحفيا. قال: وكانت وفاته بالأهواز حادي عشر شعبان سنة ٤٦٧ هـــ.

ذكر حوادث في هذه السنين

قال: في سنة ٤٥٠ هـــ توفي القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري ببغداد، عن مائة سنة وسنتين. وكان صحيح السمع والبصر، سليم الأعضاء يناظر ويفتي، ويستدرك على الفقهاء. وحضر عميد الملك الكندري جنازته، ودفن بالجانب الغربي عند قبر الإمام أحمد بن حنبل.

قال: وفي آخر هذه السنة توفي أقضى القضاة أبو الحسن عليٌّ بن محمد ابن

حبيب الماوردي، وقد كان في العلم بحرًا زاخرا، وفي الشرع بدرًا زاهرا.

قال: ((**بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة (يعني الحاوي) واختصرته في أربعين**)) (يعني الإقناع)، فيالهما من بحرين نضبا، وبدرين غَرُبا، وطودين وقعا، وجودين أقلعا.

قال: وفي سنة ٤٥٣ هـ توفي قريش بن بدران، وتولى ولده مسلم إمارة بني عقيل. وتوفى في شوّالها نصر الدولة أبو نصر بن مروان بميافارقين، عن نيف وثمانين سنة. وفي يوم عرفة من سنة ٤٥٤ هـ وزر فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير للخليفة. وسبب ذلك أنه كان مقيما بميافارقين عند ابن مروان في جاه وعز، آمرٌ ناه فسمت همته وعلت سعادته. وكتب إلي الخليفة يرغب في زيارته لوزارته، وأنه يبذل بذلا، ويحمل حمولا. فندب إليه من دار الخلافة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي، وقرر ما أراد تقريره ودبر ما شاء تدبيره. فخرج من ميافارقين عند انفصال نقيب النقباء ليودعه، وسار معه، وفات ابن مروان ولم يلحقه لما تبعه. وخرج الناس عند وصوله إلى بغداد لاستقباله، ونـزل بالحريم الطاهري، ومكث ثمانية أيام حتى جاوز الكسوف، ونشق نشر العز المشوف. وتيمن بيوم عرفة فحضر بيت النوبة وقد أسعدته السعادة، واجتمع هناك من طبقات الناس من جرت به العادة. واحتفل له الخليفة بالجلوس، وطلع نور اليمن من أفقه، وقرأ أمين الدولة أبو سعيد بن الموصلايا توقيعا خرج في حقه.

ذكر وصول السلطان طغرلبك إلى بغداد

قال -رحمه الله-: في محرم سنة ٤٥٥ هـ توجه السلطان إلى بغداد من أرمية بعزم الدخول على الزوجة، وخرج فخر الدولة بن جهير وتلقاه بالقفص في الموكب الأعظم والأبهة الباهرة والأهبة الزاهرة. ونـزل عسكره بالجانب الغربي فزادت به الأزية [١]، وارتاعت الرعية، ووصل عميد الملك إلى السدة الشريفة مطالبا بالشريفة السيدة فوقعت الإجابة في نقل الجهة إلى دار المملكة، ونـزلت منها في الهجرة الشرقية باليمن والبركة. وزفت في ليلة النصف من صفر وجلس على سرير ملبس بالذهب، يخطف

(١) كذا في الأصل ولعله يريد "الأذية" أي الضرر.

النواظر منه أشعة الذهب. ودخل إليها وقبل الأرض وخدمها، وجلس بإزائها على سرير ملبس بالفضة، وقد كان أنفذ لها مع بنت أخيه زوجة الخليفة، عقدين نفيسين ثمينين، وجامًا خسروانيًا من إبريز العين، وفرجية من نسيج الذهب مكللة بالحب. وصارت نفسه لها موكلة بالحب، وظهر منه بها سرور، وسره منها لشرفه ظهور. وبقي مدة أسبوع يهب ويخلع، ويمنح ولا يمنع، وخلع على عبيد الملك وعلى الأمراء، وأفاض التشريفات على الأكابر والعظماء. فقد كان ورد معه إلى بغداد أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار. وهزارسب. وفرامرز بن كاكويه، وسرحاب بن بدر بن مهلهل. فما منهم إلا من أفضيت عليه الخلع الرائقة، وأضيفت له العطايا اللائقة.

قال: وحضر عميد الملك في تاسع شهر ربيع الأول بيت النوبة، واستأذن للسلطان في الأوبة، وأن يستصحب السيدة والخاتون، وذكر أنهم بعد مضيهم عن قريب آتون، فأذن في ذلك الخليفة. وكانت أرسلان خاتون قد حملت من أطراح الخليفة لهاغما. وأما السيدة فقد كره الخليفة مسيرها. فلما مضت أمضت بألم فراقها، ومضت لأمل رفاقها. ولما انفصل السلطان عن بغداد أذن لهزارسب في المضي إلى الأهواز، مرعيا بالإعزاز. فإنه مكث على بابه ثلاث سنين لا يؤذن له في الانفصال، ولا يؤذن إربه المفارق بالوصال. وعقد ضمان بغداد على أبي سعد القايني بثمانية وخمسين ألف دينار، فأعاد كل ما أبطله رئيس العراقيين من ضر الضرائب، وشر النوائب. وقد كان هذا يتولى مطبخ عميد الملك، وهو أستاذ داره، فجرى المقدور برفع مقداره.

ذكر وفاة السلطان طغرلبك بالريّ

قال: وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ توفي طغرلبك بالري فاضطرب بهلكه الملك. وبلغ عميد الملك نعيه وهو على سبعين فرسخا من الريّ فقطعها في يومين إشفاقا من تشويش يتم، وتشوير [١] ينم. فوصل وهو بحاله لم يدفن ولم يقبر، فتولى دفنه، وتوخى سكون الخلق وأمنه. ومنع الغلمان من شق الثياب، وأخرج جميع ما كان يملكه على العسكر حتى الدواب. وأجلس سليمان بن داود ابن أخي السلطان.

(١) التشوير: الفتنة.

وكانت أمه عنده، ونص عليه، وقرر الأمر له وفوضه إليه. فسكنت الممالك، وأمنت المسالك.

ذكر سيرة طغرلبك -رحمه الله-

قال: كان كريما حليما محافظا على الطاعة، وصلاة الجماعة، وصوم الاثنين والخميس.. وكان يلبس الواذاري والبياض، وأشبهت أيامه بمحاسن سيرة الرياض. وكان لا يرى القتل ولا يسفك دمًا، ولا يهتك محرمًا. وكان شديد الاحتمال، سديد الأفعال. حكى عنه أقضى القضاة الماوردي أنه توجه في رسالة القائم إليه في سنة ٤٣٣ هـ ، فكتب فيه كتابا ((ضمنته الطعن عليه والقدح فيه، وغمط محاسنه وبسط مساويه. ووقع الكتاب من غلامي فحل إليه، فوقف عليه، ثم ختمه وكتمه، ولم يتغير عن عادة إكرامي وشيمة احترامي)) قال: وكذلك ذكر أن بعض خواصه كتب ملطفات إلى أبي كاليجار، يطلعه فيها على بعض الأسرار. فوقعت في يده فأخفاها، وداوى هفوته بحلمه وشفاها. وكان كثير الصدقات حريصًا على بناء المساجد، متعبدًا متهجدًا. ويقول: أستحي من الله أن أبني دارًا ولا ابني بجنبها مسجدا.

قال: وحكى عميد الملك، أنه لما مرض قال: إنما مثلي في مرضي مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف. فتظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذ أطلقت تفرح، ثم تشد قوائمها للذبح، فتظن أنها لجز الصوف. وتسكن فتذبح. وهذا المرض شد القوائم للذبح، وكان كما قال. قال: وتوفي وعمره سبعون. قال: وحكى عميد الملك أن طغرلبك قال له: رأيت منامي في مبتدأ أمري بخراسان كأني رفعت إلى السماء، وقيل لي: سل حاجتك تُقْضَ، فقلت: ما شيء أحب إلى من طول العمر. فقيل: عمرك سبعون. قال: قال عميد الملك: وكنت سألته عن السنة التي ولد فيها، فقال: السنة التي خرج فيها الخان الفلاني بما وراء النهر. فلما، توفي حسبت المدة فكانت سبعين سنة كاملة. ولما وصل خبر وفاته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء به في صحن السلام في السادس والعشرين من شهر رمضان.

ذكر جلوس السلطان عضد الدولة ألب أرسلان
أبي شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجق

قال: توفي أبوه داود ببلخ سنة ٤٥٠، وقام مقامه. ولما خطب لأخيه سليمان

بالري بعد وفاة طغرلبك، مضى أرسعن وأردم إلى قزوين، وخطب لألب أرسلان. وبلغ عميد الملك ذلك، فأقام الخطبة بالري لألب أرسلان، وبعده لسليمان. وأقبل إقبال الضيغم الضاري. وأقدم إقدام الخضم الجاري. وكان ابن عم أبيه قتلمش بن إسرائيل في كردكوه، وقد طمع في الملك، و لم يعلم أن ذلك يورطه في الهلك. فعارضه في جموعه فتقابلا وتقاتلا، وانجلت المعركة عن قتل قتلمش وكانت منيته في عثور الفرس به. وقتل ألب أرسلان من التركمان عدة وافرة، وحاز من أموالهم غنيمة ظاهرة. وساق حتى وصل إلى خوار الري ظافر الجند، ظاهر الجد ومعه وزيره نظام الملك أبو عليّ الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي. فتلقاه عميد الملك في حشمه وخدمه وكوسه وعلمه، وعربه وعجمه. وأجلسه على السرير، وجرى على عادته معه في التدبير. فغار نظام الملك من استقلاله، واحتال مدة في قبضه واعتقاله. فلما كان في محرم سنة ٣٥٩ هـ زار عميد الملك نظام الملك زيارة إيناس واعتذار، وترك بين يديه منديلا فيه خمسمائة دينار. فلما انصرف من حضرته، سار أكثر العسكر في خدمته. فتخوف السلطان من عاقبة ذلك ومغبته، فأمر بقبضه وأنفذه إلى مرو الروز ومكث سنة في الاعتقال بها. ثم سير إليه غلامين فدخلا عليه وهو محموم، وأخبراه بأن قتله أمر محتوم. وأنظراه حتى اغتسل وتوضأ وتاب، ودخل لوداع أهله، وخرج إلى مسجد فصلى ركعتين، واستسلم للقضاء المقدر بالحين، ووجد الغلظة من الغلامين، وضرباه بالسيف وأخذا رأسه وحملاه إلى السلطان بكرمان. وأما جثته فإنها لفت في خرقة كانت لفافة البردة النبوية كان استهداها من الخليفة، وفي قميص دبيقي من ملابس القائم الشريفة. وقبر في قبر أبيه بكندر.

وكانت مدة وزارته ثماني سنين وشهورا. و لم يزل موسم جاهه فيها مشهودا مشهورا. وكان عمره نيفا وأربعين سنة. وكانت محاسنه مفضلة، وفضائله محسنة. لكنه لكنّه تهوره وتهوينه، وغاية غيّه في سوء التدبير وتوهينه، قصرت يده الطولى عن استمالة القلوب الجافية، واستلانة الخطوب الآبية. قال: وكان يرجع إلى حسب ونبل وأدب وفضل. وهو الذي يقول:

الموت مر ولكنني إذا ظمئت ... نفسي إلى المجد مستحل لمشربه

رئاسة باض في رأسي وساوسها ... تدور فيه وأخشى أن تدور به

قال: وكان خصيًا. وسبب ذلك أن طغرلبك أنفذه في ابتداء حاله، وريعان إقباله، ليخطب امرأة فزوجها لنفسه وعصاه، ولما ظفر به أقره على خدمته بعد أن خصاه. وكان حنفي المذهب كثير التعصب لمذهبه، والذهاب مع عصبته. ثم فارق التعصب وجمع بين العصابتين، وحسن رأي احتهاده في الإصابتين. وكان سبب معرفته بطغرلبك، أنه لما ورد نيسابور افتقر إلى كاتب يجمع في العربية والفارسية بين الفصاحتين، فدله عليه الموفق والد أبي سهل، فظفر منه بشاب في رأي كهل.

ذكر نظام الملك

قال: ولما صرف عميد الملك وعزل، ونقل إلى حيث اعتقل. استوى أمر نظام الملك وبزغت بالسناء شمسه، وبلغت المنى نفسه، وعلا علمه، وجرى قلمه. وترفعت وسادته، وتفرعت سيادته. ومضت مضاربه، ومضت سحائبه.

* * * *

ذكر ما جرى لألب أرسلان بعد ملكه

قال -رحمه الله-: كان قاورد بن داود أخوه، قد استولى على كرمان في زمان عمه طغرلبك في سنة ٤٤٧ هـ ، وملك شيراز في سنة ٤٥٥ هـ ، وقتل كل ديلمي بها وسفك وهتك، وبطش وأوحش. وخالف أخاه ألب أرسلان، واعتصم منه بمدينة بردشير بكرمان. فسار إليه ألب أرسلان وآمنه، وأخذ قلعة اصطخر، وأتاه مستحفظها بتحف فيروزج، وكأس زمرد لم ير مثلها. وشمل بلاد فارس إحسان الدولة وعدلها.

قال: ووصل إليه شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش في سنة ٤٥٧ هـ فأكرم وفادته، وأكثر إفادته، وأجرى في إقطاعه هيت والأنبار وحربي والسن والبوازيج. ووصل شرف الدولة هذا إلى بغداد في شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ ، فتلقاه الوزير، فخر الدولة ابن جهير، وألفى من إقباله عليه خير ظهير. قال: وأوغل السلطان في بلاد الخزر من طريق نخجوان، وكثر لإعانة الإيمان ونصره الأنصار والأعوان.

وألجأ ملك الأبخاز بقراط بن كيوركي إلى طلب هدنته، وعرض ابنته. فتزوج بها وهادنه، وقبل بذله وأمنه. ثم طلق الملكة الكرجية وزوجها لنظام الملك وزيره، وسار وفتح بلد آني، وعنت له البلاد، وأذعنت العباد، وسرى البأس وسر الناس.

ذكر وصول شرف الملك أبي سعد محمد ابن منصور بن محمد مستوفي المملكة إلى بغداد

قال: وكان وصوله إلى بغداد في صفر سنة ٤٥٩ هـ ، وقد كان جليل النسب، جليَّ الحسب. وما تولى للسلجقية مثله كرمًا وخيرًا، وفضلا كثيرا، وغنى وغَنَاء، وسنا وسنَاء. قال عماد الدين -رحمه الله-: وكان جدي لأمي أمين الدين علي المستوفي -رحمه الله- كاتبا له في ريعان عمره، وعنفوان أمره. إلى أن صار بعد كاتبا لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه. وكان يحدثني في صغري وهو شيخ كبير عن شرف الملك بكل ما يدل على سيادة نفسه، ونفاسة سودده. وذكر أنه كان مع فضله ذا تفضل، ومع إجماله ذا تجمل.

وحكى أنه كانت له ثلثمائة وستون كسوة مكملة. مفضلة معزلة على عدد أيام السنة، من الملابس الفاخرة، فيلبس كل يوم ما يناسبه من أيام الفصول الأربعة. فإذا خلع منها أو وهب، أعاد خازنه إلى الخزانة عوض ما ذهب.

فلما وصل إلى بغداد، حضر بيت النوبة في ثاني عشر صفر، فبشر بإقباله سفيرا وجه القبول، وسفر وخدم الخليفة بمصحف جليل، وقطعة بلخش في منديل. وأوصل كتاب السلطان في خريطة سوداء، وسر الأوداء، وساء الأعداء.

قال: ووجد نواب نظام الملك الوزير قد شرعوا في بناء المدرسة، فاغتنم إقداره على الاقتداء، وبنى على ضريح أبي حنيفة -رحمه الله- بباب الطاق مشهدًا ومدرسة لأصحابه، وأعلم بمعلمها ثوب ثوابه. قال: وكتب الشريف أبو جعفر البياضي على القبة:

ألم تر هذا العلم كان مُشتتا ... فجمعه هذا المغَيَّبُ في اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميتةً ... فأنشرها فضل العميد أبي سعد

قال: ووصلت أرسلان خاتون زوجة الخليفة إلى بغداد في مستهل جماد الأول سنة ٤٥٩ هـ، واستقبلها الوزير فخر الدولة على فراسخ، وجلا فجر فخره السافر وطود وقاره الراسخ، ووقفت موكبها له عند القرب من الالتقاء، وخدمها على ظهر فرسه بالدعاء. وأقبلت وقبلت، ودخل وخلت وعادت إلى عادة السعادة، ووافت للزيادة، للإيفاء على الزيادة.

ذكر حوادث طوارئ وطوارق واتفاقات وموافقات

قال: في شهر رمضان سنة ٤٥٨ هـ توفي محمد بن الحسين بن الفراء شيخ الحنابلة، وناهج طريقهم السابلة. وفي هذه السنة استتم بناء المدرسة النظامية ببغداد، وانتظمت أحوالها، وسكنها من حملة الشريعة رجالها. ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، -رحمه الله-، فأحيا من العلم ما درس، وكشف من الحق ما التبس. وشرح الأصول وفرعها، وأوضح الأدلة ونوعها. وفي سنة ٤٦٠ هـ توفي الشيخ عبد الله أبو منصور بن يوسف، وكان من أماثل بغداد وأعيانها، والمرجوع إليه في نوائب الليالي وحدثانها. وكان قد أجمع الناس على صلاحه، واستجادة رأيه واسترجاحه. ومن جملة خيراته، أنه تسلم البيمارستان العضدي وقد استولى عليه الخراب، وناب أوقافه بالنوائب النوّاب. فعمره وطبقه وأحسن في أحواله ترتيبا، وأقام فيه ثلاثة خزان وثمانية وعشرين طبيبا. قال: ورثاه أبو الفضل صردر بقصيدته التي أولها:

لا قبلنا في ذا المصاب عزاء　　　أحسن الدهر بعده أم أساء

قال: وفي هذه السنة توفي أبو الجوائز الواسطي، وكان شاعر زمانه، وفارس ميدانه. وفي هذه السنة توفي أيضا أبو جعفر الطوسي بمشهد أمير المؤمنين عليّ ﷺ، وكان إمام الشيعة، وهو الذي صنف التفسير، ويسر من أمورهم العسير، وفي جماد الأول من هذه السنة كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت الديار وأتلفتها، وخربت مبانيها ونسفتها. وفيه توفي صاحب ديوان الزمام أبو نصر محمد بن أحمد المعروف بابن جميلة، ورثاه أبو الفضل بقصيدة منها:

إن يكن للحياء ماء فما كان　　　له غير ذلك الوجه مزنا
لهف نفسي على حسامٍ صقيلٍ　　　كيف صارت له الجنادلُ جفنا
ونفيس من الذخائر لم يؤمن　　　عليه فاستودع الأرض حزنا

قال: فرتب في ديوان الزمام أبو القاسم بن فخر الدولة بن جهير، ولقب عميد الرؤساء، واجتاب خلعة الاجتباء. ومدحه أبو الفضل بقصيدته التي أولها:

صبحها الدمع ومساها الأرق كم بين هذين بقاء للحدق

وفي ثاني عشر رجب ورد إلى بغداد أبو العباس الخوافي عميدا، وقدم بخوافي جاهه وقوادمه حميدا. قال: وعزل الوزير فخر الدولة بن جهير ليلة المهرجان في ذي القعدة بالتوقيع الإمامي بمحضر من قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، فسار إلى نور الدولة دبيس وهو بالفلوجة فآواه وأكرم مثواه. وقد كانت الوزارة تقررت لأبي يعلي والد الوزير أبي شجاع، وهو كاتب "هزارسب" بن بنكير فكوتب للزيارة، وخوطب بالوزارة فورد الخبر بمرضه يوم صرف ابن جهير، وبوفاته يوم وصوله إلى الفلوجة كما جرى به قلم التقدير.

وفي سنة ٤٦١ هـ عول الخليفة في الوزارة على أبي الحسن بن عبد الرحيم، فثار العوام وقالوا: لا طاقة لنا من ظلمة بورود الجحيم، فهو الذي أتى بالبساسيري وأعلن أحداث الليالي، وقالت خاتون: هو الذي نهب مالي. فصرف قبل التصريف، ونكر قبل التعريف. ولم يزل الخليفة فيمن يستوزره يفكر، حتى كاتب نور الدولة الخليفة في معنى ابن جهير، وذكر أنه خير وزير وظهير. فأجاب إلى إعادته إلى عادته. ووصل في ثاني عشر صفر وجلس له في التاج، ووجد أمله بالنجح مفتوح الرتاج. وقال له: ((الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد بتاته)). وفي تلك النوبة مدحه صردر أبو الفضل بقصيدته التي مطلعها:

قد رجع الحق إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به

وركب هو وولداه في موكب، واجتاز في جميع محال الجانب الغربي ونثر عليه أهل الكرخ أكياس الدراهم والدنانير، وخرج إليه توقيع من إنشاء ابن الموصلايا، وتسنت له المراتب السنايا.

قال: وفي النصف من شعبان هذه السنة احترق جامع دمشق، ففجع الإسلام بمصابه، وصلت النيران في محرابه واشتعل رأس القبة شيبا بما شبت، وأكلت أم الليالي منها ما ربت. وطار النسر بجناح الضرام، وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام.

وكأن الجحيم استجارت به فتمسكت بذيله، أو كأن النهار ذكر ثأرا عنده فعطف على ليله .. فواهًا له من مسجد أحرقته نفحات أنفاس الساجدين، وعلقت فيه لفحات قلوب الواجدين. وقيل: أصابت حسنها العيون، واتهم بذلك الولاة المصريون. ثم تداركه الله بالألطاف والإطفاء، وأتاه بالشفاء بعد الإشفاء. وقال: حسبه اصطلاء واصطلاما، وحقق فيه قولـــه:﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسَلَامًا﴾.

قال: وفي سنة ٤٦٢ هـــ أقبل كلب الروم في جموعه، وأخنى على من بمنبج واجتاحها، واستبى حاميتها واستباحها. وعاد إلى قسطنطينيته وقد ساءت آثاره، والدين قد ثار ثاره. وفي هذه السنة زوج نظام الملك بنته لعميد الدولة أبي منصور محمد بن فخر الدولة الوزير بن جهير، وصارت له مصاهرته خير ظهير. وكان عميد الدولة قد توجه إلى السلطان بالري في رسالة، فتلقى بكرامة وجلالة. واستتمت له هذه المصاهرة، واستتبت المظاهرة. ووصل في رجب، وفي صحبته رسل محمد بن أبي هاشم، وقد كان بعثهم إلى السلطان، وضمن لهم إقامة الخطبة له بمكة، حرسها الله تعالى. وخلع الخليفة على عميد الدولة في بيت النوبة، فرفل في ملابس الاصطناع، وجعل إليه الإنهاء والمطالعة ومراعاة الإقطاع. وقرئ له توقيع من إنشاء ابن الموصلايا تمكن به من افتراع عذرة الارتفاع، وتصدر في الوسادة، وتصدى للسيادة.

وفي هذه السنة توفي تاج الملوك هزار سب بن بنكير بن عياض منصرفا من باب السلطان ألب أرسلان وهو خارج من أصفهان على قصد خوزستان. وكان قد علا أمره وعرض جاهه، وتزوج بأخت السلطان، واستظهر منه بالمكانة والإمكان. وتزوج بعده مسلم بن قريش بأخت السلطان زوجته، وتدرج إلى درجته. وفي هذه السنة ورد أمير الحرمين محمد بن أبي هاشم الحسني إلى بغداد على قصد الوفادة إلى السلطان، فكتب الخليفة معه بعد أن شرفه ورفعه، وعاد في محرم سنة ٤٦٣ هـــ من المعسكر السلطاني على باب آمد، وقد استفاد الفوائد، وأفاد المحامد.

ذكر أحوال ألب أرسلان بديار بكر والشام

قال -رحمه الله-: ولما توجه ألب أرسلان إلى ديار بكر، خرج إليه نصر ابن مروان وتلقاه، وحمل له مائة ألف دينار، فقبل إحسانه وأحسن قبوله، وسأل عن

قضاياه وقضى سؤله. وقيل: إنه قيل له إن هذا المال قد قسطه على البلاد فأمر برده، وعف عنه وعاف وبيل ورده، وانتهى إلى أمد آمد من قصده. فوجد ثغرها ممتنعًا، وسورها مرتفعًا. فمسح السلطان للتبرك به يده على سورها وأمرها على صدره. ثم توجه منها إلى الشام وعبر بالرها، وتعذر عليه أمرها. فحل بحلب وشرع في حصارها، وأحاط بأسوارها، وصاحبها حينئذ محمود بن صالح بن مرداس وكان قد خطب في تلك السنة لبني العباس. وقد وجد لتشريف الخليفة خلف سروره جافلا، وأصبح في ملابس الجلال وخلع الجمال رافلا، وعنده من جانب الخليفة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي، فضايقه ألب أرسلان وأخذ بمخنقه، ووقف على طرقه. وخرج نقيب النقباء وسأل أن ظل الإكرام عنه لا يقلص، وأن ورد الأنعام عليه لا ينغص. فأبى الرضي عن محمود إلا بدوس بساطه حامدًا راضيًا، ولعفوه عافياً، ولحق طاعته وضراعته متقاضيا. فلم يخرج إليه، فاحتد القتال، واحتدم النـــزال. وطال الحصار، وطارت الأحجار. ووقع في فرس السلطان حجر استشاط من وقعه، فخرج ليلا إلى السلطان ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري يخضعان ويضرعان، وقالت للسلطان: ((هذا ولدي قد جئتك به فافعل ما تحب. وقد اعترفنا وعرفنا أن سلامتنا إلا بسلمك لا تستتب)). قال: فعفا السلطان وصفح، وأعاد محموداً إلى مكانه محمود المكانة، وقد ارتفع بالتواضع وتسامى بالاستكانة، وأمنت الشهباء، وسكنت الدهماء.

ذكر خروج ملك الروم وكسره وقسره وأسره

قال: وبلغ السلطان خروج أرمانوس ملك الروم في جمع لا يحصى عدده، ولا يحصر مدده. فلما سمع هذا الخبر أغذ السير إلى أذربيجان، إذ سمع أن متملك الروم أخذ على سمت خلاط [١]. وكان السلطان في خواص جنده، فلم ير أن يعود إلى بلاده ليجمع عساكره، ويستدعي من الجهات للجهاد قبائل الدين وعشائره. فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته إلى تبريز مع أثقاله، وبقي في خمسة عشر ألف فارس من نخب رجاله، ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه، والروم في ثلثمائة ألف ويزيدون، ما بين رومي وروسي وغزي وقفجاقي وكرجي وأبخازي وخزري وفرنجي

(١) سمت: طريق، وخلاط: اسم المقاطعة.

وأرمني. ورأى السلطان أنه إن تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم بلاء البلاد، وثقلت أعباء العباد. فركب في نخبته وتوجه في عصبته وقال: ((أنا أحتسب عن الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي)).

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية، والصريمة الصارمة الرؤية. وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس في عشرين ألف فرس، ومعهم عظيمهم الأصلب، وصليبهم الأعظم، وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسباء. فخرج إليهم عسكر خلاط ومقدمهم صنداق التركي فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم، وخاض إلى العز مشمرا نار الحريق المتضرم، وقتل منهم خلقا كثيرا، وقاد قائدهم في القيد أسيفا أسيرا. فأمر السلطان بجدع أنفه، وإرجاء حتفه، وذلك يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ٤٦٣ هـ. وعجل الصليب السليب إلى نظام الملك ليجعل إنفاذه إلى دار السلام، مبشرا بسلامة الإسلام. وتلاحق عسكر الروم ونـزل على خلاط محاصرا، وأهلها واثقون بالله الذي لم يزل لدينه ناصرا. ونـزل متملك الروم على منازكرد في أنصار نصرانيته، وعمداء معموديته. فانـزعج سكانها وتزعزعت أركانها، وعلموا أنه ليست لهم بما نـزل بهم طاقة، وأن دماءهم لا شك بسيوف الكفر مهراقة، فخرجوا بأمان، وسلموا البلد، فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه تحت احتياطه.

فلما بكر يوم الأربعاء، سيرهم بأسرهم في أسر، وأردفهم بعسكر بجر، وخرج ليشيعهم بنفسه، وهو في جماعة حماته وحمسه. ووافق ذلك وصول أوائل العسكر السلطاني ووقعت العين في العين، واجتمعت على المجالدة أجادل الجمعين. وجرى الخيل، وجرف السيل، وانجر من الأرض على السماء الذيل. وصحت على الروم كسرة أردتهم، وصدفتهم عن مقصدهم وصدتهم. فانعكسوا إلى مخيمهم، وانكشفوا بما تم من عرس الإسلام بمأتمهم. وشرعت المنازكردية يتسللون، فقتل الروم منهم من أدركه أجله ونجا الباقون، وعرف الروم أنهم للموت ملاقون، وعاد متملكهم إلى مضاربه وبات تلك الليلة والكوسات تصرخ، والبوقات تنفخ.

ولما أصبحوا بكرة يوم الخميس وصل السلطان ألب أرسلان ونـزل على النهر،

ومعه من المقاتلة الأتراك خمسة عشر ألف فارس لا يعرفون سوى القتل والقهر. وكلب الروم نازل بين خلاط ومنازكرد في موضع يعرف بالزهرة، وهو في مائتي ألف فارس من ذوي القلوب المدلهمة، والوجوه المكفهرة، وبين العسكريين فرسخ، وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ. فأرسل ألب أرسلان رسولا، وحمله سؤالا وسؤلا. ومقصوده أن يكشف سرهم، ويتعرف أمرهم، ويقول للملك: إن كنت ترغب في هدنة أتممناها، وإن كنت تزهد فيها توكلنا على الله في العزيمة وصممناها. فظن أنه إنما راسله عن خور، فأبى واستكبر، ونبا وتعسر، وأجاب بأني سوف أجيب عن هذا الرأي بالري. وانتهى عن النهي إلى غاية الغي. فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهما المخاطبة، وانقطعت المواصلة. ولبث يوم الخميس الخميسان [1] يعبيان، ولداعي المنون يلبيان. والشمس تشكو حر ما تصاعد إليها من زفرات الأحقاد، وكأنما شعاعها دم أراقته على الآفاق وخزانات تلك الصعاد. والطلائع على المطالع، والمنايا على الثنايا. والعزم السلطاني إلى اللقاء مشرئب، وللمضاء مستتب، فقال له فقيهه وإمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: ((إنك تقاتل عن دين الله الذي وعد بإظهاره، فألقهم يوم الجمعة بعد الزوال، والناس يدعون لك على المنابر)).

فلما أصبحوا يوم الجمعة ارتجت الأرض بالضجاج، وارتجت السماء بالعجاج، وقد لقحت الحرب العوان بالمهندة الذكور، والمسومة الفحول، والكماة الحماة يحمون حمي الحمام ويحومون حول الدحول. ووقعت الطوالع في الطوالع، وقرعت القواطع بالقواطع. وغنت الظبى ورقصت المُران، ومال القنا وجالت الفرسان، ودارت الكؤوس وطارت الرؤوس. وما فتئت الفتيان تُجور [2] وتجول، والخرصان تصوب وتصول. إلى أن دنا وقت الزوال، ودان لمقت الدين مقت النـــزال، وصدحت أعواد المنابر بالخطباء، وصدقت نيات أهل الجمعة للمجاهدين في إخلاص الدعاء، فنـــزل ألب أرسلان عن فرسه وشد للحزم حزامه، وأحكم سرجه ولجامه، ثم ركب جواده، وثبت فؤاده، وقوى قلبه، وسوى قلبه، وفرق أصحابه أربع فرق كل فرقة منهم في كمين،

(١) الخميسان: الجيشان.

(٢) تجور: تصرع.

وراح وله من الروح الأمين مجير أمين.

ولما علم أن الكمين مكين، وأن الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضمين، تلقى بوجه الحُرِّ حَرَّ الحرب، واستحلى طعم الطعن وضرب الضرب. وحمل متملك الروم بجمعه، وأخذ ببصر الدهر وسمعه، وأقبل كالسيل يطلب القرار، والليل يسلب النهار. وثبت لهم خيل الإسلام ثم وثبت، وجالت وما وجلت، واستجرت الروم إلى أن صار الكمين من ورائها، ووقفت المنون بإزائها. ثم خرج من خلفها وذوو الأقدام من قدامها، ووقعت نار البيض في حلفاء هامها، فآذنت بانهزامها وانكسرت كسرة لا تقبل جبرا، فطائفة لم تثبت للقتال و لم تصبر، وطائفة ثبتت فقتلت صبرا، فما نجت من أولئك الألوف آحاد، وما سلمت من أعداء الإسلام أعداد. وملك الملك وقيد وقيذَ وقيذًا [1]، وأسر و لم يجد له معينا ولا معيدا. وركب المسلمون أكتافهم، وقتل الآحاد آلافهم وطهرت الأرض من خبثهم، وفرشت بجثثهم. وصارت الوهاد بأشلاء القتلى أكماء والمرُوت [2] من قصد القنا أجما.

.قال: وكانت مع الروم ثلاثة آلاف عجل تنقل الأحمال، وتحمل الأثقال، ومن المنجنيقات التي تحملها منجنيق هو أعظمها وأثقلها، له ثمانية أسهم، ويمد فيها ألف ومائتا رجل، ويحمله مائة عجل. يرمي حجرًا وزنه بالرطل الكبير الخلاطي قنطار، وكأنه جبل له في الجو مطار.

قال: وشملهم بأسرهم القتل والأسر. وبقيت أموالهم منبوذة بالعراء لا ترام، ومعروضة لا تسام. وسقطت قيم الدواب والكراع، والسلاح والمتاع. حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة، وبدينار ثلاث دراع [3].

ومن عجيب ما حكي في أسر الملك، أنه كان لسعد الدولة كوهرائين، مملوك أهداه لنظام الملك فرده عليه، و لم ينظر إليه، فرغبه فيه كثيرا. فقال نظام الملك: وما يراد منه، عسى أن تأتينا بملك الروم أسيرا! وذكر ذلك استهزاء به واستصغارا لقدره

(١) الوقيذ: المشرف على الموت.

(٢) المروت: المفازة بلا نبات.

(٣) جمع درع.

واحتقارا لأمره. فاتفق وقوع متملك الروم يوم المصاف في أسر ذلك الغلام، ووافق تصديق قول النظام. وخلع السلطان عليه وقال: ((اقترح من العطاء ما أعطيك)) فطلب بشارة غزنة.

قال: ودخل السلطان إلى أذربيجان بملكه وأيده[1]، والملك في قيده وصيده، وهو أسيف جهده، وأسير جهله، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. فإنه خرج وفي نيته فتح الدنيا وحتف الدين، وقهر السلاطين، ونصر الشياطين. ثم ذل بعد العز وهـان، وتعرض للابتذال كل ما صان. ثم تعطف عليه السلطان وأحضره بين يديه وقـال: ((أخبرني بصدقك في قصدك، ومـا الذي قدرت لو قدرت)). فقال: ((كنت أحسب أني أحبس من أسرته منكم مع الكلاب، وأجعله في السبايا والأسلاب، وإن أخذتك مأسورا، اتخذت لك وقد ساء جوري ساجورا)) [2]. فقال السلطان: ((قد عثرت على سر شرك، فماذا بك الآن نصنع، ونحن منك بما نويته فينا لا نقنع)). فقال: ((انظر عاقبة فساد نيتي، والعقوبة التي جرهما إليّ جريرتي)). فرق له قلب ألب أرسلان وأرسله، وفك قيده ووصله، وأفرج عنه معجلا، وسرحه مبجلا. ولما انصرف الملك أرمانوس مأنوسا رمى ناسه اسمه، ومحوا من الملك رسمه. وقالوا هذا من عداد الملوك ساقط وزعموا أن المسيح عليه ساخط.

ذكر أحداث حدثت في هذه السنين

قال: في آخر سنة ٤٦٣ هـ توفي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المحدّث الخطيب مؤلف تاريخ بغداد، وكان علامة دهره وعالم عصره. وفي سنة ٤٦٤ هـ كان السلطان رتب لبغداد شحنة يقال له آيتكين السليماني، ووردها في شهر ربيع الأول، فلم يرض الخليفة بتوليته، وذلك لأن ابنه قتل أحد الغلمان الدارية فصرفه السلطان بسعد الدولة كوهرائين، ووصل إلى بغداد في شهر ربيع الآخر، في جمع كالبحر الزاخر، ووقع بإقباله الاحتفال، ورتب لحفلة الاستقبال. وخرج الناس على طبقاتهم لتلقيه، وجرى القدر بترقيه. وجلس له الخليفة في دار أرسلان خاتون، وتهذب

(١) الأيد: القوة.

(٢) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب.

البلد بسياسته، وتمت الحماية بحميته. وورد في آخر شهر ربيع الأول الوزير أبو العلاء محمد بن الحسين، وعليه خلع سلطانية، وكان قد نبه السلطان إلى خدمة الخليفة لتقوية ما توهمه من الأسباب الضعيفة. وخصه بالحب والحباء، ولقبه بوزير الوزراء، وأقطعه النصف من إقطاع الوزير فخر الدولة ابن جهير.

فلما وصل تقدم الخليفة بأن لا يستقبل، ولا يحتفل به إذا أقبل ولا يقبل، فلما انتهى إلى باب النوبي، نـــزل وقبل الأرض وانصرف. ولم يرض للقبول وما تصرف. وأقام ببغداد أياما ثم رحل، وحل بالحلة المزيدية مستزيدًا، وصرف أخوه أبو المعاني عن الحجبة، فعاد بعد أن كان حاجبا قريبا محجوبًا بعيدا. وفي صفر من هذه السنة توجه عميد الدولة أبو منصور ابن الوزير بخلع أمامية إلى ألب أرسلان بنيسابور، ووكل في تزويج المقتدي ببنت ألب أرسلان المنعوتة بخاتون السفرية. فسفر وجه وجاهته بهذه السفرة الصفرية. فلما وصل تلقى بالعظماء واستقبل وتقدم بإنـــزاله في المرتبة الكبيرة، وترتيب الأنـــزال الكثيرة، وعقد العقد للمقتدي على بنت السلطان في أسعد ساعة، وأحسن عادة. وكان يوما مشهودا أزهر، قد نثر فيه الملوك الجوهر. ولما عاد عميد الدولة جعل على أصفهان العبور، فلقى من ملكشاه ولد السلطان الحب والحباء والحبور. وأفاض عليه الخلع الإمامية فلبسها، وأحكم عنده قواعد الأمور في العواقب وأسسها. وكان ملكشاه قد عاد من شيراز وهو سائر إلى والده، وورد المملكة منه ظمآن إلى وارده. وعاد عميد الدولة إلى بغداد في ثامن عشر ذي الحجة، بادي الحجة، هادي المحجة.

ذكر وفاة ألب أرسلان في سنة خمس وستين وأربعمائة

قال: في أول هذه السنة توجه السلطان ألب أرسلان لقصد بلاد الترك، وقد كملت له أسباب الملك، في أكثر من مائتي ألف فارس، ومد على جيحون [1] جسرا، كما خط الكاتب على الطرس سطرا، وكانت مدة عبور العسكر عليه شهرا. وكان قد قصده شمس الملك تكين بن طفقاج، والإقبال قد بلغ الكمال وأوضح المنهاج. وأنه في سادس شهر ربيع الأول، بكر وهو في الصدر الأرحب والباع الأطول والكمال

(١) جيحون: اسم نهر.

الأبهى والبهاء الأكمل. وهو جالس على سرير سروره، لابس حبير حبوره. وسمطا سماطيه الممدودين من فرائد مفرديه منظومان، والبأس والنائل لأوليائه وأعدائه مقسومان. والعظماء واقفون والموقف عظيم، والكرماء قائمون والمقام كريم، والهيبة مالكة. فحمل إليه أصحابه مُستحفظ قلعة يقال له يوسف الخوارزمي، وهو يرسف في قيده، و لم يدر أنه يسرف في كيده- وحمل إلى قرب سريره وهو مع غلامين، وقد شدا بيده اليدين.

فتقدم بأن يضربَ له أربعة أوتاد لتشد إليها أطرافه، ويعجل على تلك الهيئة إتلافه. فقال: ((مثلي يقتل هذه القتلة ويلقى هذه المثلة)). فحمي السلطان واحتد وأخذ قوسه وسهمه، وترك رأيه وحزمه. وأمر بحل رباطه، وأن يخلي عن احتياطه. وقال للغلامين خلياه، ورما فأخطأه. وكان على تخت، فوثب ونـــزل، فوقع على وجهه في عثرة، فجاءه يوسف فُجَاءةً وفاجأه بسكين في خاصرته. وكان سعد الدولة كوهرائين واقفا، فجرحه يوسف جراحات ونهض السلطان إلى خيمة أخرى مجروحا. فأما يوسف الخوارزمي فإنه ضربه فراش أرمني بمرزبّة [١] على أم رأسه، فوفت الضربة بقطع أنفاسه. وأما ألب أرسلان فإنه أحضر وزيره نظام الملك فأوصى به واليه، وعول في كفاية المهمات وكف الملمات عليه، وجعل ولده ملكشاه ولي عهده، وفوض إليه الملك من بعده. وخص ابنه آياز بما كان لأبيه داود ببلخ وعين له خمسمائة ألف دينار، وقال له: اقصد نصرة أخيك. وجعل القلعة بها لملكشاه، وقال له: إن لم يرض فضيّق عليه واستعن على قتاله، بما عين له من ماله. ووصى لأخيه قاورد بك بن داود بأعمال فارس وكرمان، وأجرى له بتعيين شيء من المال والإحسان. وانتقل إلى جوار ربه فائزا بالشهادة، حائزا للسعادة. وكان مولده في سنة ٤٣٤ هـــ ، واستشهد وقد بلغ من العمر أربعين سنة، وملك تسع سنين وشهورا.

وقال: وحكى أنه قال حين حينه، وقد عاين الموت بعينه: ما كنت قط في وجه قصدته، ولا عدو أردته، إلا توكلت على الله في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النوبة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجمل حال. فقلت أين من

(١) المرزبة: عصا من حديد أو هي المطرقة.

له قدر مصارعتي، وقدرة معارضتي، وإني أصل هذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت على منيتي من الكمين.

قال: وكان ألب أرسلان بالبرية بارا، ولم يزل إحسانه عليهم من داره دارا. وكان يطبخ كل يوم خمسين رأسا من الغنم في مطبخه للفقراء، وذلك سوى الراتب المعين للسماط برسم العسكر والأمراء. وكان إذا أمر ببناء، أوعز بأن يكون أسمى بنيان وأسمقه، وأشرف مكان وأشرقه ويقول: ((آثارنا هذه تدل على علوهمتنا ووفور نعمتنا)) وخلف عدة من البنين، وهم ملكشاه وتكش، وآياز، وتتش، وأرسلان أرغون، وبوري برس.

ذكر جلوس السلطان جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان على سرير الملك

قال: ولما دفن ألب أرسلان عند قبر أبيه بمرو، وأقام ابنه آياز ببلخ، وعاد ملكشاه بالعساكر، وسمع قاورد بوفاة أخيه ألب أرسلان فسار للمري طالبا، وفي الملك راغبًا. فسبقه إليها ملكشاه، وأمن ما كان يخشاه. وصار منها قاصدا للقاء قاورد وردّه، وفل حدّه. فالتقوا بقرب همذان، رابع شعبان. وكان عسكر ملكشاه إلى عمه مائلا وبقوله قائلا. فلما تلاطم البحران، والتقى الجمعان، حمل قاورد على ميمنة ملكشاه وجعلها دكا، وأوسعها فتكا. وحمل شرف الدولة مسلم بن قريش وبهاء الدولة منصور بن دبيس ومن معهما من العرب والأكراد على ميمنة قاورد فدكوها وخرقوها. وغاظ أصحاب ملكشاه ما صح من كسر عمه وقالوا: ما عرتنا هذه الأكدار إلا من الأعراب والأكراد، وصدونا بقصدهم عن مراد المراد. فمضى المنهزمون من أصحاب ملكشاه إلى حلل العرب ونهبوها، وشنوا عليها الغارة وسلبوها. وجاء رجل من أهل القرى إلى ملكشاه وأخبره بأن عمه في قرية بقربه، وقد انفرد عن حزبه. فسار إليه وأخذه، وأمضى فيه حكم بأسه وأنفذه. وتقدم إلى كوهرائين بخنقه وهو يتضرع ويتضور، فخنقه غلام أرمني أعور.

قال: وملك ملكشاه، وجاءه الجاه. وحمل أمر أمرائه بحلمه، وحكم برضاهم وأرضاهم بحكمه. وخلع على نظام الملك، ورد به الملك إلى النظام. وعول عليه في تولي وزارته ومناصبه العظام. وأعطى سرهنك ساوتكين أعمال قاورد عمه، ولقبه

بلقبه عماد الدولة، وولاه ولاياته وخصه بمناجيقه وكوساته. وأجزل لأمراء العرب والأكراد نصيب الاصطفاء والاصطناع، ووفر حظه من التشريف والإطلاق والإقطاع.

ودخلت سنة ٤٦٦ هـ وورد في صفر منها سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد وجلس له الخليفة القائم بأمر الله في ثاني صفر. وقام عدة الدين المقتدى على رأسه وهو ابن ثماني عشرة سنة، وسلم الخليفة إلى كوهرائين عهد الخلافة بعد أن قرأ أوله، ومتضمنّه أنه جعل عليه في الملك معوله. وكان إذنا عاما للخاصة والعامة في الوصول، ولم يمنع في ذلك اليوم أحد من الدخول. وورد الخبر بوفاة آياز أخي السلطان وكفى أمره كما كفى أمر عمه، قَلَبه من شغله واستراح من همه.

قال: وفي هذه السنة غرقت بغداد ولم يسلم سوى دار الخليفة، وما في جوار سدها الشريفة. وغرق مشهد باب التبن وانهدم سوره، وخرب معموره. فأطلق له شرف الدولة مسلم بن قريش ألف دينار، وأعيدت عمارته، وأمكنت زيارته. وورد مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك والماء طام، وغارب دجلة ذو سنام سام. وقد انسدت أفواه الطرق، فترك استقباله للضرورة العائقة، ودخل على غير الصورة اللائقة. فإنه ركب في سفينة وانحدر إلى باب المراتب، ولما حاذى التاج قام أداء للمواجب ولما قر في منزله، ظن أن الخليفة ما نبأ باستقباله، إلا وقد نبا عن تقبله. ومضى إليه النقيبان وقاضي القضاة ولم يوصلهم بل ردهم، وصدفهم وصدهم. وقال: ((جرى بي تهاون وعلى تعاون)).

فأنفذ الخليفة إليه من أوضح له العذر، واستخلص منه بإنفاذ الخلع إليه الحمد والشكر. واستأذن الخليفة في الركوب بباب المراتب فأذن له، وأملى له في كل نجح أمله. قال: وورد عميد الدولة أبو منصور بن الوزير فخر الدولة من الري مشمولا من جلال الدولة ملكشاه بالإجلال، وترك استقباله لما اتفق في حق مؤيد الملك من ترك الاستقبال. وفي آخر هذه السنة، توفي زعيم الملك أبو الحسن بن عبد الرحيم في الحلة المزيدية، وكان مرشحًا للمناصب السامية السنية.

ذكر وفاة القائم بأمر الله ، وتولي المقتدي بأمر الله

قال: وكانت وفاته ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ هـ ، وقد كان

زرع عمره استحصد فما اقتصد، وفي ألم ألمّ وافتصد. ونام منفردا فانفجر فصاده، لما غلبه رقاده. وخرج منه جم كثير أقوت منه قواه، وانتبه والضعف قد تضاعف، والحمام قد شارف. فطلب ثقاته واستحضر عدة الدين وأودعه وصايا يكون بها عن القائم القائم[1]. وأحضر النقيبين وقاضي القضاة والقاضي أبا الحسن بن البيضاوي والقاضي أبا محمد بن طلحة الدامغاني، والوزير قائم، والقائم مستند في شباك، وهو في سكون يشعر بما ليس بعده من حراك. وقال لهم: ((اشهدوا على ما تضمنته هذه الرقعة كتبت فيها سطرين بخطي)) ثم قضى نحبه. وتولى أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم، وبويع يوم وفاة جده، وجلس في دار الشجرة على كرسي، بقميص أبيض، وعمامة بيضاء لطيفة، وفوقها طراحة قصب دري. ودخل الوزير فخر الدولة أبو نصر، وولده عميد الدولة أبو منصور، واستدعى مؤيد الملك بن نظام الملك والنقيبان وقاضي القضاة وحضر أعيان الدولة من ذوي المراتب والكفاءة، وهناك نور الدولة دبيس بن علي المزيدي وولده بهاء الدولة وأبو عبد الله محمد بن حماد الأسدي وبايعوه، وعاقدوه على الطاعة وشايعوه. وصلى بناس في صحن السلام وأئتموا به، وصلى على القائم وأغلقت الأبواب ببغداد ثلاثة أيام لعقد المأتم، وجلس فخر الدولة الوزير وابنه عميد الدولة للعزاء ثلاثة أيام، ومضى عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة عليه، وحمل عهده إليه. وعاد إلى بغداد في سنة ٤٦٨ هـ وأوصله الخليفة إلى مجلسه الأشرف، وخصه بإكرامه الألطف. وكان قد سير من الديوان القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد البيضاوي في صحبة مؤيد الملك إلى والده نظام الملك ليسير منه إلى غزنة، ويأخذ البيعة على صاحبها، فعاد مصحوبا بالجدة قد أترب وفرع الرتب. ولما سكن إلى الثراء سكن إلى الثرى. وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة ٤٧٠ هـ وكان فاضلا على مذهب الشافعي ذكياً.

قـال: وفي سنة ٤٦٨ هـ جد الجدب وحل المحل، وحط للقحط الرحل.

---

(١) القائم القائم: القائم الأولى تعود إلى القائم بأمر الله، وتعني الثانية أن يكون قيما على تنفيذ الوصايا.

وأقوت [1] القوة وعدم القوت، حتى كفى الله الغمة، وكشف الملمة. قال: وفي هذه السنة تسلم نصر بن محمود صاحب حلب قلعة منبج من الروم، وخلصها من أيديهم، وأنقذها من تعديهم. وفي سنة ٤٦٩ هـ تزوج عليّ بن أبي منصور فرامرز بن علاء الدولة ابن جعفر بن كاكويه بأرسلان خاتون بنت داود، التي كانت زوجة القائم وكانت فارقت بغداد حين عرفت بوفاة أخيها ألب أرسلان، وخرج عنها، وتوفي بعد ذلك القائم عنها، فاستبدلت عن القرشي ديلميًا، وعن الإمام أميًّا. وفي هذه السنة ورد إلى بغداد الشيخ الإمام أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري -رحمه الله- حاجا، وأوضح بعلمه منهاجا. وجلس للوعظ في النظامية، وفي رباط الصوفية، وأبدى شعار الأشعرية. يزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنـــزهة. ويبطل شبه المجسمة. فثارت الفتنة من العامة وقصدت الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة، وأظهروا شناعة. وكان قد ورد مؤيد الملك بن نظام الملك من المعسكر فلم يطق دفعا، لم يستطع منعا. فنسب نظام الملك إلى بني جهير الجهر بتلك الفتنة.وحنا أحناءه [2] لهم على الإحنة [3].

واتفق وفاة ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة في شعبان سنة ٤٧٠ هـ ودفنت بدار الخلافة إكراماً لأبيها، ولم تجر العادة بالدفن فيها. وانقطع ما بين النظام وبينهم من النظام، وآذنت عرى النسب بالانفصام. ووصل في المحرم سنة ٤٧١ هـ بشحنكية بغداد سعد الدولة كوهرائين وضرب على بابه في أوقات الصلاة الثلاث الطبل، وكان قد منع من ذلك وقيل لم تجر به عادة من قبل. وأعقب ذلك عزل الوزير ابن جهير، وذلك أن كوهرائين أوصل عند وصوله كتابا من السلطان إلى الخليفة يتضمن عزل الوزير، فقيل في جوابه إنه ليس بوزير، وإنما الوزير ولده عميد الدولة، وقد قصد نحوكم بالمعسكر، ووالده ينوب عنه إلى أن يحضر. وكان عميد الدولة بعد وفاة زوجته خرج إلى المعسكر وعرف أن كوهرائين إن صادفه في الطريق صدفه وصرفه. فعرج بالجبال، وأتبع الترحال بالترحال. وجاء كوهرائين في النصف من صفر إلى باب

(١) أقوت: ضعفت.
(٢) الأحناء: جمع حنو، وهو كل ما فيه اعوجاج من البدن كالضلع.
(٣) الإحنة: الحقد.

الفردوس، وهو على حالة من السكر، فغلق دونه الباب، وربط هناك خيله، وأقام هناك يومه وليله. وقال: ((لابد لي من الوزير. ولا مهلة في التأخير)).

فلما عرف فخر الدولة الحال، قدم السؤال وطلب الاعتزال. فأذن له أن يعتزل، ويلزم المنـــزل. وخرج إلى كوهرائين توقيع فيه لما عرف محمد بن محمد بن جهير ما عليه جلال الدولة ونظام الملك من المطالبة بصرفه، سأل الإذن في ملازمة داره، إلى أن يكاتبا في أمره، ولم يزل عميد الدولة يستعطف نظام الملك حتى عطف، ويتألف قلبه حتى انقلب إلى ما ألف. وألزمه تقلد منه، وزوج بنته بابنه. وكتب إلى كوهرائين بإعادته إلى الخدمة، وزيادته في الحرمة. وسأل الخليفة الإغضاء عن ذلته، ولما وصل إلى بغداد عزله الخليفة عن خدمته، ونقله إلى منـــزله عن منـــزلته. ورتب الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين نائبا في الديوان وجلس بغير مخدة، ثم توزر عميد الدولة ابن جهير للخليفة المقتدي في سنة ٤٧٢ هـــ وأفضيت عليه خلع آذنت بتبجيله، وتولى أمين الدولة وابن الموصلايا قراءة توقيع خرج في حقه بتجميله.

قال الإمام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني - رحمه الله- : ولما كان الكتاب الذي صنفه أنوشروان الوزير عّربته وهذبته، وقد انتهيت في هذا الموضع إلى مفتتحه، وصلت هذه الجملة التي ذكرهما به وجعلتها طريقا إلى دخول بابه، لكني عند انقضاء أيام كل سلطان، أوردت حوادث تجددت في عصره، وأخل أنوشروان بنشر حديثها وذكره. ومن هاهنا يقع بما بدأ به البداية، وتكمل بتعريبه والإعراب عنه العناية.

أيام السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه ابن ألب أرسلان يمين أمير المؤمنين

قـــال: عقد لواء سلطنته في أيام أمير المؤمنين القائم بأمر الله -رضي الله عنه- وعصر خلافته قد قارب انتهاءه، وشارف انقضاءه. ولهج عند وفاته بهذين البيتين:

سلا أمَّ عمرو كيف بات أسيرها ... تفك الأساري حوله وهو موثق

فإن كان مقتولا ففي القتل راحة ... وإن كان ممنونا عليه فمطلق

وتولى بعده الخلافة أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله -أنار الله برهانه- وبايعه هذا السلطان. قال: وكان ملكشاه ملكا سيرته العدل، وسريرته الإنصاف والفضل. شجاعا مقداما صائب الرأي والتدبير. حقيقا بالتاج والخاتم والسرير. أيامه في أيام آل سلجوق كالواسطة في العقد، قد تناسبت في الحسن بدايته ونهايته. وتناسقت في الإقبال فاتحته وخاتمته. ولم يتوجه إلى إقليم قسطنطينية، وقرر ألف دينار أحمر يحمل إلى خزانته من تلك الولاية، ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبرا إسلاميا، وعاد إلى الري، وقصد فتح سمرقند، ولم تزد مدة هذه الأعمال على شهرين.

ولما وصل سمرقند نــزل عليها وحاصرها فظفر بخانها وهو في موضع سلطانها، وجرت له حروب عظيمة هزمه فيها وكسره، وظفر به وأسره. فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار في ركابه من موضع سرير أفراسياب، الذي كان ملك ملوك الترك، إلى موضع سرير ملكه، وحمله أسيرا إلى العراق تحت الوثاق، ثم من عليه بالإطلاق. وأنعم عليه بإعادته إلى ملكه. وإعادة نظمها إلى سلكه. وتوجه السلطان في السنة الأخرى إلى أوزكند، وصل حمل إنطاكية إليها، وانقاد له ملك الترك، ووصل به إلى أصفهان، ثم أكرمه وشرفه، وأعاده إلى مقره من بلاد الترك، وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير، خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي عليّ الحسن ابن علي بن إسحاق رضى أمير المؤمنين، الوارف الظل الوافر الفضل. وكانت وزارته للدولة حلية، وبهجته للمملكة زينة. كأنما خلقه الله للملك والجلالة مصورا. وكان الإقبال له معلما، والظفر مسخرا. قد مشى في ركابه سلطان العرب مسلم بن قريش وقبل حافر مركوبه، وكانت ملوك الروم وغزنة وما وراء النهر في ظل حمايته، وكنف رعايته. وكانت ملوك الأطراف يقبلون كتفه إجلالا وتشريفًا، ويتشرفون بلبس خلعه. وكانوا أنجادا له على أعدائه وجر الجحافل الثقيلة، والعساكر الكثيفة. وبقي في صدر الوزارة ثلاثين سنة.

قال: كنت في مبتدأ أمري في خدمة الأمير بيحير أسفهسلار خراسان، فأشخصني إليه من موضع كنت متوليا له تحت التوكيل، وأنا متوجه نحوه خائب الأمل، منكسر القلب، على فرس حرون هزيل، يتعبني سيره وأنا في ضر شديد من ركوبه. فبينا أنا سائر، إذ ظهر من صدر البرية تركماني على فرس يجري جري الماء

رهوان، فتمنيت مما كنت فيه من ألم القلب أن أكون راكبا مثل ذلك الفرس، فتقرب التركماني مني واختلط بالموكلين بي وكلمهم ثم التفت إلي وقال: هل لك أن تقايض فرسك بفرسي؟ فحسبت أنه يهزأ بي، وقلت له يجوز مما أنا فيه من هذه المحنة أن لا تستهزئ بي، فنـــزل في الحال عن فرسه وأعطانيه وأخذ فرسي. واليوم منذ ثلاثين سنة أتمنى لقاء ذلك التركماني وأسأل عنه ولا أجده.

قال: وكانت علامة نظام الملك ((الحمد لله على نعمه)). وكان مؤيدا موفقا من جملة البشر، مخصوصا من الله بالنصر والفتح والظفر. والدهماء ساكنة في أيامه، وأهل الدين والعلم والفضائل راتعون في أنعامه.

قال: وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء، ليحضروهم في مجلسه ويحظوا بتقريبه، فإنه، كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له، بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل، ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم، بنى له مدرسة ووقف عليها وقفا، وجعل فيها دار كتب. قال: وكأنما عناه أبو الضياء الحمصي بقوله:

وما خلقت كفاك إلا الأربع وما في عباد الله مثلك ثاني
لتجريد هندي وإسداء نائل وتقبيل أفواه وأخذ عنان

قال: وظهر من تدبيره في سياسة الممالك ما قاله سليمان بن عبد الملك: عجبت لهؤلاء الأعاجم ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة. وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة. قال: وفي عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد. وفرّعوا المناصب، وولوا المراتب. ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان نافذا بصيرا، ينقب عن أحوال كل منهم، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكره وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليُحلي به عاطله، ويحيي به حقه ويميت باطله.

تولى الوزارة، والملك قد اختل نظامه، والدين قد تبدلت أحكامه، في أواخر

دولة الديلم، وأوائل دولة الترك، وقد خربت الممالك بين إقبال هذه وإدبار تلك، وقد أقفرت البلاد وأقوت، واستولت الأيدي العادية عليها وتقوت. وقامت النوائح على النواحي، والنوادب على النوادي. فأعاد الملك إلى النظام، والدين إلى القوام. وعمر الولايات، وولى العمارات. وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد، وصرفها إلى الأجناد، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع، فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها. ففرقها على الأجناد إقطاعا، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا. فتوفرت دواعيهم على عمارتها وعادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حليتها.

وكان للسلطان نسباء يدلون بنسبه، ويدلون بسببه، ويستطيلون بأنهم ذو قرابته فقصر أيديهم، ومنع تعديهم. وساس جمهورهم بتدبيره، ونظم أمورهم بسياسته. وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة، فوجه نصفه على بلد من الروم، ونصفه على وجه في أقصى خراسان، وصاحب القرار راض، وليقينه بحصول ماله غير متقاض. وتوقيعه مأمون التعويق، وتفويقه لسهم السداد مقرون بالتوفيق. فقسم الملك الذي حازه السيف بقلمه أحسن تقسيم، وقومه أحسن تقويم. وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء، ويشدد في أمرها، ويخوف من وزرها. ويرغب في أجرها، ويكلها إلى الأمنة، ولا يدعها مأكلة للخونة.

ووظف على ملوك الأطراف وعلى أقاليم الممالك والأمصار حمولا لخزانة السلطان يحملونها، وخدما عن عصمة ولايتهم يوصلونها. وقرر معهم الحضور إلى الخدمة وموالات الخدمات للحضرة، والوصول بالعساكر الجمة. حتى ملأ الخزائن بالذخائر، والملأ بالعساكر. ونشأ له أولاد كبروا في دولته، فأوطأ عقبهم. وأعلى رتبهم. ثم إنه لما وفر الأموال على الخزانة والعسكر، جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقا لا تؤخر، ورسوما لا تغير. وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض، ويأمنون بها من النوائب والعوارض. فلا جرم تذللت له المصاعب، وتيسرت له المطالب، ودانت له المشارق والمغارب.

ذكر الأكابر والكتاب في زمانه وهم الكمال والشرف وسيد الرؤساء وابن بهمينار وتاج الملك

قال: كان نظام الملك مؤيدا بقرينين، مؤيدين لدولته أمينين. وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشا والطغراء. وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء. وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والجاه والمال والدهاء، ومعدن الفضل والعطاء. وكان لهذين الكبيرين نائبان. والكمال ولده سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد، وكان مقبلا مقبولا، قد اختصه السلطان بخدمته، واختاره لندمته، واستأمنه على سره. وبلغت مرتبته من اصطفاء السلطان إلى غاية لم يبلغها أنيس و لم يصل إلى رتبتها جليس. وقد كتب إليه السلطان يستبطنه بخط يده بيتا بالفارسية معناه، أنك لا تتأثر بالغيبة عني، فإنك تجد من تأنس به غيري. وأنا أتأثر بغيبتك فإني لا أجد الأنس بغيرك.

قال: فصار ختنا لنظام الملك وتزوج بابنته، وزاد ذلك في منـــزلته. وضرب له سرادق، وله الكوُس والعلم، والخيل والحشم. وأما النائب عن شرف الملك فقد كان الأستاذ أبا غالب البراوستاني من أهل قم والنحيب الجرباذقاني. ثم انصرف أبو غالب، وتولى مكانه في النيابة الأعز الكامل، أبو الفضل أسعد بن محمد بن موسى البراوستاني، فلم يزل نائبا إلى أن صار أستاذا، ولقب بمحمد الملك، بعد شرف الملك، و لم يكن لأحد من السلاطين مستوف كأبي الفضل في الضبط والتحفظ، والذكر والتيقظ، وحفظ القوانين، وتدبير الدواوين.

وكان أيضا ملجأ لفضلاء الزمان، وموسعا عليهم بالإحسان. وكان على باب السلطان وفي ديوانه كتاب فضلاء، وكفاة كبراء، ونواب علماء أذكياء.

وكان لمتولي فارس وزير يقال له: ابن بهمنيار، ويلقب بعميد الدولة. وهو رجل بصير بالأعمال، ذو همة عالية. فاتصل بخدمة السلطان وعلت مكانته، وسمت منـــزلته. وصار بينه وبين سيد الرؤساء اتحاد، وصداقة ووداد. وجمعت بينهما عاهة عداوة نظام الملك ومخالفته وتصادقا على عداوته. وكيف تكون عاقبة حال المدير، وإذا عادى المقبل. فلم يزالا حتى نكبا وأهينا، وطردا وهجرا بعد ذلك القرب، وأُبغضا بعد ذلك

الحب. وسجنا واعتقلا، وحبسا وسملا [1]. وسقطت منـــزلة كمال الدولة أيضا بسقوط منـــزلة ولده وأدركته حرفته، ونكبته نكبته. وخدم من ماله الخزانة السلطانية بثلاثمائة ألف دينار، وزادت جلالة نظام الملك بعداوة المذكورين. وتولى مؤيد الملك ابن نظام الملك مكان كمال الدولة، من ديون الإنشاء والطغراء وأقام مدة. واستناب أبا المختار الزرزني، ثم استعفى فتولى أبو المختار بحكم الأصالة، ونعت بكمال الملك. وكان من نواب كمال الدولة أبي الرضي وأتباعه، فبلغ إلى منصبه، ثم انتقل إلى جوار ربه. وكان الرئيس تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز من أولاد الوزير بفارس، وقد خدم السرهنك ساوتكين مدة. وهذا الأمير كبير الدولة، والمتحكم فيها، وكان قد أثنى على تاج الملك عند السلطان وشكره، وذكر أنه يصلح لخدمته وقال: إنه معتمده من خزانته وأمواله، وكان رجلا سريا بهيا، فصيح اللهجة، حسن البهجة.

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها   علا البركان البر أندى من البحر

فقبله السلطان وأقبل عليه وولاه وزارة أولاده الملوك، وسلم إليه خزانته، وولاه النظر في أمور دوره وحرمه، وعوّل عليه في بعض الولايات، وفوض إليه أمر بعض العساكر، وجعل له مع ذلك كله ديوان الطغراء والإنشاء:

ألبسه الله ثياب العلى   فلم تطل عنه ولم تقصر

فاستناب عنه الكيا مجير الدولة أبا الفتح علي بن الحسين الأردستاني، وصار كاتب الرسائل، وكان أوحد عصره، ونسيج وحده. وكان رجلا سكيتًا، حسن السمت، كثير الأدوات، موصوفًا بالثبات. فغير تاج الملك -ببهجته المقبولة، وإصغاء السلطان إليه- أوضاع المملكة جميعها، وبدد نظامها النظامي، وبدد إحسانها الحسي. وأذهب حلاوة قبول الوزير من قلب السلطان، وظهرت عليه آثار الملال. ونطقت أساريره بأسراره، كالماء يبوح بأسراره صفاؤه، وتلوح في قراره حصباؤه. ومع ذلك، كلما زاد تقريب السلطان لتاج الملك، ازداد تقربه إلى الوزير، بالتوقير والتوفير. فقد

(١) سمل: فقئت عينه.

كانت هذبته نكبة عميد الدولة وسيد الرؤساء. فلم يغتر من السلطان بذلك الإدناء. لكنه تحيل عليه، ودبت في الباطن عقاربه إليه. وكان يكرم مجد الملك المستوفي ويثني عليه عند السلطان. وكان سديد الملك أبو المعالي المفضل بن عبد الرزاق بن عمر عارض الجند فقربه أيضا تاج الملك، وجعله من حزبه، واستولى بهما على حيازة الأموال والأعمال، وأنفقوا على حل نظام الملك ومخالفته، وغيروا رأي السلطان في وزارته، وراموا إزالة ذلك الطود العظيم، ونثر ذلك السلك النظيم. وهو شيخ قد طعن في سنه، وبلغ بقوته أمد وهنه، وأيس من نجابة أولاده. وطال عمره حتى سئمه، وأنس بالملمات فلن تؤلمه، فلم يكترث بهم، ولم يلتفت إليهم ولا تأثر بكيدهم، ولم يقيم وزنا لعمرهم وزيدهم، فقتل يوما غيلة بسكين مُلحد، ودفن بدفنه الجود والفضل والدين في مَلحد. وذلك في سنة ٤٨٥هـ.

وتوفي السلطان بعد قتل الوزير بثلاثة وثلاثين يوما. ولم يعش تاج الملك بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر على الخوف والخطر، ثم قتل قتلا ذريعا. وبضع بالسيوف تبضيعا. وسبب ذلك، أن المماليك النظامية اتهموه بقتله، فأجمعوا على عداوته، وفتكوا له، فعلم الناس أن سلامة تلك الدولة وأربابها، وسلامة سلطانها، كانت بسلامة ذلك الشيخ منوطة، وبحياطته محوطة.

قال: ولما مل السلطان طول مدته، واستطالة مكنته، وأنفذ إليه يوما تاج الملك برسالة، ووكل على لفظه بعين من أكابر خواصه، حتى يبالغ في إبلاغها، ولا يراقبه في أدائها. وكان مضمون الرسالة، أنك استوليت على ملكي، وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك والمماليك، فكأنك لي في الملك شريك. أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك، وأخلص الناس من استطالتك؟ فأجاب جواب مثبت رابط القلب، حاضر اللب غير مرتاع ولا مرتاب، وقال: ((قولوا للسلطان: كأنك اليوم عرفت أني في الملك مساهمك، وفي الدولة مقاسمك. وأن دواتي مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب)). فلما سمع جواب الرسالة، ازداد في غيظه عليه، واستشاطته، وكأن ما جرى على نظام الملك من الاغتيال تجويزا من السلطان مضمرا. وأمرا مبيتا مدبرا.

قال: ونظم أبو المعالي النحاس أبياتا بالفارسية يخاطب فيها السلطان فقال ما

معناه: كان ملكك من أبي علي وأبي سعد وأبي الرضي بالعلو والسعد مرضيا. فلما آل إلى أبي الفضل وأبي المعالي عاد من كسوة جمالها عريًا. عنى بالأولين: نظام الملك الوزير، وشرف الملك المستوفي، وكمال الدولة المشرف المنشئ، وعني بالآخرين: تاج الملك الوزير، ومجد الملك، وسديد الملك المنشئ مع أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وكان تاج الملك يظهر أنه صائم الدهر. قال: ورأيت صلة لتاج الملك خمسة عشر ألف دينار في أكياسها.

قال: ومع خلالهم الرياضية، والخصال الزكية. لم يخلصوا من أبناء الزمان، ونشبت فيهم مَخالب الهجاء، وعثرت بهم ألسنة الشعراء. وقد جمعهم أبو يعلي ابن الهبارية في قصيدته التي يقول فيها:

لو أن لي نفسا هربت لما ألقى ولكن ليس لي نفسُ
ما لي أقيم لدى زعانفة شم القرون أنوفهم فطس
لي مأتم من سوء فعلهم ولهم بحسن مدائحي عرس
ولقد غرست المدح عندهم طعمًا فحنظل ذلك الغرس
الشيخ عينهم وسيدهم حرف لعمرك بارد جبس[١]
كالجاثليق على عُصَيَّته يعدو ودار خلفَه القسّ[٢]
والناصح الغندور حتى إلى جنب الوزير كأنه جعس[٣]
وأبو الفتوح أنت تعرفه وسهيل مثل الكلب يندس
وخليفة الري الخبيث له بالتيس فرط القرب والأنس
وأبو الغنائم في تبظرمه يعلو وليس ليومه أمس
والزوزني فبارد سمج كالموت فيه البرد واليُبس
لو أن نور الشمس في يده من بخله لم تطلع الشمس

(١) الجبس: الجبان أو اللئيم.
(٢) الجاثليق أو الجثليق: كلمة يونانية معناها رئيس الأساقفة. والعُصية: تصغير عصا.
(٣) جعس: غائط، قذر.

. . . .

قد صار مال الأرض في يده عفوا وقيمة رأسه فلس
هذي أمور الملك أجمعها فسعودها من أجلهم نحس
ولقد هممت بأن أفارقهم وتجد بي عيرانة عنس[١]
لكن ثناني عن فراقهم علمي بأن الناس قد خسوا
من ذا أروم وأجتديه لقد عم البلاء وأشكل اللبس
المقتدي المسكين ليس له عقل ولا رأي ولا جس[٢]

.

هذا وكهرائين شحنته كالكلب خب بارد نمس

.

وأبو شجاع في وزارته كالخرس لا بل دونه الخرس
ابني جهير أرتجي وهم بالأمس أقرب سوقة غبس
أعلى أمورهم إذا نفق الطريخ عنهم أو غلا الدبس[٣]
والله لو ملكوا السماء لما عرفوا ولا اهتزوا ولا انجسوا
أم باب إبراهيم أقصده هيهات خاب الظن والحدس
قد كان محبوسا وكان له جود فزال الجود والحبس

(١) عيرانة عنس: ناقة قوية.

(٢) جس: معرفة.

(٣) الطريخ: سمك صغير يملح ويحفظ.

ذكر ظهور الإسماعيلية

قال: فنابت النوائب. وظهرت العجائب. وفارق الجمهور من بيننا، جماعة نشأوا على طباعنا، وكالوا بصاعنا. وكانوا معنا في المكتب، وأخذوا حظا وافرا من الفقه والأدب. وكان منهم رجل من أهل الري، وساح في العالم، وكانت صناعته الكتابة، فخفى أمره، حتى ظهر وقام، فأقام من الفتنة كل قيامة، واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة. وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة. وخفيت عن الناس أحوالهم، ودامت حتى استتبت على استتار، بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار. وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك، إنهم لم يخلو جانبا من صاحب خبر وبريد فلم يخف عندهم أخبار الأداني والأقاصي، وحال الطائع والعاصي. حتى ولا في الدولة السلجقية ألب أرسلان محمد بن داود، ففاوضه نظام الملك في هذا الأمر، فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر، فإن الدنيا لا تخلوا كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء. فإذا نقل إلينا صاحب الخبر، وكان له غرضٍ، أخرج الصديق في صورة العدو، والعدو في صورة الصديق. فأسقط السلطان هذا الرسم لأجل ما وقع له من الوهم، فلم يشعر إلا بظهور القوم، وقد استحكمت قواعدهم، واستوثقت معاقدهم، وخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل. وكان الواحد منهم يهجم على كثير، وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة. فصار الناس فيهم فريقين، وفمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة. فمن عاداهم، خاف من فتكهم، ومن سالمهم، نسب إلى شِرَكهم في شِركهم.

وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجبهتين. فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك، ثم اتسع الخرق، وتفاقم الفتق. ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف، تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم، ودب إلى البري السقم. وتوفرت على التوقي الهمم، وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعا، لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد. كما جرى على ملك كرمان، فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم، فبطشوا به وقتلوه، وأقاموا ملكا آخر مقامه، وسيأتي بعض الأحوال في أيام السلاطين الذين ولوّا.

وما كان سلطان يلي يثق بخواصه وسعى ذوو الأغراض في ذوي اختصاصه. ولما عرفوا حد السلطان في إبادة القوم، سعى بعض الناس ببعض. وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض. ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف، ولم يجد محيدا عن التزام الحيف. وبقي في هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير وجم غفير. ولم يبق للأكابر في دفع ما عرا رأي ولا تدبير.

قال: وتوفى أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله بعد سنة، وكان في سنة واحدة موت السلطان والوزير وجميع أركان الدولة ((كل شيء هالك إلا وجهه)).

قال الإمام السعد عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب، -رحمه الله- وقدس روحه.

ذكر نبذ من حوادث وأخبار في أيام ملكشاه أغفلها الوزير أنو شروان

قال -رحمه الله-: ولد ملكشاه في التاسع عشر من جماد الأول سنة ٤٤٧هـ وتوفي في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥هـ وعمره ٣٨ سنة وأشهر، وكان يعرف بالسلطان العادل. ومن جملة عدله أنه رأي شاكيا باكيا فسأله عن موجب اشتكائه، وسبب بكائه. فقال: اشتريت بطيخا بدريهمات لأعود بربحها على عيالي، وأعيد منها رأس مالي. فأخذها مني من يده قوي أضعف عن الأخذ علي يده. وتركني التركي وهو يضحك من بليتي، وأنا أبكي من نكده. فقال له السلطان طب نفسا، أو استبدل من الوحشة أنسا. فهل تعرفه؟ فأنكر معرفته، وكان البطيخ في أول باكورته ولا يكاد يصاب منه شيء في البلد. فقال: السلطان لبعض خواصه، قد اشتهيت بطيخا فاجتهد في تحصيله ولو واحدة، فما زال يطلبه حتى قال له بعض الأمراء: عندي وقد أحضره عبدي، فلما علم ملكشاه أحضر المتظلم وقال: خذ بيد هذا الأمير فإنه مملوكي وقد وهبته لك ففدى نفسه عنه بثلثمائة دينار، وأثرى صاحب البطيخ بعد إقتار.

وكان محباً للصيد. وقيل: إنه كان حصر عدد كل ما اصطاده بيده، فبلغت عدته عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار. وكان بالعمارات ذا اهتمام، وبالغرامات فيها ذا غرام. فحفر أنهاراً، وأوثق على المدن أسوارا. وأنشأ رباطات في

المفاوز، وقناطر للجائز. ومن جملة جميل صنعه في العمارة، عمارة مصانع طريق مكة ومنازلها، وتسهيل ما توعر من مسالك قوافلها. وخرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبيعة بقرب الواقصة، وبنى هنالك منارة، ترك في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه، والمنارة باقية إلى الآن، تعرف بمنارة القرون. وكان قد خرج إلى الصيد وعاد في ثالث شوال، فابتدأت به حمى محرقة من إمعانه في أكل لحم الصيد، فتوفي في سادس عشر الشهر. وعاد الملك بظهور وفاته منقصم الظهر. وكانت قد جرت بينه وبين الخليفة في تلك الأيام وحشة أساءت الظنون، ونسبت إلى عوارضها المنون. ومن أسباب الوحشة اقتراحه على الإمام المقتدي انتقاله عن بغداد إلى حيث يختاره من دمشق أو الحجاز. وعدم من جانبه الإمام ما يجب من الإكرام والإعزاز فطلب منه المهلة، ثم كفى أمره ولم يخف النقلة.

قال: وقد كان قرر فتح أقاليم الدنيا، فجعل الأمير برسق للروم فضايقها حتى قرر على قسطنطينية له في كل سنة حمل ثلثمائة ألف دينار للسلطان. وثلاثين ألف دينار له جزية يؤديها الرومي بالصغار والهوان. وسير أخاه تاج الدولة تتش إلى الشام، وقرر معه فتح ديار مصر وبلاد المغرب، وأمر مملوكيه بزان، صاحب الرها، وأق سنقر صاحب حلب، أن يطيعاه على هذا الغرض، ويساعداه على أداء هذا المفترض. وأمر سعد الدولة كهرائين بفتح بلاد اليمن، واستخلاص زبيد وعدن. فسير إليها جيشًا قدم عليه ترشك، فمضى إليها واستولى واستعلى، ومات بها وعمره ٧٠ سنة وهو بجدور. وتولى مكانه يرنقش صاحب قتلغ أمير الحاج. وجرى في الاستيلاء على ذلك المنهاج. وأوغل ملكشاه في بلاد الترك، حتى أطاعه صاحب طراز، وكانت حلة الدولة بجلالة حلالها ذات طراز.

وفي سنة ٤٧٣هـ عرض العسكر، وأسقط منه سبعة آلاف رجل من الأرمن المتشبهة بالترك، فمضوا إلى أخيه تكش بقلعة ونج، فقوى بهم جانبه، وشق عصاه بالعصيان والشقاق، وما زال السلطان ملكشاه يقصده، فتارة يصالحه وتارة يكافحه، حتى ظفر به في سنة ٤٧٧هـ وقد كان عاهده أن لا يؤذيه. ففوض السلطان أمره إلى ولده أحمد فأخذه وسمله. وفي سنة ٤٧١هـ دعا الإقسيس تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق واثقا به، خارجا عن خلافه، وخرج إليه من دمشق مسلما،

ولحكمه مستسلما. فضرب رقبته صبرا، وغادره عاريا بالعراء غدرا. ودخل إلى البلد مستبدا، وأصبح الملك به مستجدا. في هذه السنة، استولى شرف الدولة مسلم بن قريش على حلب. وفي المحرم من سنة ٤٧٣هـ عاد السلطان ملكشاه من كرمان إلى أصفهان وكان قد ورد إليها عام أول، وخرج إليه ابن عمة سلطان شاه بن قاورد، وعاهده وعاقده، وأخذ على العهد يده. وفي صفر، تسلم مؤيد الملك من المهرياط تكريت وقلعتها، وأحكمها ووفر عددها. وفي ليلة الأحد عاشر شوال، توفى دبيس بن علي بن مزيد، وكانت إمارته سبعا وستين سنة، وقام بالأمر بعد بهاء الدولة منصور ومضى إلى السلطان، وعاد في ثاني عشر صفر سنة ٤٧٤هـ بمكنة قوية، وقوة متمكنة. وقد تقررت عليه أربعون ألف دينار في كل سنة.

وفي شوال ٤٧٤هـ، خلع المقتدي على الوزير فخر الدولة ابن جهير وتوجه ليخطب للخليفة من السلطان ابنته، وسار بعده أبو شجاع محمد بن الحسين إلى المعسكر، فإن نظام الملك كان يكاتب في إبعاده، وكان الخليفة راغبا فيه لسداده. فكتب بخطه إلى نظام الملك يأمره بالعود إلى المعهود في حق أبي شجاع، وأنفذ معه مختصا الخادم، فعاد إلى بغداد في رجب سنة ٤٧٥هـ في حرمة وافرة، وحشمة ظاهرة. وأما الوزير فخر الدولة ابن جهير، فإنه لما وصل إلى المعسكر بجل وعظم، ومضى نظام الملك معه إلى تركان خاتون، وخاطباها في معنى الوصلة بابنتها. فقالت: إن ملك غزنة وملوك الخانية، قد أرسلوا في خطبتها، وبذل كل منهم عن ولده لها أربعمائة ألف دينار. فإن بذلها الخليفة فإني أختار شرفه وهو أشرف مختار.

فعرفتها أرسلان خاتون زوجة القائم ما يصير إليها من الجلال والجمال. وبين لها الفقيه المشطب جلية الحق وحقيقة الحال. وقال: هؤلاء عبيد الخليفة، ومثله لا يقابل بطلب المال. فحينئذ أجابت وسددت إلى الغرض وأصابت. وأخذ فخر الدولة يد السلطان على العقد، وعاد في صفر سنة ٤٧٥هـ إلى بغداد. في جماد الأول ورد مؤيد الملك من أصفهان إلى بغداد ونـزل في داره، وضربت علي بابه الطبول في أوقات الصلوات الثلاث. وعد ذلك من منكرات الأحداث وصل بعطاء رضيه، وقطع به ضرب الطبل. وآذنت الحباء بوضع الحبل. وفي شعبان من السنة، جلس مؤيد الملك للعزاء بأخيه جمال الملك وركب إليه فخر الدولة وعميد الدولة، وأقامه فخر الدولة من

العزاء في اليوم الثالث ومعه الموكب.

ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك

قال: كان كبير أولاد نظام الملك، وفيه دهاء وجرأة، وعزة ونخوة. وخاطبه أبوه في أيـام ألب أرسلان أن يوزر لولـده ملكشاه، فأظهر امتناع أبي، وقال: ((مثلي لا يكون وزيرا لصبي))، ثم أقام ببلخ متوليا، وعلى تلك الممالك مستوليا. فسمع أن جعفرك مسخرة السلطان، تكلم على والده نظام الملك بأصفهان. وقرر الوزارة لابن بهمنيار، فهاج وتغيظ وثار، وأغذ السير من بلخ، حتى وصل إلى الحضرة، وأخذ جعفرك من بين يدي سلطانه، وتقدم بشق قفاه وإخراج لسانه، فقضي في مكانه. ثم أوقع التدبير في حق بن بهمنيار حتى أخذه وسلمه. ثم توجه مع والده في خدمة السلطان إلى خراسان وأقاموا بنيسابور، ودبروا الأمور. فلما أراد السلطان أن يرتحل، استدعى بعميد خراسان أبي علي وقال: أنا مفض إليك بسر خفي. فقال: أنا من كل ما تأمرني به على أقوم سنن فقال: رأسك أحب إليك أم رأس أبي منصور بن حسن، فقال: بل رأسي أحب، وأنا لما تستطبني من دائه أطب. فقال له: إن لم تقتله قتلتك. وصرفتك عن ولاية الحياة وعزلتك.

فخرج من عنده، ولقي خادما بخدمة جمال الملك مختصا، وعرف في عقله نقصا. فقال: إن السلطان قد عزم على أخذ صاحبكم وقتله غدا، والصواب أن تصونوا بإبادته حرمتكم أبدا. فظن السخيف العقل، أن ذلك عن أصل، وجهل النظر ونظر عن جهل. وخاف على تشتت آل النظام بهذا الولد، فعمد إلى كوز فُقاع فسمّه، ولما انتبه صاحبه بالليل وطلب الفقاع أتاه بالكوز المسموم، فلما شربه أحس بالموت فاستدعى أخته ليوصي إليها، فقضى نحبه قبل أن تقع عليها عينه. وكان السلطان قد رحل، ونظام الملك قد سبقه، فسار مغذا أربع منازل، حتى لحقه، ودخل إلى الوزير و لم يعلم بوفاة ولده فعزاه وقال: أنا ولدك والخلف عمن ذهب، وأنت أولى من صبر واحتسب.

قال: وفي سنة ٤٧٥هـ سار الشيخ الإمام أبو إسحق رسولا من المقتدي إلى السلطان بعد أن أوصله الخليفة إليه، وفاوضه شفاها، وشكا من العميد أبي الفتح بن أبي الليث سفاها. فوصل إلى خراسان، وناظر مع الإمام أبي المعالي الجويني، وكان في

صحبته من أكابر تلامذته الشاشي، وابن قنان، والطبري، وكان معه جمال الدولة عفيف الخادم. وعاد الشيخ أبو إسحق إلى بغداد، والقلوب إلى حضرته متعطشة، والعيون من غيبته مستوحشة. ثم توفي قدس الله روحه في ليلة الأحد الحادي والعشرين من جماد الآخر سنة ٤٧٦هـ. ورتب مؤيد الملك أبا سعد المتولي مدرسا فلم يرض نظام الملك به، وجعل التدريس للشيخ الإمام أبي نصر الصباغ صاحب الشامل. فاتفق خروج مؤيد الملك، وخرج معه المتولي فعاد متوليا، وفي رتب السمو متعليا. وقد لقب شرف الأمة وأبو نصر الصباغ مدرس. وتوفى يوم الخميس النصف من شعبان وبقي المتولي مدرسا إلى أن توفي في شوال سنة ٤٧٨هـ.

وعزل عميد الدولة في صفر سنة ٤٧٦هـ بمكتوب خرج إليه من الخليفة، واجتمع يارق الحاجب والشحنة والعميد وأصحاب مؤيد الملك على باب عمورية حتى خرج بنو جهير بأهلهم وحواشيهم، وكهلهم وناشيهم. وساروا إلى المعسكر، وحصلوا على المنصب الأظهر. فإن السلطان عقد على فخر الدولة بن جهير ديار بكر، وخلع عليه وأعطاه الكوس والعلم، وآذن له في الخطبة لنفسه، وفي السكة باسمه.

ثم أنفذ السلطان في سنة ٤٧٧هـ أرلق بن أكسب صاحب حلوان مع التركمان إلى فخر الدولة مددا، وتوفي وتقوى بهم عَددا وعُددا. وكان ابن مروان صاحب ديار بكر، قد استنجد شرف الدولة مسلم بن قريش، وأعطاه يده على أن يعطيه آمد إذا أمده وأيده. وقصد بن جهير الصلح وقال: ((أكره أن يحل بالعرب مكروه وأنا سببه)) وعلم التركمان ما رآه، فخالفوا هواه. وركبوا ليلا، وأحاطوا بالعرب فهربوا، ورهبوا وطُلبوا في كل واد وناد وسلبوا. ولم يحضر تلك الوقعة بن جهير ولا أُرتق، وإنما اصطلى نارها الأمير جبق، وحقن دماء العرب واستولى على جميع جمالهم، وعامت أيدي العامة في أموالهم. وألجئ شرف الدولة مسلم إلى فصيل آمد، فعزت الحيلة، وأعوزت الوسيلة. ووصى فخر الدولة بن جهير الأمير أرتق بأن يأخذ عليه الطريق، وقال: إذا حصل شرف الدولة في اليد فتحنا للسلطان البلاد، وحوينا الطراف والتلاد. فبذل شرف الدولة للأمير أرتق مالا ليفرج عنه فمال إلى المال، وأظهر الغضب عن تحكم فخر الدولة، ونفس عن خناق مسلم فسار إلى الرقة، وذلك في حادي عشر شهر ربيع الأول، وقصد فخر الدولة ميافارقين ومعه الأمراء

الأكابر سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة، وآياز، وترشك، وخمارتاش، في عسكر كهرائين. ولما قصد خلاط، رجع هؤلاء عنه إلى العراق.

وفي سنة ٤٧٩هـ خرجت دياربكر عن نظره، وسلمها السلطان إلى العميد أبي عليّ البلخي. فأما شرف الدولة فإنه لما وصل إلى الرقة، أحمد عاقبة المشقة، وعد ما بذله لأرتق من الحقوق المستحقة، فأنجز الوعد، وأرسل المال، وصدق المقال. و لم يشك السلطان لما نمي إليه الخبر، أن شرف الدولة قد قبض، وأن مبرم أمره قد نقض. فخلع على عميد الدولة بن جهير وأنفذه إلى ولايته، وكانت التركمان بطاعته. وأنفذ معه الأمير آق سنقر قبل أن يصير صاحب حلب وسار في صحبته. واتصل به الأمير أرتق وصار في جملته. ووصل إلى الموصل فأطاعه أهلها، وتسهل له وعرها وسهلها. وتوجه السلطان إلى بلاد مسلم بن قريش في أقوى جأش وأقوى جيش. فلما علم سلامته ونجاته، وأنه بالمكر قد فاته، أرسل إليه مؤيد الملك بن نظام الملك ووثقه بالأيمان وآمنه بالمواثيق، وقدم به السلطان وهو بالبوازيج. فأحلى له جنا الجناب المريع وأسامه في مراد المراد البهيج. وكانت أحواله قد ذهبت، وأمواله قد نهبت. واستقرض ما خدم به وقدم خيله وفيها بشار، وكان فرسا سابقا مذكورا، وهو الذي نجا به يوم آمد، وسبق ووثب الخندق، وراهن السلطان شرف الدولة على مسابقته. فأجراه مع الخيل في حلبته، فجاء سابقا ولما طلع صبح غرته من ظلام قتامه، قام السلطان للإعجاب به وأظهر أنه لإكرامه. وفي صفر سنة ٤٧٨هـ تجرع شرف الدولة كأس الحمام. فإنه فتك به خادم له في الحمام.

قال: وكان المظفر أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء، قد رتب في ديوان الخليفة بعد خروج ابن جهير، واستقل بكل ترتيب وتدبير، إلى أن وزر أبو شجاع محمد ابن الحسين في سنة ٤٧٩هـ لأمير المؤمنين، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه ظهير الدين مؤيد الدولة سيد الوزراء صفي أمير المؤمنين. وخرج في حقه توقيع من إنشاء أبي سعد بن الموصلايا، ووصل عماد الدولة سرهنك ساوتكين إلى واسط ومنها إلى النيل في شهر رمضان، وزار المشهدين الشريفين، وأطلق بهما للأشراف مالا جزيلا، وأسقط خفارة الحاج، وحفر العلقمي وكان خرابا من دهر.

وقدم بغداد وتلقاه الوزير أبو شجاع، ووصل إلى حضرة الخليفة ليلة الأربعاء

ثامن ذي الحجة، وخلع عليه، وأحسن إليه. وكان قد علق به السل، فسار لوقته إلى أصفهان وتوفي بها في سنة ٤٧٧هـ. وكان قد توجه جمال الدولة عفيف إلى أصفهان في إتمام العقد للخليفة على بنت السلطان، فعاد إلى بغداد، فخلع الخليفة على ابن أبي شجاع وسنه يومئذ اثنتا عشرة سنة، ولقبه ربيب الدولة، وأخرجه إلى استقبال عفيف. واستمر أبو شجاع في وزارته، جريئًا في الشجاعة، شجاعا في الجرأة، أهلا لمحمود الذمام، ذامًا لأهل الذمة. وألزم أكابرهم بلبس الغيار، وأداء الجزية على وجه الصغار. حتى أسلم الرئيس أبو غالب بن الأصباغي غيرة من الغيار، ونفضًا لما كان على صفحات أحواله بموضع النصرانية من الغبار. وأسلم الرئيسان أبو سعد بن العلا ابن الحسن بن وهب بن الموصلايا صاحب ديوان الإنشاء، وابن أخيه أبو نصر بن صاحب الخبر وكان في رتبته في السماء، وذلك في رابع عشر من صفر ٤٨٤هـ. وثقلت وطأة الوزير، على الصغير والكبير، وترك المحاباة في الدين، ووافق ذلك وصول كتاب من السلطان في عزله، ووقوع ضجر الخليفة من فعله. فخرج التوقيع بصرفه في تاسع عشر صفر، فانصرف وهو ينشد:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق

قال: وكانت أيامه أنضر الأيام، وأعوامه أحسن الأعوام. فخرج ثاني يوم عزله يوم الجمعة ماشيا إلى الجامع من داره، في زي شاهد باستبصاره واعتباره. وانثال الناس عليه يصافحونه، فأنكر ذلك عليه وألزم داره، وضيق الخليفة أعذاره. ثم سافر في الموسم إلى الحج وتوفي بالمدينة على ساكنيها السلام، في النصف من شهر جماد الآخر سنة ٤٨٨هـ، فدفن بالبقيع عند قبر إبراهيم عليه السلام، وكان مولده بكنكور سنة ٤٣٧هـ.

ولما عزل أبو شجاع، تولى أبو سعد بن الموصلايا النظر في الديوان. وكان كبير الشأن كثير الإحسان، تولى ديوان الإنشاء بعد سنة ٤٣٠هـ وعاش إلى أن ناب عن الوزارة المقتدية والمستظهرية، ثم أعيدت الوزارة إلى عميد الدولة ابن جهير في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٨٤هـ، وكان السلطان ببغداد، فركب نظام الملك وتاج الملك وأكابر الأمراء إلى دار عميد الدولة لإجلاله، والتنويه بمنصب إقباله. وفي سنة ٤٨٢هـ درس أبو بكر الشاشي في التاجية ثالث عشر المحرم. وفي جماد الآخر

توفى أبو القاسم الشريف الدبوسي مدرس النظامية. وفي محرم سنة ٤٨٣ هـ قدم الشيخ أبو عبد الله الطبري بمنشور نظام الملك متوليا للتدريس بالنظامية. ثم وصل بعده القاضي أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي للتدريس بالنظامية أيضا، وتقرر أن يدرس هو يوما والطبري يوما. وفي سنة ٤٨٤هـ، قدم الشيخ أبو حامد الغزالي إلى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية، وكان في العلم بحرا زاخرا، وبدرا زاهرا. وأشرقت غرائبه في المشرقين والمغربين، وملأت حقائب الملوين، وثقلت غوارب الثقلين.

ذكر دخول السلطان ملكشاه إلى بغداد

فأما في النوبة الأولى، فإنه دخل بغداد في رابع ذي الحجة سنة ٤٧٩هـ، والوزير أبو شجاع خرج لاستقباله، وتوفية حق إعظامه وإجلاله. وركب في اليوم الثالث إلى الحلبة، ولعب بالأكرة، وأنفذ إليه الخليفة أفراسا وألطافا، وتصافيا وتماديا، ومضى نظام الملك إلى المدرسة وإلى دار الكتب بها، وقلبها وتصفحها، ورم أحوالها وأصلحها. وعاد إلى دار ولده مؤيد الملك، فأقام بها ليلتين. وفي سابع عشر المحرم سنة ٤٨٠هـ استدعى الخليفة السلطان إلى حضرته على لسان ظفر الخادم فبشر وجهه وسفر ونـــزل في الطيارة فلما وصل إلى باب الغربة قدم إليه فرس من مراكب الخليفة، حتى انتهى إلى السدة الشريفة. وأمره الخليفة بالجلوس فامتنع، وتواضع حتى ارتفع. ثم أقسم عليه حتى جلس، وزاد في إيناسه فأنس.

ولم يزل نظام الملك يأتي بأمير أمير إلى تجاه السدة، ويقول للأمير هذا أمير المؤمنين، ليعفر بتقبيل الأرض الجبين. ويقول للخليفة هذا فلان، وعسكره كذا وولايته كذا وكانوا فوق الأربعين، وكان فيهم آيتكين خال السلطان. فإنه استقبل القبلة وصلى ركعتين ومسح وجهه للتبرك بأركان الدار من الجانبين. وعاد السلطان وعليه الخلع السبع والطوق والسوار، وقد ظهرت عليه من آثار الجلالة الأنوار. فمثل بين يدي السدة الشريفة، وقبل الأرض مرات وأمر الخليفة مختصًا خادمه فقلده بسيفين، وقال الوزير أبو شجاع: ((يا جلال الدين سيدنا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله لعز الخلافة، واجتباه لشرف الإمامة، واسترعاه للأمة، واستخلفه للدين والملة، وقد أوقع الوديعة عندك موقعها، واصطفى الصنيعة عندك موضعها. وقلدك سيفين لتكون قويا

على أعداء الله تجوس بلادهم وتذل رقاهم. ولا تألو في مصلحة الرعية مقاما، ولا تدخر عنها اهتماما. فبطاعته، تقبل عليك الخيرات من جوانبها، وتدر البركات بسحائبها. وسأل السلطان في تقبيل يد الخليفة فلم يجب الخليفة إلى تقبيلها. فسأل في تقبيل خاتمه لترفيهها وتبجيلها)).

قال: وفي النصف من صفر خرج من بغداد إلى خراسان. وأما النوبة الثانية من دخوله إلى بغداد، فإنه دخل إليها في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٤هـ، ومعه نظام الملك، وتاج الملك، وأكابر مملكته، وأرباب دولته. وبرز أمين الدولة بن الموصلايا لاستقباله، وخرج خروج الوزير في جميع أحواله. وخرج السلطان منها ومضى إلى خوزستان في صفر سنة ٤٨٥هـ، بعد أن سير قسيم الدولة آق سنقر إلى حلب، والأمير بوزان إلى الرُّها وحران. وأما النوبة الثالثة، فإنه دخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ بعد قتله نظام الملك، ومعه تاج الملك، وكانت وفاته بها في شوال.

ذكر حوادث

قال: في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر رجب سنة ٤٧٨هـ توفي قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني، ومولده سنة ٣٩٨هـ، ودخل بغداد سنة ٤١٩هـ. وولي القاضي أبو بكر المظفر بن بكران الحموي الشامي قضاء بغداد. وتوفي فخر الدولة أبو نصر محمد بن جهير بالموصل في سنة ٤٨٣هـ ومولده بها سنة ٣٩٨هـ.

قال الإمام عماد الدين -رحمه الله-: عاد الحديث إلى تعريب كتاب أنوشروان.

ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر بركيارق بن ملكشاه برهان أمير المؤمنين

قال: كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم: بركيارق، ومحمد، وسنجر، ومحمود. وكان محمود طفلا فبايعوه على السلطنة؛ لأن أمه تركان خاتون كانت مستولية في أيام ملكشاه. فلما درج، بقي بحكمها. ولأن الأمراء والوزراء كانوا من

صنائعها فاختاروا ولدها، ولأن الخاتون المذكورة كانت من أولاد الملوك ففضلوا ابنها. على أن بركيارق كانت أمه سلجقية، ولكن لم يكن من بني السلطان ببغداد حاضرا إلا ولدها الطفل، فبايعوه، وساروا إلى أصفهان وأجلسوه على سرير الملك، وأخرجوا تلك الأموال العتيدة، والذخائر الطارفة والتليدة. ففرقوها بأمر خاتون.

قال: وفي أول العهد، فتك بتاج الملك مماليك نظام الملك، فإنه كان وزيرا لخاتون وولدها. ولما سمع مماليك نظام الملك أن خاتون وولدها قد قصدا أصفهان خرجوا ببركيارق منها إلى الري، وشرعوا في جمع العساكر عليه، وحملهم على ذلك دخلهم القديم الذي في قلوبهم من تاج الملك، وكانوا ينسبون إليه قتل نظام الملك. وفي مبادئ هذا الأمر، تولى المستظهر بالله الخلافة، وأخذوا منه بيعة محمود. ثم جاء بركيارق إلى أصفهان محاصرا، ولم يكن معه أحد من أرباب الدولة حاضرا. فإن الأكابر كانوا محصورين، واجتمعت عليه جماعة من أبناء الدهر غير معروفين. ولما سمعت والدته بأصفهان -واسمها زبيدة خاتون- أنه على قصدها، سفر وجهها للسفر، وخفر ما كانت فيه من ذمام الخفر. ومات محمود وماتت والدته، ولم تنقض سنة، وتم الملك لبركيارق.

وزارة عز الملك أبي عبد الله الحسين بن نظام الملك

قال: كان شرّيبا خمّيرا. لا يصيب رأيا ولا يحسن تدبيًرا. بعيدًا من الكفاية، قريبا إلى الغواية. خاليا من المعاني، معروفا بالقصور والعجز والتواني. فلما زاد اختلال الملك، بعدم نظام الملك، ظنوا أنه يرجع إلى نظامه بأحد أولاده، فاستوزروه ووقروه وعززوه. وكانت علامته: أحمد الله وأشكره. وكان له أخ صغير اسمه عبد الرحيم، فجعلوا إليه منصب الطغراء، وقالوا إن هذا المنصب لا يحتاج إلى فضل، وليس إلا مجرد ذلك الخط القوسي. وكان الأستاذ علي بن أبي علي القُمي وزير كمشتكين الذي كان قديما مربيًا لبركيارق وأتابكه. فحين ولي السلطنة نفذ أمره، ومضى حكمه، حتى كأنه في الملك شاركه. وتولى الأستاذ علي ديوان الاستيفاء، وجرت بإيالة هؤلاء في الدولة أمور شنيعة وأحوال فظيعة، ولو تمشي أمر من الأمور فإنما كان بكفاية الأستاذ علي، فإنه كان يرجع

إلى نظر لوذعي، ورأي وري[1]. والباقون كالأصنام لا يضرون ولا ينفعون.

وأم السلطان قد خلعت عذارها، ووافقت كمشتكين الجاندار على المنكر، ومعاقرة المسكر، والسلطان مشغول باللعب والعشرة، مع عدة من الصبيان، والوزير أيضا منهمك في الشرب مع الأحداث، والمساخر والمجان. ووصلوا إلى بغداد واختاروا المقام فيها، وألهتهم مغانيها وغوانيها. وصار الأمر مهملا، والعدل مغفلا. وكان من أكابر الأمراء في ثغور مصر والشام أميران كبيران في الجاه والقدر، كافيان في حفظ الثغر؛ وهما آق سنقر وبزان. فتابعا الكتب والرسل إلى السلطان، بخروج عمه الملك تتش بن ألب أرسلان، وأنه قد خرج من دمشق، وقد حشد جموع التركمان. فما قرأ لهما كتابا حتى يئس الأميران، ووقعا في ورطة الشر، وظنا أنهما يقومان تتش في رده عن قصده، فوقعا في طريقه، حتى حصلا في قبضته، وقتلا بسيف سياسته. وتوجه تتش نحو الري وهمذان وقم وجرباذقان، وأمراء الدولة البركيارقية، كل منهم في بلده مشغول بما هو فيه من القصف والعزف. قال: ومما قاله أبو منصور الآبي أحد فضلاء العصر بالفارسية في قتل الأميرين ما معناه:

قد غرقنا في الشرب والسكر حتى ... لم نفكر في سنقر وبزان
ما ظفرنا بالبيدق الفرد في الدست ... ولكن قد أسلم الرخان

قال: والأجناد طلبوا إصلاح حالهم وتركوا بركيارق، واتصلوا بعمه، ووقع هو إلى أصفهان وكان بها من بقايا الدولة الخاتونية جماعة أقوياء، فحبسوهم وأتعبوهم. فمنهم من مات في اعتقاله، ومنهم من فجع دون نفسه بماله. قال: وكانت خراسان أيضا مضطربة، وكانت بين ولدي ألب أرسلان: بوري برس وأرغو، مقارعات، هرب منها مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك إلى أصفهان، فرأوه أهلا للوزارة في ذلك الوقت، فخلعا عليه خلعة تامة للوزارة، وعاد به الملك إلى النضارة. وكان مصرفا للسيف والقلم، عارفا بلغتي العرب والعجم.

(١) رأي وري: رأي صائب.

له بين العوالي والمعالي وما بين المهندة الذكور
مقامات شرفن فما يبالي أمات على جواد أم سرير

ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه، وكان أوحد العصر، بليغا في النظم والنثر. فتقدم ونظم تلك الأمور المنثورة، وطوى تلك السيئات المنشورة. وكانت "علامته الحمد لله على النعم". فتوجه إلى مصافْ تتش، وقال لمجد الملك أبي الفضل وهو منــزو بأصفهان "قم وصاحبني". فأجابه "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون". فلما ضرب المصاف، كسر تتش وقتل في المعركة، وتوحد بركيارق بالمملكة واستبرك بالوزير.

قال أنوشروان: كنت معه في المصاف، وذلك في سابع عشر صفر سنة ٤٨٨ هــ عند قرية يقال لها داشلو، على اثني عشر فرسخا من الري فوصل مؤيد الملك إلى السلطان في المعركة، وهنأه بالفتح، فابتسم سرورا بما آتاه الله من المنح. وقال له: "كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك" فأمن الناس من أنه معزول، وأنه وزير مقبول. وكانت وزارته في ذي الحجة سنة ٤٨٧هــ. ولما وصلوا إلى الري بعد الوقعة، بادر مجد الملك أبو الفضل إلى الري من أصفهان، واستمال قلب والدة السلطان في مبدأ الأمر، وتمكن من الدولة وقبض على الأستاذ علي المستوفي، فسُمل وأُعمى. وبقي مؤيد الملك وحيدا يتوقع البلاء ويتعرض، ويتمثل "أُكِلْتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض". وكان أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أكبر سنا منه، وهو حينئذ بالري متعطش إلى الوزارة، فأطعمه مجد الملك في موضع أخيه، وساعده على توليه. واعتقل مؤيد الملك وحبس، ورتب فخر الملك في الدست وأُجلس.

ولما كانت والدة السلطان صاحبة العناية بمجد الملك، أعانت على مؤيد الملك؛ فكتب من الحبس إليها أبياتا بالفارسية يستعطفها ويتضرع إليها. واستقل مجد الملك بالاستيفاء، وغلب على الوزارة، وبقي فخر الملك صورة بلا معنى. وكان أيضا خاليا من الكفاية والفضل والأدب. وعلامًا لكل شيء غير النسب. وهو أسير تصرفات مجد الملك، وتابع رأيه، وليس له من رسوم الوزارة إلا علامته وهي: " الحمد لله على نعمائه ". وقال مؤيد الملك فيه بيتين بالفارسية عربهما عماد الدين وهما:

ماذا أقول عن امرئ　　جمع المعاير والمعايب
عادت مناقب والدي　　من شؤم منصبه مثالب

قال: وخلص مؤيد الملك من الاعتقال وأقام مدة مديدة في حماية بعض الكبراء، تارة في نهاوند، وتارة في مشكان، مظهرًا انقطاعه إلى العبادة، ثم إنه قصد سرير الملك المحمدي في جنـــزة، ورأى أن إقبال محمد على إدبار بركيارق غالب. وأنه لا محالة للملك أخيه وارث أو ثالب. وكان في نفس محمد طلب السلطنة، فقواها مؤيد الملك، وحقق رجاءها فيها، فقبله الملك محمد، واصطفاه واستأمنه لخلواته، واستشاره في عزماته. ثم سلم إليه وزارته وشغف بقربه، وأسكنه صميم قلبه. وقلب مؤيد الملك موكل بالانتقام، ورأيه معمل في تسديد مرامي ذلك المرام. ولم يزل يقرب على السلطان محمد البعيد، ويُلين عنده الشديد. ويحبب إليه الجسد ويبغض إليه اللهب، حتى حرك إليه ساكن إرادته.

وسار من أران به في شرذمة قليلة، وبلغ به في مدة يسيرة إلى دار الملك بأصفهان فتبوأ بها سرير سروره، واحتاب حبير حبوره. واستمال إليه العساكر، واستفاد إلى بهجته ونهجته الأسماع والنواظر. وألجأ بركيارق من الأوساط إلى الأطراف. ومني بالاغتراب والاعتساف. وقبض على الخاتون زبيدة وحبست في قلعة الري، ثم سعى مؤيد الملك في خنقها فخنقت، وأحاطت به أوزار قتلها وأحدقت. وأما مجد الملك، فإنهم أفسدوا عليه قلوب العساكر وأضروها [1] بمضرته. وأغروها بطلب غرته [2]. فبضعوا بين الجمهور بسيوفهم أعضائه، ووزعوا أشلائه. وذلك في سنة ٤٩٢هـ، وله إحدى وخمسون سنة وكان رجلا مواظبا على الخيرات والصيام والقيام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. مدبما للصلاة والصدقات. لم يسع قط في دم. ولم يخط إلى مضرة أحد بقدم.

---

(١) أضروها: أغروها.
(٢) غرته: غفلته.

ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جنـــزة وارن إلى الري وأصفهان

قال: كان هذا السلطان مؤيدا موفقا. محققا للرجاء فيه مصدقا. ميمون النقيبة. محافظا على تقواه مع الشبيبة. يحب الاقتداء بآثار جده ألب أرسلان في سياسة المملكة وعلو الهمة. وكان وقورا مهيبا، أريبا لبيبا. فلما جلس على سرير ملك أبيه وجده، ووجد قواعد الدولة بإيالة [1] أخيه مختلة، وعقودها منحلة، ضم النشر[2]، ونظم المنتشر. وأحكم القواعد، وأبرم المعاقد. وأعاد مؤيد الملك إلى منصب أبيه في الوزارة. وملأ بسناه أفق السيادة. فلابس هذا الصدر الأمور بصدر واسع، ورأى رائع، وتدبير أشمل السداد جامع. فاستقلت الدولة باجتهاده عن كبوها. وزالت نوبة نبوها. وبقي سنين وقد انتقم من خصومه بأخذ الثأر، وشفاء غلل الأوتار. وحاز مال مجد الملك، وسعى في قتل زبيدة خاتون. فلا جرم عاد مرهنا بجرمه، وعثرت قدمه في ظلمة ظلمه. وأسره عسكر بركيارق في مصاف جرى بين الأخوين على حد همذان، وأحضره بركيارق بين يديه وأوثقه كتافا، وعصب للقتل عينيه، وهو قد رفع صوته بكلمة الشهادة، ولم يظهر منه جزع، ولا خور ولا فزع. فضرب بركيارق بيده عنقه. وكان قصد والدة السلطان والسعي في دمها أوبقه. فأعدم مثل ذلك الشخص العديم النظير. وأعنق ذلك الوزر في حز عنق ذلك الوزير. وهيهات أن يلد الزمان مثله في دهائه وزكائه [3] ورأيه وحيائه ولطفه وظرفه، ولينه وعطفه.

قال: وآلت وزارة بركيارق إلى الأستاذ عبد الجليل الدهستاني، ولم يكن له أثر محمود، ولا يوم في الكفاية مشهود. بل تفاقم شره إلى أن خرج أملاك الناس في الإقطاع، وكان في الظلم مستطيل اليد طويل الباع. ولم تطل أيامه، فإنه بقر بطنه باطنيٌّ على باب أصفهان. قال: وبقيت حقوق مؤيد الملك عند السلطان محمد محفوظة. وبعين الرعاية ملحوظة. فاعتقد أن نصير الملك ولده النجيب وأنه إذا ولاه قضى حق أبيه. فولاه وزارة

(١) الإيالة: الولاية.

(٢) النشر: القوم المتفرقون.

(٣) الزكاء: الطيبة.

بنيه. وكان يأنف الكلب من لؤمه، والبوم من شؤمه. ومعايبه لا تعد، ومخازيه لا تحد. وعنّ له أن يشتغل بعلم الأوائل، فبلغ منه إلى حد التعطيل، ووقف عند محار الدليل. وقد صنف أبو طاهر الخاتوني فيه كتابا سماه تنـــزير[1] الوزير. الزير الخنـــزير. وبطل بعد مؤيد الملك ذلك الترتيب. وظهر على وجوه الأيام التقطيب. واستمرت سنين بين محمد وبركيارق مصافات. وتمت مخافات وآفات.

قال أنوشروان: وكنت قد فجعت بمصرع مؤيد الملك، وأثر في قلبي مؤلم ملمه [2]. وأزعجني عن المقام مقيم همّه. حتى حصلت بالبصرة، فأقمت بها مدة ثلاث سنين. وصادفت إخوانا صادقين، من جملتهم الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات ، يوافقني في الجد والهزل طائعا، فينظر من عيني ويسمع من سمعي. وفي هذه المدة التي أقمت فيها بالبصرة، درج بركيارق، وكانت وفاته بالسل والبواسير ببروجرد في ربيع الآخر سنة ٤٩٨هـ وبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، ووقع عليه اسم السلطنة وله اثنتا عشرة سنة وقاسى من الحروب واختلاف الأمور ما لم يقاسه أحد، فتفرد بالسلطنة أخوه محمد، ودان له المشرقان. وتصرف بيده زمام الزمان.

قال أنوشروان: فجاءني يوما توقيع سلطاني على يد أمير من بعض الخواص فاستدعاني واستدناني، فوصلت إلى بغداد والسلطان محمد بها في وزارة سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد الآبي، وكان وزيراً سعيدا حسن الطريقة، ذا هدو وهداية، ورأي وكفاية. فجمع العساكر على الطاعة السلطانية، وأطفأ ثائرة الفتنة الشيطانية. وكان الأمير الأسفهسلار آياز مقدم العسكر البركيارقي، فلما توفي بركيارق صار أتابك ولده ملكشاه، فقام مقام والده. ورد ملكه به إلى قواعده. فاهتم سعد الملك باستمالته، وحلف على سلامته. فلما مكن من نفسه قتلوه. وأخذوا ملكشاه بن بركيارق فسملوه. وذلك في سنة ٤٩٩هـ، فزال الشغب وسكنت الدهماء. وكانت للوزير سعد الملك في هذه الحيل اليد البيضاء.

قال: وسرت في الخدمة لما ساروا إلى أصفهان. وما دام هذا الوزير في ولاية

(١) التنـــزير: من تنـــزر بمعنى أخذ القليل التافه.

(٢) الملم: ما ينـــزل بالإنسان من مصائب.

السلطان ظهرت له آثار حميدة وآراء سديدة. وكانت علامته: " الحمد لله على نعمه ". وكانت له في الباطنية نكايات، ورفعت له في فتح قلعة شاهدز رايات. وكانت قلعة منيعة على جبل أصفهان تناصي السماء [1]، وتناظر الأفلاك. وقد تحصن بها أحمد ابن الملك بن عطاش طاغية الباطنية في طائفته. وبليت أصفهان وضياعها ببليته. فسما لها سعد الملك بالرأي الصائب والعزم الثاقب وتلطف في افتتاحها. ودبر في استنـــزال من فيها على إيثار الملة الإسلامية واقتراحها. فأنـــزلوه من معقل إلى عِقَال. وبدلوه آجالا من آمال. وألصقوا خد تلك القلعة بالترب. ووضع الهناء فيها مواضع النقب.

وكذلك افتتح قلعة خان لنجان، وهي أيضا بقرب أصفهان. وكانت قد خربت تلك الولاية بما لأهلها فيها من النكاية. وكانت بأصفهان رئيس يقال له عبد الله الخطيبـــي وهو حاكمها والمستولي علي رئاستها، وهو رجل جاهل، من أنواع العلوم خال محتال، يبدي تنمسا بإظهار زهد وورع محال على محال. ولم يكن له سوى ضخامة جثة، وفخامة لحية كثة. وكان لقاؤه الأمي مقبولا، وكلامه السمي معسولا. وكان من هذا الوزير خائفا، بمعرفة الوزير بباطن شره عارفا. وطلب من السلطان خلوة غرّ السلطان فيها بتنميسه. وروج لديه سوق تلبيسه. وتم نفاق نفاقه وبرز هلال محاله من محاقه. وجرى من مناصيبه على سعد الملك أنه حقق في اعتقاد السلطان أنه صديقه الصادق ورفيقه الموافق. إلا أن فيه عيبا واحدا وهو أنه إلى الباطنية مائل وبمذهبهم قائل. وإنه يجتهد في إزالة هذا الاعتقاد من قلبه، والمبالغة في نصحه إشفاقا على ما أجد من حبه، فإنه يعز عليّ فساد مثله مع فضله ونبله. واعتقد السلطان صدق قول الخطيبـــي، وحسبه خاليًا من الغرض، حالبًا للنصح المفترض.

ثم أغفل مدة وعاد إليه وآسه من قبوله. وأسف على ما فاته إليه من سوله [2]. وصار يشفع إلى السلطان في تأجيل أمره، لأجل ما عنده من مودته وأن لا يعجل في عقوبته. وقد وضع من خواص السلطان صبيانا على الوقوع في الوزير، وأنه باطني الضمير. ولم يزل به حتى أوقعه في الحبس. ولما قيد رتب جماعة من الأوغاد شنعوا على

(١) تناصي السماء: تعلو علواً شاهقا.

(٢) سوله: سؤله.

الوزير في دار السلطان في مجمع من الأمراء والقاضي حاضر. وقال كل منهم هو ملحد وكافر. وما زالوا بالسلطان حتى صلب الوزير مع عدة من أكابر ديوانه ببهت [١] عدوه وبهتانه. وذكر لما أطلع الوزير على مكيدة خصمه، دبر في مكيدة عليه. فعاد على الوزير وبالها وآل إلى إهلاكه مآلها. وذلك أنه كان عارفا بمكاتبات كانت بين الخطيبي ورئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش في مبادئ أمره. وكان مطلعا على سره. فأراد أن يستدعي بعض تلك المكاتبات بخط الخطيبي، ويقول للسلطان: هذا الرجل رماني بما هو مذهبه وشأنه، وخطه هذا حجة قولي وبرهانه. وأرسل في ثقافة في هذا المهم من كتب على يده بخطه توقيعا بالجواز. ولم يوصه بالاحتراز. فظفر بالرسول من كان مرتبا لحفظ طريق القلعة. ومنع الميرة عنها والطّمعة [٢]. فوجدوا خط الوزير معه بالجواز، فأخذوا الخط، وكان من أعظم أسباب ذلك الخطب، وذلك أن السلطان حفظ خطه إلى أن قبضه. ثم عرضه عليه فصرح له أن كتابه للتلف عرضه. فلما أوتى كتابه لم يعد جوابه، وما نبس بكلمة ولا فاه ببنت شفة. ولو قال لما سمع ولو اعتذر لدفع عذره ومنع. وكان من أمره ما كان ولقي الرحمن ولقد كان رجلا خيرا نقي الأديم كريم الخيم [٣]. جامعًا لآلات الوزراة وأسبابها، لائقا بقلم السيادة ودواتها.

قال: وكان المستوفي في وزارته للسلطان زين الملك أبو سعد بن هندو، ولم يكن له أصل ثابت ولا فرع نابت. ولما تولى خرج واستخرج. وأمر وأمرج. وأخذ الأموال جزافا وأسرف فيها إسرافا. ولما انقضى أمر سعد الملك، رفعت عليه رفائع، وأخذ وحبس، واستصفيت أمواله ونهبت دوره، وتخبطت أموره، وبقي في الحبس سنتين. ولقي العذاب المهين. وكان صاحب ديوان الإنشاء في وزارة سعد الملك نصير الملك محمد بن مؤيد الملك، وكان مع جهله وعدم فضله، للديوان به أبهة وجلالة وحلية وحالة. فزلت به قدمه ولم يأخذ أحد بيده. وبقي منشوءًا مهجوًا مهجورًا بكمده.

(١) البهت: الافتراء على الناس بالكذب.

(٢) الطمعة: رزق الجنود.

(٣) الخيم: الطبيعة والسجية.

وكان وكيل دار السلطان في وزارة سعد الملك أميري القزويني المعروف بالزكي ذو كيسة من جملة التجار، وكان قد هرب من أبي مسلم رئيس الري، والتجأ إلى سعد الملك. فأراد الوزير أن يكون بينه وبين السلطان من يتردد في المهمات ويأتيه بجواب المؤامرات والرسالات. والذي يتولى أخص من منـــزلة الحجاب، ويجب أن يكون بلغيا منطقيا. متجرعا في مضايق الكلام الغصص مسيغًا. مستقلا بإقامة الحجة عند الحاجة متجنبا للسماجة بقول ينسب إلى السماحة عارفا بأخلاق السلطان في أوقات رضاه وسخطه، وقبضه وبسطه. فإذا وجده منقبضا تلطف في تنشيطه مما ينفق عليه من الحديث الرائق، والقول النافق. حتى إذا رأى منه سيماء القبول حدثه بمقصوده، وإلا جرى في الإمساك على معهوده. فإن السلطان لا يثبت خلقه على حالة ولابد له من ضجر وملالة.

وكان هذا القزويني خاليا من هذه المعاني كلها، لكنه التمس إلى سعد الملك هذه الولاية، فأجابه إلى ملتمسه، ووافقه على هوسه لسلامة نفسه. وذهب عنه أنه سوقي قفز من الدكان إلى باركاه السلطان، فزاحم أركان الدولة بالمكانة والمكان، وكان إذا خاطب السلطان وشافهه، حدث له عجب فانخرع وانخلع. وخرع عما فيه شرع، وجمع بين الأروى والنعام والضباح والبغام. ثم لا يتكلم إلا بكل ما يضر ويسوء ولا يسر. واستضر سعد الملك من جانب ذلك العاجز بغير قصد منه في حقه، وأي ضرر أقوى وأمكن من كونه قتل في حبل خنقه. وكان عارض الجيش في وزارته أيضا أبو المفاخر القمي، وكان قد غلب عليه في اصطلاح الخاصة والعامة نعت طرطنبيل، وما عرفوه بغير هذا الاسم الثقيل. وصرف في وزارته وولي عمله عز الملك بن الكافي الأصفهاني وبقي فيه أشهرًا. فلما أخذ سعد الملك، اقترنت نكبته بنكبته واتفقت صلبته مع صلبته. واستدعى مختص الملك أبو النصر القاشي في وزارة سعد الملك، وصرف به من ديوان الإنشاء محمد بن مؤيد الملك فقبل هذا وذاك طرد. وأقيم ذلك وهذا أقعد.

قال: وخلا الميدان للخطيبـــي فصار محكًا للإسلام. وهو عند السلطان مقبول الكلام. وأصحاب السلطان عنه خاشون وإلى بابه غاشون. وكان إذا سأل السلطان عن واحد كيف تعرفه أجاب مرة بلا أدري ومرة بلا أعرفه وتارة أمهلني فإني أبحث عنه وأكشفه، وتارة يشهد عليه بما يهدر دمه.

قال: وحدثني ابن المطلب، وكان وزير الإمام المستظهر، قال: مازال هذا الخطيبـــي ببغداد يتوصل حتى أبصر قهرمانة لدار الخلافة، فقال لها: اليوم أجرى معي السلطان حديث هارون أخي الإمام المستظهر وسألني عنه، فدخلت القهرمانة إلى الدار وأوصلت إلى سمع أخيه ما حدثها به الخطيبـــي. فقامت قيامة الخليفة وتمكن الاستشعار من نفسه الشريفة، فكتب إلى الوزير يأمره بالركوب إلى الخطيبـــي ويحمله على الإضراب عن ذكر أخيه، ويحمل إليه ستة آلاف دينار أميرية يدفع بها شره ويكفيه.

قال: فاستأذنته في الركوب إليه في الليل فإنه أخفى للويل. فما صبر ولا وجد القرار، حتى ركبت إليه وأرضيته بما حملته. واستعفيته عن حديث هارون واستنـــزلته.

قال: وكذلك لم يترك من خواص السلطان أحداً إلا لوثه وشوش عليه رأيه وخبثه. و لم يغادر أحداً من الخاصة والعامة إلا طرق إليه ظنه أو قلده بسكوته عنه منة وقال له السلطان يوما: كيف كان أصحاب دواوين والذي وجدي في أديانهم. وأنهم كانوا لا قدح في إيمانهم، فكيف اختص هذا اللوث بزماني وبأصحاب ديواني؟ فقال أولئك كانوا من أصحاب خراسان وهم أهل الدين والإحسان. وهؤلاء أهل العراق أهل الإلحاد والنفاق. فتخيل السلطان صحة مقاله. واستحكم تقريب الخراسانيين وإبعاد العراقيين في خياله. واعتقد أنه ليس في العراق مسلم، وأن أفق الملك بغير الشرفيين مظلم. وكان بالعراق جماعة من أهل خراسان محرومون مهجورون من كل جاهل مجهول، وساقط ذي خمول، ومنـــزو إلى ناحية، ومتنح إلى زاوية، ومتنمس بالرياء، ومتهوس بالكيمياء، وبطال مرجف، وعمال محترف، فلما عرفوا ميل السلطان إليهم رفعوا رؤوسهم، وعرضوا نفوسهم. وخطبوا المراتب، وطلبوا المناصب. وغفلوا بل غفل السلطان عن هذه النكتة أن خراسان عش مذهب الباطنية، وبها أفرخ وباض، ومنها شاع وفاض، وفيها حصونه التي لم تفتح، وعيونه التي لم تمتح، وانقضى عصر سعد الملك سريعا وصار بالمكر الصريح صريعا، وعاد الملك المريع منه مروعا.

وزارة الأمير ضياء الملك أبي نصر أحمد بن نظام الملك

قال: لما نكب سعد الملك طمح إلى الوزارة عمرو وزيد، ووصل يوم نكبته الأمير ضياء الملك، وخطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبذي، وكان قد استدعى من فارس. فاختلفت عليهما الآراء، فرأى السلطان حفظ الجانبين. وأمر بتولية الصاحبين، وجعل دست الوزارة للنظامي، ومنصب الاستيفاء للميبذي. وألف بتأليفهما قلوب خواصه، وخص كلا منهما باستخلاصه. وأعطى سياسة ملكه حقها. وجلا بسناء إحسانه أفقها. قالت الحكماء: "منازل السياسة أربع: فالأولى سياسة الرجل نفسه، والثانية سياسة أهله وولده ومن يضمه منـــزله، والثالثة سياسة بلد واحد يتقلده، والرابعة سياسة الملك كله. فمتى عجز عن منـــزلة من هذه المنازل، فهو عن التي تليها أعجز". لا جرم ابتلى هذا الوزير بشفعة نسبه، وهو غير خبير بسلوك مذهبه ولم يكـــن من شغله ولا من أربه. وكانت علامته: " أحمد الله على نعمه". فقضى حقه بشغل عجزت اللقاة الدهاة عن القيام به، ووقع اسم الاستيفاء على الخطير كما يدعى بالجهل اسم النبوة أبو جهل. فلم يكن للمنصب المأهول دسته بأهل. وخواجه مختص الملك صاحب ديوان الرسائل، معدم من الفضائل. وهو عند أولئك أكتب الكتاب، ويعجز عـــن كتب خمسة أسطر بالفارسية، فضلا عن العربية.

قال أنوشروان: وأنا ولاني السلطان الخزانة، فإنه استدعاني إلى خلوته وخصني بكرامته. وسلم إلي خزائن ممالكه. وكان هؤلاء الأكابر إنما يصلون إلى السلطان في الباركاة إذا جلس لعامته، وأنا أختص بخلواته، واستسعد بمحادثته. فعظمت وجاهتي بمواجهته، وحسدني أكابر الدولة على منـــزلتي. وانتظروا زلتي ومذلتي. واتفق في ذلك الوقت، أن الأمير السيد أبا هاشم الحسني -رحمه الله- رئيس همذان، قد تغير عليه رأي السلطان. وذلك لأن قوما من أرباب الدولة تناصروا عليه، وأدبوا عقارب مكايدهم إليه. وأطمعوا المتوج ابن أبي سعد الهمذاني في إيالة همذان ورئاستها، وكان المتوج هذا من جهة الرئيس منكوبا وبيده مضروبا. فأوقعوه في معارضته. وعرضوه لواقعته. وأغلقوا على الأمير السيد وعلى أولاده باب داره وسدوا عليه طريق فراره. وقرروا عليه سبعمائة ألف دينار أحمر، سوى ما يلزمه من توابع ولوازم هي أكثر من أن

تحصر.

قال أنوشروان: فأمرني السلطان بالمسير إلى همذان لاستيفاء هذا المال، وعاد السيد أبو هاشم، وهو شيخ كبير قد ضعف بصره، واختل نظره. فعظم عنده ما قرره عليه واستكثره. فمحضت له النصح، وضمنت له النجح. وعاقدته على مساعدته وعاهدته على معاضدته. ووعدته بالسعي في إصلاح حاله. وإنجاح آماله. ونقد سبعمائة ألف دينار عتيق في سبعة أيام من موجود خزانته. و لم يستعن بأحد من أهل مدينته. وحثنا على المسير و لم يأذن لنا في المقام اليسير. فحين أوصلت المال إلى خزانة أصفهان ولقيت السلطان شافهته بحقيقة أمره وعرفته اختلاف أصحاب الأغراض بالباطل في حقه. فأمر السلطان بإعادته إلى رئاسته. ومنصب سيادته. وسير إليه الخلع السنية والتشريفات اللائقة بشرفه، وأحيا متلد مجده بمطرفه.

قال: ولما حصل ذلك المبلغ في الخزانة، سلمها إليّ وعوّل في دخلها وخرجها عليَّ. فتوليت الخزانة والزكي ذو كيسة فيها، وكذخدائية الخزانة به منوطة، وأمورها بأمانته مربوطة ولما سار السلطان إلى بغداد فتك بالزكي هذا في سوقها، فقتل في الحال قاتله. و لم يعرف من أي وجه غالته غوائله. قال: وقد سبق القول بأنه لم يخلص من طعن الخطيبـــي سوى مختص الملك الكاشي. فلم يثبت على تلك الحالة، فإنه شرع عند السلطان يقدح في دينه ويجري من الشر في ميادينه. ثم إنه قد نقش في لوح خاطر السلطان، أن الباطني لا يعرفه غير الباطني. فاجتهد حتى دل على رجل من الباطنية من الخوف مختف وفي بعض الزوايا مكتف. فأحضره وآمنه وقوى نفسه بما أمكنه. قال له: " لا بأس عليك ولا سبيل للأذى إليك". ولقنه أسامي مائة نفس من خدام السلطان، وأعيان البلدان. وقال له " إذا سئلت عمن تعرفه من الباطنية فاذكر هؤلاء وعدهم على الولاء". فرده إلى موضعه وقال: " لا تخف، فإنك إن أخذت أنجيتك، وإن أخذ منك أعطيتك". فلما عاد الرجل إلى مكمنه، حضر الخطيبـــي عند السلطان وقال: " قد دللت على رجل باطني في موضع كذا، وأرجو أن يقع، فلعله يفتح علينا بشيء من أمر الباطنية ". فأمر الحاجب بإنفاذ من يأخذه فأخذ وأحضر، وسئل عمن يعرفه من الباطنية في البلاد والعسكر، فأعاد ما تلقنه من الخطيبـــي، وأجرى ذكر مختص الملك أبي نصر والصفي القمي أبي الفضل نائب الخطير في ديوان الاستيفاء، وكذلك عد قريبا

من مائـــة من المعروفين، فأخذوا وسلموا إلى الأتراك. وتصرفوا منهم في الدور والأملاك. وتشتت أهلهم، وتفرق شملهم. وفي أثناء هـــذه المكايد والحيل، نـــزل الخطب بالخطيبـــي، وضرب بغتة بسكين سكنت حركته وأسكنت نأمته، وأشمتت به خاصة الزمان وعامته. وبقي المكذوب عليهم في السجن شهوراً. وانتقم الله ممن جـــاء في أمرهم بهتانا وزوراً. ثم تبين للسلطان بعد قتل الخطيبـــي أنه كان ماحليا [١] مستحلا. مستبدا بالاحتيال والاغتيال مستقلا. وعرف أن ذلك الباطني ذكر من ذكره بتلقينه، فندم السلطان ولات حين مندم. وأمر بالإفراج عن أولئك المساكين. ولم يسمع السلطان بعد ذلك حديثا في اعتقاد، ولم يصدق نسبة مسلم إلى إلحاد. وإذا جرى عنده حديث الباطنية قال: " إنهم في القلاع وهي موضعها، ونحن نقصدها ونقلعها ". وشغف بحصار حصونهم وفتح قلاعا لو بقيت إلى الآن في أيديهم لعم العالم الكفر.

قال: وكان شمس الملك ونظام الملك أخو الوزير حاضرا، وكنت متوليا لعرض الجيش، فنقل هذا المنصب مني إليه بعد أن أخذ ألفي دينار خدمة أوصلها إلى الخزانة، وبقي في قلب السلطان من مختص الملك شيء من الارتياب به لم يزل. ومن يسمع يخل[٢]. ولم يكن ظهرت بعد احتيالات القاضي، فأزال السلطان اختصاص المختص، وتعمد قوادم شغله بالحص. وكان الأمير العميد محمد الجوزقاني عميد بغداد فاستدعاه ونقل إليه منصب المذكور، واعتمد عليه في تلك الأمور. وهو منصب الطغراء وليس أكبر منه بعد الوزارة إلا منصب الاستيفاء، ثم الطغراء. ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء، ثم الإشراف ثم عرض الجيش. والطغرائي هو وزير السلطان في الصيد لغيبة الوزير وعليه المعول. فصار الأمير العميد طغرائيا. وكان من كسوة الفضائل عريا. وتولى أيضا وزارة كوهر خاتون بنت الأمير إسماعيل بن ياقوتي زوجة السلطان. وكانت وزارتها أيضا منوطة بكفاية المختص، فصرف من الشغلين. وتسلم الأمير العميد المنصبين. وهذا محمد الجوزقاني كان ولد خطيب جوزقان، خرساني المولد

(١) محاليا: صاحب كيد ومكر.

(٢) يخل: يتوهم.

والأصل، وإنما كانت الرغبة فيه لخرسانيته لا لإنسانيته. وتعرف إلى السلطان بالمذهب الحنفي ومشاغبته فيه. وإدلاله بالتعصب بين ذويه، إذا سلم عليه واحد لم يسمح له برد السلام. حتى يقول له ما منهبك من أهل الإسلام؟ وكان قبيح الجبة [١]، شديد النَّحَة [٢]، صفيق الوجه. كأبي براقش في تلونه، وكالعقعق في تقلبه، وكالذئب في توثبه. وهو خارج عن الحد في تعصبه.

قال: وكان قد خلص زين الملك أبو سعد بن هندو من الحبس ونـــزل في المعسكر بغير شغل ثم دخل صدور الديوان، واستولى على المكانة والمكان. وكان خاليا من أدنى فهم. جاهلا بكل علم. ومن جملة ذلك أنه سلم إليه كتاب قرار ليكتب خطه بما جرى من قرار الديوان فكتب كذا " الاستقر" بالألف واللام وكتب فلان بن فلان:

تعس الزمان لقد أتى بعجاب ومحا صنوف العلم والآداب

وأتى بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددقم إلى الكتاب

وكان الوزير ضياء الملك رجلا سهل المحجة، صادق اللهجة. إذا جلس في صدر وزارته، وأحدق الصدور بوسادة سيادته أنار دسته وحسن سمته، وكان كل منهم إذا اجتمعوا سلقوه بألسنة حداد. وكدروا ورده فيما هو قانون الوزارة من الاستقلال والاستبداد. قال: ولما لم يكن مباشرته للوزارة صائبة، وكانت الآمال في نجحه خائبة، لم تلق مدة ولايته تمكينا، وبقي بعد صرفه اثنتي عشرة سنة مسجونا. ولقي أضعاف كرامته هونا. ولم يصادف من زمانه وإخوانه إلا خوانا.

قال: وتوفي الأمير السيد أبو هاشم الحسني رئيس همذان، فنقل من خزانته إلى خزانة السلطان بعد ما أداه مبلغ مائتين وخمسين ألف دينار، وما أثر ذلك في حال بيته. وقام حيه بتأثيل مجد ميته. وزاد تقرب السلطان لولده. وقوى يده على رئاسة بلده. وظهرت مخايل عصيان ملك العرب صدقة بن منصور بن دبيس بن علي من مزيد الأسدي وذلك في سنة ٥٠٠هـ فتغير رأي السلطان فيه حتى جر إليه عسكره. وكدر إليه مورده ومصدره. وجرت بينهما وقعة غلبه من ولايته. وحيز إقليمه بقلم

(١) الجبة: اتساع الجبهة.

(٢) النحة: استقبال الناس بما يكرهون.

الحيازة الديوانية، وتصرف فيه كتاب الدولة السلطانية. ومزقوا بالتبذير تلك الأموال الجزيلة وخربوا بسوء التدبير تلك الأعمال الجليلة.

قال وقد كثر تعجبي من السلطان، يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده، وإنما يقتني منها ما يراه موافقا لمقصوده. فيسأل عن فروعه وأصوله، وانقطاعه ووصوله. فما باله لا يتخير لديوانه، ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل، والصدور الأماثل، من عُرْفُه ذاك [(١)]. وعُرْفُه زاك [(٢)]، وعَرْقُه كريم، ومجده قديم، وطريقه في الكفاية مستقيم. لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار، وأجدر بالاختبار. فإنهم أمناؤه على مملكته، ووكلاؤه على دولته، وسفراؤه في خدمته.

وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن الحسين الميبذي

قال الصادق ؑ: كل شيء يحتاج إلى العقل إلا الدولة. قال: وقد عرف أنه معدم من كل آلة وأداة. غير لائق برعاية يراعة، أو الآفة دواة. حمار رامح، جانح جامح. عضوض رفوس، حرون شموس. معدن الغش والدغل. منبع المكر والحيل. وكان قد وزر مرة أولى، وعرفوا أن يده في القصور طولى. لكنه توسل في هذه المرة لعوده إلى الوزارة بجنس توصل ابن جهير في الوصلة إلى نظام الملك بابنته. وهذا لم يكن له وصلة شرعية، ولكن تم له الأمر بمثل وسيلته. وإلى ذلك أشار ابن الهبارية في وزارة ابن جهير.

قل للوزير ولا تفزعك هيبته وإن تعاظم واستعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية فاشكر حرًا صرت مولانا الوزير

وكان رجلا جسيما ملء التابوت وعقله أوهن من بيت العنكبوت. فإذا استند إلى مسنده في الديوان اعتقد أنهما مسندان محشوان.

---

(١) عرفه ذاك: العرف بمعنى المعروف أو الجود، وذاك من ذكا يذكو بمعنى اشتعل واتقد. أي رجلا معروفا عند الناس.

(٢) عرفه زاك: رائحته طيبة منتشرة. وزاك من زكا يزكو: نما وانتشر.

وزير غاص من شحم ولحم ولم ينسب إلى عقل وفهم
إذا لبس البياض فعدل قطن وإن لبس السواد فتل فحم

وكانت علامته: " الحمد لله المنعم". وكانت له في الجهل نوادر شوارد، وبوادر بوارد، ومن جملة ذلك، أنه كان يوما ببغداد راكبا في زي حسن، وموكب خشن، وجمع جم، وبُهم ودهم. وجلال الدين عميد الدولة أبو علي بن صدقة الذي وزر للمسترشد مسايره. والجند قد عقدت بروايته ورويته أسماعه ونواظره. فالتفت الخطير الوزير قال: " قد أشكلت على مسألة لابد من حل إشكالها، وإنشاط قلبي من عقالها. هذه اللواطة سُنة قديمة سبق إليها القدماء، أو رسم مستحدث أحدثه السفهاء" ؟ فقال له بعضهم " هذا رسم قديم لقوم لوط". فقال الخطير: "ومن كان لوط ؟ " فقالوا: "نبي من أنبياء الله" فقال له "قد أنــزل الله في قوم لوط: إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم تجهلون". قال " ما معنى تجهلون؟" وكان عجميا لا يعرف كلمة عربية، فقالوا له " أي لا تعلمون" فقال "هذا حسب، فالأمر إذا سهل، وعذر فاعله أنه ذو جهل، وأنا أعتقد أنه أعظم وزرا وأفظع أمرًا". فانظر إلى جهالته في ضلالته. ونــزارته في وزارته. وكان مهذارا مكثارا لا يستر شوارا ولا يحذر عثارا. وما كفاه ذلك، حتى استناب ابن الكافي الأصفهاني الناقص الملقب بالكامل. الطويل بغير طائل. واللئيم الذي كان له عند الكرام طوائل. طنّاز [١] غماز، هماز لماز.

وكان من نوائب الدهر كونه نائب الصدر. يمّن بأن أخته تحت الوزير، وهو بذلك بالغ القدرة والقدر. وهو من الذين قال ابن الهبارية فيهم من أبيات في ذم أصفهان:

بلد أبو الفتح اللئيم عميده والقاسم بن الفضل قيل رئيسه
وطريفة الكافي الطويل وشيخه مع أنه دنس المحل خسيسه
وابن الخطيبــي الصغير محله قاض وجرو المندوي جليسه

فاتفق جميعهم على الوقيعة في زين الملك أبي سعد بن هندو. حتى بلغوا في

(١) طناز: ساخر.

مكروهه ما ودوا. فباحوا بسر سرائره وحملوا السلطان على أخذه بجرائره. وإنما تمشي لهم السعي فيه بما كثروا عند السلطان من ثروته. وقالوا إننا ننقل مائتي ألف دينار إلى الخزانة من خزانته. فأمر السلطان بأخذه وتسليمه إلى التونتاش، وأوقعه في مخلب ذلك البطاش. فحمله من أصفهان إلى مدينة ساوه وصلبه يوم الجمعة في شارعها. فلما قتل تصرفوا من ماله، وتدينوا باستحلاله. وأنسوا السلطان المائتي ألف دينار وتحكم ابن الكافي في ذلك المال. واستوعبه الكامل على الكمال. وأعيد في وزارة الخطير ديوان الاستيفاء إلى معين الدين مختص الملك، فتولى بعد العزل، وتمكن من الشغل. وعبث هم أبو طاهر الخاتوني في أبيات فارسية، قال الإمام عماد الدين: وعربت بعضها وقلت:

صدور ما هم للملك إيراد وإصدار
خفاف لو نفختهم وهم في دستهم طاروا
رأيتهم كما كانوا وأعرفهم كما صاروا

وكان الأستاذ الموفق أبو طاهر الخاتوني من صدور الدولة، وأعيان المملكة، وأفاضل العصر، وأماثل الدهر. ذا فصاحة وحصافة، ولطافة وظرافة في النظم والنثر، جامعا لأدوات خدمة الملوك. خبيراً في مناهج السلوك، قد قلب الأمور ظهراً لبطن، وجرب الحالين من قوة ووهن. ولم يزل مذ نشأ وإلى آخر عمره صدرا كبيرا. ومشاراً إلى صوابه وبالصواب مشيراً. ومازال لخاتون مستوفيا. وديوان السلطان بكفايته مكتفيا. فلما تولى هؤلاء عرفوا نقصانهم عند فضله، وانخفاض محلهم في البراعة عند ارتفاع محله، وعلموا أنه لا يغضي عن عيبهم عينه وأنه لا يقضي إلا من عروض عرضهم إن قارضوه أو عارضوه دينه. فتخيلوا من تزبيقه وانتقاده، وتحيلوا بكل طريق بعد تقريبه في إبعاده. فتمحلوا له من جرجان شغلا. وعدوه له أهلا. وجر إلى جرجان جرّجان ونقل من أعز مكانة إلى أذلّ مكان. قال الإمام عماد الدين -رحمه الله-، وشكا في أبيات عجمية أعجام حظه وإهامه. وإقلال قلمه وإعدامه. فعربتها وقلت:

لمرتبة الكلب في عصرنا على رتبة نحن فيها شرف
وما عاد ذو قلم مفلحا فإن الفلاح لطبل ودف

قال: وكان مختص الملك قد شمر جفنه للشعر فيه، فعاد كأنه شكل مثلث في عين رأسه. فقال فيه الموفق الخاتوني بيتا بالفارسية مشتملا على معنى بديع، وهو أنه ينظر

من مثلث عينه إلى الناس نظر تربيع فقلت:

لصدر الصدر ضيق في اتساع ويطمع في كمال من قصور
على التثليث ناظره ولكن من التربيع ينظر في الأمور

قال: ومازال الوزير يصغي فيه إلى السعادة، ويسيم في مرعى سمعه سرح الوشاة، ونسبوا إليه التقصير والتخليط، والإفراط والتفريط، وأحال الوزير عليه بمائة ألف دينار وانتهز في أمره الفرصة، وأخذ في استدعائه من جرجان الرخصة، فاستحضره وتشدد في إرهاقه، واستصفى ما له فعاد ذلك بإملاقه.

قال الفتح بن علي البنداري الأصفهاني منتخب الكتاب: رأيت بخط جدي -رحمه الله- أن موفَّق الدولة قال في تلك الحالة أبياتا مطبوعة بالعربية ومن جملتها قوله:

نهبوا ما ملكت في بغدادي واستباحوا ذخائري وعتادي
فأنا اليوم غير ذقني وسني مثلما كنت ساعة الميلاد
وهما الآن رهن قلع ونتف تحت هذا الإبراق والإرعاد

قال: فأحوجته الحوالات عليه إلى الاستقراض. وانضاف اشتغال ذمته إلى الإنفاض. وكان للأستاذ الموفق معرفة بالكمال السميرمي وبينهما صداقة صادقة، ومودة صالحة من كأس الصفاء غابقة. وسيأتي ذكر الكمال عند انتهاء ديوان الإشراف إليه في الأيام المحمدية. وعند استقلاله بالوزارة في الأيام المحمدية، ولقد كان من أوسع الصدور صدرا، وأرفعهم قدرا، وأحسنهم تدبيرا، وأجملهم تأثيرا. وكان يلقب بعز الدين وهو في منصب مشهور، ومذهب في السماح مشكور. فلما أملق الموفق، كتب إليه أبياتا ذكره فيها بحقوق خدمته، وعقوق حظوته وشكا فيها حاله. وهجا الوزير وأشكاله. قال عماد الدين، ولم يأت لي تعريبها، ولم يأنس بخاطري غريبها فأضربت عن ضربها، لما عصاني ضربها. وله في شكوى حاله ما عربت معناه نسجا على منواله. وقلت:

وكم بيذق في خدمة الشاه ساعة تفرز لما صار في سابع الدست
ولي أخدم السلطان سبعين حجة وها أنا حي للإضافة كالميت

قال: وملأ هذا الوزير الخطير مخازن مخازيه، والكامل بن الكافي موازنه وموازيه. ولم يكن عنده من الله خبر، ولا في قلبه من الدين أثر وكلما طال عليه الدهر تطاول على نبيه، حتى تأسست بالشر مبانيه، وحلت له مكاسب لا يرضى المجانين بها مجانيه. والسلطان لهم كاره، وضميره له بما هم فيه مشافه.

ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان ابن خالد في نيابة الوزارة

قال أنوشروان: فراسلني السلطان بخادم من خواصه، وشكا من الوزير اعتياد اعتياصه. وقال: "هذا الوزير قد أيست من فلاحه، ولا مطمع لي في إصلاحه. وفي كل وقت يحكم في بيتي من أولاد الكافي غير كاف، وإذا رميت وفيا جاء فيه منهم بجاف. وقد عرفت يا أنوشروان طريقتك، وعلمت حقك وحقيقتك، وأنا أوثر أن تنوب من قبلي في الوزارة، وتعمر ما بيني وبينك في السفارة حق العمارة" فقبلت الأرض وأديت في تولي خدمته شكر نعمة الفرض. وقدمت عذراً لائقاً بالحال. فلما أنكره سارعت إلى الامتثال. وكان السلطان كريما حليما. لا يعجل مؤاخذة من يخونه وإن كان حاله عليماً. فحفظ قلب الوزير في نيابة ابن الكافي لما عزله. وكان في نفسه مؤاخذته بالمال الذي اختزله مراعاة لقلب الوزير، ومحافظة على خطر الخطير.

قال: وجلست في النيابة عنه، على الكره منه. وكان احترامه للوزير لا تبجيلا، بل تدفيعا للوقت به وتأجيلا. فأجلسني في الديوان مكرما وعلى الصدور مقدماً. لكن الوزير اعتقد أني للسطان عليه عين، يستثقلني كأني ممن له قبله ثأر أو دين. وكانت صحبة لي على مضض، وصحة ملقاة لي عن مرض. وصدور الديوان عن يمينه ويساره مؤثرون لإيثاره. يبدون لي بشرى ويضمرون لي شرا. واتفقت كلمتهم مع افتراق طباعهم على مضادّتي. واعتقدوا حصول محابهم في محادتي. فما اشتريت بشعيرتين سبالهم، ولا شغلت بالي بما شغلوا به بالهم. ولما عجزوا عن إيقاعي في مصايد المكايد، شرعوا في تعويق الرسوم والفوائد. وتوقفوا في توجيه واجباتي من الديوان، وتوافقوا على قطع ما أطلق لي من صلات السلطان. فكنت أتسلى بقول القائل:

إن لله غير مرعاك مرعى نرتعيه وغير مائك ماء
إن لله بالبرية لطفا سبق الأمهات والآباء

قال: ولم أخل من قصد الجماعة في نوبتي الوزارتين الضيائية والخطيرية، وما زالت تأتي منهم قوارض الأذية. وكان بين الوزير الخطير وبين المعين المختص مناوشة ومناواة، ومواحشة ومنافاة. وما كان يقدر أحدهما مع المبالغة في قصد صاحبه أن يبلغ فيه غرضه. وكأنما يخفي مرضه ومضضه. حتى مال الوزير إلى كمال الملك السميرمي فصار بينهما موازرة في أمير المعين، ومشورة في تكدير ذلك المعين، حتى بلغ فيه ما تمناه، والخصي يفتخر بزب مولاه (وسيأتي شرح ذلك في موضعه). وتوفي الأمير العميد الطغرائي في وزارة الخطير. وحمد شرر شره المستطير. وجلس مكانه في ديوان الطغراء، وصدر الإنشاء الأستاذ أبو إسماعيل الكاتب الأصفهاني، وكان ذا فضل غزير، وأدب كثير. وكان في حياة الأمير العميد منشأ على سبيل النيابة عن الطغراء. ثم تولاه بالأصالة متصدرا في دست العلاء. وكان مع ذلك بطيء القلم كليله، ملتاث الخط عليله. وهتف به أبو طاهر الخاتوني في نظمه، وسلط سفه الهجاء على حلمه. وأشار إلى القلم في يده وقال: كأنه وهو يجره برجله، مذنب يعاقبه بجرمه. وكانت بديهته أبية ورويته روية محبية. فإذا أنشأ تروي بطيا وتفكر مليا. وغاص في بحر خاطره، ثم أتى بالمعاني البديعة، والاستعارات الغريبة. وسنذكر أحواله فيما بعد، وحال الوزير الخطير لما خانه السعد.

ذكر تولي كمال الملك علي السميرمي اشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه وابتداء أمره

قال: كان كمال الملك علي بن أحمد من مدينة بقرب أصفهان يقال لها سميرم، أهلها ذوو فطرة زكية، وفطنة ذكية. وكانت هذه المدينة في معيشة كهر خاتون زوجة السلطان، وأبو كمال الملك زارع غلاتها، وقابض ارتفاعاتها. ووزيرها حينئذ الأمير العميد، والكمال، لسبب شغل والده وإنجاح مقاصده متردد إليه متودد، ومتصد لأموره مسدد، فاستحلاه واستجلده، واستكفاه وأحمده. واستنابه في خاصه حين استبان نصحه. واستوضح في ليالي نوائبه بالنجح صبحه. فوفر ماله، وثمر حاله. وجعل

له في العيون هيبة وفي الصدور رهبة. فبقى الأمير العميد لا يعتمد في أموره إلا عليه ولا يسكن إلا إليه. فلما اتفق مسير الأمير العميد إلى بغداد في تولي العمارة، لم يكن له بد من إقامة نائب في وزارة كهر خاتون يلازم الدركاه، ويقيم له بخدمته عنه الاسم والجاه. فرأى أن الكمال أوفق وأوثق، وأشفى لصدره في التصدر وأشفق. فاستنابه على أنه لا يستعين فيما ينوبه إلا بالعزيز، وكان العزيز أبو نصر أحمد بن حامد -رحمه الله- عمي أول ما شب ومضى في البلاغة شباه. وعقد بحب العلي حباه. وصرف اليراعة بنانه وعرف البراعة بيانه. وهو في الديوان الخاتوني نائب على الأصل يحكم، وشاب عند مشايخ صدور يجهلون ما يعلم. فلما تولى الكمال نيابة وزارة كهر خاتون، انضم إليه العزيز فضم نشره، وحسن أثره، وأرشده ودبره.

وكان الديوان الخاتوني في الوزارة العميدية خاملا خامدا، ما له غير رواتب موظفة، ووظائف مرتبة، ومعايش مرسومة، وعوائد معلومة. ليس لنوابه في غيرها أمر ولا نهي، ولا لوراده من سواها شرب ولا ري. وخاتون راضية بالهدو، متغاضية عن النمو. فعرفها الكمال ما في الخمول من ذهاب رونق السلطنة، وعزل ولاية القدرة المتمكنة. وكانت هي ابنة الملك إسماعيل البغاني من أذربيجان، وكان كبير الشان. فقال لها: "قولي للسلطان إن أجناد أذربيجان من صنائع والدي وأشياعه، وهم صاروا متبوعين وقد كانوا أمس من أتباعه. وأريد أن تكتب منشوراً بأنهم في اهتمامي، وأن أمر معايشهم يبرم بإبرامي". فأجاب السلطان سؤالها، وكتب لها مثالها. فسيرت الكتب السلطانية، وأمر بخدمتها الأمراء الأذربيجانية، فتبادرا إلى بابها بتقبيل العتبة وتأميل المرتبة. ووصلوا بالهدايا والتحف والألطاف والطرف. وازدحمت على بابها وفود الملوك، واتسق إلى قصدها سلك الفج المسلوك. فرأت من الدولة شيئا ما رأت، ورعت من الدولة روضا ما رعت. فتبركت بموضع كمال الملك. وسمع الأمير العميد بأن نائبه قد جاءه الجاه، وقبلت يديه الشفاه. فقام وقعد، وأبرق وأرعد. وكتب بصرفه، والغض من طرفه، ومطالبته بفرعه، وعمل الحساب ورفعه. فلم تلتفت الخاتون إلى قوله في كتابه، ولم تكترث بخطابه. وكتبت: " إن هذا النائب عندي مرضي وحقه مرعي. فما لك أن تصرفه؛ بل عليك أن تعرفه. وتعرف له حقه وتنصفه. وهو أن حاققته فليس

لك بنائب وإنما هو شريك، وأن أمرنا بالإنكار أن قصد منك أو شيك [١] وشيكٌ، وأنت تعلم أيها العميد أن دور الحرم، مبرمة لها معاقد العصم، محكمة لها قواعد العظم. فما يجوز أن يتولاها في كل قريب غريب. وما يحسن أن يتجدد في كل حين لها مستناب ومستنيب. وهذا عرفناه بك فالأولى أن تبقيه، والأبقى لجاهك أن توليه".

فعرف الأمير العميد أن الأمر خرج عن يده، فجدد للكمال بشغلة منشورا. وطوى من شره فيه ما كان منشوراً، وكتب إلى خاتون " أن الآن قد قوى أملي حيث مكنت نائبي، وعرفت صحبة صاحبي. وإني ما أردت صرفه، وإنما أردت تهذيبه ورمت تجريبه، وقد وفرت عليه ثلث الرسوم، وأشركته معي في أصل الفرع المعلوم" فاستقل الكمال واستمر مريره. وثاب سروه [٢] وثبت سريره. وبقي كذلك متوليا مستوليا، ومتغلبا مستعليا إلى أن قضى الأمير العميد نحبه، فسولته وزارتها بالأصالة وخصته بالإيالة. ثم تعصبت له عند السلطان، حتى ولته إشراف المملكة، فدانت له الأمم. وأطاف به الحشم والخدم، وصار السلطان يكتب إليه بخطه، ويطلعه على حالتي رضاه وسخطه. ثم شوش على أرباب المناصب قلب السلطان حتى تغير رأيه في وزيره الخطير ورد ورده إلى التكدير. ونقله من بني جنسه إلى بناء سجنه. ومن مجلس عزّه إلى محبس عزله. وسلمه إلى الأمير الحاجب عمر ابن قراتكين ليخرجه ويستخرجه. وليروج ماله ويورجه قال: ونظم أبو طاهر الخاتوني بيتين فارسيين عربتهما وقلت:

كان حماراً وزيرنا - ومضى　　　فما يملك السلطان من خلل
لكنما في صدور دولتنا　　　ليس لذاك الحمار من بدل

وكان شمس الملك عثمان بن نظام الملك قد بقي في حبس الوزير سبع سنين، فأفرج عنه ليواقف الوزير على أوزاره، ويقرب خطى الخطير إلى أخطاره. فكان حبس ذلك لهذا فرجا، ودخوله في المحبس له مخرجا. وجمع السلطان أمراء دولته وأربا بديوانه وفاوضهم في وزير يفوض إليه وزارته.

قال أنوشروان: فأجمعوا على أن أكون المتكلم عنهم بالصواب والمبلغ للخطاب.

(١) شيك: أصابه بالشوك.
(٢) السرو: الفضل.

وكان رأيي مائلا إلى مثل ما حكي عن المعتضد أنه كان قد حرض على عبيد الله بن سليمان وسعى عنده عليه. وكان يقول: " إذا فكرت فيما ينتقض من التدبير، ويضيع من الأمور بين صرف وزير وتقليد وزير، وإن كان المتقلد أكفى أضربت عن نكبته"، فاتفقوا أن أكون الناظر في الأمور ومتقلد مصالح الجمهور. ومنفذ الأوامر وجامع شمل الأكابر والأصاغر. وأن المنشئ والمشرف يكفيان بخطي وتمثيلي. ويتأثلان في شغلهما بتأثيلي. حتى يقضي كل مُهم. ويقصي كل ملم، وبقيت الرعية مرعية. والسيرة رضية مرضية. والدهماء ساكنة. والغبراء آمنة. وطال حبس الوزير تلك المدة ولقي الشدة. وكان خلف الزمان رجلين من أولاد الكافي من بقايا السيوف، وزوايا الحتوف. فحبسهما السلطان معه وأختهما التي كانت زوجة الوزير، على مائة وخمسين ألف دينار. وسامهم في تلك المصادرة كل خسار وصغار. وباح السلطان بما كان يضمره من أمر الوزير ولا يظهره. وكشف الغطاء عما كان يستره. وألزمه بتطليق زوجته ابنة الكافي، ورماه من مفارقتها بثالثة الأثافي.

قال: وكانت الدولة السلطانية قد شارفت انقضابها وانقضائها. وقارب خطو انتهاضها لما قاربت انتهائها. وبدأ بالسلطان مرض طويل أضناه وأنحله، وألهاه عن المملكة وأشغله. ووقع الفناء في أمراء دولته، وأكابر مملكته. وبقي السلطان من مرضه في ذواب. ومن عيشه في كدر وشوب [1] فأراد أن يولي وزيراً يوصي إليه بولي عهده، ويستكفي به مهام الدولة حيث علم أنه لا يستقل بها من يقوم من بعده.

ذكر وزارة ربيب الدولة أبي منصور ابن الوزير أبي شجاع -رحمه الله-

قال عماد الدين -رحمه الله-: ذكر والدي أن أرباب المناصب لما عرفوا ميل السلطان إلى تولية وزير يكفي المهام ويحفظ النظام ويكفل الأمور العظام، خافوا من استنامته إلى بطل بطاش. ومستجيش بثبات جاش. وأنهم يُبلون إما بذي حنق عليه، وإما بذي فرق منهم فيدب كيده إليهم. فحسنوا للسلطان طلب وزير من تربية دار

(١) الشوب: ما خلطته بغيره.

الخلافة، فإنه ليس بالحضرة من يصلح لهذا المنصب. فاستدعى ربيب الدولة من بغداد إلى أصفهان. وسد به المكان. فصار له اسم الوزراة بالوراثة. وكان لائقا بتلك الدولة المريضة الملتاثة. وكانت علامته: " الحمد لله على النعم".

قال: قال أنوشروان: وكان قد بقي من أيام عمر السلطان مقدار أربعين أو خمسين يوما، وقد استحصد زرعه وانتسخ شرعه. فجاءوا بهذا الصنم ودسوه في الدست. وقصدوا بترتيبه شغل الوقت. واتفق موت الكفاة. وضمهم حبل الوفاة. وتناثروا تناثر ورق الخريف، وتفرقوا تفرق سحاب المصيف. ولم يبق في تلك المدة اليسيرة من المعروفين كبير موصوف. ولا من الأمراء الأكابر معروف. فصار الأتباع أصولا، والأقطاع نصولا. والدراري شموسا، والأذناب رؤوسا. ولم يبق في الدولة من القدماء إلا مختص الملك المستوفي، والأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي. فأما المختص، فإنهم عزلوه واعتقلوه وقرروا عليه خمسين ألف دينار للخزانة، ثم أخذوا خطه بأنه لا يخطب ما عاش عملا، ولا يستنجح ما طال أمد عمره أملا. وخلوا سبيله وما خلوا له إلى ثروة سبيلا. وأخذوا ما كان له، فلم يتركوا له كثيراً ولا قليلا. فأفلت بجريعة الذقن. وعد سلامته من المنح في تلك المحن. فتولى ديوان الاستيفاء كمال الملك السميرمي، وعلامته الأمر وحلاله المر. واستقل واستقام، وسما وسام، ورمى ورام. والوزير هين لين، وعجزه عن البطش بين. وكمال الملك فارس ذلك الميدان وحاكم ذلك الديوان.

وأما الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فإنهم لما لم يروا في فضله مطعنا، ولا على عمله من القدح مكمنا، أشاعوا بينهم أنه ساحر وأنه في السحر عن ساعد الحذق حاسر. وأن مرض السلطان ربما كان بسحره. وإنه إن لم يصرف عن تصرفه فلا آمن من أمره، فبطلوه وعطلوه، واعتزلوه وعزلوه. وعاد الخطير الذي كان وزيراً يمد الطغراء خطه. ولم يضره عن درجة الوزارة حطه. وكان قد خلا دركاه السلطان من الأمراء والكبراء، فإنه كان شغلهم بحصار قلعة الموت مع الأمير الكبير، أنوشتكين شركير. ولقد كان شهما شديداً، وسهما سديدا. وسما زعافا على العدو، وموتا زؤاما على أهل الإلحاد والعتو. ولولا موت السلطان لتسلط على الموت، ولم يترك فرصة فتحها أن تفوت. وهو في ذلك لها حاصر. والله له ناصر. فصيّر السلطان على ابن عمر حاجبه الكبير، وأسمى مكانه الأثير. وكان أمير البار يعني: أمير الإذن، وأمير البار هو

الآذن عن السلطان، إذا اجتمع الأكابر. والأمير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان ويؤديها إلى الوزير، فهو الناهي الآمر.

قال: ولما مضى شهر، اشتد مرض السلطان وبلغ الرجاء فيه اليأس، ووجد بالعدم الإحساس، وأصبح يعد الأنفاس. وأمر بالحجاب وحجب عن الأمراء. وأيقن أن القدر لا يرعى له زمام ما بقي من الدماء. و لم يكن يدخل إليه إلا الأمير الحاجب علي ابن عمر بن سرمة، فهو الذي يسمع كلامه. وينفذ بالتبليغ أحكامه. وسمى حديثه وصية وجعل نفسه وصيا. وعد مصدقه مطيعا والمستريب برأيه الرائب عصيا. ولما قرب الأجل وحل الوجل، ذكر الأمير الحاجب أن السلطان أمر بإخراج مائتي ألف دينار من الخزانة لإرضاء الخصوم وإشكائهم [1]. والاستحلال من فقراء الرعايا وأغنيائهم. فتسلم ذلك المال وقبضه، وتصرف فيه على ما وافق غرضه. وكان وزير الأمير الحاجب الكبير حينئذ أبو القاسم الدركزيني ويلقب بزين الدين، فمن ذلك المال تمول، واستكثر العبيد والخول. وكان ذلك مبدأ غناه، وريعان نجح مناه. وأمر العسكر بمبايعة ولي العهد ومتابعته، وطاعته ومشايعته. وإنه لابد من جلوته على السرير وإجلاسه، ووقوف الأمراء على رأسه. وقيل للسلطان مرضك سحري، ومضضك خفي. وإنما سحرتك زوجتك فأعضل دواءك. وحملوا السلطان على أن كحلها وسملها. وحبسها في بيت ضيق واعتقلها. وأتلف عدة من حواشيها، وعصابة من جواريها. ثم أخرجوا خاتم السلطان وقالوا أنه أمر بخنقها، ودخل إليها من شد الوتر في حلقها. ومن عجيب القدر ومقدور العجب أن الزوجين توافيا ساعة واحدة على العطب، فالخاتون في بيتها كانت أيامه أيامن للأيامي ومراحم لليتامى. ورسومه جائزة غير جائرة، وأحكامه راضية غير ضائرة. وحصاه رصينا وحجاه رزينا ودينه متينا وشرع علمه في العمل بالشرع مبينا. وكان رجل السلجقية الكامل وفحلهم البازل. وله الآثار الحميدة والآراء السديدة. ولما حسنت سيرته، وكملت دولته، وأصحت سماؤه، وطاب هواؤه، وصفا ماؤه، وآلت آلاؤه أن يغني الفقير ويجبر الكسير، ويفك قلاع الأسير، ويكف العسير. وينصر الإسلام، ويكشف الإظلام، ويقلع الملحدين،

(١) الإشكاء: قبول الشكوى.

ويعلي أعلام الموحدين. قبض القضاء يده، وقصر أمله وأمده، وغيض بحره، وغيب بدره.

بين الصفائح والثرى ريحانة قد كان لي من قربها مستمتع

وإذا تذكرت الذي فعل البلى بجمال وجهك جاء ما لا يدفع

قال: توفي أمير المؤمنين المستظهر بالله ﷺ بعد وفاة السلطان محمد -رحمه الله- بمدة يسيرة وتحولت الدولتان، وتفصلت الجملتان. وخلف السلطان محمد خمسة بنين، وهم: محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان، وسلجق، وكل منهم تولى السلطنة، وسوى سلجق. وسيأتي ذكرهم فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا والدين أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين

قال: فجلس على التخت مكان والده. واستقر من الملك في أعلى وسائده، وأحكم قواعده. وحضر الناس على طبقاتهم للهناء، وجلوه في دست السنا والسناء. وقبلوا الأرض، وأدوا من إقامة الرسم الفرض. ووقف العظماء والكبراء سماطين على ترتيب أقدارهم، وقدر مراتبهم. وتناسقوا على درجاتهم في مراقي مراتبهم.

قال أنوشروان: وتقدم الوزير الربيب، وصعد إلى السرير للتهنئة وتقبيل اليد ونـــزل، وتقدم الخطير بحكم أنه كان وزيراً يفعل مثل ما فعل. وكان على كل حال، للشيخوخة والتقدمة، يستحق أن يقدم ويبجل. فزاحمه الكمال السميرمي وأخره وتقدمه، ولم يعرف سابقته وخدمته للدولة وقدمه. فأقام الخطير سم التهنئة بعده. ولزم كل منهم في ذلك المقام حده. وأنا أيضا أقمت رسم التهنئة، ووفيت حق التوفية. وكان السلطان حينئذ في سن الحلم، متوقد الذكاء كالنار فوق العلم، مشرقا وجهه مع صغر سنه بسناء العظم.

وفي ابتداء هذه الدولة انتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين المسترشد بالله ابن المستظهر بالله -رضي الله عنهما-، وبويع له وجدد تقليد السلطان على الشرائط المشروعة، والرسوم الموضوعة. واجتمع أرباب الدولة السلطانية واصطلحوا على التحالف وتحالفوا على الصلاح. وأجالوا بينهم في مظاهرة البعض للبعض ضرب

القداح. وكان أبو القاسم الأنساباذي الدركزيني وزير الأمير الحاجب علي بار، فصار يلقن مخدومه ويفهده [1]، ويدله على طرق الضلال ويريه أنه يرشده. ويقول إن الوزير والمستوفي ينبغي أن يكونا بحكمك، وهذا السلطان صغير ينبغي أن يكون تحت حجرك. ولا يأمر إلا بأمرك. فأدخل في رأسه ما لم يخرجه منه في آخر الأمر إلا السيف، فأول ما دبر أنه ذكر للسلطان أن صلاح دولته في إفساد عمه، وأنه يغلب على دولته برغمه. وكان عمه سنجر السلطان الأعظم عماد آل سلجق، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم والترك، قد عمت ونمت، ودولته قد علت وسمت. وهو شيخ البيت وعظيمه، وحافظ عزه ومديمه. فأحضروا الشهاب أسعد كاتب الإنشاء، وأمروه أن يكتب إلى خان سمرقند، وقالوا له: إنا نقصد السلطان سنجر، وهو لا شك يتوجه إلينا إذا توجهنا للقائه، والرأي أن تأتي أنت من ورائه. فيقع الخصم في الوسط، ويحصل في التورط. وكان هذا الرأي القائل: أول ما أدب الأدبار وأهب دبوره، ومحا من الإقبال حبره وأذهب حبوره.

ومن جملة تدبيراتهم المدبرة أيضا، أن الأمير ملك العرب دبيس بن صدقة ابن منصور بن دبيس علي بن مزيد الأسدي كان مقيما في خدمة السلطان منذ عشر سنين، وقد سلا عن بلده، وقنع بما في يده. ورضي من السلطان بالرضى، وانقضى طمعه في ملك أبيه الذي انقضى. وبلاد الحلة والولايات في تصرف نواب السلطان والأمير المجاهد بهروز الخادم الخصي نائب السلطان ببغداد، والرعايا آمنة والأذايا مأمونة. والنعم راهنة، والذمم بشكرها مرهونة، فبدلوا تلك القواعد وحللوا تلك المعاقد. وارتشوا من الأمير دبيس وأعادوه إلى العراق. فقامت الحرب على ساق، وكتبوا ملطفة بالقبض على بهروز، ومحاسبته واستخراج سر غناء المرموز. وكل هذا عاد بالفساد وفسد العوائد، وأفاد التمحيق ومحق الفوائد.

والمفسدة الثالثة أن بلاد فارس كانت على أحسن نظام وأوفق مرام وطاعتها شائعة، وشيعتها طائعة. والبذول فيها حاصلة، والحمول منها متواصلة. واتفق في ذلك الوقت أن عاملها كان حاضراً بأصفهان، فأشار الدركزيني على مخدومه بالقبض على

(١) تفهد: نام وغفل عما يجب تعهده.

العامل، ومطالبته بالحاصل. فأخذه وعذبه، وما صدقه أن المال بعد مُعَدّ بفارس بل كذبه. فلما نمي الخبر إلى أمير فارس، طمع في المال، وكان مبلغا وافرا، وضن برده واستوحش، وجاهر بالعصيان وأفحش. وكان للسلطان جشران [(١)] بتلك البلاد فاستاقها. وأذخار فاعتاقها [(٢)]. فاختل نظام الولايات الفارسية بتلك الآراب السيئة والآراء المسيئة.

والمفسدة الرابعة، أن جماعة كانوا مقيمين في الخدمة من أمراء مازندران وأمراء الشبانكارية، وهم جيل من جنس الأكراد في جانب بلاد فارس، بلادهم ممتنعة، وقلاعهم مرتفعة. وكان السلطان الماضي قد ألف قلوبهم بإحسانه، وقادهم باليد إلى سلطانه. لأنه كانت الطرق منهم مخوفة، والفرقة منهم مألوفة. فأساء الدركزيني وصاحبه ومن وازرهما إليهم، فاشتطوا عليهم، فنفروا وعادوا إلى حصونهم. فأظهروا من الشر ما كان كَمُن، وحركوا من الفتنة ما كان سكن.

والمفسدة الخامسة، إنه لم يخلف أحد من السلجقية ما خلفه السلطان محمد من العين والأثاث، فتصرفوا فيه وتقاسموا به، وفرغوا الخزانة من العين في أقرب من شهرين. فلما ذهب الذهب فضوا ختم الفضة وفضوها، واستخرجوا وجوه المعاملات الرابحة واستنضوها. ثم تصرفوا في المصوغات من الحلي والأواني والآلات، ثم في الجواهر ثم في الثياب، ثم في الخيل المسمومة العراب، ثم في الجمال ولم يبقوا شيئا حتى تفرقوا بأغنام النتاج، وتقاسموا بالكباش منها والنعاج. فصيروا الملك الآهل قفرا، وأضعفوا بعد الغنى فقاره فقرا.

والمفسدة السادسة، أنهم قالوا: إن هؤلاء مماليك السلطان لا يطيبون بطاعتنا نفسا، ولا يجدو بمتابعتنا أنسا.فاحتالوا في شت شملهم، وراموا كل سهم منهم إلى هدف، وكل شهم منهم إلى طرف.

والمفسدة السابعة، وهي المفسدة الكبرى، أن العساكر التي كانت مشغولة بحصار الموت وقد شارفت فتحها، وشاهدت نجحها، شرع الدركزيني في تفريقها لميله

(١) جشران: الماشية.

(٢) أذخار: جمع ذخر وهو المال المدخر، وأعتاقها: أخرها.

إلى الملاحدة، ووعده لهم بالمساعدة. وأخذ رخصة في قبض الأمير الكبير أنوشتكين شيركير، وهو أمير ذلك العسكر. فرحلوا عن الحصار بغير ترتيب، وتبعهم أهل ألموت فقتلوا خلقا. وذهب الباقون غربا وشرقا، ونقلوا إلى القلعة من العدد الكثيرة والأزواد والميرة، ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار. ووصل الأمير الكبير كُنْدغدي إلى الباب. وكان عظيما من أولي الألباب، فولوه أتابكية الملك طغرل أخي السلطان، ثم حذروا السلطان منه فخاف كندغدي على نفسه وعلى ملكه فأدلج به ساريا، وذهب متواريا. فلم يحوهما بعد ذلك دار، وصار من ذلك للقلب اشتغال ولنار الفتنة اشتعال.

والمفسدة الثامنة، أن الأمير قراجه الساقي سلموا إليه الملك سلجق أخا السلطان وولوه بلاد فارس، فلما سمع الأمير قيصر بقدومه وكانوا قد ولوه فارس من قبل هرب وحصل عند السلطان سنجر بخراسان وهو موتور. ونفث شكاويه التي هو بها مصدور.

والمفسدة التاسعة، أنه كان للسلطان مماليك صغار، كأنهم أقمار. وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء. وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء. فأخذ كل واحد منهم عدة، واقتسموا بالغلمان الرُّوق [1]، وأقاموا ألف سوق للفسوق.

والمفسدة العاشرة، أنهم أخرجوا الجواري المطربات، والإماء المغنيات من دور الحرم إلى دورهم، وآثروا حضورهن بمجالس حضورهم. وركبوا في الفسق كل مركب، وذهبوا في الخزى كل مذهب. وتسلطوا على السلطان واجترأوا عليه بما اجترحوه، وتمشى لهم بصبوته كل ما اقترحوه.

قال أنوشروان: ذكر لي أنه لما توفي السلطان محمد دخل الأمير علي بار إلى خزانته، فأخذ صناديق الجواهر النفيسة، واليواقيت الثمينة فأودعها عند وزيره الدركزيني، فلما قتل على ما سنذكره، حصل بها و لم يسأل أحد عنها.

قال عماد الدين: وأذكر طرفا من هذا الأنسابادي، وأنسباذ ضيعة من إقليم الأعلم، قريبة من دَرْكزين، فنسب نفسه إلى دَرْكزين، لأنها أكبر قرى تلك الولاية. ومعظم أهلها أهل الإباحة والغواية، وأكثرهم من المزدكية الخرَّمية، وشرهم شائع في البرية. وكان أبوه فلاحا منهم، فجاء به إلى أصفهان وعلمه الخط، والجرأة والخبط.

(١) الروق: جمع رواق، وهو سقف في مقدمة البيت.

ومازال مخالطا للمتصرفين غُمْراً ذا غِمْر. ووِتْراً في الشر أخا وتر. ما أحسن إليه أحد إلا قتله، ومـــا آوى إلي جبل إلا زلزله. وأول من استخدمه بين يديه كمال الملك السميرمي، وعمي العزيز، فلقى كلا منهما الأمرَّين. وقابل بالإساءة منهما الحُسنين.

قال: وجرى وزير الوقت على تلك القاعدة في الإفساد. و لم ير مخالفتهم على المراد. وكان من خرقه وخرق أصحابه، أنهم جعلوا خطاب الأمير علي بار بوصي السلطان، وسيروه أخص ألقابه، فإنه ألزمهم بذلك وقال: يجب أن ألقب به، وعزلوا الخطير من شغل الطغراء، وناطوا به وزارة الملك سلجق المندوب إلى فارس مع الأمير قراجة الساقي. ومقصودهم أن يبعدوه عن الدركاه فلا يقع منهم إلا التلاقي. وفي كل ما عملوه لم يستطلعوا رأي السلطان ولا استأذنوه، وحقروه واستضعفوه. وتواترت أخبار هذه الفضائح، وتواصلت أثناء هذه القبائح. فانتحى السلطان سنجر لبيته الذي شرعوا في هدمه، وتحركت على ابن الأخ الشفيق الشقيق شفقة عمه.

ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم

معز الدنيا والدين أبي الحرث سنجر بن ملكشاه

يمين أمير المؤمنين

من خراسان إلى حدود العراق وظفره وعفوه وعوده

قال: فانتهى إلى هذا السلطان العادل، الكامل الشامل، المحبوب الشمائل أن أمر ابن أخيه محمود غير محمود، وأن ملكه إن لم يتلاف مؤد إلى التلاف مؤود. فصوب رايته صوب الري، ونشر لواءه ليعيد اللأواء إلى الطي. وكان كالشمس أضاءت مـــن مشرقها وأنارت من أفقها. فلما أطل عسكره على العراق. وسد عثيره [1] جوانب الآفاق برز السلطان محمود سراقه، وعرض فيالقه و لم يغب أحد في تلك النوبة من العساكر. وتلاطمت أمواج بحارها الزواخر. وكان مقدّمَي عسكر السلطان الأميران الأصفهسلاران علي بار ومنكوبرس، وبينهما تباين وتضاد وتضاغن. فلا جرم،

(١) العثير: الغبار الذي يثيره الجيش.

لاختلاف رأيهما، واختلاط أهوائهما، لم يستقم تدبير ولم يتدبر تقويم، ولم يتضح في المصلحة تأخير ولا تقديم. ودرج الوزير الربيب في تلك الأيام، وسكن في حمى الحمام. وتولى الوزارة كمال الملك أبو الحسن علي بن أحمد السميرمي، وذلك في سنة ٥١٢ هـ، وذلك قبل المصاف بين السلطانين بثلاثة أيام وجرى أمره على نظام، في غير وقت انتظام. وكان العسكران مشغولين بالتعبية. فلما التقى الجمعان، واختلط النقعان انهزم عسكر محمود وكُسر جيشه، وانكسر جأشه. ولما ضل عن النار فراشه، ظل كأنما على النار فراشه. وقتل في المعركة جماعة مُبَّرءون، وسلم المجرمون فلما أصبح السلطان سنجر، سأل عن ولد أخيه، ولم يحمد ما كان من تأخره عن حضرته وتراخيه. فأرسل إليه رسولا لقبض زعره، وبسط عذره، وإنه يؤثر حفظه في قلبه، والأنس بقربه وتنفيس كربه. وإنه يتدارك ما فرط بالتلافي، وإنه يتم التقصي عن عهدة تلك الهنات بالتصافي. فاستخر الله ولا تستأخر، واستأثر لقاء من على لقائك لم يستأثر.

وكان أحاط أولئك المذمومون بالسلطان محمود لا يهدونه إلى الصواب ولا يصوبونه إلى الهدى. ويصدون عنه ريّ الري، ولا يروون منه الصدى. وكان قد سبق أبو القاسم الدركزيني صاحب الأمير علي بار الأعظمي، فحضر لإصلاح أمر صاحبه، وأحضر قدراً من المال الذي اختزله من الخزانة السلطانية فنثره وبذره. وقدم الرشى حتى أمن ما حذره. وأراد أن يكون هو المتوسط في الصلح والصلاح. والمتحدث في الإنجاز والإنجاح. وكان السلطان يؤثر أن لا يطول مقامه فتثقل وطأته، وتكثر مضرته. ولم ير أن يترك البيت متداعي البنيان غير معمود. ويريد الانصراف راشداً وقد طالت عليه غيبة محمود. وما صدق بحضور الدركزيني على بابه، وظن أنه قد حصل من النجح على لبابه. فأمر بإحضاره، فلما بصر به قال: " أين علي بار، فإنه لأمر ولدي ضمين" فتلا " أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين" قال " فأين ولدي" قال " أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، وإنه يسعه عطفك وعرفك". فندبه إلى أصفهان لإحضارهم. وأجرى الأمور على إيثارهم. فبلغ الوزير كمال الملك السميرمي أنس الدركزيني بالحضرة السنجرية، وأنه واصل بالجرأة. فسبق بالرأي ورأى السبق، وأن يكون هو الذي يتولى بالرتق والفتق. فقال للسلطان "هذا عمك في مقام والدك، وله عليك حقوق، وعصيانه عقوق. ومن حسن الأدب استعطافه، واستجداد

رضاه واستئنافه، وأنا أمضي إليه لإمضاء الألية. وإرضائه بالكلية" وخاف أنه إن وصل الدركزيني يصير الأمير علي بار للأمر متوليا. ويبقى هو عن الشغل متخليا. وإنه يصير تابعًا، وماؤه غائضا وماء جاه الدركزيني نابعا. فتوجه إلى الري، وقطع الطريق بالنشر والطي. ولقي الدركزيني في طريقه، وأخبره بتوثقه من السلطان سنجر وتوثيقه. فلم يعرج على تصديقه. وقال له " إني قد قضيت الشغل فلا تتعب. وعرفتهم زهدنا فلا ترغب. فاجتهد بكل طريق في إعادته عن طريقه". فما التفت ولا اكترث، وأغذ السير وما لبث. فمضى الخبر إلى السلطان سنجر بأن الوزير كمال الملك قد قدم. وأن ابن أخيك أرسله إليك للعذر لما ندم. فسر بذلك، وأمر الأمراء باستقباله، واحتفل في حفله لتوفير إقباله. وأبصر الوزير من تعظيم خطره ما لم يخطر بباله، فحبط عمل وزير علي بار وبار. وانهدم كل ما كان بناه وانهار. وأخذ يد السلطان علي شد أواخيه لابن أخيه. وأعلمه بإرادة الوفاق وتوخيه. واستوثق منه من كل ما استوثقه. واستدرك بالروية في الرأي كل ما فاته واستحلقه. وأقام الوزير وسير إلى سلطانه من عنده رسولا يستدعيه ويستحثه. ويعلمه أن عمه لانتظاره طال مقامه ولبثه. فأقبل محمود إلى وزيره حامداً، وإلى عمه وافدا. فأكره وفادته، وأنجح إرادته. ولم يجد علي بار بدا من الاتباع. وحضر ضيق الذرع قصير الباع. وخر لتقبيل الترب، واعترف بالذنب. فأبدى له السلطان الرحيم صفحة الصفح، ومنحه العفو وأعفاه عن المنح. ثم اجتمع كمال الملك وعلي بار ووزيره، على ما يتم به تقرير أمر السلطان محمود وتدبيره، وأنه يجب أن يترك رسم السلطنة احتراما لعمه. وأن يكون مدة مقامه عنده بحكمه. وذلك أنه إذا استقبل بجنيب [1] السلطان يركبه ليحسن أدبه. وأنه ينتقل من نوبتيته الحمراء نوبتية بيضاء في سوداء. وأنه يأمر بإبطال ضرب طبلة ما دام في ظله. وأنه إذا دخل على عمه قبّل الأرض، وأنه يقوم عنده على قدمه وأنه يمشي في ركاب عمه راجلا من الباركاه إلى السرادق. وأنه لا ينفرد عن عمه بسرادق، بل ينزل في جوار خيمه. وفي موضع أولاده وحرمه وأن يبقى عشرين يوما على هذه القاعدة، ليستعطف عمه في عود مراضيه المتباعدة.

---

(١) الجنيب: الدابة.

قال: وكان من حلم سنجر، أنه يُغضي عمن يغضب. ويحدي على من يُحدب. فصفح عن كبائر ذنوبهم. بعد ما تصفح سرائر قلوبهم. وأفاض عليهم الخلع. واصطفى كلا واصطنع. وكتب منشوراً للوزير كمال الملك بتقريره على الوزارة. ومنشورا لعلي بار بتمكينه في الإمارة. ومنشوراً لأبي القاسم الدركزيني بمنصب الطغراء والإنشاء. ثم إنهم طلبوا من السلطان سنجر خلوة حسنوا له فيها من سفك الدماء كل قبيح، وأعلوا عنده كل صحيح. وكان من جملة من ضربت رقابهم الأمير منكوبرس وقراتكين القصاب. ثم قفل السلطان سنجر بعساكره إلى خراسان. وقرر عليهم أن يبسطوا العدل والإحسان. وعاد الوزير الكمال، وله الأبهة والجلال. والدركزيني في ديوان الطغراء. وشمس الملك بن نظام الملك في ديوان الاستيفاء.

قال: وكان عمي العزيز في ذلك الوقت، ينوب في الوزارة والاستيفاء، والوزير كمال الملك لا يرجع إلا إلى كماله، ولا يعول إلا على اشتغاله. بل السلطان لا يأنس إلا به، ولا يصغى إلا لخطابه. قال: ولا شك أن أنوشروان صعب عليه انحطاط حظوظه إلى الحضيض. وانحراف مزاج شغله للحظ المريض. وعرض للوزير كمال الملك بأبيات غير واقعة في مواقعها. وتمثل بتمثيلات باردة ليست في موضعها. وكأنه ما سمع للقاضي أبي بكر الأرجاني فيه قبل أن يلي الوزارة وهو مشرف المملكة قصيدته التي يقول فيها:

دع عنك يمني ويسري غير مجدية … واقصد أمامك واطلب منتهى السبل
واعلم إذا قلت رد بالعيس بحر ندى … أني على غير عز الدين لم أحل
البحر أسماؤه شتى وأشهرها … على اصطلاح بني الآمال كف علي

قال عماد الدين -رحمه الله-: سمعت من والدي ﷺ أنه لم يكن في وزراء الدولة السلجقية أكمل من كمال الملك حزامة، وصرامة وشهامة. وكتبه بالفارسية تدل منه على فضل غزير، وعلم كثير. ومن معانيها تعرف قواعد الوزراء وقوانينها. وهي رياض ناضرة للناظرين، أزهاها فاغمة للمستنشقين بالريا رياحينها. قال: قال أنوشروان فأول ما شرع فيه الوزير كمال الملك من أمر وزارته، أنه لما وصل إلى أصفهان، تقدم بقراءة منشوره بوزارة العراق من خراسان، ثم دبر في قتل الأمير أحمد

ابن بغرا، وبعث السلطان على الفتك بالأمير على بار وأغرى. حتى أفلت منه هربا، واتخذ الليل جملا وأدلج رهبا. فأركب وراءه من رجل نفسه عن بدنه. وأخرج روحه من جسده. ووكل بوزيره الدركزيني واعتقله. وهم بأن يقتله. قال عماد الدين -رحمه الله-: قال والدي: وكان الدركزيني حينئذ صديقي، فاستدعاني، ولما بصر بي دعا على نفسه بالويل، واستجاربي وأخذ مني بالذيل. فقال: " أسألك أن تتوسل لي في أماني من القتل، فقد أيقنت أني مقتول، وإن لم تنصرني فإني لا شك مخذول". فشفعت في حقه إلى أخي عزيز الدين، فمازال بالوزير كمال الملك حتى خلصه. وفتح على ذلك الطائر المشوم قفصه. وكان محبوسا في موضع سبيل الخلاء، فخلىّ سبيله، فقدر الله أن الشافع فيه بعد عشر سنين كان قتيله. فما عرف والدي ولا عمي -رحمهما الله- أنهما يسعيان في قلع البيت بخلاصه، ويحصلان بتيسير أمره على تعسير أمرهما واعتياصه. فقد كان هذا أبو القاسم للدماء سفاكا. وبالكرام فتاكا. وتفرس فيه الوزير كمال الملك الشر، فأراد أن يريح الناس من غائلته، وأراد الصحيح فما صح له ما أراد. وما بدا من الدركزيني ما بدا منه لو باد. ولكن القدر لا يطاق، والمقدور ما يعاق.

وأصلح الوزير بقتل علي بار قلوب الجماعة، واستمالهم إلى الطاعة. فقد كانت في نفوسهم منه إحن. وتمت عليهم باستيلائه محن. فوجدوا بانــزعاجه الثبات، وبقتله الحياة. وتقدم الأمير قيصر وترقت درجته. وقامت بالقيام في الدولة حجته. وارتفع شأن أمراء كانوا متضعين، وتحالفوا على طاعة السلطان وترجيح جانبه. والإضراب عن مقاصد عمه سنجر ومطالبه.

قال أنوشروان: فشرع الوزير في المصادرات، وسمى ديوانها ديوان المفردات. قال عماد الدين: ولم يكن كما ذكر، ولا على وفق ما أنكر. وإنما طالب أصحاب الأمير علي بار بأمواله، وأمر بمحاسبة عماله، والبحث عن أسبابه وأحواله. وأعاد رونق سلطنة العراق غضا. وضم من نشرها ما كان منفضا. وخرج في خدمة السلطان من أصفهان على عزم بغداد. وقد حكمه في الأمر وأعطى حكمه النفاذ. ولما قبض الدركزيني وعزل ولى الوزير كمال الملك منصب الطغراء أخاه النصير، وناط به ذلك المنصب الكبير. وكان النصير رصينا، ثقيل الطبع رزينا. ولم يكن فيه ما كان في أخيه الوزير من التلطف. والتطفل على المكارم والتعطف. وكانوا يقولون نعم المولى وبئس

المصير.

قـــال: وفي سنة ٥١٣ هـــ جرى بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود مصاف بقرب همذان. وكان النصر فيه للسلطان. وذلك أن الملك مسعود كان مسلما إلى الأمير جوشبك وهو أتابكه بالموصل وعسكر الشام وديـــار بكر في خدمته. وهو ينعت في ملك الغرب لحـــد مملكته. فجمع آتابك جوشبك جيوشا كثيرة وجمعا جما غفيرا، وطمع في أخذ السلطنة، وجعل الأستاذ أبا إسماعيل وهو مؤيد الطغرائي وزير مسعود، ولم يعلم أنه لا يتمكن فيها من مس عود. فعلم السلطان بحشده فجاء في حشره. وجاء جوشبك بمسعود تحت جتره [1]. ولما اصطف الجمعان، وكاد يلتقي البحران، ويجتمع الصفان بصر مسعود بأخيه محمد فحن إليه. وضبطه جوشبك فلم يعرج عليه، وصاح إيجي إيجي وهي كلمة بالتركية للأخ الكبير. فتشوش على جوشبك جميع ما قدمه من التدبير. وساق محمود ووقف إلى جنب السلطان محمود أخيه. وأسلم للسلب والنهب جميع ما كان معه من جنوده ومواليه. فأول من أخذ وزيره الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فأخبر الوزير كمال الملك به، فقال للشهاب أسعد، وكان طغرائيا في ذلك الوقت نيابة عن النصير: "هذا الرجل ملحد" فقال الوزير " من يكون ملحدا يستحق أن يقتل ظلما" فقتل ظلما. وقتل من الفضلاء الأكابر الأستاذ زين الكفاة أبو الفتوح. وكان وزير البرسقي، فأحسن محمود إلى أخيه وأعاده إلى عظمته، ورتب آخر لأتابكيته وخدمته.

قال: وكان من بقية أولاد ملوك الديلم في الخدمة السلطانية المغيثية الملك عضد الدين علاء الدولة أبو كاليجار كرشاسف بن مؤيد الدولة علي بن شمس الملوك فرامرز ابن علاء الدولة، وكان من السلطان بمنـــزلة الأخ، وقد أنـــزله بالمحل الأشمخ. وكان مع ذلك محترزا من حاسديه. فلزم بيته في مدينة يزد فما زالوا يحسنون منابه بالباب. ولا يصوبون رأيه بالإغباب[2] . فلما ركن إلى ركنهم وركب، وكرب[3] أن يجلو

(١) هكـــذا في الأصل ولم نقف لهـــا على معنى ولعلها جشرة، وهي الماشية التي ترعى في مكانها.
(٢) الإغباب: جمع غب ومعناها العاقبة.
(٣) كرب: أوشك.

بلقاء السلطان عنه الكرب، جردوا إليه ثلثمائة فارس فاعترضوه، وأخذوه من طريقه وقبضوه. وكان الأمير قيصر تولى بإبداء الود إخفاء ختله وختره، فحمله إلى قلعة يقال لها فزرين فاعتقله. وأحكم قيده وثقله، وهي قلعة منيعة، وتلعة رفيعة. تعدها النجوم من أترابها والسماء من أسبابها. فلطف الله به، وأوضح له مذهب مهربه. وذلك أنه توسل حتى أشرف على السور، في جنح الديجور. وألقى بنفسه من المكان العالي، وفعل فعل الآيس من حياته السالي. وسلمه الله حيث لا ترجى السلامة، ونـــزل نـــزول الغيث حدرته الغمامة، وتوقل في تلك العقاب. وتسلل من تلك الشعاب ووقع إلى ولايته. وسر الناس بعود الأنس والسرور بعوده إلى بلدته. وعلموا أن خطى الخطوب لا تصل في طورها إلى طوده. وكانت عاقبة الأمير قيصر، أنه ضربت ببغداد رقبته. وأودت به في سبيل العقوبة عقبته.

قال أنوشروان: وكان الملك في عهد السلطان محمد مجموعا، وجانبه من الأطماع ممنوعا. فلما صار إلى ابنه محمود فرقوا المجتمع، وضيقوا المتسع. وجعلوا له فيه شركة. ولم يتركوا له منه مسكة. وذلك عند حضور السلطان سنجر. فأول ما اقتطعه سنجر لخاصه مازندران وطبرستان وقومس والدامغان والري ودباوند وأعمالها، وما أفردوه للملك ركن الدين طغرل بن محمد ساره وآبه وسارق وسامان وقزوين وأبهر وزنجان وجيلان والديالم والطالقان. وللملك سلجق أخيه ولاية فارس بأسرها، وشطر من أصفهان من الخوز. وتغلب الأمير دبيس بن صدقة بن منصور على البصرة وأعمالها، والمضافات إليها من البطائح، وكذلك هيت والأنبار وأعمال الفرات والرحبة وعانة، وكذلك أعمال الموصل ونصيبين والخابور، قد تغلب على كل منها أمير، والذي بقي للسلطان أقطع جميعه، وما انحفظ ريعه، وانخفض رفعه. ولم يكن للسلطان خاص لم يكن له عمال، وبطل الديوان، وتدّون البطلان. فإنه لم يبق للديوان شغل إلا أخذ أموال ذوي اليسار، وإسعارنا الإعسار.

وقال عماد الدين في ذكر كمال الملك الوزير: وبينا وزارته في ريعانها، وسعادته في عنفوانها، ودولته في كمال سلطانها، فلم يشعر حتى عاجله القدر فجاءه فجاءة. واستحال في الحال كل مسرة مساءة. وذلك في سنة ٥١٥ هـــ فإن السلطان خرج من بغداد عائدا إلى همذان. فتخلف عنه الوزير يوما على أنه يتبع في غد

السلطان. فلما بكر ركب وقد رتب الموكب، والسيوف بين يديه مسلولة، والغاتشية محمولة. فوثب عليه قوم من بعض تلك الدكاكين، وضربوه بالسكاكين. فحمل جريحا. وبقي في حجرة من غرف السوق طريحا وأحضر من يداويه، واستقل بالجرح آسيه. فلم يحسوا إلا برجل قد قفز من السقف.

ونـــزل عليه بمدية الحتف، فأتلف مهجته، ومحا من الزمان بهجته. فتولى عمي العزيز حفظ مخلفيه، وحلم عنهم حد الزمن السفيه. واستشهد وله ولدان أحدهما عضد الدين محمد، والآخر فخر الدين محمود. فتعصب الولد الكبير ذي الفضل الأوفر. والاعتقاد الأنور، والدين المتين، والعلم واليقين. فولاه السلطان أشرف المناصب، وأرفع المراتب. فزهد في الدنيا مع القدرة، وسلك طريق الانكسار والقناعة بالكسرة. قال عماد الدين: وهو إلى اليوم من سنة ٥٧٩ هــ حسن السيرة، صافي السريرة، خشن العيشة، قال للمعيشة. يلبس السمل [1] البالي ويألف المنـــزل الخالي. ويأمر بالمعروف، ويأخذ بيد الملهوف. ينظر الدنيا بعين العيافة. مقبل على الآخرة والتقوى قد ألبسته شعار المخافة. وتولى أخوه فخر الدين محمود الأعمال الفاخرة إلى آخر زمانه. وظهر قدر مكانه وقدرة إمكانه. والعضد الزاهد فيه زاهد. وفي صرف جاهه عنه جاهد. وكان بينهما تضاد. وتباغض في الدنيا لا تواد. وعضد الدين يرجع إلى فضل وافر، ووجه عن الحق والحقيقة سافر.

قال عماد الدين: عدنا إلى ما ذكره أنوشروان.

ذكر وزارة شمس الملك بن نـــظام الملك

أنشد أنوشروان فيه متمثلا:

لئيم أتاه اللؤم من عند نفسه ولم يأته من عند أم ولا أب

قال: قال لما صرع الكمال، واتسع المجال، سمت همة شمس الملك لطلب الوزارة، وخطب عروسها مع العجز عن افتراع البكارة. فاحتاب لبأسها وأنارت شمسه من مطلعها، وورد على الظماء البرح عد مشرعها. وتولى عزيز الدين أبو نصر أحمد ابن

(١) السمل: الثياب البالية.

حامد منصب الاستيفاء، وقد فضل بالفضل والكفاية جميع الأكفاء. ومن جملة مبتدعاته في الخير أنه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستان يحمل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى مائتا بُخْتي، ومن جملتها أيضا أنه بني بمحلة العتّابيين ببغداد مكتبا للأيتام، ووقف عليها وقوفا مستمره الجدوى على الدوام. والأيتام مكفولون منها إلى أن يبلغوا الحلم بالنفقة والكسوة والطعام، وتعلم الآداب وحفظ القرآن، ومعرفة الحلال والحرام. وصح له التحكم على الوزير بإحكام التدبير. وتولى ديوان الطغراء والإنشاء الشهاب أسعد، وكان معلما للسلطان في أيام والده وتنجز حظه أنه يوليه الطغراء إذا انتهت إليه السلطنة، ولما تولى لم يتغير عليه، وبقي إلى آخر عهده في الطغراء، وتولى أبو القاسم الأنسباذي ديوان العرض، وكان أنوشروان عارضا وهو غائب، وفي مقامه عنه نائب.

قال أنوشروان: كنت أنا قد تخلفت في بغداد في ذلك الأوان لشغل أقضيه وأمر أمضيه. فاجتمع هؤلاء القوم واغتنموا غيبتي، وأخذوا بأخذي وتعويقي توقيعا، وشنعوا علي عملي وعملوا شنيعا. وكان مضمون المثال السلطاني أن الأمر المطاع أعلاه الله أن أنوشروان إن كان في حدود بغداد ألزم بيته بباب المراتب. وسدت عن لقائه طرق الأقارب والأجانب. وإن كان قد وصل إلى بلاد الجبل فيقعد في ولاية الأمير بُرْسُقْ بقلعة كفراش. ويشترط عليه أن لا يطلب المنصب والمعاش. ويحضر مماليكه إلى الدركاه لينتقلوا إلى الخواص من الأمراء، ويحمل ثقلهم عنه مع الانـــزواء. قال: وكان المثال بخط العزيز، وقد مد الطغراء عليه أسعد، وعلامة الوزير فيه: "أحمد الله على نعمه وتوقيع السلطان، اعتصمت بالله". وما وجدت من أنسب إليه هذا القصد غير العزيز فإن الآخرين كانوا مسخرين له وهو المتوحد بالتمييز والتبريز. وكتب الوزير بخط كاتبه أن شغل العرض قد فوض إلى العميد الأجل الأخ زين الدين ظهير الدولة أبي القاسم يعني الدركزيني، فتختم جميع دفاتر العرض وأوراقها وتنفذ حتى تسلم إليه.

قال: وأمضوا إلى طريقي جماعة من الفرسان، لولا إعظام الأمر السلطاني المطاع، لما رعيت حرمة أولئك الرعاع. ولعادوا وحكوا أنهم لقوا مني رجلاً، ولركبوا من الخوف الليل جملا. فامتثلت الأمر وسلمت إليهم موجودي وخرجت من مالي كالشعرة من العجين، ووقع الهجان بتوقيع الهجين. وسلمت نفسي إلى الحبس، وبقي

أمري على اللبس.

قال: عدنا إلى الحديث عن شمس الملك بن نظام الملك قال: فعاد الملك به إلى أدنى استقامة، ووجد إلى كفايته أيسر استنامة. لكنه لم يطو بساط الظلم والمصادرة. ولم يقبض عن التعدي الأيدي المتجرئة على المبادرة. وكان إلى الناس مبغضا، ولمقتهم متعرضا. فلم يكفه ذلك حتى استناب بغيضا، واستطب لمرضه مريضا. وهو الكامل ابن الكامل ابن الكافي الأصفهاني الذي مضى ذكر مخازيه في وزارة الخطير، ووصف بالشؤم والسوء في الإدبار والتدبير. وهذا الكامل ما ناب عن أحد إلا نابه خطب مُبير[1]، ودهمه ملم كبير. كما قال البحتري في سعد، حاجب عبيد الله:

يا سعد إنك قد خدمت ثلاثة ... كل عليه منك وسم لائح
وأراك تخدم رابعا لتبيره ... فارفق به فالشيخ شيخ صالح
يا حاجب الوزراء إنك عندهم ... سعد ولكن أنت سعد ذابح

فبدأ هذا النائب في الأول بأخذ مخلفي الوزير المستشهد وكانت خزانته قد نهبت، وذخائره قد ذهبت. وهم في بيوت الأحزان، يرجون عواطف السلطان. فلم يرض لهم بالعدم حتى سجنهم وحبسهم. وضاعف عليهم محنهم وعرق عظامهم وفرق نظامهم. ثم أمر باستعادة الرسوم والإدارات. ولم يقتصر على قطع الصلات، حتى كتب إلى جميع البلاد باسترجاع ما أخذه أرباب الصداقات لسنتين، ومن أخذ عرضا بأدراره ألزم برد العين فوكلوا في كل بلد بالأخيار والأشراف، وسلطوا أقوياء الشرط على المتضونين[2].

قال: وكان قد عزم السلطان في هذه السنة على الغزاة فصدوه وعرضوا كتاباً من بعض أمراء بلاد شروان يذكر فيه أنني قد استخلصت لكم المملكة الشروانية، وأهلها ينتظرون الراية السلطانية. وأن الملك شروانشاه محصور، وأن الفرج عليه محظور. فإن أردتم تملك الخزائن، واستخراج الدفائن، والاستيلاء على الممالك فاصرفوا إليها الأعنة، واشرعوا نحوها الأسنة. فثنوا عزم السلطان إلى قصد بلاد شروان. فلما

(١) مبير: مهلك.

(٢) تضون: كثر ولده.

وصل وجد الأمر بخلاف ما ذكر، وخرج إليه الملك شروانشاه راجيا أنه قد عاد عيده. وأن يتحلى بعد العطل بطوق الإنعام جيده. فإنه كان فقيرا قد قنع الرعية بملكه وألفوا الانخراط في سلكه. فيحن وطئ البساط طوى بساطه، وعقل نشاطه، وسحب وحبس، وغبن وبخس. وانتظر أهل البلد أنه يعود إليهم مملكا مكملا، مشرفا مجملا. فحين عرفوا الحال أكثروا الصراخ والبكاء، وأثاروا الرجال والنساء، وخربوا عظائم تأنف منها العظماء. واجترحت كبائر تأباها الكبراء. وجر ذلك الخبط خطبا. لم يدع يابسا ولا رطبا. وطمع الكفار المثاغرون [1] فأغاروا. وأبادوا الأعمال وأباروا، وقتلوا خلقا من المسلمين ونـــزلوا قبالة السلطان في ثلاثين ألف عنان على فرسخين، لكن الله تدارك رمق الإسلام بكسر أولئك الأغنام. ونهض السلطان محمود إليهم محموداً ولم يدع في هزمهم مجهوداً، وعاد منصوراً مسعوداً.

ولما حبس الملك وقع الشروع في مصادرة الرعية فلم يحصلوا على طائل ولم يظفروا بحاصل. وكانت للخزانة السلطانية، في كل سنة على الأعمال الشروانية، مقاطعة مبلغها أربعون ألف دينار، فبطل حق تلك المواضعة بوضع الباطل. وطال المقام في تلك البلاد لدفع البلاء، ورفع الأهوال والأهواء. وكان هذا القرار على شروان من عهد سلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، فإنه لما عبر على أران، وصل إلى خدمته الملك فريبرز صاحب شروان بعد امتناعه والتزم بحمل سبعين ألف دينار إلى الخزانة. وما زالت المسامحات تدخل في القرار إلى أن وقف على أربعين ألف دينار. فباء الوزير بالوزر، وقبح الذكر. ولم يحظ في مدة سنة واحدة من وزارته بعمل يذكر به إلا حبس أنوشروان، وتخريب شروان. ولما أبصر السلطان اختلال الأحوال، واختلاط تلك الأعمال سخط على الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وقتله بالسيف صبراً. وذلك في آخر ربيع الأول سنة ٥٧١ هـ بباب بيلقان.

قال أنوشروان: وكان الذي جرى على من الأخذ والنهب بباب حلوان أيضا في آخر ربيع الأول سنة ٥١٦ هـ.

من ير يوما ير به والدهر لا يغتر به

---

(١) المثاغرون: سكان الثغور.

قال عماد الدين: وسبب قتل هذا الوزير أن أبا القاسم الأنسباذي كان رسولاً عند السلطان سنجر، وقرر من أمر ابن أخيه السلطان محمود ما قرر . وذكر له أن الوزير هو الذي أذهب الهيبة وشتت شمل الأجناد، وبت حبل السداد.

وتوسل بكل طريق حتى تنجز كتاب السلطان سنجر إلى ابن أخيه في طلب وزيره وأمره بتسييره. فحار محمود وخشي إن سيره اطلع على سره، وإن لم يسيره أسخط عمه بمخالفة أمره. فأشير عليه بقتله، وتسيير رأسه. فبغت الوزير أقوى ما كان رجاء في الحياة بيأسه.

قال عماد الدين: وعاد حكم المملكة كله إلى عزيز الدين أبي نصر أحمد ابن حامد وكان حينئذ مستوفي المملكة وجاذب زمامها، ومالك نظامها. فسكن السلطان إليه، وعول عليه، وعرض الوزارة عليه فأباها. ووجد مغارس المملكة ذاوية فرواها. وقال: أنا أنفذ أمورك وأوامرك، وأصفّي مواردك ومصادرك، ولا أدع مصلحة تقف، ولا منفعة تنصرف. لكنني لا أتسم بالوزارة ولا أتقلد وزرها. على أنني أتقلد أمرها. فإذا حضر صديقي أبو القاسم الأنسباذي جعلته صدرها. وما عرف أن صداقته عند عودة تعود عداوة، وأنه يتجرع مرارة سم ما ظنه حلاوة. فمكث سنة بالمناصب متوحداً وبالمراتب منفردا. وعاد السلطان إلى مقر ملكه محبواً بالظفر محبوراً، محمود الأثر مشكوراً. واستمر الشهاب أسعد الطغرائي في الإنشاء ومنصب الطغراء.

ولما عاد الدركزيني قال العزيز للسلطان " قد وصل من يكفل بالأمر ويكفي في الحل والعقد. فأنهضه للوزارة، فإني غير ناهض بأوزارها. واتركني ومضائي في غير هذه الخدمة ولا تُقلني بمضارب مضارها. وأنا إن خليت الوزارة اسما، فما أخليها نظرا. وأعذقها بسواي وأكون عليه بحكمي مستظهرا. فيكون أبو القاسم لي قسيما، وأصبح أنا له مقعدا في المصالح مقيما". فقال السلطان " ما أعرف سواك، ولا أعول إلا على حجتك وحجاك" وسيأتي ذكر الحال في ذلك.

قال أنوشروان: وفي تلك المدة، استدعاني السلطان إلى بابه، وانتهت شدة حالي، وانقضت مدة اعتقالي، وأنقذني اللطف الرباني من كيد الخصوم. وعرفتني التجارب أنه لا محيد من المحتوم. وعلمت أنه لا يجدي طلب العز في زمان الذل، ولا يوجد الخصب

في سنة الأزل. وصممت في الاعتزال حد العزم، ونـــزلت على آل المهلب ذوي الكرم والفضل والعلم، كما قيل:

نـــزلت على آل المهلب شاتيا غريبا عن الأوطان في زمن محل
فما زال بي إحسانهم وافتقادهم وألطافهم حتى حسبتهم أهلي

قال: ويعني أنوشروان بآل المهلب الإمام صدر الدين عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت الخجندي بأصفهان وكان أجود الأمجاد، وأمجد الأجواد. فلما ضافه أنوشروان أكرم مثواه، وقبله وآواه. قال: قال أنوشروان: فصرف إليّ الأصدقاء الهمم، وحقق إكرامهم عندي الكرم واستقرضت من تاجر غريب جملة. وكتبت له علي وثيقة فجاءني بعد حين إنسان، وقال مخدومي عزيز الدين يسلم عليك، وقد نفذ هذه الوثيقة إليك، وقال لك أبطلها فإن الدين قد قضى، وصاحبه قد رضي. فعجبت كيف توسل في إسداء هذه اليد إليّ، وأفضاله علي. فبقيت مدة في تلك الضيافة آمنا من المخافة سالما من الآفة. حتى استدعاني السلطان بعد قتل الوزير، وأهلني للتدبير. فامتنعت أياما، وطلبت من الخطر زماما.

ولما وصلت إلى الدركاه رأيت كلا من الجماعة، يقول ما استحضر إلا لسبب، وما استقدم إلا لأرب. قال: فراجعت فكري، وندمت في أمري وقلت أعمال السلطان عواري لابد من ارتجاعها، وملابس لابد من انتزعها. ولو خلصت لكنت فرحت. ولو استخرت الله في الانـــزواء لاسترحت. وكان السلطان في الإذن لي متوقفًا وأنا قد ملت إلى الوحدة والانفراد، وقصرت همتي على هذا المراد. فما زلت به حتى استأذنت منه فأذن لي في الانصراف، وخصني من مواعيد عوائده الجميلة بالألطاف. فساعدني أرباب الدولة من الخيل وغيرها بما حمل أثقالي، ومن الأزواد وغيرها بما ثقل أحمالي. وتوجهت من أصفهان إلى بغداد. وعدمت الملاذ لأجل الملاذ. فلما وصلت إلى حضرة الخلافة وجدت الإكرام، والإنعام والاحترام.

ذكر وزارة الدر كزيني في سنة ٥١٨ هـ

قال: لما وضع عليه اسم الوزارة تبدلت الغزارة بالنـــزارة. وهو أول فلاح ترك

العمل بالفدان. فدان له عمل الترك وحل البقر عن الملك. فحل في دست الملك ففتك وهتك، واستباح الدماء وسفك، وشرع المنكرات، وأنكر المشروعات، وعاد الكرام، وبدد النظام، وظاهر الباطنية، وأظهر السنة الجاهلية، وشرع في الفتك بالأحرار، والهتك للأستار. فمن جملة من فتك به القاضي زين الإسلام أبو سعد محمد بن نصر ابن منصور الهروي وكان أوحد دهره، ونسيج وحده، والمعروف بإسداء المعروف، والمرجو لإغاثة الملهوف. وهو حبر العالم وبحر العلم، والحاكم بالعدل والعادل في الحكم. وقد ملك من قلوب السلاطين القبول، ولم يروا من نصحه وإشاراته العدول. وكان من متعصبي عمي العزيز، المخصوصين في الفضل والإفضال بالتبريز. فتقررت له بعد وزارة الدركزيني رسالة السلطان الأعظم سنجر، وسار إلى خراسان في البهاء الأبهر، والجمال الأوفر. فصعب على هذا الوزير أمره، وتقسم سره، وعرف أنه إذا حضر هناك الهتك ستره. فإنه كان موّه ولبس، وأخفي أحواله عند السلطان سنجر ودلس. فعرف أن الهروي يهرّيه، وينـــزع لباس تلبيسه ويعريه. فقرر مع عدة من الباطنية أنهم فتكوا به عند عوده من رسالة خراسان. وقد حضر للصلاة في جامع همذان. فاستشهد قبل أن يشهد السلطان وذلك في سنة ٥١٨ هـــ.

قال: وكان حينئذ بالموصل آق سنقر البرسقي الغازي المجاهد التقي النقي. فدخل في وزر ذلك السعيد الوزير الشقي. فإنه كان قد قمع أهل الإلحاد، وغمه أمر هذا الوزير الذي سد باب السداد. وتوسل الوزير عند السلطان في عزله فلم يقدر، وبالغ في كل مكيدة ولم يقصر. ولما أعياه أمره استدعى إخوانه من الباطنية، حتى جلسوا له في جامع الموصل بزي الصوفية، وقفزوا عليه وضربوه بالسكاكين. فَحلَّ به مصاب المسلمين. وذلك في ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـــ. وكان وزير السلطان سنجر في ذلك العهد الأجلّ معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود وقد مضى ذكر كرمه وفضله في زمان السلطان محمد وتوليه ديوان الاستيفاء. ولقد كان موئلا لأهل الرجاء. وهو من ممدوحي القاضي أبي بكر الأرجاني وله فيه قصيدة صادية أولها:

روّحا ساعة متون القلاص وأحفظا وقفة بتلك العراص
ياخليلي من سراة بني الأقيال والغر من بني الأعياص
واسياني فللأخلاء قدما بالتواسي في النائبات تواص
كيف أشكو خطبا ومختص ملك الأرض أضحى بالقرب منه اختصاصي
وإذا استنصر الهمام أبو نصر أطاعت لنا اللّيالي العواصي
ذو ندى يستهل كالدِّيمة الكسب ونشر كالكوكب الوبَّاص
وبنان يريك للقلم النا حل فضلا على القنا العرَّاص

قال: فأنف من وزارة الدركزيني بالعراق. ولقد كان على الدولة شديد الإشفاق. وعرف الدركزيني أن نقصه مع فضل أبي الفضل باد، وأن أمره مبني لعمي دهره عنه على عماد. فلم يزل يعمل كيده في نكبته، ويتسلق بالمكر على هضبته، وباطن الباطنية في قتله. وفرع فكره لشغله، فوجده متحرزاً متيقظا، متحرسا متحفظا. فبث عليه حبائله، وأدب إليه غوائله، وسيَّر إلى خراسان عدة من الملاحدة. فتوصل منهم واحد إلى أن خدم في اصطبل الوزير المختص سائسا لدوابه. فأراد يوما عرض الخيل فحضر ذلك السائس وهو عريان، وقد خبأ سكينة في ناصية حصان. فأطلق حصانه من يده حتى شغب واستخرج من ناصيته السكين ووثب، وتعمد مقتل الوزير فأصابه. وعظم على الكرام مصابه. وبُضع السائس في الحال تبضيعا ومزعوه تمزيعا. وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ هـ.

ومازال الدركزيني يتتبع الأكابر، فمنهم من يقتله جهارا بإذن من السلطان، ومنهم من يقتله غيلة بمن يتخذه من أولئك الأعوان. قال: وكان سبب ميل الباطنية إلى الدركزيني أن الأميرَ شيركير -رحمه الله- كان مشتغلا بحصار قلعة الموت، وقد قارب فتحها. وشارفت الآمال في أخذها نجحها. فلما توفي السلطان محمد، وتولى ابنه محمود وتمكن الدركزيني من الدولة، أعمل الحيلة في استدعاء شيركير، ونفس عن القلعة، ثم لم يزل يدقق الاحتيال حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها ومساوئ لفّقها، حتى اعتقل ذلك الأمير مع ولده شرف الدولة، ولم يزل يطلب غرة السلطان في أمرهما

حالتي سكره وصحوه، حتى أخذ رخصة في سفك دمهما الحرام، وأذهب بقتلهما قوة الإسلام. واتخذ بذلك عند ذوي الإلحاد يدا، واستكثر له من أعوالهم مدداً.

وقال: وكان عمي العزيز يحسب أنه إنسان، وأن جزاء الإحسان له منه إحسان. فلما أحس بشرارة شرّه، وضراوة ضره فكر في طريق الانـــزواء، والخلوص من تلك الأهوال والأهواء. فاستأذن في الحج، فسار في سنة ٥١٧ أو ٥١٨ هـــ ، وكان حاج تلك السنة بأجمعهم في ضيافته وكرامته. وعمهّم شمول عارفته، حتى قال الرئيس أبو الحارث البغدادي فيه:

يا كعبة الإسلام ما لي أرى ... إليك تسعى كعبةُ الجود
تقصد في العام وهذا الفتى ... لم يُلْفَ يوما غير مقصود

وهنأه عند عودة القاضي أبو بكر الأرجاني بقصيدته النونية المشهورة التي أولها:

ورد الخدود دونه شوك القنا ... فمن المحدّث نفسه أن يجتني
لا تمدد الأيدي إليه فطالما ... شبوا الحروب لأن مددنا الأعينا
ما إن جفوت الطيف إلا ليلة ... والحي قد نـــزلوا بأعلى المنحنى
لما ألم وقد شغلت بمدحة ... لعزيز دين الله فكري موهنا
في ليلة حسدت مصابيح الدجى ... حكمي وقد كانت لها هي أزينا
قلمي بها حتى الصباح وشمعتي ... بتنا ثلاثتنا ومدحك شغلنا
حتى هزمنا للظلام جنوده ... لما تشاهرنا عليها الألسنا
أفناهما قطي وأفنيت الدجى ... سهراً فأصبحنا وأسعدهم أنا
لله مقدم ماجد أضحى به ... عنا لنازلة النوائب مظعنا
أمنت إساءته عداه لأنه ... مذ كان لم يحسن سوى أن يحسنا
أتبعت غزوتك الحميدة حجة ... فقضيت أيضا فرضها المتعينا
وجررت أذيال الكتائب موغلا ... في الأرض خلف بني الخبائث مثخنا
حتى غدت تلك المجاهل منهم ... وكأنما هن المناحر من منى

قال: ولما عاد من حجه، استعفى السلطان من شغله، فما أجابه إلى مراده، ولا مكنه من انفراده، وأعاده إلى منصبه على العادة، وأشرق به مطلع السعادة. وأصبح الوزير يجول في مكر مكره، وييسر له ما يرجع بشغل سره. وعادت تلك الصداقة عداوة، والمعرفة نكرة وغباوة. وعبرت على ذلك مدة فثبت العزيز على الاستعفاء، وترك منصب الاستيفاء. فقال السلطان "إذا كنت مستعفيا، ولا تؤثر أن تكون مستوفيا، فما لي أعز من الولد والمال وقد سلمت إليك خزائني وأولادي وبهذا يحصل مرادك ومرادي". فلما خلا منصبه منه، ورغب العزيز عنه تولى الصفي أبو القاسم الجنـــزي ديوانه، وجلس مكانه.

فتوازر هو والوزير والجماعة على قصد العزيز فلم يقدروا على مَضَرَّة، ولم يعثروا له على عثرة. ومضت على وزارته ثلاث سنين وشمل العدل بغير التمام، وسلك الملك بلا نظام. والمعاقد غير مبرمة، والقواعد غير محكمة. وتفرغ العزيز لإعلام السلطان بالتشويش والتشويه، وحصول كل أمر كريم به في الأمر الكريه. فأمر السلطان بقبض الوزير واعتقاله، وسلمه إلى العزيز ليريح الناس من شره واغتياله. فرأى أن إهلاكه على يده شنيع، وأن ذكره بالفتك وهو ليس من أهله فظيع. ودبر في تولية وزير يسلمه إليه، وهو لأجل الخوف على منصبه منه يقضي عليه. فسعى في استدعاء شرف الدين أنوشروان بن خالد بن محمد من بغداد. فلما حضر واستوزر، حمل الدركزيني إلى داره على حاله، وصيَّره في اعتقاله.

وكانت في أنوشروان ركاكة ظاهرة، ووضاعة لخلق الرفعة قاهرة. فلما تسلم الدركزيني ضرب له في داره الخركاه وأذن لكل صاحب له أن يدخل إليه ويلقاه. وكان في كل يوم يدخل إليه ويجلس بين يديه ويخاطبه بيا مولانا، وأنت أولى منا بالمنصب الذي خصنا به السلطان وأولانا. فسقطت حرمته، وذهبت هيبته، واتضعت وزارته، وعرفت حقارته. وخيف عود الدركزيني بعد استقرار سلامته إلى منصب كرامته. فشرعوا في إعادته، وجروا على إرادته. وهو جالس في دار أنوشروان والناس متناوبون إليه لتقرير وزارة السلطان. فما شعر أنوشروان حتى أُخرج من داره، ورُدَّ إلى مقره على قراره. وأذن لأنوشروان في العود إلى موضعه، والغيض في منبعه. فرأى الغنيمة في الإياب، واغتنم السلامة التي تكن له في الحساب. قال: وكانت وزارته سنة

واحدة على ما أورده في بابه. والآن أذكر ما ذكره عن نفسه في كتابه.

ذكر وزارة شرف الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد

قال أنوشروان: كنت قد اتخذت بغداد مدينة السلام دار المقام، وأنا من حفظ الله في أوفى ذمام. فجاءني كتاب السلطان محمود وخاتمه. ووصل رسوله وخادمه يستحثني في الوصول إليه. ويستعجلني في المثول بين يديه. فحين حضرت الخدمة شافهني بالتقليد، وخصني بأمره الأكيد. وكمل لي تشريف الوزارة وخلعها، وأدواتها محلاها ومرصعها. ودواة الذهب والسلاح المجوهر. فجلست في الوزارة سنة وأشهرا، لا أقدر على الخطاب في مصلحة، ولا على التنفس بفائدة مترجحة. وصاحبا يميني ويساري الشهاب أسعد الطغرائي والصفي أبو القاسم المستوفي والأمير الحاجب الكبير حينئذ أرغان. وامرأته خلف الستر قهرمانة السلطان. فلما رأيت اتفاقهم على ما هم فيه، قلت في نفسي: لا يظهر لي في الناقصين فضل، ولا يقبل منهم صرف ولا عدل. فاستعفيت واخترت العزل على التولية، وأحدث نفسي عن الولاية بالتعزية والتسلية. ونفضت يدي من صحبتهم. قلت العفاء على تربتهم ورتبتهم. وعاد الدركزيني إلى الوزارة فإنه أرغب أرغان الحاجب بالرُّشي. ومشى به غرضه فمشى. ورجع كالكلب، والبغل الشغب. وهابه من لم يكن يهابه وامتلأ باللؤم والشر إهابه.

قال: فعدت إلى بغداد متأنسا بالوحشة آلفا بالوحدة. فلما وصل الدركزيني إلى بغداد، اجتهد أن ينالني شره. فعصمني الله من كيده، لا لإساءة إليه مني سبقت، ولا لضغينة عليّ بقلبه علقت. فإني كنت أسلفته في حال حبسه وعزله إحساناً، وقلدته امتناناً. ولم أترك في الإنعام إمعانا. ولما كلأني الله من غائلته، مد يده إلى مالي، وأنزل النوازل بأسبابي. وقد كنت بنيت على دجلة داراً فادَّعاها لنفسه مُلكا، واستحضر عدولا شهدوا له بالملكية زورًا وإفكًا، وانتقل إلى الدار بحكم الشرع، وصير باطله حقا ببيناته الكاذبة في الأصل والفرع.

قال: واجترأ على الاجترام واجتراح الآثام، وسفك دم الكرام. فتارة يظهر التسنن بإراقة دم العلوية. وآونة يدعي التشيع في قتل الأئمة السنية. فمن جملة من سفك دمه، ورام عدمه، علاء الدولة رئيس همذان، وكان شابا حسنا شريف النسب،

كريم الحسب. وكان بأصفهان قد حضر مجلس الوعظ. فقام إليه رجل من أصحاب الدركزيني فضربه بسكينه. وفرى بمديته حبل وتينه. وكذلك عين القضاة الميانجي بهمذان. كان من الأكابر الأئمة والأولياء ذوي الكرامات. وقد خلف أبا حامد الغزالي -رحمه الله- في المؤلفات الدينية والمصنفات. فحسده جُهال الزمان المتلبسون بزي العلماء. ووضعهم الوزير عليه فقصدوه بالإيذاء. وأفضى الأمر به إلى أن صلبه الوزير بهمذان. ولم يراقب الله فيه ولا الإيمان. وكذلك الملك علاء الدولة بيزد سعى في دمه، وهتك حرُمه. وكذلك رئيس ساوه، اعتقله ثم قتله، وتتبع البيوت الكبار واقتلعها، والجبال العظام فزعزعها. ومن جملة أفعاله القبيحة، وأقواله العائدة على الدولة بالفضيحة، أنه حسّن للسلطان وقد وصل إلى بغداد في سنة ٥٢٠هـ أن زَحَفَ بعسكره إلى دار الخلافة، وقالوا وفعلوا ما لا يحسن ذكره، واعتمدوا كل ما قبحت سمعته وعظم وزره. وكان حينئذ وزير الخليفة المسترشد بالله -رضي الله عنه- جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة فتوسط للأمر بكفايته، وكشف تلك الضلالة بهدايته. وكان صديق عمي العزيز، -رحمه الله-، فتعاونا على الإصلاح. وآسوا الجراح. وحملا السلطان على معاودة طاعة إمامه، والتصرف على أوامره وأحكامه. وذلك في أواخر ذي الحجة سنة ٥٢٠ هـ أو أوائل المحرم سنة ٥٢١ هـ.

ولما قرب مسير السلطان من بغداد حدث به مرض ضعف منه جسمه وقلبه، فاعتقد أن ذلك من شؤم خلافه الخليفة، فجلس في محفة ووقف على باب الحرم للمواقف الشريفة. وأبدى الإعظام والإجلال، وطلب العفو والاستحلال. فخرج إليه التوقيع الإمامي بأجمل جواب، وألطف خطاب. وطابت نفسه، وزاد بذلك أمله في البر وأنسه. ووصل إلى همذان وقد أبلّ وتوفرت له صحة الصحة، وشكر الله تعالى على رواح المنحة.

قال عماد الدين -رحمه الله-: وفي هذه السنة عزل الدركزيني وولي أنوشروان كما سبق ذكره، ثم عزل أنوشروان بعد سنة وأعيد الدركزيني، وما زال عمي العزيز في عصمة من شر الوزير، حتى أخبر السلطان بأن عمه سنجر قد سير في طلب ميراث ابنتيه وجواهرهما رسولا، فإنه كان قد تزوج بإحداهما، فماتت ثم تزوج بالأخرى فماتت أيضا، فوضع الدركزيني من قال للسلطان " إن رسول عمك واصل إليك

بسبب تلك الجواهر، وأنه لا يعود عنك بما تقرره من المعاذر. وقد رضي سنجر بشهادة العزيز، فإنه أمينٌ قوله صادق، والسلطان سنجر بصحته واثق. ونحن نرى أن تحبس العزيز في بعض المعاقل محفوظا من الغوائل. حتى إذا وصل الرسول وأدى رسالته، وطلب العزيز وشهادته قلت له: " هذا صاحبنا وقد نقمنا منه أمرا، فعزلناه، وقبضنا عليه واعتقلناه. وما بقينا نرجع إليه في الشهادة. وسؤال المحبوس خلاف العادة". فتلوم السلطان محمود وتذمم، وتردد فكره وتقسم. ففاوضه الدركزيني وهون عليه الأمر، وسهل عنده الوعر، وقال له "إذا كنت معتنيا فما يضره القعود مصونا وما يعيب الدر مكنونا والذخر مخزونا". قال: "وأنا أطلق لك من مالي ثلثمائة ألف دينار إذا حبسته، وأقوم بأدائه إذا أجلسته".

فمال إلى المال وحال بالمحال. فاستدعى عمي العزيز من داره وعرفه بغرضه، ثم أمر بالتوكيل به على أجمل وجه، وكان ذلك والسلطان حينئذ ببغداد في أوائل سنة ٥٢٥ هـــ، ثم قالوا للسلطان: الصواب إنفاذه إلى معقل فقد قرب وصول الرسول. فسلم العزيز إلى بهروز الخادم شحنة بغداد، حتى سيره إلى تكريت، فلم يلبث السلطان بعد حبسه إلا قليلا. وكم تلا (يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا). وذلك أنه لم يسمع رسول عمه عند حضوره ما قيل عن رسالته. واستدل بذلك على كذب الوزير في مقالته. وأرسل إلى الوزير وطالبه بالمال فزاغ عن مطلبه، ومطل به. وسير إلى أصفهان فقبض على والدي صفي الدين وعلى عمي ضياء الدين واعتقلهما بقلعتهما ونهب وسلب. واستولى على أملاكنا وأموالنا واستوعب. وأما العزيز، فإن السلطان كتب إليه بتكريت يعده ويأمره بالصبر ويقول "إذا أخذت من الوزير ما بذله فأنا لا بد أن أطلقك وأعتقله"، والوزير في كل مدة يزن له شيئا من المال، ويريه أنه من عنده ومن ذهنه، ولا يعلم أنه جباه من مال المصادرات، وجاء به ووعده بالباقي إلى همذان. وفي القدر أن بقاءه قد انتهى وأن حينه قد حان. ورحل السلطان من بغداد ومرض في الطريق واشتد مرضه. ثم فارق جوهره عرضه. وذلك في شوال سنة ٥٢٥ هـــ. وذكر أن الوزير سمه في طعامه فإنه لما قصر في أداء المال، ونظر في سوء المآل، شرع في اغتيال السلطان على وجه الاحتيال، فتمم له تأميله. وحين مضى السلطان لسبيله وضح في التسلط سبيله.

قال: وكان قد اتفق وصول السلطان سنجر إلى الري في سنة ٥٢١ هـ قبل مضي السلطان محمد إلى بغداد، فعاد إلى خراسان واستصحب الملوك معه تأنيسا لقلب محمود، باستصحاب طغرل ومسعود. عاد محمود إلي سريره وتفرد الوزير بتدبيره. ومن الاتفاقات العجيبة والواقعات الغريبة أنه اجتمع في ذلك العهد في خركاه واحدة السلطان سنجر والأخوة الأربعة: السلطان محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان، والوزير الدركزيني، والنصير محمود بن أبي توبة وزير سنجر. وهناك رجل يقال له الفلك، وهو من الندماء المطبوعين. فقام وصلى ركعتين ورفع إلى السماء اليدين. وجعل يدعو الله ويتضرع، ويبتهل إليه ويخشع. فاستدعاه سنجر وقال "ما هذه الصلاة والدعاء" فقال "ناجيت الله تعالى وقلت: هؤلاء العصبة الذين اجتمعوا في هذه الخركاه هم أصول الفتن وفروع المحن فاخسف بهم هذه البقعة، وانفض عنهم هذه الرقعة، حتى يسلم خلقك، ويسلم حقك. فضحك منه سنجر، واستخف النديم المتمسخر.

فلما عاد محمود سار إلى بغداد، وشرع في إزهاق النفوس فأزهقها. والأخذ بمشورة الوزير لنفاقها عنده مع نفاقها، ولا جرم أنه ما تمتع بعمره بعد قطع تلك الأعمار، وانتقل بجوره وجبروته إلى جوار الجبار.

قال: وحكى نجم الدين رشيد الخادم الغياثي أنه حضر السلطان محموداً وهو يتقلب على فراشه في سكرة الموت ويقول "ادفعوا عني شيركير وولده فقد شهرا سيفين ليقتلاني". وكان يكرر هذا القول إلى أن قضى نحبه ولحق بربه. وما عصبت به هذه الوزر إلا عصبية هذا الوزير. فإنه عجل له سوء الأدبار بسوء التدبير. وكان السلطان محمود محمود الخليقة مودود الطريقة، إن ترك وطبعه، ولكنه بلي بأنواع من البلاء من أعوانه، ونغصوا عليه مشروع سلطانه. وفرقوا في ابتداء دولته خزانة أبيه، واستضعفوا جانبه وطمعوا فيه. قال: ووجد تفصيل بخط عمي العزيز -رحمه الله-، أن الخزانة الغياثية المحمدية كانت تشتمل على ثمانية عشر ألف ألف دينار، سوى الصياغات والجواهر الثمينة، وأصناف الثياب المعدنية. فآل الأمر إلى أنهم احتاجوا إلى إقامة وظيفة الفقاع، فلم يجدوا ما يصرفون فيها من المتاع. فأخرجوا إلى الفقاعي عدة من صناديق الخزانة التي فرغت، فباعها بما بلغت. وحتى طلب السلطان من شابور الخازن غالية، فاستمهله أياما وادعى إقلالا، ثم أحضر ثلاثين مثقالا. فقال السلطان

لشابور وكان خازن أبيه " حدث لجماعات بما كان في خزانة أبي من الغالية" فقال شابور: " كان في قلعة أصفهان منها في الأواني الذهبية والفضية، والبلور والصينية، ما يقارب مائة وثمانين رطلا، ومعنا في خزانة الصحبة مقدار ثلاثين رطلا". فقال السلطان للحاضرين: " اعتبروا بالتفاوت بين الأمرين وفصل ما بين العصرين"، قال: وكان محمود قوي المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال الأدبية، عارفا بالتواريخ والسير، ناظرا فيما يوجب الاعتبار من الغير.

ذكــــــر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود إلى أن استقر الملك لطغرل:

قال -رحمه الله-: كان قد تفرس الوزير في السلطان محمود أنه موعود، وأنه في الأحياء غير معدود. وحين فارق كنفه، ورافق كفنه، استصحب إلى الري مع عساكر العراق، وتظاهر على الاتفاق. وأمراؤهم بُرسق، وقِزل، وقراسنقر وقراطُغان وغيرهم. وأقاموا بها تلك الشتوة، وعقدوا بها على انتظار السلطان سنجر الحبوة. ولبثوا من يوم موت محمود إلى حين وصول سنجر أكثر من خمسة أشهر. فوصل إلى الري في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـــ ، واستقبله عساكر العراق مع الوزير، وجلس سنجر على السرير. ووصل بعده ليلا طغرل سحرة، ولقى عمه بكرة. فترجل له الوزير الدركزيني فما احترمه طغرل ولا التفت إليه، ولا قبله ولا أقبل عليه. وكان الرسول قد أرسل إلى طغرل بتحفة ونسخة عهد، إبانة عن نصح وشفقة وبذل جهد.

قال: وحكى زين الدين المظفر ابن سيدي الزنجاني -وهو الرسول- أنه لقى طغرل بجوار الري فمثل بين يديه، وأوصل هدية الوزير إليه. فلم يجعل لها وزنا، وأظهر عند رؤيتها حزنا. وذكر أتابكه شيركير وشرف الدولة ولده، واغرورقت عيناه وأبدى عليهما كمده. وقال "أين هما في هذا اليوم ولو عاشا لكانا أنفع لي من هؤلاء القوم ". ولما عرضت عليه اليمين بأن فيه أثر السخط فشرع فيها متلفظا، ومن أن يمين متحفظا. فلم يتفوه بروابطها، ولم يتنبه على شرائطها. ولما رجع الرسول إلى الوزير عرفه ما جرى وأخبره فلم يكترث بتلك الحال، اغتراراً بقوة الاحتيال.

قال: وكان وزير السلطان سنجر نصير الدين محمود بن أبي توبة فأنعم على الدركزيني بفروع الري لتلك السنة. فإن الري كانت من الأعمال السنجرية وواليها من

أصحابها الأجل المقرب، جوهر المعروف بالأمير الأجل. فلما فرع الوزير الفرع ووزعه، منعه الأمير الأجل ووزعه. فأغلظ الوزير له في المقال، وكان ذلك من أسباب حتفه في المآل. قال: ورحل سنجر إلى همذان وخيم بها ثلاثة أيام ثم نهد إلى نهاوند وحث على أتباعه الجند. لأن الخبر وصل بأن الملك مسعودا وصل مستعدا للملك ومعه صاحب فارس أتابك قراجة. ولما سمع طغرل بإقبال أخيه مسعود لم يطمع من السلطنة في مس عود. فعزم على الرحيل فأحس سنجر بعزمه وسير إليه الوزير والأمير الحاجب وهو محمود القاشاني، والأمير قماج وجماعة من أمراء العسكر الخراساني. فأتوه وهو واقف على تلعة حذاء كنكور وبلغوه رسالة عمه سنجر، وأنه ولاه سلطنة العراق، وسلطنه على ولاياته، وأنه ولي عهده، ومالك خراسان من بعده. فهوى إلى الأرض مقبِّلا، وجرى القدر بملكه من السماء فأصبح مقبلا وسار سنجر إلى نهاوند بعد ثلاث، ونفذ السلطان طغرل في العسكر العراقي فجاءهم الخبر بأن مسعودا أمسى عائدا إلى أذربيجان على سمت دينور، وما في عزمه أن يلقى عمه سنجر، فأغذّ الجماعة إليه سائرين، وهجروا تلك الليلة الكرى ووصلوا السير بالسرى. فما أسفر الصبح إلا وليل العجاج خان والخطيُّ يهتز من يمين الشجاع كأنه جان. والكوسات تذعر، والبوقات تنعر. وصادفوا العسكر المسعودي على موضع من عمل دينور يقال له بَنْجَنْكُشت، مرت تلك الجيوش به فامتلأ الملأ وماج المرت، وجاش الموت، وطلعت راية السلطان الأعظم سنجر وهو تحت مظلته، كالقمر في هالته. وعلى ميمنته السلطان طغرل والأمير قماج، وعلى ميسرته خوارزمشاه وعدة أمراء مساعير يسعر بأسهم الهياج. فحملت ميسرة مسعود على ميمنة سنجر وفيها السلطان طغرل فصدمتها وهزمتها، وركض طغرل في الهزيمة. ثم تحيز إلى عمه ووقف في قلبه، وثبت بجنبه. وحملت ميسرة سنجر على ميمنة مسعود ففرقت نظامها، والتهمت لهامها. وفرّ قراجه ووقف في خواصه. وكانت لسنجر صفوف وراء صفوف، فخرقها إلى القلب، ودارت في الإحاطة بها رحى الحرب. وكان أشجع أهل زمانه فأثبت في مستنقع الموت رجله، ولم ير في الإقدام بالروح بخله، فلما كسر أسر. وقبض معه من أمرائه على يوسف الجاوش ووزيره تاج الدين بن دراسس.

ثم ركب السلطان بعد ثلاثة أيام، ووقف على تلعة، فأحضر بين يديه قراجة

ويوسف وهو مطرق لا يضرع له ولا يخاطبه. فضربت رقبتهما، وطويت ورقتهما. ثم انصرف السلطان سنجر ذلك اليوم وارتحل من غده، فلما وصل إلى كورشنبه، خلع على السلطان طغرل وسايره على انفراده. ووصاه ببلاده وتلاده. وأفضى إليه بأسراره وأسرَّ إليه بمفاوضاته. وأمره بأن يكون مع رضاه ونهاه عن معارضاته. فقبّل عين الوزير ذاكره لماذا كره عمه. وظن أنه سر يخفر فيه ذمامه ويخفي ذمه. ثم دعاه وودعه وأودعه من النصيحة ما أودعه. وانصرف إلى الري راجعا، ولمصالح الممالك جامعا.

ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان

قال -رحمه الله-: جلس طغرل على سرير الملك بهمذان، بعد انصراف السلطان سنجر إلى خراسان في جماد الآخر سنة ٥٢٦ هـ، ووزيره القوام أبو القاسم ناصر بن علي الدركزيني الأنسباذي استبد بتمشية الأمور، والأمر والنهي على الجمهور. وكان لا يوقع في الأمثلة السلطانية مظهرا أنه وزير سنجر. وإنما خلفه بالعراق ليهذب الممالك ويدبر. وهو في هذا الكبر نشيط، والسلطان طغرل منه مستشيط. فهو في بث العدل، والوزير في بث الحبل. وذاك يعطي وهذا يأخذ، وهذا يورط وذاك ينقذ. ووصلت رسل الإمام المسترشد بالله فلقيهم الوزير بعبوس وبؤس، ووقعهم بالنجه، وواقحهم بالجبه. وضيع للطمع في الرشي الرشد، وضل عن نهج الضلالة التي تشد. وأفسد ما صلح، وجرى على خلق الفلاحة وما أفلح. وانفصل الرسل ولم يستقر بين الإمام والسلطان قاعدة، وكلما ظنت متقاربة عادت وهي بعادية عادة الوزير متباعدة.

ذكر ما جرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه

قال -رحمه الله-: كان داود ولي عهد أبيه، وآق سنقر الأحمديلي أتابكه ومربيه، وهو بأذربيجان في جمع كثير، وجم غفير. وقصده خواص والده وتغضبوا له وتعصبوا، وثابوا إليه ووثبوا. ومعهم الأمير سعد الدولة يرنقش الزكوي، وكان من أجل أمراء الخدم، وأحدهم في إحياء رسوم البأس والكرم، ومعهم ابنا قراجة إيلرمش وأخوه، وعدة من الأمراء هم الأعيان والوجوه. ومن أرباب العمائم الصفي الأوحد أبو القاسم، الذي جعل مستوفياً للسلطان محمد بعد العزيز. فحملهم على التبريز من

تبريز. ونهض السلطان داود في سنة ٥٢٦ هـ إلى همذان، ولما قرب من معسكر عمه طغرل انحازت عدة من أمرائه الأتراك إلى خدمة طغرل، منهم: بلنكري وأخوه، مع عصبة ذات عصبية، وكذلك شيمة الأتراك غير الوفية.

وبرز طغرل في جنوده المتفقة، والبنود المختفقة، فلما تصاف العسكران وتضايق العثيران وقع البيض على البيض[1]. ولم ير إلا بحر الدم يجود من الغيظ بالفيض. ومضى الظهر ولا صهور. وقد حمي بالصدور الظهور. وظفر العم وعم الظفر. ونفر ابن الأخ وفر منه النفر. وانهزم آق سنقر بداود. وباء الباقون بأغلال وقيود. وقتل في المعركة إيلرمش بن قراجة مقدماً، وبذل روحه في الملتقى مكرماً، وأخذ سعد الدولة يرنقش الزكوي فاعتقل في همذان عند الوزير في قصره، وأمضى على سبعين ألف دينار فصل أمره. وتسلم منه قلعة قزوين، وخلت منه بلاده وذوين. وأخذ أيضاً الصفي المستوفي المعروف بأوحد بجروز وحبس عند جاولي جاندار، وسأل الوزير أن ينقله ويعتقله عنده بالدار، فما رخص فيه السلطان، ولا تمكن منه ذلك الشيطان، فإنه كتب إلى طغرل يقول "إن سلمتني إلى الوزير أسلمتني إلى المبير، وأنا أعطيك مائة ألف دينار على أن أسلم لا أسلم، ويستصفي مالي لا الدم".

فلما يئس الوزير من وقوعه في يده، أفكر في حيلة ضعف بها مال مصادرته، حتى أدى مائتي ألف دينار، وذلك أنه قال للسلطان طغرل: "إن عمك أمرني أن أضرب الدينار الركني في همذان، حتى يتفق نقد العراق وخراسان".

وتقدم بضرب ألف دينار بذلك العيار، ونادى بالتعامل به في تلك الديار. وطولب الصفي الأوحد بذلك النقد من غير تضعيف العقد. ثم إنه صادر الأمراء وأمر بالمصادرات، وبيت بالأذى ذوي البيوتات. فقرر على قتل الرشيدي -وكان أستاذ دار السلطان محمود- ثمانين ألف دينار، ثم غدر به الوزير، فاستخرج من ودائعه ثلاثين ألف دينار أخرى فقرته وافتقرته، وكسرته وخسرته. وأخذ من الجمال بن منارة البيع في همذان، ثلاثين ألف دينار. وولى فخر الدولة بن أبي هاشم الحسني رئاسة همذان، وأخذ منه عشرين ألف دينار. وقرر على تاج الدين دولتشاه بن علاء الدولة ووالدته

(١) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة من فولاذ.

ووزيره مائة وخمسين ألف دينار. وصادر الأكابر، وصدر الكبائر. وجر العظائم وعظيم الجرائر. ووزع على بلاد الممالك بعلة صياغات بيت الشراب والمطبخ ألوفاً مؤلفة، فاطلع السلطان طغرل على طغيانه وتسلطه، فأنفذ إليه: "إنك أسأت سمعتي وأسمعت مساءتي، وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي. ألم يكفك سلخ جلود العظماء حتى شرعت في استفراغ دماء الضعفاء، واستنـــزاف دماء الفقراء". فكف الوزير عن التوزيع بعد جباية الأكثر، والخيانة في الأوفر.

وسمع السلطان طغرل بتحرك أخيه مسعود، وخروجه مع آق سنقر في جموع وحشود. فارتحل صوبه إلى أذربيجان. فلما سمع مسعود بقربه لم يقف لحربه، وأغذ السير إلى بغداد في حزبه. ودخل طغرل إلى مراغة وكان الوزير في تأخر عنه، فانتهز فرصة غيبته وبسط يد معدلته. فجاءه الوزير فجاءة وجر عليه جراءة، وبطل الحق وعطل العدل. ووجه على وجوه البلاد البلاء. ومثل بالأماثل وإلى الرؤساء أساء. وصادر زرقان رئيس تبريز على سبعين ألف دينار من الذهب الإبريز. ودخلت الشتوة، وقصرت الخطوة. واختار السلطان طغرل دخول تبريز والمقام في قلعتها إلى حين انحسار شتوتها وانكسار سطوتها. فاجتمع عسف الوزير وعصف الزمهرير، وإدبار المسيء وسوء التدبير. وكان المستولي على فارس بعد قراجة منكوبرس، وقد اجتمع عليه الترك، فكتب إلى السلطان يطلب ولده ألب أرسلان ليذعن بالطاعة، والاعتراف بالتباعة. فأوجب ذلك رحيل السلطان والطرق مسدودة، والسبل مصدودة. فتضرر الظهر وظهر الضرر، ونفقت الدواب وتضور العسكر. ووصل إلى أصفهان، وأنفذ إلى فارس ولده ألب أسلان. فوقعت على منكوبرس حينئذ على الحقيقة سمة الأتابكية، ودرت له أحلاف الحرمات البكية[١].

(١) البكية: الكثيرة البكاء.

ذكر حوادث جرت في أثناء ذلك من السلطان مسعود وأتابك آق سنقر الأحمديلي

قال -رحمه الله-: لما قصد السلطان مسعود بغداد عبر على تكريت وكان واليها الأمير نجم الدين أيوب، وعمي عزيز الدين عنده. فقال مسعود: لا يستتب أمري إلا بوزارة العزيز، فإن الأمراء يميلون إليه، وإذا استوزرته كنت في حرز حريز. فنفذ إليه خادمه عماد الدين صواباً والأمير أبا عبد الله الدووي ومعه مقدمين وحجاباً. وطلبوه من الوالي، فأظهر الأمير طاعة الوالي. لكنه أضمر نية اللاوي وليّ المناوي. فإن صاحبه كان مع السلطان طغرل، فحصل في الأمر المشكل. إن سلمه خشي في العاقبة عقوبة صاحبه الغائب، وإن لم يسلم خاف من سخط السلطان الحاضر العاتب. وأخرجه من القلعة إلى المشهد بالمدينة واستغل بحمل أسباب التحمل والزينة. ولم يزل يدافع الوقت حتى حان المغرب، وخان المطلب.

فعزم العزيز على الخروج فيمن معه، وتسابقوا إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت قبل وقت إغلاقها. وعند ذلك، عاد وثوق الآمال بالانطلاق بوثاقها. وطلبت المفاتيح وقد حملت إلى القلعة. فباتوا على مضضهم في تلك البقعة. فلما أصبحوا وجدوا صطماز أحد مماليك بهروز، وهو شحنة الحلة، على الباب. وقد استتبع جماعة من الأوباش والأوشاب. وقد ساق في ليلة واحدة أربعين فرسخاً، وجاء لمن بالقلعة مصرخاً. ودخل على العزيز وأخذ بيده ورده إلى القلعة وقال للقوم: "انصرفوا بسلام. فلا حاجة بنا إلى التعرض من صاحبنا لمعتبة وملام. وهذا السلطان مسعود إن استقرت له سلطنته فالآفاق له مذعنة. وما دام الملك لأخيه فلامطمح له فيه". فعلم القوم أنهم أخطأوا الحزم، وضيعوا العزم. فرجعوا إلى السلطان وأخبروه بالحكم والعلة، فحل به الشحناء من شحنة الحلة. وطلب بعض أخوة العزيز ليستخدمه، ويتقرب به إليه ويقدمه.

وكان العم بهاء الدين أبو طالب وزير آق سنقر الأحمديلي، وهو في الخدمة، فرتبه في منصب الاستيفاء، وتعوض بالصعيد الطيب من الماء. واستوزر أنو شروان وجمل بمكانته المكان. وأخذ العسكر للملك طالباً، ولأخيه مناصباً. وكان السلطان طغرل حينئذ بأصفهان وقد استخلف أتابك قراسنقر بأذربيجان. فلما نهد آق سنقر مع السلطان

مسعود إلى أذربيجان، تزحزح عنه قراسنقر إلى زنجان. وتحصن عين الدولة خوارزمشاه والأميران بيشكتين وبلاق بأردبيل، والأمير الحاجب تتار بأرمية، وتحكم السلطان مسعود وآق سنقر في تلك البلاد، وانتظمت أمورهم في سلك السداد. ونـــزلوا على أردبيل محاصرين، وثبت أهلها صابرين مصابرين، وكتب الدركزيني إلى قراسنقر يحرضه ويقول له: ((بارز آق سنقر فأنت له مبار بالمبارزة، وأحضره وناجزه الحرب بنفسك وإلا حضرت بنفسي إلى المناجزة)) . فكتب جوابه، ومهد في تأخير القتال عذراً، فلم يعذره الوزير. وكتب إليه ثانياً يأمره بالمناجزة، فاستشاط قراسنقر من اشتطاط الوزير، وقال لجماعته: ((قد بلانا الله بهذا الفلاح، والدولة بوجوده معدومة الفلاح)) . فاحتد الأميران الحاجب تتار، وجاولي الجاندار، وقالا: ((لابد من طاعة السلطان في محاربة أهل العصيان، فلا تجبن فهذا مقام الشجعان)) ، فاغتاظ وركب، وساق نيفا وعشرين فرسخاً في ليلة واحدة، فوصل بخيول رازحة، وخيول آق سنقر جامة غير جانحة، فتلاقيا وتضاربا. ثم انهزم قراسنقر وفر، وظفر آق سنقر وقر. وكانت الحرب على باب أردبيل، فشفي آق سنقر منهم الغليل. واحتوى على ما كان معهم، ولم يقم بعدهم وتبعهم. وهجر الكرى، ووصل السير بالسرى حتى وصل إلى همذان. وعنا الملك لمسعود ودان. وخرج السلطان طغرل وتحصن بأروند وماوشان، وكان قد عرض له مرض أقعده عن الحركة، وأعجزه عن حماية المملكة. فقدم الأمير الحسن الجاندار على العسكر وهاجه إلى اللقاء وألقاه في الهيجاء. ثم انهزم طغرل إلى الري قادماً، وعلى الرأي نادماً، وعلى وزيره واجداً، ولله شاكراً على سلامته ساجداً.

ذكر ما كان من حديث عمي العزيز وحادثته بعد عوده إلى القلعة

قال: قال الدركزيني لسنجر عند عوده إلى خراسان: ((إنك تعود إلى خراسان ويبعد علينا استئذانك في المهام، فاعطنا علاماتك في دروج بياض، لمقاصد تعرض وأغراض. فإذا عنت مصلحة، واتفقت منفعة للدولة مترجحة، أصدرنا بها مثالاً بعلامتك، فلا يخالفه القريب والبعيد، ولا ينقاد إلا له الغوي والرشيد)) . وكانت علامة سنجر تحت قوس الطغراء وفوق بسم الله (توكلت على الله) فأخذ العلامات في عدة دروج،

واتخذها أسباباً لاستباحة دماء وفروج. فأول مثال زوره، إنه وقع تحت علامة منها بقتل العزيز إلى صاحب تكريت بهروز الخصي. واتفق أنه كان في العسكر معهم فأرهبه وأرعبه، وأمره بالامتثال، والجري على مقتضى المثال. ففزع الخصي وتمكن منه الخوف، وكتب إلى والي تكريت نجم الدين أيوب، وخاطبه في الخطب المخطوب. وقال له: ((هذا توقيع السلطان مع صاحب وزيره، يأمر بقتل العزيز وتسليمه إليه وتسييره. فإن أبيت فقد رضيت بسخطي، وخالفت شرطي، وأردت الخطأ في رد خطي)) .

وكان نجم الدين رجلاً مسلماً. فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلماً. وعرف أخوه أسد الدين شيركوه الحال، وحجز بينه وبين الوقوف على التوقيع الواصل وحال. فشاركه أخوه شيركوه في رد الوارد، وصرفوه بالخلع والفوائد. وكان شيركوه ملازماً للعزيز ومتبركاً به، ومتمسكاً بسننه. وقال عماد الدين: سمعته يوماً يقول: ((صليت ليلة مع العزيز فسمعت هاتفاً يقول: جعلك الله عزيزاً كما حميت العزيز)) . فما أطمعني في مصر بعد نيف وثلاثين سنة إلا هذه الدعوة. وأيقنت أنني أنال هذه الحظوة. قال: فكان :ما قال، فإنه ملك مصر وصار عزيزها، ومن حاز الجنة بما فعله فلا عجب لمملكة مصر أن يحوزها.

قال: فلما عرف الدركزيني تمنع ما توقعه، ضاق عليه الفضا وما وسعه. فثقل على بهروز وفزعه. وقال له: ((سر بنفسك، ولا تتنفس بسرك حتى تأتي تكريت، وبيت من ها قبل أن تبيت)) ، ووكل بالخصي أياماً، ومزج له الشهد سماماً. ثم أطلقه على الشرط فلم يشعر نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه حتى هجم الخصي عليها القلعة، وقال لهما: ((قد دافعتما عن هذا الرجل دفعات، فكيف هذه الدفعة)) . فدفعاه فلم يندفع، وردعاه فلم يرتدع، فتركاه ما شانه، فما ترك ما شانه.وكان بهروز قد استصحب معه من أعوان الدركزيني ملحداً، مثله مفسداً. فلما عرف العزيز -رحمه الله- أنه قد أسلم، وأحس بالأمر وما أعلم قام يصلي ركعتين فصلى الأولى بسورة الكهف، وشرع في الأخرى بياسين. وطالت صلاته على الملحد اللعين فضربه وهو في السجود فجاد بروحه في مناجاة المعبود. وشهد السعادة، وسعد بالشهادة، وكان مذ حبس متوفراً على العبادة؛ يصوم ويقوم، وذلك في سنة ٥٢٧ هـ وعمره ٥٥ سنة. وجرى هذا الأمر و لم يكن عند السلطان طغرل خبر . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر. فإنه بعد قتله الدركزيني طلب العزيز

فأعلم بحادثته وحديثه، فلعن الوزير على تأثيره، وشؤمه الناري وتأريثه. و لم يكن بين مقتل الشهيد العزيز وبين مقتل المرتد الوزير سوى أربعين يوماً.

ذكر قتل الوزير الدركزيني وما آل إليه أمر السلطان طغرل

قال -رحمه الله-: قد ذكرنا أنه أحجم إلى الري من قدام آق سنقر ومسعود في عدد مفلول وفلٍ معدود. وخرج الأمراء الذين كانوا بأردبيل في الحصار، ورحلوا على سمت أصفهان، ليلحقوا السلطان. وفارقهم العسكر فوصلوا في خف من الخواص، وعبروا للخلاص، على النهج المعتاص. وجاء العساكر إلى مسعود من كل حدب تنسل، وبكل عسال تعسل وكان طغرل قد رحل إلى أصفهان، ثم رحل لقصد أخيه مسعود إلى خوزستان. وأيقن أن كل ما تم عليه من الوهن في أموره كان بوزير وزيره، وإدبار تدبيره. فأمر بصلبه، فصلب بأمره. وانقطع لثقل جسمه حبل خناقه. فوقع إلى الأرض في آخر إرماقه. وفي جملة النظارة مملوك من مماليك شيركير واقف، وهو بما جرى منه على مالكه عارف. فشق الحلقة بسيفه المسلول وضرب رقبة الوزير المغلول. فقطع في الحال إربا إربا، وأفرغ قحف رأسه وحمل إلى ابن شيركير فاتخذه للكلاب شربا. وأهديت كل أنملة له إلى من عنده له ثار. وانتعش بعثاره من كان له عثار، وكان مقتله بشابور خواست.

وكان السلطان طغرل قد قال له وهو جافل، ومن طلوع أخيه عليه آفل: "أين العسكر؟ أين الجند؟ أين ما سبق به منك في الكفاية الوعد"؟ فقال له: "لا تبال ولا تخطر خطراً بالبال، فإني قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك، وكأني بهم وقد تعجل قمعهم وتفلل جمعهم". فاغتاظ السلطان وقال له: "قد وضحت صحة إلحادك، وبان فساد اعتقادك". فأمر بتجريده وإشعار نار الحديد في ماء وريده.

قال: ووصل الخبر بأن الباطنية قد دخلوا على آق سنقر في خيمته بمرج قراتكين، وتناوبوه بالسكاكين. وأن عساكره ارتحلت من همذان، على صوب أذربيجان فإن السلطان مسعود وإن كان في جمع جم، وعسكر دهم لكن أمره مدبر، إذ عدم من هو له مدبر. فثنى طغرل عنانه، وشرع لنحر الخصم سنانه. ومضى إلى الري وطوى المنازل إليها أسرع الطي. فلما خيم بها اجتمع الذباب على عسله، والذؤبان العاسلة في محفله وجحفله. ورحل السلطان مسعود بعد مقتل أتابكه آق

سنقر إلى الري لإضعاف آخية أخيه، ومناجزته قبل انتهاض قوادمه بخوافيه. والعسكر الباقي معه يزيد على ستة آلاف فارس، وطغرل في ثلاثة آلاف، فبرزوا بعدة المبارزة، وأنجزوا عدة المناجزة. فانهزم طغرل وحماه حماة خواصه، وخلصه ذوو إخلاصه. واستأمن الأميران بلاق وسنقر صاحب زنجان وجماعة إلى العسكر المسعودي، واستوت سفينة السكينة منهم في بحر جوده على الجودي وذلك في ثامن عشر رجب سنة ٥٢٧هـ.

وامتد طغرل إلى طبرستان، ونـــزل على الأصفهد علي فأكرمه وأعز مقدمه ووسع له ولعساكره الأتراك، وأنفق فيهم الذخائر والأموال، وأقاموا شتوهم عنده. فلما انحسر الشتاء، رحل طغرل عائداً إلى همذان واتصل به من الأمراء الأكابر جماعة، لهم على الأنام طاعة، مثل عين الدولة خوارزمشاه ومحمد بن شاهملك، وحيدر بن شيركير، وسعد الدولة يرنقش. ووصل بوزابه من عند أتابك منكوبرس، في ألفي فارس من فارس، فاشتدت شوكته. واحتدت شكته [1]. وكان السلطان مسعود بأذربيجان فاستدعى فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك، واتصل به يرنقش البازادار، ونجم الدين رشيد، ونهضوا لصوب قزوين والري، عازمين على حسم الداء بالكي. فرحل السلطان طغرل يتتبع آثارهم، ويشق غبارهم. فنكلوا عن لقائه، وولوه ظهورهم عند ظهور لوائه، وتفرقوا أيدي سبا. وغنم أصحاب طغرل ما وجدوه من دوابهم وأسلحتهم. وندب قرا سنقر إلى محاربة الملك داود بن محمود بالمراغة فهزمه، وفل غربه وثلمه، وتمكن السلطان من سلطنته، وتسلط بمكنته، وفرع سريره، وعرف سروره.

وزارة شرف الدين علي بن رجـــاء

قال -رحمه الله-: سمعت والدي صفي الدين يشكره ويثني عليه ويقول: لما قتل السلطان طغرل وزيره الدركزيني استدعاني من أصفهان وظن أن العزيز باق، وأنه عن حضرته إذا طلبه غير معتاق. قال: فقربني وأكرمني قال: "خذ خطي إلى هروز بإحضار أخيك. وأسرع فإني منتظر لتوافيك". قال: فمضيت إلى بغداد، وإذا بالقضاء قد قضى، والحكم قد أمضى. فلما عرف طغرل بوفاته، طلب رجلا كافيا، فوجد علي بن رجاء عليا كما رجا. فعول عليه في وزارته، وسلم إليه المنصب، وشرع في مصادرة

(١) الشكة: الأخلاق.

الدركزينية، وقبض على نوابهم، وضيق على أصحابهم. قال: وفي هذه النوبة قتل السلطان مسعود الصفي الأوحد المستوفي، وصادر أهله على مائتي ألف دينار، وكان ذلك برأي سعد الدين أسعد المنشئ الخراساني، وبمواطأة الكمال ثابت القمي، فإنه تولى منصب الاستيفاء، فرأى إتلاف من يترشح لمنصبه حتى يبطش بيد الاستيلاء.

ولما استقرت قاعدة طغرل، وأمن من معار معارضيه، وعلا على مقار مقارعيه، وجلس على تخته، وتبجل بعلو بخته، فاجأه الأجل، فانتقل من الثراء إلى الثري، ومن دار البلاء إلى دار البلى. وذلك في أوائل سنة ٥٢٨هـ، فإنه عرض له قولنج، فشرب دواء أسهله وأدواه، وأسقط قواه. فتشتت ذلك الجمع، وانطفى ذلك الشمع، وغاض ذلك البحر، وغاب ذلك البدر.

وكانت وفاته بهمذان ودفنه بها في مدرسة بناها لبعض خدمه، وأسف بنو الآمال على كرمه. وكانت مدة ولايته سنتين وشهراً أو شهرين، وكان جامعاً للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم والتحفظ، والعزم والتيقظ. إلا أنه كان مستبداً بآرائه، معجبا بأهوائه. لا يستشير في أموره، ولا يسترشد في تدبيره. وكان مصطنعاً لأراذل صحبوه في أول عهده، فصاروا مقدمي جنده، والمخصوصين برفده. فكانت دناءتهم تغض من جليل قدره، وتغمض على ذكره.

ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سنة ٥٢٨ هـ

قال -رحمه الله-: كانت أم مسعود حظية تسمى نيست أندرجهان، وزوجوها بعد وفاة السلطان محمد الأمير الأصفهسلار منكوبرس والي العراق. ونقلوا معها برسم جهازها من الخزانة السلطانية أموالاً لا تنفد مع دوام الإنفاق. وكان منكوبرس من أكرم أمراء الدولة وأعيانها، وقد استبد بإقطاعات العراق بعد وفاة السلطان، وتفرد بها مدة حياته، وارتفع بوفور ارتفاعاته. وحكى عن وزيره ولي الدين المخلص محمد الميانجي أنه قال: "جمعت له في العراق ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار نقداً مطبوعا بالسكة الإمامية، سوى ما كان له من الآلات والثياب والدواب والجواهر. وقد ألممنا بذكر قتله في عهد السلطان محمود، ورجعنا إلى حديث مسعود. وذلك أنه سلمه

والده في سنة ٥٠٥ هـ إلى الأمير الأصفهسلار مودود صاحب الموصل.

ثم جهز مودوداً لحرب الإفرنج، ووصل إلى الطبرية وروى صدى الإسلام من دم الكفر، وشهر على أيمان الإيمان نصل النصر. وعاد إلى دمشق محبواً بالفتح، محبوراً بالنجح. وحضر في الجامع في آخر جمعة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ ، وخرج ويده في يد طغتكين صاحب البلد، وهو محفوف من جنده بذوي العَدد والعُدد. فجاء إليه رجل وضربه بضربتين، فنفذت إحداهما إلى خاصرته، وحمل إلى دار طغتكين، وعزّ فيه عزاء المسلمين. وقيل إنه خاف منه على دمشق فدسَّ إليه. ولولا ذلك لكان لما أهريق منه الدم شق عليه. ولما وصل نعي مودود إلى السلطان محمد، سلم ولده مسعودا إلى آق سنقر البرسقي وأقطعه الموصل والجزيرة، وأجزل له عطاياه الغزيرة. ولما توفي محمد، تولى محمود، فزوج أم مسعود بمنكوبرس استمالة لقلبه، وإظهارا للتقرب إليه ترغيبا له ورغبة في قربه. فلما ظفر به قتله، وحليَّ بصبغ دمه من سيفه عطله. وجمع جوشبك الجيش، وسار بمسعود إلى حرب أخيه محمود، فكان ما كان من هزيمته، وقتل أبي إسماعيل الطغرائي وزيره.

ثم استدعى السلطان سنجر بعد ذلك مسعودا وإخوته، وقررّ على السلطان محمود من مال العراق نفقتهم ونفقته، إلى أن خرج الأمراء على محمود في آخر أيامه. فاستدعوا مسعودا من جرجان، وحملوه على مناجزة السلطان. فما تسنى له أمر، ولا تهيأ له نصر. فاستمال السلطان محمود أخاه مسعودا وقربه، وسيره إلى أرّانية، واستكانت لهيبته عيون أعيانها الرانيّة، ثم لما توفي محمود، جرى له ما ذكرناه مع أخيه طغرل، حتى مضى لسبيله.

قال: وكان مسعود قد وصل إلى دار الخلافة في حياة أخيه، وخطب الخليفة المسترشد بالله له وأجله وبجلّه، ووقعت عليه سمة السلطنة بلا سمو، وعلا صيته بلا صوت عُلو. وكان الجند يجتمع عليه ويفترق، يشئم تارة معه ويعرق [1]. فلما نبت غرسه، وثبت عرشه قر قراره، وسر أسراره. وكان وزيره شرف الدين أنوشروان ابن خالد. قال -رحمه الله-: وكان المسترشد بالله ﷺ قد استوزره مدة، ولما وصل السلطان مسعود إلى دار الخلافة وخطب له في آخر المحرم سنة ٥٢٧ هـ، سفر أنوشروان وهو وزير الخليفة في مهامه، فسفر بحسن سفارته وجه مرامه. وأحضره

(١) يشئم ويعرق: يذهب إلى الشام والعراق.

المسترشد وقال له شفاها: "تلق هذه النعمة بشكرك واتق الله في سرك وجهرك". وخلع عليه وطوقه وسوّره، وجلس على الكرسي المعدّ له، فقبل الأرض وقال له أمير المؤمنين: "من لم يحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره، قال الله تعالى ذكره:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧، ٨]." فأعاد عليه الوزير بالفارسية فأكثر من الدعاء والضراعة، ونطق بالإذعان والطاعة. وقلده بسيفين، وعقد له بيده لوائين. وسلم إليه ابن أخيه داود وأتابكه آق سنقر، وقال له: "انهض وخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين". فمضى مسعود، وهي النوبة التي نصر فيها على طغرل. قال: ثم رأى الخليفة عزل أنوشروان واستيزار شرف الدين نقيب النقباء علي ابن طراد الزينبي، وفيه يقول حيص بيص قصيدة أولها:

شكراً لدهري بالضمير وبالفم　　　لما أعاض بمنعم عن مُنعم

فجلس في بيته مكرّماً، ولزم منزله محترماً. ثم اجتمع بالسلطان مسعود فاستوزره. وصد رهبة الأطماع حين صدره. وكان المستولي على مسعود آق سنقر. فلما استشهد، تمكن الأمير يرنقش البازدار، فاستولى ولم يلتفت إليه ولا إلى وزيره، وكان أتابك قراسنقر حينئذ قد وصل إلى الخدمة في حشوده وجنوده وحماة أذربيجان، وكماة أران، وعنده استشعار من زوجة السلطان الخاتون زبيدة بنت بركياق، فإنها كانت على السلطان متسلطة، فرأى صلحها وإصلاح رأيها، وحمله دهاؤه على حمل النفائس إليها وإهدائها. فلم يعجب الأمير يرنقش ذلك، فاستوحش ووافقه الأمراء الأكابر، وهم برسق وقِزِل أمير آخر، وسنقر صاحب زنجان، وجاولي وحيدر بن شيركير. فخرجوا عن الطاعة، وتدرجوا إلى مفارقة الجماعة. ورحل يرنقش بهم إلى بروجرد وبقي السلطان ومعه قراسنقر في جيوشه، واتصل به خوارزمشاه، ووصل الأمير السابق رشيد من خراسان، فنهض السلطان بهم إلى هؤلاء البُهم والتقوا فانهزم يرنقش، وأسر من الأمراء الطغرلية جماعة وقعت في إطلاقهم من قراسنقر شفاعة. ولم يزل بهم حتى أصلح حالهم، وقضى أشغالهم.

وأما يرنقش البازدار، فإنه رهب فهرب، ودار بخلافه حتى أتى دار الخلافة، فحط

بحرم الأمن ورَحْل المخافة، واستصحب معه من الأتراك جمعا كثيرا، وصار بين الخليفة والسلطان للشر مثيراً. وأشاع عن السلطان نقض الأيمان، ورفض الإيمان. وزعم أنه قد عزم على صدق القصد، وأنه باغ، باغ [١] زرع الدولة المسترشدية بالحصد. وكان الخليفة قد انقرض من السلطان في تغييرات غيرت فيه آراءه، وبدت من شحنة ببغداد ما أبدت شحناءه. فلما سمع قول يرنقش، صار يرى نقشه في الحجر، ونبت ما شجر من الخلاف والعناد عند الخليفة نبت الشجر. وكان السلطان قد هم باتباع يرنقش بعسكر يكفه ويكفيه، ويقف على أثره ويقتفيه. فصدق الخليفة قصده، وتحقق حق عناده عنده. فحينئذ خطب وخاطب، وطلب وطالب. وخرج بنفسه في هيأة رائعة، وهيبة رائقة. وخرج معه من كل طائفة أعيانها، وتعاونت على التناصر أنصار الدولة وأعوانها. وسار وقد صحبه حتى الشعراء والأطباء، والصوفية والفقهاء. وفي تلك السفرة يقول أبو القاسم بن الفضل الشاعر قصيدته التي أولها:

في العسكرِ المنصور نحن عصابة ... مرذولةٌ أحسن بنا من معشر

خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى ... من خفة ورقاعة وتهور

ويقول فيها:

تكريت تُعجِزُنا ونحن بعقلنا ... نسعى لنأخذ ترمذا من سنجر

قال: ولم يقدر على التخلف عن الخليفة ذو قدر، ولم يفسح لذي عذر. وسار في حشد وحشر، وضم ونشر. ونمي إلى السلطان خروج الخليفة فشق عليه شقاقه، وأظلمت آفاقه. فخرج صوبه من همذان، والتقوا بمرج يقال له داي مرك. ولما تراءى الجمعان، مال الجنس إلى الجنس، فمال الترك إلى الترك، وأسلموا حرمة الإسلام المصونة إلى الهتك. وتفرد الخليفة مع مفرديه، وبعد من حدي منجديه. ثم أقشع نشاصُه [٢]، وانفلّ عنه خواصه. ووقف ولم يولّ، وثبت ولم يخل. هابت الجماعة الأقدام عليه، والتندم إليه. فنــزل أمير العلم السلطاني وتقدم، ولم يزل يقبل الأرض حتى وصل إليه، فأخذ بعنانه، ثم أحدق به الأمراء كما يحدق كل موكب بسلطانه.

(١) باغ: ساوى.

(٢) النشاص: السحاب.

وأنـــزلوه في خيمة ومعه وزيره نقيب النقباء، وابن طلحة صاحب المخزن، وسديد الدولة ابن الأنباري، كاتب الإنشاء، وبقي هكذا في مخيم مسعود يرحل برحيله، ويحل بحلوله. وهو يعده بإعادته إلى دار الإمامة، حتى كان المعسكر على المراغة. فوصل الأمير يرنقش قرآن خوان من خراسان برسالة سنجرية، كتم سرها، وأسبل سترها. وهجم على الخليفة جماعة من الباطنية ففتكوا به في سرادقه، وفجعوا الزمان بسيد خلائفه خلائقه. وذلك في يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـــ، فعرف بقرائن الأحوال أن سنجر سير الباطنية لقتله، وما أشنع وأفظع ما أقدم عليه من فعله.

ولايـــة أمير المؤمنين أبي جعفر منصور
الراشد بالله بن المسترشد بالله -رضي الله عنهما-

قال: فوصل الخبر إلى بغداد باستشهاد الخليفة -رضوان الله عليه- يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـــ، وبويع للراشد بالخلافة، وجلس في منصبها في ذي الحجة، وبقي في دار الإمامية ببغداد قريب تسعة أشهر على إرجاف مزعج للأرجاء، وخوف غالب على الرجاء. حتى تفرغ مسعود إلى شغله، فشمل بيته بيت شمله. وأخرج بَدْره من بيت شرفه، وأتى على متلده ومطرفه. وسيأتي ذكر ذلك في موضعه.

قال: فأما السلطان مسعود، فإنه بعد حادثة الخليفة بالمراغة، قبحت سمعته، فذكرته الألسن، ونكرته الأعين. فصار يفكر في شيء ينفي عنه الظنة، ويستل به من القلوب السخيمة المستكنّة. حتى سولت له نفسه قتل الأمير دبيس بن صدقة، وكان في القرب منه بمنـــزلة إنسان عينه الذي بوأه الحدقة. فرأى أنه إذا قتله نسب الناس إليه قتل الخليفة، وأن السلطان لذلك لم يبق عليه. وكان الأمير دبيس المزيدي حضر باركاه السلطان، وهو جالس ينتظر الإذن، فجاءه من ورائه وهو لا يراه بختيار الوشاق، وأبان بسيفه رأسه وأسال على البساط دمه المهراق. وكان بين استشهاد الخليفة وقتل دبيس شهر واحد. وكانت هذه النوبة أيضا شنيعة، والفضيحة فظيعة وشفعت الكبيرة بالكبيرة، وأتبعت الجريرة بالجريرة. فتقرحت القلوب وتحرقت، وأسفت النفوس

وأشفقت. فلم يكترث السلطان بما كرث [١]، ولم يحدث غما لما حدث وطما عباب طماعيته، ولفح شَرَرُ شِرّته. وخشيه الأكابر والأماثل، وغشيه الأصاغر والأراذل. فرفع قوانين السلطنة وأبطلها، ومحا سنا محاسنها وعطّلها.

فأول ما بدأ به بعد حادثة الخليفة، أنه نهض إلى بلاد سُكمان، فحلب على سكانها البلاء، وأضرى بها الضرّاء. وخافه ابن سكمان فجفل، ثم بذل له وجه الخيفَة. فنذر وحذر، وقام وقعد، وأحس بقرب من قتل أباه، فأباه وبعد. وكان الأمير زنكي ابن آق سنقر صاحب الشام ببغداد، فحمله على السير منها والإغذاذ. وكان داود ابن السلطان محمود قد وصل إلى بغداد وزنكي مؤازره، ومظاهره وناصره. فلما حضرها مسعود وحصرها، ونازل بعسكره عسكرها، رحل داود عائدا إلى أذربيجان، وأحفل زنكي راجعا إلى الشام. وقد خاف السلطان، وأشار على الخليفة باتباع أثره فما أصغى إليه، ولا سهّل خروجه من بيته عليه ثم استوحش من مقامه بعد أن أقام مدة على استيحاش، فرحل رحلة آيس، ونفر نفرة خاش[٢]. ومضى إقبال خادم أبيه معه، وصحبه وزيره جلال الدين أبو الرضاء بن صدقة، وخيم بظاهر الموصل متمسكاً بحبل قاطعه، ومغتراً بسلم منازعه. فإن زنكيا لما أصلح أمره مع مسعود سيّبه وخيّبه. وأخذ إقبالا خادمه وحبسه ثم قتله. وأزعج الخليفة، فانتقل انتقال المرتاب، وتحوّل تحول المرتاع. وبقي كذلك سنتين لا يستقر به مكان، ولا يمكن له قرار. حتى اجتمع بالسلطان داود في أذربيجان، وجاء معه إلى محاصرة أصفهان. وختم له بالشهادة عليها سنة ٥٣٢ هـ في ظهر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان، وكان ذلك في القيظ وقت الهاجرة المتأججة، والقائلة المتوهجة. فهجم عليه قوم من فدائية الباطنية، فأضجعوه على فراش المنية.

قال عماد الدين: وأنا أذكر في صغري هذا الحادث الكبير وحديثه، وتأثيره في القلوب وتأريثه. وكان ذلك بعقب سنوات إسْنات [٣]، وشتوات شتات ومجاعات

(١) كرّث الغمّ فلاناً: اشتد عليه.

(٢) خاش: من خشي أي خاف.

(٣) إسنات: جدب وقحط.

للجماعات مفرقة، ونوائب نوابي للنوائب محرِّقة. وهلك الناس جوعا، وخرج من أهل أصفهان من لم ينو إليها رجوعا. وما كفاهم ذلك، حتى نـــزل عليهم داود، فخربت القرى، وألحقت بالوهاد، وأغلقت أبواب البلد، ووهت أسباب الجلد. وأعيان أهل أصفهان لما أحسوا بالحصار، رغبوا في الإصحار، وانتقلوا إلى ظاهرها، وسكنوا حتى في مقابرها، وهناك بقرب زنْدَروذ، عند المصلى، قصور عالية مبنية على قبور أكابرها. وكنا نحن من جملة المنتقلين إلى بعض قصورنا. وقد عنينا بأمورنا. فجاء العسكر المحاصر، في عدد كَلّ عن عدِّه الحاصر. وكان عمي بهاء الدين مع داود في ديوان الاستيفاء، وإليه وزارة خوارزمشاه. ولم يكن مع الراشد وزيره أبو الرضا بن صدقة. فإن زنكياً احتبسه عنده، ثم استوزره، فنفذ إلى والدي صفي الدين وألزمه بوزارته، فأبى. ثم اتفقت حادثة الراشد، فحمدنا الله على ترك خدمته، والعصمة من واقعته. فإن والدي -رحمه الله-، حلف أن لا يخدم بعد العزيز سلطانا، ولا يتولى ديوانا. فوفى بيمينه مدة عمره، وعاش بعد أخيه نيفاً وثلاثين سنة مقبلاً على أمره. ودفن الراشد في مدينة جيٍّ، وأفردت له تربة في جامعها، وصار إلى اليوم موضع قبره من أشرف مواضعها.

وحينئذ تفرق شمل تلك العساكر، ورحل داود آخذاً طريق الري، وسار معه والدي واستصحبني وأخي أبا بكر، وخلانا في المدرسة المحدثة بقاشان وأقمنا بها سنة نتردد إلى المكتب، ونشتغل بالقرآن والكتب الأدبية. ثم عدنا إلى أصفهان، وكلانا لم يبلغ قمره إلى الإبدار، والوالد سار في ليل الأسفار.

قال: وأما أنوشروان الوزير، فإنه ما لبث في الوزارة، وكان معهد الملك به غير مستتب العمارة، لا لنقص فيه، بل لتغير القواعد، وتكدر الموارد. فعزل واعتزل، وما انتقل عن داره حتى تحول إلى جوار ربه وانتقل. وجلس للوزارة عماد الدين أبو البركات الدركزيني. قال عماد الدين -رحمه الله-: وكان نسيبا للقوام الدركزيني من جهة أخواله، وقد حسنت في أيام دولته حوالي أحواله. ورتبه أيام الوزارة المحمودية عارضا للجيش، وبقي مستمراً في منصبه، مستقيما على مذهبه. وهو الذي يقول فيه القاضي الأرَّجاني:

دام علاء العماد فهو رجاء العباد   دام لنا طالعا فهو ضياء البلاد
له يد لم تزل تصدر عنها أياد   عيون حسّاده مكحولة بالسهاد

كأن أجفانها أهدابها من قتاد

ولما رأى السلطان مسعود في عنفوان دولته، وريعان سلطنته، الخلل حالا، والحال مختلة، والعلل بادية، والمبادي معتدلة استعجز أنوشروان للين أخلاقه، وقرب قمر عمره من محاقه. فرأى صرفه باحترام، وعزله بإكرام، وظن أنه إذا ولى دركزينيا أحيا رسوم الاقتدار، وسطا سطوة الجبار. فولى العماد فما رفع عماداً، ولا عرف سداداً. ولا مشى إلا في طريق السلامة، وقنع بالدست والعلامة. وكان في منصب الاستيفاء حينئذ كمال الدين ثابت القمي، الثابت الكامل الباسل، وكان في زمان عمي من نواب ديوانه، وصنائع إحسانه. وكان شهما ناقدا، وسهما نافذا. فأنس السلطان بروائه، وركن إلى رأيه، واستغنى به عن وزرائه. وهو الذي يقول فيه القاضي أبو بكر الأرجاني قصيدة منها:

سل النجم عنّي في رفيع سمائه   أشاهد مثلي من جليس مبايت
أساهره حتى تكل لحاظُه   وينسل في الصبح انسلالَّ المفالت
سقى عهدهم غيث تقول إذا بدا   تجلل وجه الأرض ورق الفواخت
معلمة الأمطار عيني على الثرى   إذا ما سما إن لم يكن كف ثابت
له قلم إن هزه في كتابه   أبر على سيف الكميِّ المصُالت

قال: وهذا ثابت، كان من دهاة الرجال، وكفاة الأعمال. وبمشورته شيدت القواعد، وشدت المعاقد، ووليّ المقتفي وخلع الراشد. وأما السلطان مسعود فإنه بعد خروج الراشد من مقام الخلافة، استشار الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وكان قد اعتقله بعد ما جرى على المسترشد ثم أطلقه واستصحبه، وخاطبه فيمن يخطب له، فأشار بخير الخلائف والخلائق، أبي عبد الله محمد بن المستظهر. فبويع له بالخلافة في ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ، ونعت بالمقتفي لأمر الله، ووزر له شرف الدين الزينبي، وأجمع الأنام على بيعته، واجتمعت الآمال الظامئة على شرعته. وذكر السلطان راجعاً إلى الجبل، واثقا بحصول الأمل. وانتهى إليه أن أتابك منكوبرس

للخروج عليه مستعد، وأنه مستحند مُستنجد لمجاوريه، مستجيد لعدة الحرب مستحد. فأنهض أتابك قراسنقر إلى أصفهان ليكون على طريق دفعه، فسار ومعه يرنقش البازدار، وجاولي الجاندار، وسنقر صاحب زنجان وهم العظماء الكبار. وهم أعضاد الدولة وأركانها، وملاك مسكن المملكة وسكانها. ووصلوا إلى أصفهان، وكان القحط في الابتداء، فكانوا سبب الوباء والغلاء. وأكلوا ما وجدوه من الرطب واليابس، وألحقوا الغني بالفقير البائس.

قال: وأنا أذكر، وقد وصل قراسنقر ووزيره عز الملك أبو العز البروجردي، وكان من الشياطين الذين استتبعهم في عصره الدركزيني، فقبض بقايا أملاكنا التي أسارتها المصادرات، وعمد إلى شمل جماعتنا ليسرع فيه الشتات، وأقاموا تلك الشتوة بأصفهان، ثم صح الخبر بوصول أتابكه منكوبرس، فعرف قراسنقر والأمراء أنهم لا يطيقون مقاومته، فساروا إلى همذان، ولحقوا بالسلطان. وجاء منكوبرس إلى أصفهان، فخلفهم في الظلم والإظلام. ورعى الغلال قبل إدراكها، وأعجل الأرماق عن امتساكها. وأقام مدة، ولقي الناس منهم شدة، ورحل في أوفر عدة وأوفى عدة.

فلما قرب من السلطان مسعود، تحاجز العسكران وباتا على لقاء موعود، والتقيا بالموضع المعروف بكورشنبه، وصدقا الوثبة. وكانت الدبرة في الأول على عسكر فارس، فأصبحت فوارسه فرائس، وأسر منكوبرس وأمر السلطان بقتله بين يديه، وكان شجاعا كريماً فأسفت القلوب عليه. وكان الأمير بوزابه من أعظم أصحابه، وأفخم أضرابه، فلما رأى العزيمة، أجْلت عن الهزيمة. قال: "إذا سلمنا فقد أُبنا بالغنيمة" وحسب أن منكوبرس ناج ولم يدر أن نعيه له مُفاج. فلما نعي إليه صاحبه، ضاقت به مذاهبه، وحلف أنه لا يبرح حتى يأخذ بثأره، ويستقيل من عثاره. فعطف على معسكر السلطان مسعود وقد أمن، ووفى له النصر بما ضمن والمضارب قد شيمت، والمضارب قد أقيمت، والسوابق قد أريحت، والسوابغ قد أزيحت. فبينا هم في أغفل حالة إذا هجمهم بوزابه واستخرج كل أمير من مضربه، وسد على كل كبير طريق مهربه. وركب السلطان مسعود فأبلى بلاء حسنا، ولم يترك في الدفاع عن مهجته ممكنا. ثم ولى ومعه قراسنقر هزيما تشله الرماح، هشيما تذروه الرياح. وحصل في قبضة بوزابه اثنا عشر أميرا، منهم صدقة بن دبيس ابن صدقة المزيدي، والأمير عنتر الجاواني، والأمير الحاجب الكبير أرغان، وأتابك سنقر

صاحب زنجان، ومحمد بن قراسنقر، وجماعة آخرون، وما منهم إلا من قدمه، وأراق دمه، وشفى وتره، ووفى نذره. وذلك في أواخر سنة ٥٣١ هـ.

ثم قفل بوزابه إلى فارس واستولى على مملكتها، واستقر في ولايتها. وعاد السلطان إلى سريره، مسلما لقضاء الله وتقديره. وهو الغالب والمغلوب، والسالب المسلوب. وقد بددت عقود سلكه، وبادت سعود ملكه. فجلس لمَا تَمَّ في المأتم، وعاد إلى ما ثم (١) من عادة المأثم. واتخذ سواهم ندماء، ورفع غيرهم أمراء.

قال: وفي أثناء هذه الفترة، كان خروج السلطان داود ومعه الراشد. فجرى ما جرى واستشهد الراشد، وانعكست على داود المقاصد، وتمهدت لمسعود القواعد، واتصل بعد ذلك الملك سلجق بأخيه السلطان مسعود، فأقطعه بلاد سكمان من خلاط وأعمالها، ومنازكرد وأرزن، وأضاف إليه الأمير غُزْ أُغْلي السلاحي مقطع تبريز، فقصدها واستصفاها، فاستخرج أموالها واستوفاها. وأوسعها سبيا وتخريباً، وسام أهلها ظلما وتعذيبا. وما زالت الدولة مضطربة، والفتنة مضطرمة، وأيدي الظلم عائثة، وألسن الذم عابثة، حتى استجد السلطان وزيرا، استجاد لمملكته تدبيرا. وحكم وأحكم، ونقض وأبرم. وهو الوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن من أهل الري قال: وكان السلطان استعجز العماد أبا البركات، ووجده في تسكين الخطوب عديم الحركات. فصرفه إلى بيته على أجمل وجه، ولزم موطنه على رفق ورفه (٢). ولم يفلت وزير كإفلاته، وكانت الليالي بالسلامة كإقالاته. وشغلته العطلة بصومه وصلاته.

وتولى الوزارة كمال الدين. وكانت وزارته في سنة ٥٣٣ هـ ببغداد، وفي ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت، وفي منصب الإشراف المهذب بن أبي البدر الأصفهاني، وفي كتابة الإنشاء ولي الدين المعروف بسياه كاسه، وفي منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني. فانشرحت الصدور، وانتظمت الأمور. ورتب الوزير لخزانة السلطان أموالا تحمل إليها، وجهات توفر عليها. وأحيا معالم للملك قد دثرت، ونظم عقودا للمصالح انتثرت، وابتدأ بكسر الجبارين، وجبر

(١) ثَمَّ: أصلح.

(٢) الرُّفْه: طيب العيش.

المنكسرين. وقرر مع السلطان سرا، أن ينوي لقراسنقر شرا. وبذل لقراسنقر في وزيره عز الملك أبي العز البروجردي خمسمائة ألف دينار على أنه يسلمه إليه، ويسلط يد الاقتدار عليه. فأعرض عنه، وما قبل البذل منه.وبخل بصاحبه لمحض الكرم، وما أسعد من اختار الصاحب على الدينار والدرهم. فلما أيس منه أخاف السلطان من عواقبه وقال له: " لا يجمع في غمد سيفان. ولا يظهر لك مع تسلطه قوة السلطان". وقرر معه استدعاء بوزابه من فارس ليفرسه به، ويجر الخلاف إلى مذهبه. فاستوحش سر قراسنقر فأضمر الكيد، وأعمل الأيد. فاستدعى الملك سلجق ووعده بأن يمضي معه إلى فارس ويستخلصها لأجله، وحمل أيضا على النهضة معه داود بن محمود وأتابكه آياز، وكان من صنائع قراسنقر.

ورحل قراسنقر عن أذربيجان نحو السلطان مسعود إلى همذان ومعه الملكان، ومعه من العساكر عشرة آلاف. فلما قرب، أنفذ وزيره عز الملك البروجردي إلى السلطان رسولا، وتحدث معه وقرر سولا. وحمّله منه ومن الملكين ومن جماعة الأمراء كتبا مضمونها " إنا لا نأمن جانب الوزير الكمال، وإنا لا نصبر على ما يبدو منه من الأعمال، فإما أن تعدمه، وإما أن تسلمه، فإن دفعته إلينا فنحن طائعون، وإن دافعت عنه فنحن عن أنفسنا مدافعون". فلما سمع السلطان ما قالوه استقالهم فما أقالوه. فحار في تدبيره، واضطر إلى تسليم وزيره. فقبض عليه وسلمه إلى الحاجب تتار فأوقع به البتّار. وضرب عنقه، وذلك في شوال سنة ٥٣٣ هـ. فحينئذ وصل قراسنقر ومعه الملكان سلجق وداود إلى الخدمة السلطانية، وحمدوه على اتباع تلك الهمة الشيطانية. ورتب قراسنقر الوزير مجد الدين عز الملك أبا العز البروجردي في وزارة السلطان مسعود، وكان شيخا ذا بهجة وبهاء، ولهجة ورواء. ولم يزل مذ عهد السلطان محمد متصرفا مع أكابر الأمراء لم يعطل، ومتحليا بالولاية لم يعطل. وما زال متدرجا في الولايات حتى بلغ الوزارة، ووجد بعد النـزارة الغزارة. فإنه كان في ريعان عمره يخدم شاكرا، ويستعذب في كل أوان خدمة وزير ورداً. فتمول الأموال، وملك الأملاك، وقيل: إنه كان يجري في ملكه أيام وزارته أربعمائة قرية.

قال: فنكب الكمال ثابتا المستوفي وقبضه وأعدمه، وقيل: إنه خنقه، وأذهب بذهابه بهجة الملك ورونقه. وتولى منصب الاستيفاء بعده المهذب أبو طالب بن أبي

السبدر، و لم يلبث في منصب الاستيفاء شهراً حتى اختفى بدره في السرّار، وانتقل من هذه الدار إلى تلك الدار. وتولى مكانه ديوان الاستيفاء الكمال أبو الريان الأصفهاني. قال: وهؤلاء الذين تولوا الاستيفاء كلهم كانوا من صنائع العزيز وتلامذته، وكان في ديوان الإنشاء سعد الدين الخراساني، وفي منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني. فأما أتابك قراسنقر، فإنه لما قتل الوزير كمال الدين محمد الخازن وجلس وزيره في وزارة السلطان، رحل بالملكين سلجق وداود إلى بلاد فارس. فلما عرف بوزابه حضورهم لجأ إلى قلعة كل وكلاب، وهي بين خوزستان وفارس، ودخل الملك سلجق مدينة شيراز، وجلس على سرير الملك بها مسروراً، ونظم من المصالح ما كان منشوراً، وغفل عن القدر، فأنس بملكه مغروراً. وأراد قراسنقر أن يخلي عنده عسكراً يحمي حماه ويعدي على عداه. فحمل الأمير غز أغلي السلاحي، وهو مقدم عسكر سلجق، حب التفرد والتوحد على إظهار الغنى عمن ينجده، وأنه لا حاجة به إلى من يسعده. فقال لقراسنقر: " أنا ما أحتاج إلى أحد، ولا أفتقر إلى مدد" فاستحسن قراسنقر منه هذا العزم، وترك الحزم. فصار غزأغلي مستقلا، وسار قراسنقر مستقلا [1]. ومضى صوب خوزستان، ليعبر منها إلى همذان. وسرح الملك داود جماعة من العسكرية على طريق سواها، للنية التي نواها. فلما وصل عسكر مكرم لم يوافقه الهواء الخوزي. فوقع في القوم وفي دوابهم الموتان [2]، وعجزت القدرة وتعذر الإمكان. فأقام على تلك الصورة بحسب الضرورة.

وأما الملك سلجق فإنه ظن أنه ملك، وأن خصمه هلك، وأن بوزابه على كل حال مملوك لا يقدم على المالك، وأنه إنما فر لانسداد المسالك. ورجا أيضا من غزأغلي أتابكه أنه لا يخل بالتيقظ، ولا يخلي ما يجب عليه من التحفظ. وكان الأمر بالعكس، وسقم حاله على النكس. فإن أتابكه اشتغل بالأكل والشرب، واللهو واللعب. فبينا هو كذلك إذ هجم عليه بوازبه وعلى الملك سلجق فقتل وفتك، وأسر وأوثق. ولم ينج من العسكر إلا القليل، ولم يعرج على الخليل الخليل. وقبض على سلجق وحمله إلى

(١) مستقلا: راحلا.

(٢) الموتان: الموت.

قلعة أسفيذدز وكان ذلك آخر العهد به، ولم يشك أحد في عطبه. فتمكن بوزابه من ملكــه، وجــرى على المراد مدار فلكه. واستشعرت الملوك مهابته، وتجنبت الأسود غابــته. فــلم يركض إلى فارس بعدها فارس، ولم ينل الفريسة بها غيره فارس. وأما قراسنقر، فإنه لما انتهى إليه الخبر، وعلم أنه لا قدرة له على دفع ما نواه القدر، مضى على وجهه مولياً، موليا أن لا يكون بعدها متوليا. فلما وصل إلى بروجرد صادفه الخبر بــأن مدينة جنــزة وأعمالها قد خسف بها، وأن الزلزلة قد هدمتها، وأنها خربت حتى كأن الأرض عدمتها، وأن الكفار الأبخارية الكرجية هجمتها. وقد باد من أهلها مقدار ثلاثمائة ألف نفس، فأمروا الباقين إلا من احتمى بقلعتها، وآوى إلى تلعتها. وذلك مع تشعث سورها، وتهدم دورها. وأن الأموال نبشت، وأن الخبايا فتشت. فأغذ قراسنقر الســير إلــيها، وكان إيواني بن أبي الليث -لعنه الله- مقدم عسكر الأبخاز، قد قرن الزلــزلة الــزلازل، وبالنازلة النوازل. وكان قد حمل باب مدينة جنــزة، وبنى مدينة سماهــا جــنــزة، وعلق عليها ذلك الباب، واغتنم غيبة قراسنقر عن البلاد فسماها العذاب. وذلك في سنة ٥٣٣ هـــ.

فــلما وصل قراسنقر، عادت دولة الدين، وعادةُ النصر والتمكين. وظهر أهل التوحــيد على أهل التثليث، ونعش الطيب بعثار الخبيث. وواقعهم قراسنقر فهزمهم وثلمهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وخرب البلدة المستحدثة وأعاد باب جنــزة إليها، وأعادهــا في العمــارة إلى أحسن حالاتها وأجمل هيآتها. وكان من جملة من هلك بها، زوجــته بنــت الأمــير أرغان وأولاده، فاستولى عليه الهم وعلق به السل. وبقي مدة يتداوى ولا يبل. وتوفي سنة ٥٣٥ هـــ بأردبيل، فأكثر المسلمون عليه العويل، وعدموا عــنه الــبديل. قال: وكان لما اتصل به أجله، وانقطع عن الحياة أمله، أحضر جاولي الجــاندار ونصــبه مكانه، وسلم إليه ابنه وجنوده وسلطانه، ووصى إليه بقطع دابر الكفار، ومواصلة بر الأبرار. فتولى ولايته، ووصل بنهايته بدايته. وأنفذ إليه السلطان مســعود الخلعــة والعهد، وأجزل له العطاء والرفد. وقرر عليه جميع أعمال قراسنقر بأرانية وأذربيجان، وولاه تلك المعاقل والمدن والبلدان، ونهض الأمير جاولي في السنة الثانية إلى خدمة السلطان، فقبل البساط وبسط له القبول، وعرض هداياه وتحفه وطرفه والحمول. فضاق الفضاء الواسع بمضارب جنوده، وخفقت القلوب لهيبة خوافق بنوده.

واتصل الأمير عباس صاحب الريّ، ونشر من المودة بينهما ما كان في الطي. وتوافقا وتواثقا، ونظمتهما طاعة السلطان في سلك المصافاة.

وكان الأمير عباس من مماليك جوهر خادم السلطان سنجر، والريُّ في أقطاعه، وقد نفذه إليها والياً، وكان أمره بها عاليا. فلما قتل صاحبه بفتك الباطنية به، ثار عباس للثأر، وجد في طلبه، واستولى على الري وأعمالها، وتفرد بحيازة أموالها. وقوي على السلطانين سنجر ومسعود، واستظهر بمن معه من جموع وجنود. وبمن اتصل به من مماليك الأمير الأجل صاحبه، وكانوا زهاء أربعة آلاف في عدد كثير وجمع كبير. وقصر عزمه على قصد الباطنية وكبسهم في مواطنهم، وبيتهم في أماكنهم، وقتل منهم مدة ولايته أكثر من مائة ألف، حتى بنى من رؤوسهم بالري مناراً أذّن عليه المؤذنون، وأخاف القوم، فما كانوا في عصرهم يأمنون المنون، وكان ذا همة كافلة للرعية بالمعونة، فرضي السلطان بإيالته، وأقره على ولايته.

ولما اتصل جاولي الجاندر بخدمة السلطان وجده حاضرا، وألفى روض الرضى به ناضرا. وكان الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك، الحاكم على الدولة، المهيب الصولة. وكان وسيماً جسيماً، للسلاطين قسيماً. لا يرى إلا برأيه. ولا إجابة إلا لدعائه. وكان الأمير بك أرسلان خاصبك بن بلنكري أخص الناس بالسلطان وأعلقهم بقلبه، قد اختاره منذ شُعف به على صحبه. ولما كبر، كان أكبر الأمراء، وأعظم الكبراء. واجتمع هؤلاء الأكابر تلك السنة بالحضرة، والدنيا بالنعيم لهم بادية النضرة. وحمل فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الأمير عباسا على مباينة عز الملك الوزير، ومعارضته في التدبير. وأطمعه في تولية نائبه الجمال الجاجرمي في الوزارة، وكان شاباً مقبول الحركة، مأمول البركة. يرجع إلى توسع في المرُوة، وترفع في الفتُوة. فاستحكم طمعه في المنصب، وقوي قلبه بمساعدة الأميرين عباس وابن طغايرك، فتحمل وتجمل، وجدَّ وجاد، واستجد واستجاد، وقرب أن يتم مراده وكاد. فتعصب الأمير جاولي للوزير عز الملك، وأعاد نظم جاهه إلى السلك. وساعده خاصبك على مساعدته، فاستقام أمر الوزير، وأجمع الجميع على إبقائه، واتفقت الكلمة على أنه لا مضاهي له في مضائه.

ورحل السلطان إلى بغداد رحلة الشتاء، واستصحب جماعة الأمراء، وعاد عباس إلى الـري. قـال: وأنا أذكر وصولهم إلى بغداد في هيبة عظيمة وهيئة وسيمة في سنة ٥٣٦ هـ.

قـال: وخطـب جاولي بنت عبد الرحمن بن طغايرك، وتمت بينهما المصاهرة، وتأكدت ما بينهما المظاهرة. وعاد جولي إلى بلاد أرّانية وأذربيجان مشتد الأمر، قوي الظهـر، مستبشـراً بما تأكد بينه وبين الأمير الحاجب الكبير عبد الرحمن، من عقدي الوصـلة والأخوة وأقام السلطان ببغداد تلك الشتوة، متوفرا على نيل الطرب وقضاء الشهوة. مستهاما بإدناء الدنان، واقتناء القيان. وتقريب المساخر، وإبعاد ذوي المفاخر. مـتكلا على السعادة في دفع الأعداء، فإنه لم يزل، كاسمه مسعودا، و لم يتصد لعداوته إلا من كفى الله شره فأصبح عنه مصدوداً.

قـال: وكـان الأمير سعد الدولة يرنقش الزكوي، من أكابر الدولة وقدمائها، وأكابـرها وعظمائها. ومتولى وزارته يمين الدين المكين أبو علي العارض، وله الفضل المستفيض والإفضال الفائض. وكان سعد الدولة يرنقش متولي أصفهان، والأمير غلبك نائبه، وسعد الدولة للمعسكر غير مفارق، ولما لا يوافق رضاء السلطان غير راض ولا موافـق. فكانت أبّهة الملك بمقام أهبته قائمة، ونصرة الإقبال بدوام نظر إقباله دائمة. وكانـت الخدام الحبوش لهم الجيوش، والأسرّة والعروش. منهم نجم الدين رشيد، من مشـايخهم وأكابرهم، وجمال الدين إقبال الجاندار، وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالي، ودونهم في الرتبة عماد الدين صواب، وشمس الدين كافور، وأمين الدين فرج الـدوويّ، وأمـثالهم. وهـم عصبة فيهم عصبية على الشافعية، ويتقربون إلى الله بما يوصـلون إلـيهم من الأذية. ونكبوا أصحاب الشافعي بأنواع البلاء في جميع البلاد، وخصوهم بالطراد والإبعاد. وحاولوا إخفاء مذهبه فتعالى ظهوراً، وأرادوا إطفاء نوره فما زاده الله إلا نورا.

قال: ونكبوا رؤساء المذهب في كل بلد، و لم يبقوا منهم على أحد. فمنهم أبو الفضائل بن المشاط بالري، ومنهم أبو الفتوح الاسفرايني ببغداد، ومنهم بنو الخجندي بأصـفهان. ودخـل في مذهب أبي حنيفة جماعة طلبا للجاه، وخوفا منهم لا من الله. ومن جملتهم: القاضي عمدة الدين الساوي. قال: وكان وزير الخليفة المقتفي لما تولى

شـــرف الديـــن عـــلي بن طراد الزينبي، وكاتب الإنشاء سديد الدولة بن الأنباري، وصاحب المخزن كمال الدين بن طلحة. وتزوج الإمام المقتفي بأخت السلطان مسعود فاطمة خاتون، وعزل شرف الدين الزينبي عن وزارة الخليفة في سنة ٥٣٤هـــ ، وسببه أنـــه استشعر، فمضى إلى دار السلطان معتصما، ثم لزم بعد ذلك داره محترما. وتولى الـــوزارة نظام الدين أبو نصر بن جهير، وكان الاستيلاء بالعراق لأصحاب السلطان، وليس لأحد بكفهم يدان.

قـــال: وفي سنة ٥٣٥ هـــ خرج الكافر الخطائي واستولى على ما وراء النهر، وكسر السلطان سنجر أشد الكسر ووقع عظماء مملكته في الأسر. وفي سنة ٥٣٨ هـــ قتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه بأيدي الملاحدة بتبريز غيلة، وعاش أيامه من شريد الدهر شريدا. و لم يسترح ليلة. وكان قد زوَّجه السلطان مسعود بنته، وأقـــنعه بتـــبريز ملازماً لبيته، قاعدا فوق تخته تحت بخته. ولما خانته في المبدأ السعادة، وفـــت لـــه في العاقـــبة الشهادة. وقيل: إن الأمير زنكي بن آق سنقر وضع عليه من حشيشية الشأم من فتك به، فأمن على بلاده بسببه. وذلك أن السلطان مسعود، كان قد عول على أن يسير داود إلى الشام، ويحفظ به ثغور الإسلام. ففزع زنكي وجزع، وسقط في يده من حديث الحادث الذي وقع. وخذله الأيد ولكن نصره الكيد. ووصل خبره إلى بغداد، فعقد له في دار الخلافة مجلس العزاء ثلاثة أيام بحضور أرباب المناصب، وعدت المصيبة بقتله من أفجع المصائب.

وفي سنة ٥٣٩ هـــ ، رحل السلطان مسعود إلى أصفهان، وكانت دار السلطنة قد تشعثت فشد منها الأركان. وتغير رأيه في الوزير عز الملك البروجردي فعزله. و لم يستبق العزلة واستصفى ماله، وشغل بوباله سره وباله. واستوزر مؤيد الدين المرزبان ابن عبيد الله الأصفهاني، ونقله إلى الوزارة من الطغراء. وكانت له زوجة من جواري مســـعود، تركية سليطة متسلطة، حاكمة عليه متبسطة، فتسلم عز الملك وسلمه إليها فخنقـــته، بعد ما عذبته وعلقته. فقتل مثل القتلة التي قتل بها الكمال ثابتا. وكل من كان حاسدا له على منصبه عاد شامتا. وكان عز الملك البروجردي شيخا بهيجا بهيا، قد جاوز الثمانين سنة، ومع شيخوخته يقطر ماء النضارة من محياه، وكان في السعادة ســـعيداً في محياه. وكان في أيام وزارته مرهوب الغرار، مشبوب النار. وكان نائبه في

الوزارة نجيب الدين عبد الجليل السهم المصيب، والشهم المهيب. والسيف الذي يفري ويقصل، ويبري ويفصل، يبت الأصول ويستأصل البيوت، ويستنزل من الجو العقاب، ويستخرج من قعر البحر الحوت. وقد ضربوا على بغداد الضرائب ومكسوا المكاسب.

قال: وكان رضي الدين أبو سعد مستوفي السلطان، البعيد من الشين البديع الشان. ممن يغشاه والدي بسبب خدمته لأخيه العزيز في أيامه. وكان ربيب إنعامه، وكان من أوسع صدور ذلك العصر صدرا، وأقلهم شرا. وكان نائبه كمال الدين أبو الريان الأصفهاني من تلاميذ عمي العزيز وغلمانه، ولم يكن أعرف منه بقانون الاستيفاء في زمانه. لكنه كان خاليا من الأدب عاليا مع نقصه في أكمل الرتب. وهو صورة بلا معنى، وحسن بلا حسنى. وبرق بلا وابل، وطول بلا طائل. وكان عز الملك الوزير مع جهله وشدة بخله، ربما نسمت له ريح أريحية، وسمنت بغثه روح تحية. ومن جملة ذلك أنه كان بالعراق عميد رازي تولى سنة، واكتفى ثروة. واستقنى واستغنى، وحبا وحنى وخبي. فلما جاء السلطان قيل له: " اعمل حسابك" فأحضر المشرف وكان يعرف بابن الحكيم من أهل بغداد، وقال: " أريد أن تدع المكر منك. وتدعو مكرمتك، وتهتم بأمري وتستأمر هتك، وتحسِّن الحسبة، وتحتسب الحسنة. وتكف بكفايتك عن الأيدي والألسنة " فقال المشرف: " أنا لا أجسر أن أستر. ولكل ما أذكر لابد أن أذكر. وعلي أن أخفي كثيراً مما خفي من الجنايات والجبايات، والاجتذابات والجعالات. ولابد أن أجمع ما أخذته من المرافق الوافرة، والفوائد الظاهرة". واتفقا على إسقاط مبالغ حتى تقرر ذكر خمسين ألف دينار. فبذل له ألفي دينار، على أنه يذكرها في الحشو ولا يبرز بها، لعل الوزير يغفل عنها، ولا يؤاخذه بسببها. فأبى إلا إيرادها، وتخصيصها بالذكر وإفرادها.

قال عماد الدين: حدثني المشرف بن حكيم قال: دخلنا بالحساب إلى الوزير عز الملك، فأول ما وقعت عينه في المجموع، على المبلغ المرفوع. فقال: ما هذا ؟ فقيل: الرسوم التي أخذها، والمرافق التي احتذها. فضرب عليه بقلمه وقال: " كيف تجيزون أن تجمعوا عليه ما ارتفق به من رسومه وخدمه. هذا له معلوم، وحصلت له رسوم. فليس من المروة أن نستعيدها وما فوض إليه الشغل إلا ليستفيدها ". قال: فخرجنا

نحسب أذيالنا، أنا للخجل، والعميد للجذل، وقد رد إلى العمل. فأخذ بيدي وناولني صرة فيها ستمائة دينار، وقال: "هذا ما جعلته باسمك، وما ضرتني أمانتك، فأجر فيها على رسمك".

قال: ولما جلس مؤيد الدين المرزبان في الوزارة، بدأت الأمور في الاختلال، والعقود في الانحلال. وكان قد قنع من الوزارة باسمها، ومن المرتبة برسمها. وكان يروق الناس ببشر المحيا. ويروقه الأنس بشرب الحميا، لا ينافر إلا الغواني، ولا ينافث إلا الأغاني. وكان وزراء الأمراء قد غلبوا على أمره، وبلغوه إلى قدره. فما له قول مسموع، ولا طول متبوع. ولا هو مشكور ولا مشكو، ولا مخشي ولا مرجو. وخاصبك بن بلنكري هو الآمر الناهي، وهو داهية من الدواهي. وكان وزيره رئيس الدين أبو تغلب بن حماد السهروردي، العبيق بريا الرياسة، اللبيق برأي السياسة، قد استولى على الأمر واحتوى، وتمكن من ورد الملك وارتوى. وكل أمر لا ينفذه لا ينفذ. وكل حق لا يأخذه لا يؤخذ. وكان كصاحبه مسعوداً مصحوباً بالسعادة، ممدوداً من المال والجاه بالزيادة.

قال: وكانت قد تأكدت بين الأمير عباس صاحب الري، وبين الأمير بوزابه صاحب فارس صداقة صادقة، ومودة أحوالها الحوالي متناسقة. فطمعا في المملكة، وزعما أن البركة في الحركة. وقال: "إن العرصة خالية، والفرصة بادية. وهذا وقت الارتماء إلى العرة، والامتراء للدرة". فكتب بوزابه إلى السلطان أني واصل إلى خدمة السرير، وخرج من شيراز بالملكين محمد وملكشاه ابني السلطان محمود بن ملكشاه، وخرج عباس من الري بالملك سليمان أخي السلطان مسعود. وكتب أيضا: " أنني واصل إلى جنابك، لملازمة ركابك". فحمل السلطان قولهما على الظاهر، وخاف ما خفي في الباطن من الباطل. وعرف أن أمره معهما غير مستقيم، وأنه إن رحلا إليه فهو مقيم. فكتب إلى جاولي الجاندار يستدعيه، فوجده متجنيا متجنبا بالقبض على الوزير عز الملك من غير مشاورته، وقلة اكترائهم به وترك مراقبته في مصادرته.

فلما شعر السلطان بتأخيره، استشعر حذره ووري عن الهزيمة برحلة الشتاء إلى بغداد، وحث السير بالإغذاذ. ومعه من الأكابر عبد الرحمن بن طغايرك، وخاصبك ابن بلنكري. ووصل بوزابه وعباس إلى همذان على ظن أنهما يجتمعان بالسلطان، وهما

مبديان للطاعة مخفيان للعصيان. فأقاما بها شاتيين، واتصل بها الأمير ناصر الدين خطلبة البازداري، وكان ليثا خادراً، وقسورا قاسراً. وكتبوا إلى الأمير جاولي الجاندار بأذربيجان وقالوا له: " أنت الكبير، لك التدبير. ونحن أتباعك وأشياعك، فإن قدمت إلينا، قُدِّمت علينا. وكنت صاحب جيوش من ينتصب على سرير الملك، وانخرطنا معك طائعين في السلك".

فرد جوابهم بجميل، وأعاد رسولهم بتأميل. واشتغل بحشد الجموع وجمع الحشود، وحشر الجنود ونشر البنود. واتصل به أتابك آياز، وكان أتابك داود في حياته وهو مشكور الغناء في مقاماته، وعضده الأمير شيرين آق سنقر فأظهر حينئذ النهدة إلى همذان، والنهضة إلى الناهضين المتسلطين على السلطان، فوجد الطريق مسدودة بالثلوج، فأقام بعسكره مجمعا، وللنهوض عند انحساء الثلوج مزمعا. وتطايرت كتبه إلى بغداد لاستدعاء السلطان إليه، واستقدامه عليه. والسلطان في بغداد ساه بسهوه، لاه بلهوه، زاه بزهوه. فلما تنبه من وسنه، ندم على خلع رسنه، ورجع من الحزم إلى سننه. ولبى نداء جاولي وأجاب دعوته، وعزم على الرحيل إليه وسار على الدربند القرابلي إلى المراغة في أوعر طريق، وأعسر مضيق. حتى اتصل بالأمير جاولي، فكثّف من العدد الجمع، وكثر من العدد اللمع.

وأعجب السلطان الحال وحل به العجب، وانقلب إلى القوة وقوى منه القلب. فحسدت الجماعة جاولي وغبطوه، وتحيلوا في أن يقبضوا عليه ويربطوه. فإن ابن طغايرك مع مصاهرته له كان بإمكانه متبرما، وكذلك خاصبك كان من استيلائه متوهماً. فأجمع الأمراء واحتالوا لاغتياله في سرادق السلطان فاطلع على السر، ووقع على مكر المكر. فاحترز منهم، وتقبض عنهم، وأراد أن يبطش بهم كما أرادوا البطش به، ثم جرى في الحلم والكرم على حسب مذهبه وقال للسلطان: " أنا على مناصحتك، وفي مني صحتك، ولا يجمعني وإياك بعد هذا ناد، ولا يسمع تلبيتي فيه مناد". فما اجتمع السلطان وجاولي بعد ذلك إلا راكبين، منفردين عن العسكر متجانبين. وقال للسلطان: " إن أردت تداني أمني، فتباعد عني، ودعني انهض بعساكري إلى أعدائك، وأذكرهم بحقوق نعمائك فإن أتوا قبلتهم، وإن أبوا قتلتهم، وإن اتبعوا سررتهم. وإن ساروا تبعتهم".

فاعتذر إليه السلطان واستماله، واستعفاه من ذكر ما جرى واستقاله. وحكّمه في الحـــل والعقد والإقطاع وأمر الجند والأمراء بالائتمار لأمره، وسر بسروره سره. وشـــرع جــاولي في مكاتبة الملك سليمان وخدعه، ورده عن المقام مع القوم وردعه. وتوثق له من السلطان بيمين، وسير نسخة أمال له مع أمين ففارقهم. وانفصل وانفصم عـــنهم. ووصل أيضا خوارزمشاه يوسف وأخوه، فاتبعهما للتوجه الأعيان والوجوه. ولما عرف بوزابه وعباس تعذر ما حاولاه وتعسر ما زاولاه. وتفرّق الجند الذي جمعاه، تفارقـــا على مواعدة في معاودة الجمع، وودعا على موادعة مودعة للطاعة والسمع. وعـــزم كلاهما على الرجوع إلى بلده بنية الرجوع، والغروب في أفقه على استئناف الطلوع.

وكـــان السلطان عند اتصال أخيه سليمان بجانبه، واستظهاره بكتائبه، علم أن بوزابه وعباسا يفترقان، وأنهما يعدان بأنهما يعودان. فرحل بالعسكر إلى مدينة سجاس مع جاولي على عزيمة الإسراع والإتباع. والسلطان وخواصه على حالة من الارتياب والارتـــياع. فقال لجاولي: " انهض أنت وراء بوزابه، فالعسكر والشوكة معه، والرأي مسيري إلى الري لألقي عباسا وأقمعه". فمضى جاولي إلى همذان، وعمد مسعود نحو الـــري، فحصـــل من وردها بالري وغنى بالسعادة عن استعمال المشرفي والسمهري. وقـــبض ســـليمان شـــاه أخاه وحبسه في قلعة سرجهان، وتلقى ما صعب بالاحتمال والاحتماء فهان.

ولمـــا عـــلم بوزابه أن جاولي جاء، ولّى وخليّ همذان، وترك أثقاله وخزائنه بها وسار، فسار جاولي وراءه جريدة. وقطع حتى وصل إلى القرب مراحل بعيدة. فلما دنا منه أبدى البقيا عليه، وأسدى الحسنى إليه. وقال: " اتخذ اليوم عنده يداً، لينجدني عند الحاجـــة غـــدا. فهذا السلطان غير موثوق بمواثيقه، ولا موفق في تسديده وتفويقه ". وذكـــر غـــدره بأخـــيه ســـليمان شاه، فكتب إلى بوزابه وهو على حد الهزيمة كتابا مضمونه، " إني مصدقك ومصادقك. وموافقك لا مفارقك. وخاطب حبك، وطالب ودك، وقد صرت من حزبك، وما سرت لحربك".

فاعـــتمد بوزابه على قوله، واعتد بِطَوْله. وملأ أيدي الرسل بالأيادي أرسالا، وقـــال حســـناً وحسّـــن مقالا. وأعـــاد ما كتب بما كبت الأعادي، وذكر: " إني

أحببت الداعي ولبيت المنادي، و لم يبق الآن إلا التعاهد على الجد، والتساعد على العهد، وعلامة صدقك في صداقتك أنني خلفت خزانتي ثلاثين وقراً من المال الصامت بهمذان في دار الأثير أبي عيسى، فإن رأيت أن تأخذها فخذها. وإن سمحت بإنفاذها فأنفذها. لتعلم أني مستوثق منك بشفيق مسترفق لشقيق". فعاد جاولي إلى همذان، وتسلم من الأثير أبي عيسى المال. وسير على جماله تلك الأحمال، وندب معها مائة فارس من عسكره إلى أصفهان وكتب إلى الأمير غلبك واليها، أن يضم لحفظها إلى فرسانه الفرسان. فلما وصلت خزانة بوزابه إليه عقد على الود الخنصر، وزكى في الوفاء والوفاق منه العنصر. وتعاقدا على المعاهدة، وتعاهدا على المعاودة. وابن بوزابه يأتي بالملك محمد بن محمود متى أراد، وأن يجعلا همتهما الجمع والاحتشاد. وعاد كل واحد منهما إلى مركزه، واحتمى على السلطان بتعززه. وتأكدت بين جاولي وبين السلطان الوحشة، ودبت إلى أعضاء المملكة بسبب فتور أعضادها الرعشة. واعتلت النقائد، وانحلت المعاقد. ولما تمادى الأمر، تبدى السر ووقع الشر. فأنفذ جاولي الأمير تتار إلى بوزابه بفارس يستنجزه الوعد، ويستنجح منه القصد. وأقام بميانج ومعه جميع أكابر الأمراء، والرسل تترى منهم إلى الأمير تتار، لاستحثاث بوزابه بالاستدعاء.

وأقام جاولي مدة ينتظر، وفي تدبير الملك يفكر. فكان من قضاء الله ما لم يكن في حسابه، ودنا الأجل الذي في كتابه. وكان فخر الدين بن طغايرك لما عرف توجُّه الأمير تتار إلى فارس لاستنهاض بوزابه، شخص إليه بنفسه من جانب السلطان ليصده عن الورود، ويرده عن الصدود. وتمادى على جاولي المقام له بظاهر ميانج، واجتمعت عليه العساكر العظام، وازدحف اللفيف والتف الزحام. وكان في اثني عشر ألف دارع، وكانت معه عساكر أرّانية وأرمنية، فخيم على زنجان، وحتم على عزم همذان. وكان بيد أيده زمام الزمان، وهو أصم عن حديث الحدثان. وكان قد افتصد لغير مرض عرض، ثم على تصرف عادته بيده فبسط وقبض ونزع في قمس فتألم عرقه وتورم، ودجا أفقه وأظلم. وكان سريان الورم من شريانه، وصعد فيه الدم بعد جريانه، وتجاوز من عرقه إلى حلقه وصدره، وانتقل إلى بطن الثرى من ظهره. وكانت وفاته بزنجان في جماد الأول سنة ٥٤١ هـ، وفي ذلك يقول زين الدين المظفر بن سيدي الزنجاني من قصيدة:

عشرون ألف مهند قد أصلتت فَلّتْ مضاربها نكاية مبضع

وقيل: إن في الليلة التي توفي فيها جاولي الجاندار قتل زنكي بن آق سنقر بالشام، وكان كلاهما قطبا يدور عليه فلك الإسلام.

قال: والصحيح أن زنكي بن آق سنقر، قتل في شهر ربيع الآخر من السنة، على قلعة جعبر قبل موت جاولي بأيام، ولكن تدانى موهما، وتنادى فوهما. ومن قبلهما كانت وفاة سعد الدولة يرنقش، ووفاة قزل أمير آخر، وكان قد قتل من قبل ناصر الدين قتلغ آبه البازداري فتقاربت مناياهم، وتبدلت نقودهم بنسياهم. وصاروا أسمارا، وعادوا أخبارا. ولما اخترم جاولي انحلت تلك المعاقد، واختلت تلك القواعد. وتفرق ذلك الجمع، وتشوس ذلك الوضع. وعاد كل طائر إلى وكره، وكل صاح إلى سكره. وآمن السلطان من أمله، وأقبل إليه من قبله، وعاد الأمير تتار إلى السلطان لبوزابه متوسطا، ولتمكينه مشترطا. وكان ذلك برأي الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك، وعملت سعادة السلطان عمله، وقدر الله ما لم يجر بخاطره أمله.

قال: وحيث أجرينا ذكر زنكي بن آق سنقر وقتله بالشام في التاريخ الذي توفي فيه جاولي جاندار بزنجان، فإنا نذكر جملة من أموره، إلى أن قضى الله عليه بمقدوره.

ذكر زنكي بن آق سنقر في آخر عهده

قال: كان جبارٌ عسوفاً، بنكباء النكبات عصوفاً، نمِرْيّ الخلق، أسدي الحنق، لا ينكر العنف، ولا يعرف العرف. قد استولى على الشام سنة ٥٢٢ هـ إلى أن قتل في سنة ٥٤١ هـ ، وهو مرهوب لسطوه، بجفوٌ لجفوه. عاد عات، حتف عُداة ورعاة. لكنما ختم الله له في آخر عمره بالسعادة وبالشهادة، ووفقه للجهاد الذي هو أفضل أركان العبادة. وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة، وذلك يوم السبت السادس والعشرين من جماد الآخر سنة ٥٣٩ هـ فتسنى بفتح الرها للمسلمين، جوس بلاد جوسلين، وعاد جميعها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الإفرنج من ذلك بعد فتح الرها نـزل على حصن البيرة وهي

على الفرات، وهو مشحون بالفرنج العتاة. فجاءه الخبر بأن نائبه بالموصل وهو نصير الدين جفر قتل، فترك الحصار وارتحل.

ذكــر مقتل جعفر نائب زنكي بالموصل

قــال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، أحدهمــا يســمى ألــب أرســلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى قرُخشــاه، ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل. وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة فانتزعه منه زنكي في حرب، وأنــزل من إكرامه في منــزل رحب. وكانــت الخــاتون السُــكمانية زوجة زنكي تربيه وتبرّيه، وتجري به في حلبة تجريبه وتُحــرّيه. حــتى بلــغ وأدرك، وساكن فطنته تحرك، وفَهدته المرأة غمر مرة وأفهدته، وعاهدتــه عــلى الوفاق وعلى الوفاء عهدته. وتأسد الشبل وضاق به عرينه، وشمخ عرنينه، وكان نصير الدين جفر نائب زنكي بالموصل للدماء سفاكا، وبالنفوس فتاكا، يــأخذ الــبرئ بالســقيم، ويلحق الولود بالعقيم. وقيل: إنه لما أحكم سور الموصل، واحــترز بالحفظة منه على المخرج والمدخل، وأعجبه كمال إحكامه، وملاك أحكامه ناداه مجنون نداء عاقل وقال: "هل تقدر أن تبني على الموصل سوراً يسد طريق القضاء النازل ؟" فدار المنحنون [1] بتصديق ما قال المجنون، فإنه لما أحس من الملك نحس الملك صــار يقبض عنانه، ويبسط فيه لسانه، ويقول: " إن عقل وإلا عقلته وإن نقل طبعه وإلا نقلــته ". فســمع الملك ما راعه وأسره في نفسه وما أذاعه. فقدر ودبر، وفكّر ومكّر، وجمع إليه مَنْ حوله، وقال لهم فكتموا قوله. واتفقوا على أنه إذا جاء إلى سلام خــاتون أو ســلامه، أحــيط به من خلفه ومن قدامه. فإذا أصابوا منه المقتل ملكوا الموصل.

فركــب نصــير الديــن بكرة على عادته، وهو يزعم أن إدارة الفلك بإرادته، واخــترق المديــنة ووصل إلى الدار التي فيها الملك للتسليم، فملكت حشاشته حاشية الملــك، وقطعت سلك حياته في طريق الدهليز المنسلك. ومزقوه بسيوفهم ومزعوه، وضــربوه بسكاكينهم وبضّعوه، ونادوا بشعار الملك وأركبوه. وذلك في أواخر سنة

(١) كذا في الأصل ولعلها النحنحون من نحنح بمعنى تحير واضطرب.

٥٣٩ هـ. وتشوش البلد وخاف أهله العاقبة، وحذروا من زنكي سطواته المعاقبة. فخرج القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله الشهرزوري، وجاء إلى الملك وهناه، وسهل لـه الصعب مما جناه، وقال له: "نحن قدامك، وقد صرنا مماليكك وخدامك، فسر في المدينة واسلكها، وادخل القلعة واملكها". فركن إلى قوله، وسكن بحوله. وأحدق به الجند كأنهم في خدمته، وصوبوا له سداد عزمته. حتى صعد إلى القلعة فأجلسوه في المركز، وأحاطوا بـه إحاطة الدائرة بالمركز، والتقطوا مماليكه من حواليه وأفردوه واحتاطوا عليه، ولم ير له بعد ذلك أثر، ولم يسمع له خبر. ولا شك أنه بعد ما احتيل عليه اغتيل، وبعد ما استنـزل أزيل.

وولي زنكي الموصل بعد جغر زين الدين علي بن بكتكين، المعروف بعلي كوجك، فنظم السلك ونهج المسلك، وتلافى واستدرك. ووصل زنكي بعد ذلك إلى الموصل فاستصفى أموال جغر واستخرج ذخائره، واستنظف أوله وآخره، وصادر أهله وأقاربه، وأحل بنوابه نوائبه وسلبهم القوة والقوت، ونوع عليهم جوره الممقوت. ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعني بتفاصيل أمره وجمله، وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي جلوسه وركوبه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه، وغرضه خفاء ما جرى من هلاك أخيه. وقصد حصار قلعة جعبر، وصاحبها عز الدين علي بن مالك بن سالم بن مالك ونازلها، وقابلها وقاتلها، وأحاط بسورها المعصوم إحاطة السوار بالمعصم، وربض على ربضها في مجثم المخيم. ولج في الحصار وهو مستظهر بالأنصار، مستنصر بالاستظهار، ومتكثر بالاستعداد معتد بالاستكثار، مغرور بالدهر، مسرور بالقهر، يظن أن القضاء بحكمه، وأن القدر خصمُ خصمه. وأهل الحصن قد أشفوا منه على الدامغ الدامر، وقد بلوا من وبل وباله بالهامل الهامر. فأتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا، ووافاهم الفرح من حيث لم يكتسبوا.

وذلك أن زنكيا كان إذا نام، ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه. يذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه، ويزورونه زور الخيال في أحلامه. وهم من الصباح الروق في حسن الصباح لدى الشروق. وهو يحبهم ويحبوهم، ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم. وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده

وخصاه. وإذا استحسن غلاما استدام مرورديته بالخصي والسَّل، وفاجأه ووجأه بقطع النســـل. فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص. فنام تلك الليلة إليهم مستنيما، وللوثوق بهم مستديما. وهو صريع الراح، نـــزيف الأقداح. فغلبه نعاســـه وملّكه رقاده، وحوله مماليكه مرده ومراده. فانتبه وهم قد شرعوا في اللعب، وأخـــذوا في الشـــراب والطـــرب. فزبرهم وزجرهم، ومنعه السكر من الكلام حين أبصـــرهم. فحرك رأسه يتوعدهم، وهينم بلسانه يتهددهم، و لم يدر أن تحريكه للرأس سبب قطعه، وأن نـــزوله على القلعة بالنازلة خاتمة قلعه. فتولى كبيرهم الأمر والباقون ساكتون، وتحرك ورفقاؤه ساكنون. وكان اسمه يرنقش فخف إليه، وبرك عليه، وفرشه على فراشه، وغشيه في غشاشه. وذبحه في نومه، و لم يغن عنه ذب قومه. وخرج ومعه خاتمه، وهو لا يرتاب به لأنه خاص زنكي وخادمه، وركب فرس النوبة موهما أنه في مهـــم، وقد ندب لكشف ملم. وأهل القلعة في أضيق شدة وأشد ضيق، وكلهم لبأس المطيف بهم غير مطيق. حتى أتاهم الخادم فتحدث بما أحدث، فأشاعوا قتل زنكي من القلعة، وارتاع الناس لما هالهم من الروعة، وركبوا ولبسوا السلاح، ورقبوا تلك الليلة لأمـــرهم إلى الصـــباح. وزحف بعضهم إلى خيمة جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور، فرمي بالنشاب، وحصل من أمره في الاضطراب. فقصد من حماه من الأمراء، وشـــاركه في تصـــويب الآراء. واتفقوا على أن يبادر نور الدين محمود بن زنكي إلى الشـــام، لـــلحوطة عـــلى ثغور الإسلام. فسار معه أولياؤه، وكبراء الشام وأمراؤه، وكـــبيرهم صلاح الدين محمد اليغبساني، وسار معه أسد الدين شيركوه، وانحازت إليه الأعـــيان والوجـــوه. فملـــك حلب، وبلغ المراد وغلب، وافتض الفتوحات الأبكار، واستخلص من الكفار الديار.

وأمـــا الوزيـــر جمال الدين محمد بن علي أبي منصور، فإنه لما بَعُدَ عنه من كان يحذره، وعرف الأمر ممن كان ينكره ضم العسكر واستمال الملك ألب أرسلان وأطمعه في المملكـــة، وحثه على الحركة. وكاتب زين الدين علي كوجك بالموصل، على أن يســـتدعي ســـيف الديـــن غازيا، أكبر أولاد زنكي، وكان لا يفارق خدمة السلطان مسعود بأمر والده، أمنا به من غوائل القصد ومكايده. فكتبوا إليه بالواقعة، وأشاروا عليه بالمسارعة. فاتفق وصول الخبر إليه بشهرزور وقد انفصل عن السلطان بدستور.

فـأغذ السير واستعجل الخبر، وسبق إلى الموصل قبل وصول الجماعة. ولما عرف جمال الديـن بوصوله سبق أيضا إلى الموصل وبقي الملك منفرداً فاستوحش، وتشور في رأيه وتشوش. وركب صوب الجزيرة مفارقا، وإلى حلبة النجاة مسابقا، فسيَّروا وراءه من وثـق بتوفير أمانته أمانه، وخيّلوا له أن قد عاد القوم غلمانه، وأن غازيا إذا كنت معه أخـذ البلاد باسمك، وجعل الممالك برسمك. ومازالوا يحدثونه بالخسر والختل [1]، إلى قَلْتِ [2] القتل. فإنه عاد معهم ودخل الموصل في استقبال ونثار، وإعظام وإكبار، حتى دخل الدار، وخال الاستقرار. فما أجلسوه، حتى اختلسوه، وما رسموه، حتى رمسوه. وكـتموا أمـره، وختموا عمره. وجرى بين جمال الدين الوزير وبين زين الدين علي كوجـك وسـيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد. وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى، وكان باسترعاء ما أولاه الله من نعمه أولى. وأنه عـاش بنداه الجواد، وعشا إلى ناديه الوفود. وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمـال. فأنـارت مطـالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده. وعمّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلها، وجمع بالأمن شملها.

ذكر حـال جمـال الديـن الجـواد أبي جعفر محمـد بن علي بـن أبي منصـور

قال -رحمه الله-: كان والده من أصفهان الكامل عليّ، وهو حاجب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهّادا في عهد السلطان ملكشاه ابن ألب أرسلان وابنه الكامل نجيب، أديب لبيب. وزادت أيامه في السمو، وأيامنه في النمو. حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وكان قد زوَّج بنتا له ببعض أولاد أخوال العم العزيز، فاشتمل لذلك العزيز، -رحمه الله- على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرَّجه في الأدب، ودرَّجه في الرتب. فأول ما رتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي محليا، فبرز في تلك الحلبة سابقاً

(١) الختر والختل: الغدر والمخادعة.

(٢) قلت: الهلاك.

ومجلياً. وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج. واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوج بامرأة الأمير الأسفسلار، كندغدي، وولدها خاصبك بن كُنْدغدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتبه العزيز جمال الدين لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة. شهي الهشاشة، هيّ البشاشة. فتوفرت مني زنكي على منادمته، وقَصَر صاحه ومساءه على مساهمته. وعول عليه في آخر عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال بتمكنه ومكانه. فلم يظهر من جمال الدين في زمان زنكي جود، ولا عرف له موجود. فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته. ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به على أشباهه. فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم استضر بإساءته، ومنهم من انتفع بإحسانه. ولما قتل زنكي صار للدولة الأتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا. واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومضافرته. فأجرى بحر السماح، ونادى حيّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح. وأتوا إليه من كل فج عميق، وقُصد من كل بلد سحيق. وقصده العظماء، ومدحه الشعراء. وممن وفد إليه ومدحه أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصيفي المعروف بحيص بيص. قال: وأنشدني لنفسه من قصيدة أولها:

يا للصوارم والرماح الذبل ... نصرا ومن إنجدتما لم يخذل
لو شئتما ومشية بمشيَّة ... جاد الزمان وبالعلي لم يبخل
أنا فارس اليومين يوم مقالة ... ووغى، أصول بصارمي وبمقولي

ومنها يصف بناءه لسور المدينة وعمارة قبر:

وتقر عين محمد بمحمد ... محيي دريسَي علمه والمنـــزل
معمار مرقده وحافظ دينه ... ومعين أمه بجود مسبل
خرقٌ يناط قميصه ورداءه ... بعباب زخّار وهضبة يذبُل

قال: وكنت أنا في ذلك العهد ببغداد متفقهاً، واتفق حضوري بالموصل في ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـــ. فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده

مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به من قصيدة وذلك من أول نظمي، أولها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا ... ثنوا عنا جَمالا لا جِمالا
سَرَوْا والصبح مبيضٌ الحواشي ... فلما جال عهد الوصل حالا
اخلائي وهل في الناس خل ... به أخلي من الأشجان بالا
لئن لم أشف صدري من حسودي ... ولم أذق العدى داء عضالا
فلا أدركت من أدبي مراما ... ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وَخَدَتْ إليكم بي جمال ... ولا واليت مولانا الجمالا
وقائلة أفي الدنيا كريم ... سواه فقلت لا، وأبي العُلالا

قال: ولم يقنع بما جاد به للوفود، حتى زم إلى البلاد ركائب الجود، فجعل لكل بلدة من بلاد الإسلام من مواهبه راتباً، وأصبح جوده في الآفاق إلى المقيمين سائرا وللطالبين طالباً.

عاد الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بعد موت جاولي في سنة ٥٤١ هـ

قال -رحمه الله-: ولما توفي جاولي جاندار، طمع الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك في تولي بلاد أرَّانية وأرمينية، وعرف أنه لا يتمشى له ذلك مع تسلط خاصبك بن بلنكري، فتوسل في استمالة الأمير بوزابه، صاحب فارس، إلى السلطان، ليتم له مراده بتوسطه، وأرسل إلى الأمير الحاجب تتار، وهو عند الأمير بوزابه، أن هذا أوان قدومه، وزمان هجومه. فقدم المعسكر السلطاني في عسكر ضخم، ومقدَّم فخم. واتصل به الأمير عباس صاحب الري في عدة وعديد، وبأس شديد. واتفق هؤلاء الثلاثة ابن طغايرك، وبوزابه، وعباس، على تدبير الدولة وتقرير قوانينها وترتيب دواوينها، وكف عادية المتسطلين عنها، وتوفير حظوظهم بالاستقلال بها منها. فأحوجت السلطان الضرورة إلى النـــزول على حكمهم، ورأى السلامة سلمهم. وأقسم على رضاهم ورضي بقسمهم. فأول ما فعلوا أنهم عزلوا وزيره، ونقلوا إلى الوزير الذي ولوه تدبيره.

ذكـــر وزارة تـــــاج الديــــن بن دارست الفارسي

قال: كان ابن دارست، وزير بوزابه صاحب فارس، فرتبه في وزارة السلطان ليصدر الأمور على مراده، ويورد على وفق إيراده. وكان هذا الوزير رفيع البدر، محبا للخير، مبغضا للشر، فما فعل أمرا ينقم عليه، ولا أحال حالا تتوجه لأجلها اللائمة عليه. ونائبه أمين الدين أبو الحسن الكازروني ذو الدين المتين، والحلم الرزين، والاستهتار بأعمال الشر، والاشتهار بأفعال الخير. وتولى ديوان العرض والد الوزير عضد الدين، وهو جميل مجمّل لمذهبه، مهذب لمنصبه. وأقروا ولاية أذربيجان وأرانية جميعها على ابن طغايرك عبد الرحمن، وقرروا إبعاد خاصبك بن بلنكري عن السلطان. فسار في خدمة ابن طغايرك أميراً، وصحبه في مضمار الخلصاء ولم يخلص في صحبته ضميرا. وتقرر أن يكون أحد الثلاثة بالنوبة ملازما لخدمة السلطان حتى يسلم لهم جانبه، وتؤمن نوائبه. وانفصل الأمير بوزابه إلى بلاد فارس، ورحل السلطان إلى بغداد ومعه الأمير عباس صاحب الري، في شوكة مانعة، وهيئة رائعة.

قال: ولما قدموا بغداد في خريف هذه السنة، خرجت مع الفقهاء لتلقيهم والناس مشتتلون على تخوفهم منهم وتوقيهم. فلما حلوا ببغداد نــزلوا دورها، وسكنوا للتخريب معمورها. وألهبوا الكروب، وأرهبوا القلوب. وكانت هذه عادتهم إذا وصلوا، وعادتهم إذا نــزلوا. فتكمن الأتراك، لا يتركــون ممكنا من الجهل، وعندهم أن الظلم من العدل. ولكن الوزير نــزل في دار الوزارة بالأجمة، متوخيا بثّ المكرمة. وأمر بتجديد عمارة المدرسة التاجية التي بناها خاله الوزير تاج الملك أبو الغنائم بن دارست ببغداد، وأوطنها شيخنا شرف الدين يوسف الدمشقي فأحيا دريسها بدروسه، وأشرق أفقها بنجوم العلم وشموسه. ورتب الوزير في داره مجالس للختمات، وحضور أئمة الفرق وفقهائها للمناظرات. ولم يعارض السلطان في شيء من أوامره وأموره، وابتسمت الدولة بأسفاره وسفوره. لكنه مع تقاصر مدته ما أمرَّ ولا أحلى، ولا شغل ولا أخلى، ولا عزل ولا ولى. كل ذلك طلبا للسلامة، واستقاءً لماء الاستقامة. وعلما بوخم العاقبة، وألم المعاقبة. فلا جرم توفرت الدواعي على حبه، وفرت العوادي من حربه وحزبه.

قال: وفي هذه السنة قدم الأمير العالم قطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادي الواعظ، فأعجز بالفصاحة وأعجب، وشرّق بأنوار البلاغة وغرّب وأنا أذكر، وقد حضرت بمجلسه، وقد وضع له منبر على شاطئ دجلة، والسلطان مطل عليه من أعلى مكان، والأمير عباس صاحب الري جالس في شفّارته [1] بدجلة بحيث يسمعه، والعبادي يفتن الناس بما يبديه من سحره ويبدعه. وحضرت مدة مقامي ببغداد جميع مجالسه أكتبها من لفظه، وأقبل عليه الإمام المقتفي وقبّله، ورفعه وبجّله. وأمره بالجلوس في جامع القصر في موضع يقرب من منظرته، ليجلس حيث لا يراه وهو بحضرته. وانبثّت بدائهه وبدائعه، وأشرقت بنجح مطالبه مطالعه.

ذكـــر ما جرى من الحـــوادث التي انحلت بهـــا تلك العقـــود واختلت تلك العهـــــود

قال -رحمه الله-: وصل الخبر بقتل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك بأرانية، وكان من قدر الله سبحانه أنه استصحب معه خاصبك بلنكري ليبعده عن الخدمة السلطانية، غير مكترث به. وكان مع خاصبك أمر من السلطان سرا في الفتك به أن خلت عرصة، أو أمكنت فرصة. فركب ابن طغايرك يوما لتجهيز العساكر إلى غزاة الكرج، ووقف منفردا في ذلك المرج. وهو يسير أميراً أميراً. ولا يمكن من المقام كبيراً ولا صغيراً. وابن بلنكري واقف لا يريم، وهو لبرق ما يشيمه من عارض الغمد يشيم. ومعه الأمير زنكي الجاندار، فتقدم وأقدم، وضرب رأس ابن طغايرك بسوط حديد شدخه وفشخه، واستصرخ بأعوانه فعدم مصرخه. وضرب بعد ذلك بالسيوف، وتفرقت عنه جموع تلك الصفوف. وتغلب ابن بلنكري على أرّانية، فأحسن إلى الذين ساعدوه، وعقد حبي الحبّ لهم حين عاقدوه. وامتد إلى أردبيل محاصرا، وبها الأمير آق أرسلان، وأخرجه منها بالأمان، ثم اشتغل بحصار مراغة لينال منها ما أراغ، وحصرها طويلا ولم يجد فيها المساغ.

ولما نمى إلى السلطان ببغداد خبر قتل ابن طغايرك، أحضر الأمير عباسا في داره،

---

(١) كذا في الأصل ولم نقف لها على معنى يناسب وضعها من الجملة.

ليخلو به ويستشيره. فلما خلا به أمر بضرب رقبته، ورمي جثته. وذلك بكرة خميس من ذي القعدة سنة ٥٤١ هـ. فركب عسكر عباس يتقدمهم الأمير آق سنقر الفيروزكوهي، وشقوا مدينة بغداد وساروا، ونهض الأوباش لنهب دار الوزير وثاروا. فأركب السلطان جماعة منعوا من الوصول إلى داره، وبقي موقرا موفرا على حرمته وقراره. ثم أذن له في الانصراف إلى فارس مصحوبا بالصيانة مصونا بالصحبة، مرتَّب الأحوال حالي الرتبة. فجاء إليه وودع ودعا، ورعى له السلطان حق ما رعى وتلا: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى".

ذكر وزارة شمس الدين بن النجيب الأصم الدركزيني

قال: وحفظ السلطان حرمة الوزير تاج الدين، فلم يتسم شمس الدين الوزير بوزارته، حتى انصرف الوزير بجاهه وماله وحرمته، وحشمته ونعمته. ولم يُر وزير للسلجقية صُرف ولم ينكب في نفسه أو في ماله سواه، ولأنه كان يرجو منه استمالة الأمير بوزابه وتحصيل رضاه. فإنه لم يشك في حركته، والابتلاء بمعركته. فضمن له تاج الدين بن دارست أن يكفيه أمره، ويكف شره. وكان هذا من دهائه لينجو من الداهية، ويستفيد الإحكام لقواعده الواهية. فرحل فرحا للسلامة، ظاعنا من وطنه إلى دار المقامة. فاستقل بالوزارة حينئذ شمس الدين أبو النجيب، وكان من قبل يخدم ابن بلنكري. فلما سار، أقام يخدم الأمير الحاجب تتار، مستديما لعود مخدومه الانتظار. فرغب السلطان فيه لأجل اختصاصه بخاصبك، ولم يكن فيه من أدوات الوزارة إلا كونه للقوام الدركزيني نسيباً، فحاز من منصبه نصيبا. وكان بزمانه شبيها، وفي مكانه نبيهاً. لائقا بالقوم، موافقا للوم. يطلب مرافقهم في مرافقهم، والتخلق بخلائقهم. والسلطان لاه بالملاهي، متناه في المناهي. لا يسأل عما يفعل، ولا يفعل ما يسأل. ولا يقبل ما يقال، ولا يقول ما يقبل. وعنَّ للسلطان أن يحرك ساكن الموصل بإبداء عزمه إليها، وإظهار عوجه عليها. فبادر متولوّها بحمول، وتحف وهدايا وخيول. فقبلها منهم، ورضى عنهم. وأقام ببغداد باقي تلك الشتوة. فلما رحل ضيف الشتاء، حل السلطان حبوة مقامه، وأمر خبر خروج بوزابه صاحب فارس ما أحلاه من أحلامه. فخفقت القلوب والبنود، وقلقت الجنوب والجنود. ثم أغذ السلطان مسعود إلى همذان

سيره ليسبقه إليها، قبل إطلاله عليها. فإنها مقام ملكه، ونظام سلكه. وطيَّر الكتب إلى خاصبك بن بلنكري وهو على حصار مراغة، ليقدم تلك العساكر، ويقدم إقدام الليث الخادر.

وأما بوزابه، فإنه لما نعي إليه عباس وعبد الرحمن قامت قيامته، وغامت عمامته. وكدر عيشه، وكثر طيشه، وجاش جاشه وجيشه. ونهد بالملكين محمد وملكشاه ابني محمود، وأقبل بهما كالنيرين، من جترهما [1] في فلكين. فلما قرب من أصفهان تلقاه صدر الدين ابن الخجندي وفتح له أبوابها، وحمل على الأصحاب له أصحابها. فدخل دار مملكتها، ومقر سلطنتها. وأجلس الملكين على السرير الألب أرسلاني، والتخت الخسرواني. ثم خرج بهما على سمت همذان، وهو لا يشك أنه إذا بلغ غلب، وإذا بسل سلب. فوصل إلى مرج قراتكين، وهي من همذان على مرحلة، واتصل به ابن عباس صاحب الري، فلما عرف السلطان مسعود قربه، حزب حزبه، وقوى قلبه، وطير إلى ابن بلنكري كتبه، وضيق في التأخير عذره ووسع عتبه. فوصل وقد حم اللقاء، وحق البلاء. فقوي السلطان وتسلطت قوته، واحتبى بالشدة وجمرهما يشب، وريحهما تهب. فلما بدا الصباح خلف من العجاج الليل ليل، واتجر على المجرة من مجرى المحرين ذيل، وطما بما سل من الجفون سيل، وطلع في كل أفق من لمع اليماني سهيل. والتقى الصفان، وتلاطم البحران. وصال العديد على العديد، وصل الحديد في الحديد. وكادت الكسرة تصح على مسعود، وبقي قلبه ثابتا بين طارد ومطرود، وبوزابه قد تهور وتهجم، وحمل على القلب ليقلبه بجملته: ويميز تفصيله بجملته. فكبا به الفرس ففرس، واختلسه القدر فقدر عليه واختلس. وحمل إلى السلطان أسيراً، فخاطبه وعاتبه كثيراً. فلم ينبس ببنت شفة، وأراد السلطان الإبقاء عليه لشهامته، فأبى ابن بلنكري إلا فش هامته، فأمر السلطان بالإضراب عن رقْبَتِه وضرب رقبته. وأمر بحمل رأسه إلى العراق، وأن يطاف به في جميع الآفاق. وانجلى الغبار عن ابن عباس قتيلا، وانهزم عسكر فارس والملكان موليان لا يلويان، وموليان لا يليان. وجلس مسعود للهناء،

(١) كذا في الأصل وقد كرر المؤلف استعمالها، وليس لها وجود في المعاجم، ولعلها من الكلمات الدخيلة.

وخص خاصبك بالاصطناع والاصطفاء، وعظمه على الأمراء، وأمره على العظماء. وذلك في سنة ٥٤٢ هـ.

ذكر ما جرى بأصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه

قال -رحمه الله-: كان نجم الدين رشيد الغياثي والي أصفهان من قبل السلطان، وهو متعصب على الشافعية. فلما تم من صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي إلى بوزابه الميل، بادر بالإرسال إلى أصفهان للإيقاع بمن خرج على السلطان، وعلم ابن الخجندي فخرج منها، وزحف العوام إلى المدرسة فنهبوها، وأحرقوا دار كتبها، وتشتت بنو الخجندي. فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل، وأوردهما جمال الدين الوزير من إنعامه وإكرامه المهل والمنهل [1]. ومضى جمال الدين إلى الحج، وأقام صدر الدين وبحر وجود الوزير له متلاطم اللج. ثم انصرف عنه مملؤ الحقائب، محبواً بالمواهب. وعمل في جمال الدين أبياتا من جملتها:

حنت إلى بابك فرداً وقد خرجت من نعماك في قافله

ووصل إلى أصفهان لتوفر أهلها على خدمته، وافترضوا إقامة حرمته. وأما جمال الدين أخوه، فإني لما عدت إلى بغداد لقيته وقد عاد من الحج في صفر سنة ٥٤٣ هـ. وكان قد عزم والدي على العود إلى أصفهان، فصحبناه، وجمعتنا الطريق، ووجدناه نعم الرفيق. ثم تفارقنا، وسار مع قافلة همذان، وسرنا مع أصفهان. ثم وصل الخبر بأن السلطان رضي عنه وعن أخيه وخلع عليهما، وأعاد الرئاسة إليهما، ثم وصلا، وعلى أضعاف ما كان لهما من الحشمة حصلا.

ذكر بعض الحوادث

قال: في سنة ٥٤١ هـ حج ابن جهير وزير الخليفة المقتفي، فرتب صاحب المخزن قوام الدين بن صدقة وزيرا، وكان بيته أثيلا أثيراً. ورتب في المخزن عوضه زعيم الدين يحيى بن جعفر، ورتب بعد ذلك يحيى بن محمد بن هبيرة صاحب الديوان. وفي سنة ٥٤٣ هـ ، مات قاضي القضاة ببغداد يوم النحر، وهو فخر الدين علي بن

(١) المنهل: الكثير الانصباب.

الحسين الزينبي. ورتب بعد ذلك عوضه عماد الدين بن الدامغاني.

قال: وأما السلطان مسعود فإنه أرسل إلى ابن أخيه الملك محمد بن محمود بعد قتل بوزابه فاستدعاه، وَمنَّ عليه ومنَّاه. وزوجه بنته، وعهد إليه في الولاية وولاه عهده. ثم ملكه خوزستان، ولما أمن ابن بلنكري من الجوانب عمد إلى الأمير الحاجب تتار، وقبضه وأوثقه، وأنفذه إلى قلعة سرجهان واعتقله بها ثم خنقه. وصفا له الجو فباض وصفر، وضفا عليه الضوء فاجتلى الظفر.

قال: وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ، وصلت شعبة من أكابر الأمراء، ومعهم الملك محمد إلى بغداد محاصرين، وعلى خذلان السلطان مسعود لشقوتهم متناصرين، منهم: شمس الدين إيلدكز، والأمير قيصر، وملك العرب علي بن دبيس، وغيرهم. فحضروها وحصروها. فخرج أهل بغداد لردهم، فأفرجوا عنهم، حتى أصحروا فكروا عليهم كرة أردتهم. وما أبقت عليهم بل أفنتهم. وكانت بالقرب منهم حفر الغسالين، وتنانير الآجريين، وأتاتين الجصاصين. فما نجا إلا من آوى إليها. وقتلوا زهاء خمسمائة نفس، وحل رزء بغداد ليرحلوا، وفصلوا الأمراء على المبلغ لينفصلوا. فاستشار الخليفة الوزير وأرباب المناصب في أنه هل يبذل لهم الذهب؟ وهل يحتمل للراحة منهم التعب! فما فيهم إلا من عجل بالعذل، للتأني في البذل. فأخرجت العين. فأشار ابن هبيرة، وهو يومئذ صاحب الديوان، بضد ما أشاروا، وصار من الرأي إلى غير ما صاروا. وقال للإمام: "هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان، وجاهروكما بالعصيان، فاجعل بالله الاستجارة، وقدم منه الاستخارة. وأنفق ما عزمت على بذله لهم، في عسكر يقاومهم بدفع شرهم، فإنك إن دفعتهم بالعطاء لم تسلم من عتب السلطان مسعود، وإن هزمتهم باللقاء، قلت له إني فللت جنود عصيانك من أهل أطاعتك بجنود. وأنت لا تحمد على ما تحمل، ولا تشكر على ما تعمل".

فقبل الخليفة رأيه ولم ير خلافه، وجمع حينئذ وجند، وحشر وحشد، واستخدم من البطالين أبطالا من المقاتلة المبطلين. وفرق المال ومال إليه الفريق، وأنفق فنفق في سوق تفويقه التوفيق. وصار من ذلك اليوم للخليفة جند مهيب، ونار لها في أفئدة العدى لهيب. فرد هؤلاء الأردياء بالحدّ الحديد والجد الجديد. وقال: "إني أرى المشورة

الهبيرية أرياً مشوراً [١]، وصوب صوابه لري الرأي مشكورا". فجاء به وزر عليه جيب الوزارة، ولم يزل عنده مودود الشارة، مقبول الإشارة. وذلك يوم الأربعاء الرابع أو رابع عشر ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ. فشرع في نصر أمر الشرع. رحيب الصدر والباع والذرع. وأكرم الفضلاء، وفضل الكرماء. وعاش في وزارتي المقتفي والمستنجد ست عشرة سنة وشهرين، قرير العين، أيد اليدين. وكان به عمش، وبوزير السلطان طرش. وأمرُ الدين والدولة بهما منتظم، وشعب الخلافة والسلطنة بكفايتهما ملتئم.

ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه إلى الري في أواخر شعبان سنة ٥٤٤ هـ

قال -رحمه الله-: لما عرف سنجر ما تم بالعراق من اغتيال النفوس، واقتطاف الرؤوس، واستيلاء خاصبك على خواص الأولياء، وإغضاء السلطان في مهد الإغفال، وخدعه بالألطاف خدع الأطفال. قال: " لابد من الإدراك والاستدراك، والإمساك والاستمساك، وتهذيب المستعلي، وتعذيب المستولي، وإخفاء الشر اللائح، وإطفاء الشرر اللافح". فنهض على كبر سنه، ووصل إلى الري في صميم الشتاء، وقرها في قره، فأجفل مسعود من همذان راحلا على سمت بغداد، فثنى عنانه شرف الدين الموفق كردبازو وقال له: " أنت لسنجر مقام الولد، والأولاد ببّر الآباء فازوا، وما أسعدهم إذا حصلوا رضاهم وحازوا ". فسار إلى الري معه، وأبى ابن بلنكري أن يتبعه. وأقام هو الوزير الأصم بهمذان. فلما بصر سنجر بمسعود قدمه وأكرمه، وقر عينا به وقربه، وتحدث معه بما أعجبه، ورضي عنه وما عتبه. ونسي كل ما ذكره، وأدبر عن كل ما دفعه. وشفع السلطان في خاصبك فأجابه، وذكر له فعله فاستصابه. فما أمر بمعروف ولا نهى عن نكر، ولا أبدل شكوى بشكر، ولا كشف ظلامة، ولا كف قلامة. لكنه ودع ابن أخيه وعاد، وأغذ إلى خراسان التأويب والإسناد، ورجع السلطان واستصحب خاصبك والوزير الأصم معه إلى بغداد. وأقام تلك الشتوة في رفاعة وفراغ، وصباح صباح ومساء مساغ، وكان مع سنجر كبراء أمرائه، مثل المؤيد يرنقش هريوه، والفلك

(١) أريا مشوراً: عسلا مجتنى أو مستخرجا.

علي البحتري، وسنقر العزيزي، وغيرهم من عظماء عسكره، وخواص معشره.

ذكـــــر حـــــوادث في تلك السنين

قال -رحمه الله-: وفي السادس من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هــ نــزل ملك الألمان بجمع عظيم من الإفرنج على دمشق وحاصرها، وأشرف المسلمون فيها على اليأس، ثم منعها الله تعالى، ورحلوا عنها بعد أربعة أيام خائبين هائبين، خاسئين خاسرين. وفي أوائل جماد الأول من سنة ٥٤٤ هــ، توفي الأمير غازي بن زنكي صاحب الموصل، وتولى أخوه قطب الدين مودود، وجمال الدين الجواد وزير على حاله، وزين الدين علي كوجك متولى العسكر ورجاله. وتوفى الحافظ متولي مصر في خامس جماد الأول من هذه السنة. وتولى بعده ولده الظافر. وفي موسم سنة ٥٤٤ هــ ، وقعت زعب ومن تابعها من العرب على قافلة الحج عند قفولها من مكة إلى المدينة، فأهلكت الناس، وأحلت بهم البؤس والباس. وعظم مصاب المسلمين في الآفاق، ونجا من الآلاف آحاد بآخر الأرماق. وفي الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ هــ، كسر نور الدين محمود بن زنكي على أنب من الشأم، ابرنس إنطاكية وقتله وحز رأسه. وشد بتلك النصرة للإسلام قواعده وأساسه. وفي سنة ٥٤٥ هــ، أسر التركمان جوسلين، وسلموه إلى نور الدين، ونــزل الملك مسعود بن قلج أرسلان على تل باشر، وهي مع جوسلين، ونــزل نور الدين بعد أسر جوسلين على قلعة عزاز وفتحها بالأمـــان. وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٦ هــ، تسلم الأمير حسان المنبجي تل باشر بالأمان. وفي سنة ٥٤٦ هــ، أغار عز الدين علي ابن مالك صاحب قلعة جعبر على أطراف الرقة، ففزعوا إليه وأدركوه وقتلوه، وجلس مكانه في القلعة شهاب الدين مالك ولد عز الدين.

ذكـــــر مـــــا تجـــدد من الملك ملكشاه
ابــــــن محمـــــــود ووفـــاة السلطان مسعود

قال: أغار في ربيع الأول سنة ٥٤٥هــ ملكشاه بن محمود على أصفهان، وساق بعض مواشيها، وصار يغاديها بالإخافة ويعاشيها. وكان فيها نجم الدين رشيد واليها. فأنهض السلطان إليها شرف الدين كردبازو وضم إليه جماعة من الأمراء. فلما وصلوا إلى أصفهان، راسلوا الملك ملكشاه وقبحوا له مـــا استحسنه، وتحركوا إليه بما

سكنه. وتحمل له رشيد بمـــال حمله، وسيره إليه ورحّله. ونـــزلت السكينة وسكنت النازلة، وأسبل الأمن وأمنت السابلة. وشتّى السلطان مسعود سنة ٥٤٥هــ ببغداد غائصا مع لذاته في لذاته، قانصا من العيش فرصاته. ثم رحل عنها رحيل مودع، فلم يعد بعدها إلى العراق، وترافق السلطان وخاصبك ولم يتفارقـــا، وتوافـــدا على الترافـــد وتوافقا. وكـــان خاصبك فرحا باختصاصه، ومنذ كان ما أخلى صاحبه من حبه وإخلاصه. فوصلا إلى همذان، وانقضت سنة ٥٤٦ هــ صافية عن القذى، كافية للأذى. ماضية مع الغني، مضّية السناء. ولم يعلما أن سنة سبع، بسنُّها كالسبع عضوض، وأن كل مـــا أبرمه اليوم الزمان غـــدا منقوض. وأن الحياة مختومة، وأن الوفاة محتومة. وأن عمران العمر مهدوم، وأن سر القضاء مكتوم. فلـــم يزل مسعود مسعوداً حتى عاجله القدر. ومـــا أجله الأجل. وأصابته علـــة الغثيان والقيء. فما سلمت حتى أسلمت نشره إلى الطيّ، وشمسه إلى الفيء. وجمـــد في آخر جماد الآخر ذوبُه، وخمد ضرامه وأقلع صوبه. وكـــانَ مسعود ضخم الدسيعة [1]. جم الصنيعة، لكنه يصطنع الأراذل، ويرفع الأسافـــل. وكـــان كثير الاتكال، على استمرار الإقبال، قليل الاحتفال بمكايد الرجال. دائم الإغضاء عن ذميم الفعال. لا يضمر لعدو سخيمة، ولا يقبل في ولي نميمة. واتفق قبل وفاتـــه أن أخاه سليمان شـــاه كـــان بقلعة قزوين معتقلا، وكـــان عليه بالحـــوط مثقلا، فواطأه مستحفظا موفّق الخادم على الخروج بعد موت أخيه لطلب السلطنة، واتصاله بذوي الأيدي المتمكنة. وكـــان الملك، ملكشاه بن محمود، قد اتصل بعمه مسعود إليه لاجيا، ولآلائه راجياً. وقد أجمل إليه، واشتمل عليه. وهو حاضر حين حضره الحين. وغـــارت وغاضت العَين والعِين [2]، ولابد أن يقطع بين المتواصلين البين. ودفن بهمذان في مدرسة بناها جمال الدين إقبال الخادم الجاندار.

---

(١) الدسيعة: الجفنة، وتأتي بمعنى العطية والقوة.

(٢) العين والعين: النبع والمال.

ذكـــــر جلـــــوس السلطان ملكشاه بن محمود

قال: لما توفي عمه اجتمع العسكر على نصبه، وعقد حَبي الاعتقاد لحبه [1]. وأجلسوه على السرير، وأطاعه الأمراء وائتمروا بطاعته، وتيمنوا بيومه، وسعدوا بطاعته. وتفرد ابن بلنكري على عادته، ومساعدة سعادته، بالأمر والنهي، والحل والعقد، والقصر والمد، والقبول والرد. والميل إلى جمع المال، وجباة الأعمال. وإلحاق ذوي الإثراء بذوي الإقلال. واشتغل ملكشاه بالانهماك في القصف والانهتاك بالعزف. وفوض الأمور كلها إلى ابن بلنكري. وكان من فلك ملكها في أوج المشُتري [2]. واعتلق بنجحه، ووثق بنصحه، وما درى أنه يخسر من ربحه، ويظلم يومه بطلوع صبحه. فإن ابن بلنكري طرف فبطر، وخطر بضميره أن يضمر الخطر، وجمع الأمراء -وكبيرهم الحسن الجاندار-، وقال لهم: " هذا سلطان لا يفلح، وللملك لا يصلح. فإنه غرٌ ذو غرور، وغمرٌ جاهل بالأمور، قد شغلته الخمر عن الأمر. وأغناه الحشف عن التمر. وأنا أرى من الصواب أن نخليه، ونستدعي أخاه محمداً ونوليه". فعلم الأمراء أن خاصبك كالباحث عن حتفه بظلفه، والجالب النكرْ إلى عرفه. وكانوا قد كرهوا استيلاءه، وسئموا استعلاءه، فوافقوه على الرأي الرائب، وعدوّه من المواهب. وقالوا: لعل الملك إذا تولاه حازم جازم، وعاقل بمصالحه عالم، انتحى له من هذا العادي، وشفى بصداه غليل الملك الصادي.

فقالوا لخاصبك "عجل هذا الأمر قبل أن يفطن به، فنأيس من نجح مطلبه". فقبض ابن بلنكري ملكشاه في دار الحسن الجاندار وهو في ضيافته، فقراه بآفته. واعتقله ببرج همذان، وكان قد أنفذ إلى الملك محمد بن محمود جمال الدين إيلفقشت ابن قايماز الحرامي، ونفذ ابن بلنكري لاستحلافه الأمير مشيد الدين بن شاهملك ومعه وزيره الكمال أبو شجاع الزنجاني المعروف بالتعجيلي، فخانوه في الرسالة، وحسنوا للسلطان محمد ضد ما أراده ابن بلنكري من الحالة، وقرروا معه قتله يوم الوصول،

---

(١) وعقد حبي الاعتقاد لحبه: جملة مضطربة لا معنى لها، ولعلها كانت " وعقد حبل الاعتقاد لحبه" فصحفت.

(٢) أوج المشتري: كناية عن النحس.

وقالوا له لا تقبل غير هذا الرأي لتحظى بالقبول. وعادوا وقالوا لابن بلنكري " إنا قد حلفناه واستوثقنا منه بالأيمان، وأكدنا إقسام القسم، بحيث يكون حنثه ارتداداً عن الإيمان". فوثق بأمانتهم، وأمن للوثوق بهم، وأرسل واسترسل، وعجل واستعجل. وأما ملكشاه، فإنه تخلص من اعتقاله، وخرج نجمه من بيت وباله. وكأنهم توانوا في حفظه، ووكلوه إلى حظه. وكما أغفلوا الإحسان إليه، أحسنوا بالغفلة عنه، ولم يكن لهم عنده ثأر فيحملهم على الانتقام منه، وصرحوا بهربه، ولم يعرضوا بطلبه. ولم يلبث في سلطنته إلا شهرين أو ثلاثة، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن استقر بخوزستان ملكا، وفي سلك السلوك نهج السلامة متسلكاً.

ذكـــــر جلوس السلطان غياث الدنيا والدين أبي شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه في أواخر سنة ٥٤٧

قال: وقدم السلطان محمد همذان في عدة يسيرة، وعدة غير كثيرة. فتلقاه خاصبك بلقائه مستبشراً، وبوفائه مستظهراً. وبصفاء وده موقناً، وبصفات مجده مؤمناً. وإلى دينه راكنا، وإلى يمينه ساكنا، وحمل إليه ما تجمل به من آلات الملك وأدواته، ومخبيات المال ومدخراته، وخيمه وسرادقاته. والخيل العراب، والعروض والثياب. فعلقت بالنفوس نفائس أعلاقه، وسكن المسكين إلى وفاء السلطان ووفاقه. وخرج له من قشره، وأرج منه بنشره. ولقيه السلطان بوجه له باشر، ولسان لحمده ناشر. لكن ضميره للشر مضمر، وفكره للفتك به مفكر. ثم إنه في اليوم الثالث من قدومه، جلس في أعلى القصر، واستدعى ابن بلنكري لمسارته في التفويض ومفاوضته في السر. فجاء ومعه الأمير زنكي الجاندار، والأمير كشطغان المعروف بشمله، فلما حصلوا على سلم القصر عرف شملة العملة. ورأى أمارات لا توافق المراد، فعاد وجذب ذيل ابن بلنكري ليعود فما عاد. ونـــزل وقد رهب، فركب وهرب. وأما ابن بلنكري وزنكي، فإنهما صعدا فأمر فحز رأس ابن بلنكري ورمي بجثته إلى الميدان، وضربت أيضا رقبة زنكي الجاندار وكان كبير الشان. وارتاعت القلوب وارتابت النفوس، وذرفت العيون وأطرقت الرؤوس.

ومما يعتبر به المستبصر، ويستبصر به المعتبر، أن خاصبك خلف أموالاً لا تأكلها النيران، ولا يحويها الحسبان. ومن جملة ما وجد له، ألف ثوب، وسبع مائة ثوب أطلس

عتابي، فكيف غيره من الألوان. وطلب له كفن في ذلك اليوم فلم يوجد، وبقي على حاله ولم يلحد. وما ألقى عليه رداء، ولم يبذل له فداء. حتى جبي له من سوق العسكر الكفن والقطن، وتهيأ لمن تولى أمره حسبة لله الغسل والدفن. فيا بعداً للدنيا ما أكدر صفاءها، وأغدر وفاءها. تخيف من آمنها، وتزعج من سكنها. وتقتل من أحياها، ولا ترعى من رعاها.

وأما السلطان محمد، فإنه ظن بعد قتله، أن الموانع قد ارتفعت. والمنافع قد اتسعت، وأن الأمراء النافرين منه، بسببه يجتمعون، وعلى نصره يُجْمعون، وإلي جنابه يفزعون. وكان وزيره في خوزستان الوزير جلال الدين بن القوام أبي القسم الدركزيني، وقد أبقاه على وزارته، وجرى ما جرى بمشورته وإشارته. فأشار عليه بأن يسير رأس خاصبك إلى الأميرين الكبيرين: شمس الدين أتابك إيلدكز، ونصر الدين خاصبك بن آق سنقر صاحب مراغة. وظن أنه يعجبهما إتلافه، ولا يسعهما عصيان السلطان وخلافه. فلما وصل إليهما الرأس هالتهما حالته، وأعيتهما في هذه العثرة إقالته. وقالا: " لقد أقدم على فتك عظيم بعظيم، ولقد ألام الكريم بظفر لئيم. أما كان استوثق منه باليمين؟ أما استمسك من وعده بالحبل المتين؟ وإذا كان هذا الملك الأكرم ابن الملوك الأكرمين مجترئا على مثل هذه الجرائم، ومستصغرا لأمثال هذه العظائم، فقد عزّ العزاء، وخاب الرجاء، وجل المصاب وعظم البلاء". فمالا عنه، ونالا باللوم منه. وأرسلا إليه: " إنك أخطأت، وزعمت أنك أصبت. وما يثق قلب إليك، وإن وثقتنا فإنك باليمين التي حلفت بها له تحلف، ولمثل الوعد الذي أخلفته معه تخلف. فليس لنا بك إلمام، ولا لك معنا كلام".

ذكر ما جرى للسلطان سليمان بن محمد ابن ملكشاه وجلوسه على سرير السلطنة

قال -رحمه الله-: كان لما خرج من مجلسه بقزوين، ووجد التمكن والتمكين. خرج به مظفر الدين ألب أرغو بن يرنقش البازدار إلى زنجان، وكاتب فيه الأميرين شمس الدين إيلدكز ونصرة الدين صاحب مراغة، وهما في أمره مترويان. فلما نفرا من محمد، وتزمما وتذمرا، سارا بعساكرهما إلى زنجان، طالبين لخدمة السلطان سليمان، وحملاه إلى همذان، وأجفل السلطان محمد في شرذمة يسيرة إلى أصفهان.

فاستقر سليمان على سرير الملك، وكان معه ينالتكين خوارزمشاه، وأخوه يوسف، وأختهما زوجة السلطان سليمان، وهي لأمره متولية، وعليه مستولية. وكان سليمان وزيراً شريباً خميراً. إذا سكر وقع صريعا، ونام أسبوعا. كلما رفع رأسه لاذ بالعقار، ثم لاث خمار الخمار[1]. وكان يقلي لأنه لا يلقى. ويشق عليهم أنهم لا يسعدون به وهو يشقى. وكذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر، ابن الوزير المعين أبي نصر أحمد بن الفضل بن محمود القاشاني، لا يصحو ساعة، ولا يمحو عنه شناعة، وهو أشبه بسلطانه، وكلاهما أليق بزمانه. فضجر الأمراء الأكابر من المقام، وشرعوا في الانفصال والانفصام. وعاد شمس الدين إيلدكز إلى أذربيجان لقصد أرانية وانتزاعها من يد روادي ابن عم ابن بلنكري. وعزم نصرة الدين آق سنقر على العود إلى ولايته. ثم إن الأمراء الباقين بعد رواح شمس الدين إيلدكز، قرروا مع نصرة الدين، وانتقلوا إلى مرج قراتكين، وخلوا السلطان مع خواصه بقصر همذان، واجتمعت آراؤهم على قبض الوزير، وأردوا اتباع ذلك بقبض خوارزمشاه ينالتكين. والسلطان سليمان كان حينئذ قد نكح زوجة أخيه بنت ملك الكرج، ودخل بها وهو في عرس وأنس، فجاءت إليه أخت خوارزمشاه زوجته، وقالت له: " إن لم تأخذ لنفسك أخذت نفسك. وطال حبسك، ومضى غدا يومك، ورجع في التطبيق عليك أمسك". فهرب ليلا معها ومع أخويها، وترك خاتون الأبخارية وقد بنى عليها، وأصبح الأمراء وقد فقدوه، ونشدوه وما وجدوه. فتولت العساكر إلى ولاياتها، وغابت تلك الأسود إلى غاباتها.

ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه إلى مقر ملكه بهمذان بعد غيبة سليمان

قال: لما وصل السلطان محمد إلى أصفهان، منحازاً عن عمه سليمان. كاتب الجوانب، وراقب الأجانب. واتصل به الأمير إيناج صاحب الري، فقويت يده، وعرف أن العساكر الغريبة لا تقيم مع عمه، وأنهم إذا انفصلوا عنه كان عزمه مليا بهزمه. فوصلته

(١) لاث الشيء: لاكه في فمه أو خلطه، والخمار: صداع الخمرة.

البشرى بأن عمه عام في بحر الليل سابحا، وساح لعرض الفلاة بالإفلات ماسحا. فسر بما وعي، وسار وسعى. وتلقاه أمراء الدولة مهنئين، وبجدة جده متهنئين، وعاد إلى قصره، وعادة نصره وذلك في سنة ٥٤٨ هـ.

ذكر ما اعتمده الإمام المقتفي لأمر الله بعد موت السلطان مسعود محمد بن ملكشاه

قال -رحمه الله-: كانت السدة الشريفة الإمامية قد منيت بجور الأعاجم، ولم يزل عودها من عداوتهم تحت سن العاجم. وكان أهون ما عندهم خلاف الخليفة وعناده، وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لا مراده، ولم تزل بغداد مظلمة، مشحونة منهم بالشحن الظلمة. ولهم من الديوان العزيز مطالب لا يفي بها خواصه، ومغارم تلحقه منهم يتعسر منها خلاصه. والحرم من جناياتهم خائف، والشرف لمهاباتهم عائف، وشريعة الشريعة مكدرة، والدماء والفروج مستباحة مهدرة. والخليفة يغضي ويغضب، ويَعتب ولا يُعتب، ويُقدر عليه ولا يقدر. ويُغدر به وهو على العهد لا يغدر.

فلما توفي السلطان مسعود قال: " لا صبر على الضيم، بعد اليوم. ولا قوام مع هول هؤلاء القوم" وآزره وزيره عون الدين بن هبيرة وأعانه، وثبت جنانه. وكان مسعود البلالي الخادم والي بغداد، فقامت عليه قيامة، وتعذرت عليه الإقامة. فرحل إلى الحلة، ومضى متحملا في تدبير الأمور المضمحلة. وأقام يحشد ويحشر، ويطوي وينشر. وكان بالحلة السلار الكردي، من أكابر أمراء السلطان، فلم يكترث بالخادم واسترسل إليه، وقصده ليسلم عليه. فأخذه الخادم وقتله وغرقه في الفرات، وجمع العساكر وأقطع تلك الولايات، وفرق على فريقه الإقطاعات. فسار إليه ابن هبيرة وهزمه وكسره، ولحق البلالي بهمذان مستصرخا، وغدا عقد جمعه منفسخاً. وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان، ومن حدّ تكريت إلى عبادان. وأقطع واسط وأعمالها، والبصرة وأنهارها، ومعاقلها وولاياتها. والحلة والكوفة، ونهر الملك، ونهر عيسى ودجيل والراذان، وطريق خراسان إلى نواحي حلوان. وأقطع الوزير عون الدين بن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد، وأعانه على الاستعداد وإضعاف الأعداد بتضعيف الأعداء. ونعته بتاج الملوك فلك الجيوش.

وكان الإمام لما استخلف استحلف على أنه لا يشتري مملوكا تركياً، وكان يقتني مدة خلافته إما أرمنياً أو رومياً. ولم يكن له من الأتراك إلا ترشك، ملكه قبل الإمامة، فولاه الإمارة على الأمراء، واختص من مماليكه الروم والأرمن عدة من النجباء، سماهم الخيلية، وولاهم الرتب العلية. وأحكم أسوار بغداد، وحفر خندقها. ورتب الولاة في الولايات، وبث العيون وأصحاب الأخبار، وبعث الجواسيس إلى جميع الأمصار. واشتغل السلاطين بعضهم ببعض في تلك السنين، وأعطى الله الخليفة التأييد والتمكين. وكان الخليفة قد سير قطب الدين العبادي في سنة ٥٤٦ هـ أو ٥٤٧ هـ، رسولا إلى محمد بن محمود بخوزستان، فتوفي هناك، وختمت به الفصاحة الوعظية، وأظلمت مطالع العلم المُضيّة.

ولما عاد السلطان بعد هرب عمه سليمان إلى همذان، راسل الخليفة وخاطبه في الخطبة له فما أجابه، وتجني عليه بقتل ابن بلنكري وعابه، وآيسه من ملك بغداد وخيب رجاءه، فحينئذ اجتمع عند السلطان الأمراء الذين حلت إقطاعاتهم ببغداد وقالوا: " أرزاقنا قد أقطعت، وأعراقنا قد قلعَتْ. ودُورنا قد أُنــزلت، وولاتنا عزلت. ولابد من مداواة هذا الداء قبل إعضاله، وتداركه قبل استفحاله".

وكان السلطان محمد يرجع إلى عقل ودين، وحلم ركين، ورأي رزين. فقال: " لا تعجلوا، فإن مخالفة الخليفة شؤُمٌ، ومواليه محمود، ومعاديه مذموم. وأنا أستقبح أن أستفتح سلطنتي بمعاداته، ونية مناواته". فقالوا له: "نحن نمضي ونقضي هذا الشغل، ونخفف عنك هذا الثقل. ونلقي بجمعنا الجمع، ونحصد بسيوفنا الزرع". فقال لهم: " كان رأيي ما ذكرته، وعرفتكم ما أنكرته. والآن فافعلوا ما رأيتموه، واعملوا ما نويتموه". فودعوه وركبوا، وجاء إليهم من وافقهم وذهبوا. وتجمعوا في جحافل حافلة، وعساكر في ذلاذل [1] السوابغ رافلة. وساقوا بين أيديهم التركمان ببيوتهم ومواشيهم، وأهاليهم وحواشيهم. وكان حصن تكريت قد بقي في يد مسعود البلالي، وبه نائبه أسبه، وحصره الخليفة مراراً فتمنع، ولم يفتح مغالقه المتصعبة. وفي هذه القلعة ملكان من السلجقية معتقلان، وهما ملكشاه بن سلجق بن محمد بن ملكشاه،

(١) ذلاذل جمع ذلذل وهو أسفل الثوب.

وأرسلان شاه بـــن طغرل بن محمد بن ملكشاه. فقالوا لمسعود البلالي: " أحضر لنا الملك أرسلان بن طغرل ابن عم السلطان، ليثق بحضوره جموع الأجناد وحشود التركمان". فأقطع عليهم بدره ورفع جتره. ثم وصلوا إلى نواحي العراق.

ولما عرف الإمام ذلك، أمر فاصحرت أسده الخوادر من عريسها. وتبدلت خيش الوشيج من خيسها. وبرز في مظلّته، كأنه البدر في هالته. ونور النبوة يشرق من جبينه، والقضيب النبوي يورق بالنصر في يمينه. والبردة الموروثة فوق ردائه، والقدر بالقدرة على أعدائه، ملبي ندائه. فسار في موكبه الشريف، وعلى مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة، في أسود استلأمت من الدروع بأهب أساود، وفي سحائب قساطل، من المناصل والصواهل، بوارق ورواعد. وفي الميمنة والميسرة أمراء ومقدمون من عظماء العسكر، كناصر الدين منكوبرس، وأمير واسط مظفر الدين قتلغ برس، وكلاهما من المسترشدية، وحاميا لحوزة المقتفية. وفخر الدين قُويدان، ومنكلبه العباسي، وبهاء الدين صندل. والأمراء المصطفون المصطنعون، والحماة والكماة المدرعون المقنعون. وخيم الخليفة على مرحلتين من بغداد في موضع يعرف ببجمزا، وأقام دون شهر ينتظر منهم البداية، ويستبعد من غوايتهم الهداية.

ولما تزاحم المجّران، وتراجم الجمران. تجرَّأ العدي ببغيهم وغيهم على الاقتحام، وحسروا عن أقدام الإقدام، وقالوا لو أن للقوم بنا طاقة، ما تحملوا من توسيع مدة الإقامة إضاقة. فقد عزت الأقوات وعدم العلف، ووجد التلف. وجهلوا أن الإمام متبع حكم الشرع، في قتال أهل البغي عند صيالهم بالدفع. فركبوا وما رقبوا، وبرزوا وجلبوا. فركب أمير المؤمنين في مهاجريه وأنصاره، ووقف في القلب منهم بين أسماعه وأبصاره. وقدم وزيره ابن هبيرة أمامه، وسير معه أعلامه، وأمر الأمراء أن يكونوا معه قدامه. فأقمرت ليالي الرايات السود، بوجوه رافعيها البيض، وأشرقت أيا من الأيام الإمامية بنوره المستفيض، وشرع برق الحديد اللامع على حواشي بوارق البوار في الوميض. وأولئك قد ساقوا دوابّ التركمان ومواشيها وأغنامها، وقدموها بين يدي صفوفها قدامها. وكانت آلافا كثيرة الأعداد، كثيفة السواد. ومن ورائها الوقاة الكماة، ذوو الحمية الحماة. وقد أخذت هذه المواشي طول الأرض وعرضها، ومنعت بتراصها تقويض صفوفها ونقضها.

فنـــزل الأمير فخر الدين قويدان قائد الجنود، وقبل الأرض للخليفة، وطلب بلاد الحلة، واقتدى به ناصر الدين منكوبرس في طلب البصرة. فأنعم بهما عليهما، فتأهبا للقاء، وتلهبا على الهيجاء. وحمل الوزير ومن معه، فلم يجدوا في تلك النقاد للآساد طريقا، وصادفوا في ذلك الفضاء الواسع للأنعام المحشورة إليه مضيقا. وكان ترشك مملوك الخليفة للمخالفين مخالفاً، وفي الميمنة واقفاً. فحملت ميمنتهم على ميسرة الخليفة، وفيها مهلهل ابن أبي عسكر والأكراد، فهلهلت نسجها، وحلحلت برجها. وعادت صفوة صفوف الأكراد أكدارا، وأجفلوا كالظلمان [١] هزيمة وفراراً. ودخل ترشك بين أطناب السرادق الشريفة، فطعن برمحه ظهير الدين بن الفقيه المرتب في المخزن فقتله، وركضت ميمنتهم خلف المنهزمين فلم يعرجوا، ومروا وراءهم ومرجوا. وأما الميمنة الميمونة الإمامية، فإنها حملت، وفيها ناصر الدين منكوبرس وفخر الدين قويدان، ونفذت إلى القوم، وقوضت ما قابله من البنيان المرصوص، وحكمت بنصر الحق المنصوص عليه، على الباطل المنقوص. فلم ير غير رأس سائر، ورأس طائر. ورزح يتشظىّ، وصارم يتلظى. وتبدد شمل آمال الأعادي، وتفرقوا عباديد. وأخلفهم الشيطان ما كان مناهم من مواعيد. وطاروا على خيولهم كأنما استعارت من قوائمها قوادم، وتركوا بتلك المغاني من أغنام التركمان مغانم. وخبَّتْ البشرى إلى بغداد بالنصر، بعقب إرجاف الأجلاف المنهزمين بالكسر.

ووقف بعد الهزيمة مسعود البلالي في قلبه ثابتاً قلبه، راجيا أن يثوب إليه حزبه، فهب إليه ابن هبيرة فهبره، وبري أجزاء صفه وجز وَبَره. وانتهز الفرصة الأمير سنقر الهمذاني، فانفرد بالملك أرسلان بن طغرل وسار به، وأخفى مسيره في مضايق كل وادي ومساربه. حتى وصل به إلى شمس الدين إيلدكز زوج أمه، وكأنما أنـــزل به الغني بعد عدمه. وأما الخليفة فإنه سجد لله شكرا، وانشرح بالنصر صدرا. ودخل إلى بغداد منصور اللواء، مصحوبا بأملاك السماء. ولما تمت على أولئك القوم في أملهم الخيبة، تملكتهم من جانب أمير المؤمنين الهيبة. ونكصوا على أعقابهم عاثرين بذيل الخجل، عابرين على سبيل الوجل. فلما رجعوا إلى السلطان محمد بن محمود نَدَّمهم،

(١) الظلمان: جمع ظليم وهو ذكر النعام.

وعاتبهم على الملك الذي ند منهم. وقال: "كسرتم ناموسكم، وأتلفتم نفوسكم، وأهلكتم التركمان وعرضم للسبي الذراري منهم والنسوان. ثم أخرجتم الملك أرسلان وغفلتم عن حفظه، وهو الآن عند إيلدكز، وستبصرون ما يفضي إليه الأمر. ولابد أن يتوجه إلى من جانبه الشر. وقد صار الخليفة خصما، فلا يخلص بعد هذا ورد دولتنا معه من الشوب، ولا يقبل على قبول التوبة ولا يرتضي صوابا إرضاء هذا الصوب". وكان كما حسب. فإن الخليفة لم يغفر للسلجقية بعدها ذنبا، ولا فرغ لهم من جهته قلباً، وكانت الوقعة ببجمزا في أواخر سنة ٥٤٩ هـ.

ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد وقبول الخليفة لـــــه وتجهيز الجيش معه وذلك في سنة ٥٥٠ هـ

قال -رحمه الله-: كان سليمان قد تخلى عن الملك وأخلى سريره، ووافق إدباره تدبيره. يدور في البلاد ويُبلي بالدوائر، وينجد مع المنجد ويغور مع الغائر. لا يستقر به قرار، ولا تؤويه دار، ولا يجيره جار. فلم ير لأمره وأمنه حامياً غير حمى أمير المؤمنين، فقصد أن يعلق من عصمته الحبل المتين. قال: وكنت حينئذ ببغداد، فوصل الخبر بأن سليمان قد دنا ودان، فقابلوا بوفور القبول وفوده وأكرموا وروده. ولو وفوه حق السلطنة لتلقاه الوزير ومعه قاضي القضاة والنقيبان، وأجلاء الخدم كما جرت عادة السلطان. لكنهم اقتصروا في تلقيه على موكب شريف يقدمه عز الدين محمد ابن الوزير، ومعه مخلص الدين بن الكيا الهرأسي وخادمان، ووقف الموقف خارج البلد، حتى قرب، ثم لقيه ابن الوزير وخاطبه بكل ما أطربه وأعجبه. وقال: "أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- يسلم عليك، ويهدي تحيته إليك". وترجم ابن الكيا الهرأسي له هذا السلام بالفارسية. فنـــزل سليمان عن فرسه، وقبل الأرض، ثم ركب ودخل البلد، وخرق الأسواق من باب سور الحلبة، إلى أن جاوز فرضه الرحبة. وحين وصل إلى باب النوبّي أنـــزلوه، وألزموه بتقبيل العتبة وقد أكرموه وهناك حَجر، إذا وصل الرُّسل ومقدمو الحاج، نـــزلوا عنده ولثموه وعظموه. وما قبَّل تلك العتبة قَبل سليمان سلطان سلجقي، ولا ملك ديلمي. وكان منهم شقي وسعيد.

ثم أركبوه وخرقوا به السوق، حتى عبروا به باب سور السلطان وأنــزلوه بدار السلطنة، ووظفوا له الرواتب، ورتبوا له الوظائف، وشرفوه وسوروه وطوقوه، وخطبوا له على المنابر في الجمع والجوامع. وخصوه بالعوارف والصنائع النصائع. لكنهم لم ينعتوه إلا بالمعظم، ولم يسموه بالسلطنة ولم يُسموه، وكانوا يقتصرون به على المعظم. وذلك غاية أن يعظموه، لكنه كان في قدّ عقله من غفلته، وعي لهجة من غيّ جهلته. وفي كسرة من سكرته، وفي ذلة من لذته. فما زال مدة مقامه مستحلا لمحارم شهواته، مستحليا مذاق اللهو في لهواته، مترنما بنغماته، متبغما بخرافاته. والخليفة مع ذلك في ولائه معتقد وللوائه عاقد. متيقظ لتدبير مصالحه وهو عنها راقد. وقد أوعز إلى عساكره بالتأهب للمسير في خدمته، وإعادته إلى عادته في سلطنته. واستوزر له شرف الدين الخراساني، وكان رجلا كبيرا يرجع إلى سؤدد وكرم محتد. وكان قد وصل إلى بغداد في عهد السلطان سنجر رسولا، وأعاد البُردة والقضيب النبويين معه إلى دار الخلافة، وكانا قد أخذا في النوبة المسترشدية.

وأقام شرف الدين هذا في الظل الأمامي، وهو مخصوص بالاحترام، فرأى المقتفي أن يجعله وزير سليمان، وسيره إلى أذربيجان. وجهز معه عساكر وافية العَدَد، وافرة العُدَد. فمضوا به إلى أرّانية ثقة بأتابك إيلدكز فما رفع بهم رأسا، ولا قراهم إيناساً. ووصل السلطان محمد بن محمود وجرى المصاف، ووقع بين الفريقين الانتصاف. ثم انهزم سليمان موليا، وعن عسكر الخليفة متخليا. فعادت العساكر إلى بغداد عادمة للظفر، نادمة للسفر. ورجع سليمان عائدا إلى بغداد في طريق الدربند القرابلي، فصبحه زين الدين علي كوجك من الموصل، وقبضه في المضيق، وحمله إلى قلعة الموصل. واعتقله وأراحه من التعب، وأباحه ما كان يؤثره من اللعب، وكان ذلك في شعبان سنة ٥٥١ هـ.

ذكر اتصال الملك جغري شاه بن محمود بأخيه السلطان محمد

قال -رحمه الله-: كان الملك جغري شاه مع أتابك آياز في أذربيجان. فشغل خواطر الأميرين إيلدكز وأرسلان آبه، صاحبي أذربيجان، عند اتصالهما بالسلطان سليمان، بعد انهزام محمد إلى أصفهان. فلما عاد محمد إلى السلطنة، سير شرف الدين

كردبازو لإصلاحهم، والصلح بينهم. فوصل والحرب قائمة على ساقها، آخذة من الأرواح بأطواقها. فأصلح ذات البين، وعاد قرير العين. وقد تسلم جغري شاه، وملأ بحمده ومدحه القلوب والأفواه. وجمع شمل السلطان بأخيه، وعاد أتابك آياز إلى ولايته، وكانت رعيته آمنة في كنف عنايته. واقتسم شمس الدين إيلدكز، ونصرة الدين أرسلان آبه، بلاد أذربيجان، وأفرجا عن أردبيل للأمير آغوش، وأعادوا من رسوم العدل النقوش. واجتمع السلطان محمد بأخيه جغري، والأخوة تحمله على الشفقة والملك به يغري.

قال: وكنت في ذلك العهد -سنة ٥٤٩ هـ- بهمذان، وقد عدت من الحج بصحبة جمال الدين محمود بن عبد اللطيف الخجندي. فشاهدت السلطان قد أنس بأخيه وسر به، وامتزج به، في مطعمه ومشربه. ولاطفه بعطفه، وعطف عليه بلطفه. ثم أمر باعتقاله، ووكل به الأمير عز الدين ستماز بن قايماز الحرامي يرصده ليلا ونهارا، ويرعاه سرا وجهارا. ومازال الأمر على ذلك حتى فارقنا العسكر، فما أدري أين أقبل به القضاء بعد ما أدبر. ومن حين نقل ما سمع له خبر، ولا رئي له أثر. فكأنما سُل طينُ السلاطين من جفن الجفاء، وجبلت جبلّتهم على الإغفال والإغفاء. فالرحم عندهم مقطوعة، والرحمة ممنوعة، والعزة في خدمتهم بالذل مشفوعة، والاغترار بهم غرر وصفوهم كدر. يقسمون ويحنثون، ويُبرمون وينكثون.

ذكر حوادث جرت في تلك السنين

قال في سنة ٥٤٨ هـ استولى الغُزّ على السلطان سنجر، وكانت حادثة هائلة وسنذكر أيام سنجر عند وفاته. وفي هذه السنة استولى الإفرنج على عسقلان، وفي هذه السنة قتل العادل ابن السلار سلطان مصر، قتله ابن امرأته. وفي هذه السنة توفي ابن منير الشاعر بحلب، في جماد الآخر. وتوفي ابن القيسراني الشاعر بدمشق، في الحادي والعشرين من شعبان. وتوفي أبو الفتوح بن الصلاح الفيلسوف البغدادي بدمشق، في الخامس والعشرين منه. وفي سنة ٥٤٩ هـ، توفي تمرتاش صاحب ماردين في أول المحرم، وفتح نور الدين محمود بن زنكي دمشق يوم الأحد ثالث صفر سنة ٥٤٩ هـ. وقتل الظافر متولي مصر ليلة الخميس لانسلاخ صفر.

قال: وفي هذه السنة توفيت حليلة السلطان محمد بن محمود بنت السلطان مسعود، فجلس للعزاء، وامترى در البكاء. وكنت حاضرا في زمرة العلماء. ووصل إلى خدمته أتابك إيلدكز في عساكر أذربيجان، والأمير شير بن آق سنقر بعسكر أخيه، وأقاما عنده على همذان، ثم استأذنوا في العود وعادوا، وزادهم السلطان حرمة وقوة فزادوا. ووصل رسول ملك كرمان فأكرم، وأحضر حملا فقدم، وسير جمال الدين بن الخجندي مع الرسول رسولا إلى كرمان، ليخطب بنت الملك للسلطان.

قال: فعدت معه إلى أصفهان، فسامني السفر معه في تلك السفارة، فرأيت الربح فيه عين الخسارة، فتأخرت وتقدم، وأحجمت فأقدم. وأقمت فظعن، وأسهلت فأحزن فإنني عند مسيره إلى كرمان سرت على طريق خوزستان إلى بغداد، وجئت إلى عسكر مكرم في شوال سنة ٥٤٩ هـ، والملك ملكشاه بن محمود مالكها، وقد أمنت به ممالكها ومسالكها. ولقيت رئيس الدين محمد بن القاضي أبي بكر الأرجاني، وهو في نيابة القضاء، موفور الحرمة في العلماء. فذكر لي أن والده توفي سنة ٥٤٤ هـ، وأعطاني مسودات من أشعار والده، فتنـزهت في رياض فوائده. ثم ارتحلت إلى بغداد بعد وصول الخبر بنصرة الخليفة في حرب بجمزا وظفره، وكنت مع والدي فحرضته البشرى على سفره.

قال: وشتى السلطان محمد بن محمود في هذه السنة بساوه، واستعجز جلال الدين بن القوام وزيره، واستقصر تدبيره. واستقصى من فارس تاج الدين الدارستي ليستوزره، فوصل تاج الدين إلى أصفهان، وأقام مدة فبرد أمره، وخمد جمره، واستبطأ السلطان سيره، واستوزر غيره.

ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الدركزيني

قال: قيل للسلطان إنه وزير عمك، وظهير عزمك. وقد سبقت له خدم، وثبت له في القدم قدم. فنصبه في المنصب، ورتبه في أعلى الرتب. واستند وتصدر، وأورد وأصدر، وخاطب الأمراء الذين استأثروا بالبلاد أن ينـزل كل منهم عن شيء مما في يده، ليكثر الخواص السلطانية، واستضاف بلادا عامرة إلى النواحي الديوانية. فتوفر

الاستظهار وظهر التوفير، وأثمر الرجاء ورجي التثمير وقال للسلطان: قد اتسقت الأحوال، واتسعت الأموال. وقد فرغ البال لشغل بغداد، فاسترجع حقك المغصوب، ولا تترك نحجك المطلوب. فإنها دار ملكك، ومقر أبيك وجدك. وأنت إذا مضيت بنفسك، فما يقف قدامك أحد، ولا يكون معك لأحد يد. فلما حضر الربيع مائدته، ووفر فائدته، وأحسن عائدته، عاد السلطان إلى همذان، وذلك في سنة ٥٥٠ هـ، ورحل على سمت بغداد، ورحل عدة مراحل، ونـــزل في قصدها منازل. ثم بدا له فعاد؛ لأن الأمراء الذين سبقت منهم المواعدة على المعاودة أخلفوا العدات، ولم يطاوعه العسكر على مفارقة البيوت والإقطاعات، عند إدراك الغلات. فانصرف راجعا، وتوجه إلى أذربيجان، وتم المصاف الذي نصر فيه على عمه سليمان. ثم عاد إلى مقر ملكه، وفي قلبه من أمر بغداد همٌّ شاغل، في صميم روحه وأغل. وعلم أن الجند لا يفارق بلاده في الصيف، فإنه لا يجمع بين حر بغداد وحر السيف. فواعدهم في الخريف، وأمنهم من الغرر المخيف. واشتغل بالاستعداء والاستعداد. والاجتهاد في الاحتشاد. وتجهيز الكتب إلى مجهزي الكتائب. وتبريز المضارب، وتمييز الطلائع والمقانب [1]. فارتحل لما انقضى المصيف وأقبل الخريف.

ذكر وصول السلطان محمد إلى محاصرة بغداد وما اعتمده أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله من حسن الصبر المعقب حميد الظفر والنصر

قال -رحمه الله-: وصل الخبر إلى بغداد في ذي القعدة سنة ٥٥١ هـ، بأن السلطان محمد قد قرب في عسكر هائل، وعرمرم صائل. وهو بمنـــزل " قصر قضاعة " فصدق اهتمام الخليفة بالاحتراز والاحتراس، وأجدَّ لباس الجد للباس. وبالغ في تحصيل العدد، وتحصين البلد. وأدار بالمنجنيقات سورا على السور، وملأ أبراجه بالحماة المساعير. وخرج الوزير ابن هبيرة وخيم تحت التاج الشريف، عند المثمنة على شاطئ دجلة، بحيث يطل الخليفة من المثمنة على خيمة وزيره، ويقرب الاستئمار في دقيق الأمر وجليله، وقليله وكثيره. وفتح باب الكرم المرْتجى المُرْتَج. وثبت قلب

(١) المقانب: جمع مقنب، وهي جماعة الخيل تجتمع للغارة.

الإسلام الخافق المُرْتج. وأعد العدد الخاصة والخرجية، واستخدم المنجنيقية والجرخية.

وكان من حزم الخليفة، أنه منذ توفي السلطان مسعود، ونفي مسعود الخادم البلالي من بغداد، أوعز بإعداد الذخائر وادخار العدد، والاستظهار بشغل صناع السلاح. وكانت حجارة المنجنيق معوزة، فأحضر منها في السفن ألوفا صارت محرزة. وأمر ببناء المراكب المقاتلة، والسفن فَرَعْنَ في دجلة راسيات كالرَّعْن[1]. وعبر محمد شاه دجلة إلى الجانب الغربي من أعلى بغداد علي بعد منها بجموعه، وراع كل قلب بصدوعه. وكان قد واعد زين الدين على كوجك فوصل بعسكر الموصل يوم الميعاد، في وفور من العدد والأعداد. وأطلوا من الجانب الغربي على بغداد. وكدروا المشارب، ووفروا المصائب. ثم بكروا وأشرفوا، وبالغوا في العتو وأسرفوا. ووقفوا بإزاء التاج الشريف وشرعوا في السبع، جارين على سوء الطّبع. ونبعت من معاجس قسيّهم غروب النبع. وجرحوا من النظارة جماعة أحسنوا بهم الظنون، وأمنوا منهم المنون. وقابلوا الفرض بالرفض، وقاتلوا الله تعالى بقتال خليفته في الأرض. ونــزلوا على بعد من بغداد حتى تألفت ألوفهم، والتف لفيفهم. وسيّروا إلى الحلة والكوفة وواسط والبصرة ولاة ومقْطعين، وشحناً ومتصرفين.

وفي كل يوم يُسيِّر الخليفة في دجلة مراكب، مملوءة بمقانب فيها المجانيق الخفاف، والعرادات اللطاف، والرماة الكماة، والجرخية الكفاة. فيحاذون المعسكر المحمدي في دجلة ويرمونهم، ويشوونهم ويصمونهم، حتى رأى السلطان محمد التنقل إلى حوالي سور بغداد، فجاء ونــزل على الصراة بدار يرنقش الزكوي، وعبر أمراؤه الكبار إلى الجانب الشرقي مثل أتابك آياز، وعز الدين ستماز، ومن يجري مجراهما من ذوي الاعتزاز، وبقي على كوجك بالعسكر الموصلي في الجانب الغربي، والسلطان معه، وهو يعبر في دجلة إلى دار السلطنة في جانب بغداد كل وقت ويعود، والبيض قد هجرتها الغمود، والعقول قد انحلت منها العقود. وتبرز خيل بغداد في كل يوم منها من يأتي سور السلطان والظفرية، ويقفون خلف الباشورة المبنية للحملة على من يكون

(١) فرعن: نــزلن، كالرعن: كالجبل الطويل.

منهم في الجاليشية [١]. فهم يخرجون، ويَخْرجون ويُخْرجون. فيأمر لهم الخليفة بالعطاء، على قدر البلاء.

وكان لكل جراحة على مقدارها عطاء، ولكل عمل مبرور جزاء. فتوفرت دواعي العوام على التهافت في نار الحرب تهافت الفراش في النار، للفوز عند العَود بالدين والدينار. فقامت الحرب على بغداد بالمساء والصباح، والغدو والرّواح. وطالت مدة الحصار، ولم يؤثر في الأسعار، وما عز غير اللّحم، ولا عز الملح. والأمل مقترب النجح، وخسران الخصم دليل الربح. وكانوا قد نصبوا من الجانب الذي من دجلة على مسناة دار العميد، وبقرب القمرية، منجنيقين عظيمين، وهّموا بنصب منجنيق آخر على الخان الذي بناه سرخك مقابل التاج. ولو تم ذلك لأعضل داء الإزعاج. فعين الخليفة ليلا رجالا أتوا بنيانه من القواعد، وكان لوقوعه سحرا رجفات كأصوات الرواعد. وكانت السفن المترددة في دجلة برماة الجروح والنشاب والقوارير المحرقة، والنفاطات المزرقة، وقد آذتهم وآذنتهم بعجزهم، وعزت بإزهاقهم فأزهقت روح عزهم. وما كانت لهم مراكب إلا عدة يسيرة يسخرون ملاحيها، ويخسرون مالكيها. ثم لا يثقون بالركوب معهم فيها، فحاروا وخاروا، وتشاوروا واستشاروا.

فقال لهم بدر بن المظفر بن حماد صاحب الغراف، وكان قد جاهر الخليفة بالخلاف: أنا أكفيكم بسفن مقاتلة، وأغنيكم بمراكب حاملة، وجوار منشآت، وزوارق وشفارات [٢] من بلد واسط والبطائح، من الداني والنازح. فحمدوه وشكروه، ومضى وأقاموا ينتظرونه حتى وصل بالسفن الخفاف والثقال، والملاحين والرجال، فامتنع عليهم عبورها في البلد إليهم، ورتب الخليفة الرجال في المراكب للقائها، وإحراقها بالنار وإردائها. ولما شق عليهم ذلك ردوها إلى نهر عيسى، بعد أن مدوها إلى الفرات. وأخرجوها فوق بغداد في الصراة. وتكاملت مدة شهرين في ذلك، ثم بدأوا بعقد جسر على دجلة فوق دار السلطان من تلك الزواريق، واتسعت طريقهم في العبور بالتغريب والتشريق. وضايقوا في الحصر من الجانبين، وشددوا في منع الميرة

(١) الجاليشية: كلمة غير عربية ولعلها فارسية، ولا ندري لها معنى.

(٢) شفارات: لعلها من شفَّر بمعنى استأصل أو ضيق.

وقطع الأقوات بجدع الأنوف وقطع اليدين. ووصل إليهم من الحلة أمراء بني أسد ورجالها، وفتاكها وأبطالها. وقالوا هذه بغداد من جانب دجلة ما عليها سور، وتوانيكم في هجمها قصور وفتور. فسلموا إلينا المراكب لنهجمها، وما أسهل علينا أن نفتحهما.

وأذن لهم السلطان في الزحف، فركبوا المركب مستلئمين مُعلمين، وعبروا إلى المدينة، على الموت مقدمين. ولما وصلوا إلى قرب السور، خرجوا من السفن شاكين، فخرج إليهم من الباب من مماليك الخليفة من طاردهم وجالدهم، وهم مع ذلك يبعدون من الشاطئ، ويوسعون إلى الموت خطوة المصيب غير الخاطئ. ثم كثر عليهم رجال بغداد كثرة حصلوا منها تحت العسر، وفي قُبض الأسر. وتظافروا إلى السفن فغرق أكثرها، وانخسف بهم موقرها. وقبض الأمير حسن المضطرب وأخوه ماضي، وعدة وافرة من معروفي بني أسد، وعدم كثير ممن غرق أو قتل أو فقد. وأمر الخليفة تلك الليلة بصلب حسن وأخيه على دقل زورق، وأصبح الباقون على السور ما بين مصلوب مشنق، ومقتول معلق، ففتح الله لخليفته من المهابة لأوليائه والمهانة لأعدائه كل باب مغلق. وسقط في أيديهم بعد ما بسط من تعديهم.

ولما طال الحصار، وتمادى الانتصار، خاف الخليفة الغلاء، ففتح الأهراء، واقتصر للأجناد في الأعطيات على تفريق التمور فيهم والغلات. وأخذوها، واحتاجوا إلى أثمانها في النفقات، فرموها في الأسواق وباعوها بالدينار. فخمد بذلك استعار نار الأسعار، وما زاد سعر في الأقوات ولا غلا مطعوم في وقت من الأوقات.

وفي صفر سنة ٥٥٢ هـ، وصلت قافلة الحج، فوجدوا دار الخليفة محصورة، والهمم من الخارجين على خلاف تعظيمها مقصورة، ونـزلوا في المعسكر السلطاني، ثم تفرقوا إلى بلادهم، ورحلوا طالبي أغوارهم وأنجادهم، ومن كان من بغداد تحيل في الدخول إلى منـزله، والوصول إلى منهله. وببغداد حينئذ خلق من التجار، يريدون بل يؤثرون مرافقة الحاج، ويقولون متى أخذوا البلد نهبوا بضائعنا، واستخرجوا ودائعنا. فحضروا التاج، وأكثروا الضّجاج. وحاولوا من ضيقهم الإفراج. فقال لهم الوزير: " أمير المؤمنين يقول لكم: أنتم في حرم إحساني، وفي ضمان أماني. ولكم بي أسوة، وهذه النوبة، ما لها نبوة. وأموالكم في البلد مصونة، وبأسباب الرعاية منا مضمونة.

وإذا خرجتم، وضعتموها على طرق الطوارق، وتعرضت لكم دون السفر عوائد الحدثان في البوائق. فاصبروا، فإن الصبر محمود العواقب. والله لنا كفيل بفل ناب النوائب.

فضجوا حتى أضجروا، وزجروا فما انـــزجروا. فوكلوا إلى آرائهم الفائلة، وآرائهم الحائلة. فاستبقوا الباب، وما استبقوا الألباب. فخرجوا وأحرزوا تلك البضائع في الدار السلطانية، ولم يقدموا مع تلك الفتن على السفرة الهمذانية. فما مضت عليهم إلا أيام قلائل، حتى غالتهم غوائل. فنُهبوا وسُلبوا وأصبحوا فقراء، وهذه سنة الله في الأغنياء، إذ كانوا أغبياء. وسنذكر سبب ذلك إن شاء الله.

قال: وأما العسكر النازل، فإن السلطان رأى مراسلة الخليفة بالاستعطاف والاستعطاء، والاستغفار والاستعفاء. وكان في صحبته من العلماء صدر الدين محمد ابن عبد اللطيف الخجندي، وشمس الدين أحمد شاذ الغزنوي. فأرسل كلا منهما على حدة، فلم يمكنا من الوصول. وقيل لا مطمع في نجح السؤال بالرسول. فإنكم لو أردتم الإجمال، لقدمتم الأرسال. والآن، إن استرجعتم، ورجعتم، ورأى الوري منكم الندم على ما فعلتم، فهنالك نسمع الرسائل، ونقبل الوسائل. فقنط القوم من قبول الرسالة، وشرعوا في الشر، وعادوا إلى العدوان، ولجّوا في العصيان والطغيان، وتخريب العمران. وانخرقت مهابتهم عند أهل بغداد. فطلبوا بكل نوع عليهم الاستحواذ، فصاروا يكبسونهم في الضياع، ويغافصونهم[1] بالقراع. ويقطعون الطرق على علاقتهم، ويوجدون السبل إلى تكثير مخافتهم. وكانت الأكلاك واصلة من الموصل إليهم بالميرة، والأقوات الكثيرة. فتلقوها في دجلة فأخذوها، وعبروا بها عليهم وعجزوا أن ينقذوها. وامتنع أهل الموصل بعد ذلك عن تسيير الأكلاك فما أنفذوها.

وكان وزير الخليفة منذ وصل محمد للمحاصرة واصل مكاتبة أتابك شمس الدين إيلدكز، وحثه على الحركة مع أحد الملكين: ملكشاه، أو أرسلان شاه إلى همذان، فوصلهم الخبر بأن ملكشاه هجم على البلاد، واستولى على الطراف والتلاد. واقتطع الإقطاعات وحوى الغلات، ورفع الارتفاعات. ففت ذلك في عضد العسكر وتضعضع

(١) غافصة: أي فاجأه وأخذه على غره.

ثباهم بهذا الخبر. وحمي أيضا عليهم الحر، واشتعل البر والبحر. فاجتمع عند السلطان الخواجكية والأمراء، والأماثل والكبراء. وكان الوزير، شمس الدين أبو النجيب الأصم الدركزيني، والمستوفي رضى الدين أبو سعد الخوافي، ونائب الاستيفاء، كمال الدين أبو الريان ومن الأمراء أتابك آياز، وعز الدين ستماز، وشرف الدين كردباز، ومسعود البلالي، وظاهرهم على الرأي زين الدين على كوجك الموصلي، وقالوا نعبر بأجمعنا إلى الجانب الشرقي ونصدقهم القتال، ونديم عليهم النـــزال. فإن تيسر الفتح فقد سفر النجح. وإن تعذر وتعسر تفرقنا على مواعدة المعاودة من قابل، وحصلنا من إدراك الطوائل على طائل.

ثم عمدوا إلى الجسر الذي لهم فأحكموه، وتجاسروا على الحكم الذي اعتمدوه. وأصبح العسكر في يوم الأربعاء من شهر ربيع الأول وقد أخذ عدته، ولبس شكته. وركب خيله، وسحب من السوابغ على السوابق ذيله. وشرعوا في العبور على الجسر مزدحمين، وعلى العثور بالمنية مقتحمين. واتفق في ذلك اليوم هبوب ريح عاصف، وتموج بحر من الهواء قاصف. وتلاطمت الأمواج، وتزاحمت الأفواج. وثقل الجسر وانقطع، وهم العسكر أن يرجع فلم يجد طريقا للرجوع. وخاف من على الجسر من الوقوع، فمدوا أيديهم إلى الدبابيس فاضطربوا، واضطروا إلى التنكيس والتعكيس. ولم يشعر من ورائهم بالأمر، ولم يطلعوا على انكسار الجسر. وانخرعوا لما هالهم، وحسبوا أن خطبا غالهم، فهاموا وما فهموا، وهموّا بما وهموا، وركب السلطان عند اشتباه الخطب، واتجاه الخبط، وشظ نازلا ونـــزل إلى الشط.

فقيل لزين الدين علي كوجك: إن السلطان قد ركب، وأن العسكر قد اضطرب. وأنه قد عبر إلى الدار، وحصل على الاستشعار. فركب أيضا في العسكر الموصلي على سبيل الاستظهار. ولما شاهد أهل بغداد اختلافهم واختلالهم، واختلاطهم واختباطهم، فتحوا أبواب البلد، وهتفوا بأرباب الجلد. ونادوا بشعار أمير المؤمنين ونصره، وزحف العالم في بره وبحره. وجذفت السفن الخفاف بمن خف من الرجال، وهجم الحق على الباطل بالأبطال. والقوم مشغولون بأنفسهم، حائرون لما عراهم من تعكسهم. ومن حصل منهم في الجانب الشرقي، لا طريق له إلا الجانب الغربي. فتقحّم البغداديون على الدار السلطانية وأجلوهم عنها، وأبعدوهم منها. ودخلوها ونهبوا ما

فيها من الأموال المودعة، والأثقال المجمعة. وعاثوا في بضائع التَّجر وودائع السفر.

ولما لم يبق في الدار شيء قلعت أبوابها، وقطعت أسبابها. وانصرف القوم هائبين، خائبين سادمين نادمين، وشغلوا عن أثقالهم، وثقلوا بأشغالهم. ووقفوا على صهوات الخيل، إلى دخول الليل. ثم سَرَوا وأدلجوا، وعرجوا إلى تلك المسالك و لم يُعرجوا. وسار من الجانب الغربي من عساكر همذان وأذربيجان مع عسكر الموصل للضرورة، ودفعوا إلى ما لم يقدروه و لم يخطر لهم من الأخطار المقدروة. وأصبحت بغداد وقد أتاها الله بالفرج، وقرن بهاءها بالبهج، وأحكم حكم نصرها من ألطافه بالحجج، وأنجى أهلها في سفينة السكينة من طوفان الفتن المتلاطمة اللجج. وغيض الماء وقُضي الأمر ونصر الحق وحق النصر. وكفَّ المقتفي عن اكتفاء المنكفين، وستر على المستترين منهم في المحال والمختفين. وانتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد، واستبشرت بالنصر المعتاد. وعرف الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد وحبرت قصائد في هناء الإمام، واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسط، فنقلني عن المدرسة إلى العمل، وعطلني عن الاشتغال بالعلم، وظن أنه حلاني بشغله من العطل.

ذكــر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ابن داوود بــن ميكائيل بــن سلجــق وشرح نبذ مــن أحواله من ابتداء عمره إلى خاتمة أمره

قال -رحمه الله-: توفي سنجر يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـــ بعد خلاصه من أيدي الغز، وكان مولده بظاهر سنجار، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ٤٧١ هـــ، وولاه أخوه بركيارق بلاد خراسان سنة ٤٩٠ هـــ.

ذكر السبب في ذلك

قال: كانت بلاد خراسان في أيام ملكشاه ساكنة الممالك، آمنة المسالك مشحونة الأطراف بالشحن، مسكونة الأكناف بالسكن. موطنة الديار بالأبرار، دارة المواطن بالمبار، ونظام الملك بنظام الملك مستتب مستدف، ونائله لذوي الفضل مستكف ولذوي الجهل مستكف. وما بخراسان رأسان، وما تسلط بها سلطانان. فلما

استشهد النظام، وأباح حمى ملك ملكشاه الحمام انفسخت تلك العقود، وانتخت تلك العهود. واستشرى الشر، واستضرى الضر. واستولى كل صغير على كبير، وكل مأمور على أمير.

وكان للسلطان ملكشاه أخ يقال له أرسلان أرغون، وكان مقطعا بمبلغ سبعة آلاف دينار في نواحي همذان وساوه، فقيل له: إلى كم تلزم مرارة العطلة والقناعة ؟ وتهجر حلية الملك والحلاوة ؟ وحركوا ساكنه، وبعثوه على شغل أخلى عنه مساكنه. فنـــزل عن قراء القرار، وركب مطا المطار. واشتد بطل الطلب، وشد لبب الخبب. وجاء إلى نيسابور فما تمكن منها، ودفعه أهلها عنه فصدع مروة مرو، وقال أملكها ولا غرو. فانقاد لأمره الأمير قودن شحنتها، وجعلت تحت مكنته أمكنتها. فقوى أرسلان أرغون بقودن، فإنه وجد الجواد وعدم الكودن. واستولى على بلخ وترمذ، وصفت له خراسان، وحيزت بلدانه البلدان. وكتب إلى ابن أخيه السلطان بركيارق: " إني قد ملكت موضع جغري بك داود جدي، بجدي وجدي، وقد رضيت به رضاء قانع، وأنا فيما سواه غير طامع ولا منازع. وأنا باذل لما تطلبون، وحامل لما فيه ترغبون". فرأى بركيارق أنه بالعراق في شغل شاغل، وهم زائد غير زائل. فأمسك عنه، وأظهر أنه قبل منه.

ثم بدا له وآثر قتاله، وكان عنده عمه الآخر بوري برس بن ألب أرسلان فأنهضه لقتال أخيه، وضم إليه مسعود بن ماجر، وأمير آخر التونتاش، واجتمعت عليه عساكر خراسان، فطار من النشاط وطاش، وحث العزم البطاش. فأما مسعود، فإن التونتاش توهم منه بما قيل له، ففتك به وبولده، وصار الأمر كله في يده. ووزر للملك بوري برس، عماد الملك أبو القاسم بن نظام الملك، فوضع ورفع، وفرق وجمع، وخرق ورقع، وضيق وأوسع. وصاف بوري برس أخاه أرسلان أرغون وصدمه وحط عليه وحطمه، وهز طوده وهزمه. فعاد أرسلان أرغون إلى بلخ مكسوراً مخسوراً، وأقام بوري برس بمكانه منصورا مسرورا.

ثم أرسل أرسلان أرغون إلى الأطراف والأوساط، وحشد وحشر، ونهض إلى مرو وفرض مروتها، وحطّ ذروتها. وفتحها عنوة وهدم سورها، وقتل جمهورها. وبرز بوري برس من هراة لقصد لقائه، وحفظ البلاد من بلائه. فزحف العسكر إلى

العسكر، وطنّ الذباب في المغفر، وضبح الثعلب في لبة الغضنفر. وجنى ثمر النصر من ورق الحديد الأخضر. وطارت فراخ الجعاب إلى أوكار المقل، وأدمت لواحظ السهام من الخدود مواضع القبل. وبرز البوار لبوري برس وكسر، وأدرك وأسر. وحمل إلى أخيه أرسلان أرغون، فما رق له ولا رفق، فاعتقله في ترمذ ثم خنقه. وأخذ وزيره عماد الملك بن نظام الملك وصادره على ثلثمائة ألف دينار ثم قتله. ولم يترك سوءاً إلا عمله، لا جرم أخذه الله وأقدر عليه قدره، وسلط على صفوه كدره. فإنه عاد إلى مرو وظن أنه مَلَك، وأن خصمه هلك فقال له منجمه:

" أرى عليك قطعاً، وأنت لا تملك لما قُدِّر دفعاً. والحزم تحرزّك وتحرسك، إلى أن تؤمن المخافة. ولا تخشى الآفة ". فاحتجب عن أصحابه، وأغلق رتاج أبوابه. ولم يدع إلا مملوكاً صغيراً كان به يأنس فانتظره، وأنكر تأخره. فلما حضر عاتبه كيف أبطأ، وعاقبه حيث أخطأ. فضربه الغلام بسكين معه وصرعه، فقضى موضعه. فلما قيل للمملوك لم فعلت ما فعلته؟ وعلام قتلته ؟ قال: " أردت أن أريح الخلق من ظلمه، وكان هذا بقضاء الله وسابقاً في علمه ". وقتل أرسلان أرغون في سنة ٤٩٠ هـ وسنه ٢٦ سنة.

وكان السلطان بركيارق، لما عرف استيلاء عمه على خراسان، قلدها أخاه أبا الحارث سنجر، ورتب معه العسكر. فوصل الخبر بمقتل عمه فكفي قتاله، واستصوب إنفاذ أخيه وإرساله، وسار ومعه سنجر، فلما وصل إلى دامغان وصله الخبر أن أصحاب عمه قد أجلسوا مكانه ولداً صغيراً له، فلما علموا بمقدم سنجر، نهضوا بالصبي وهو ابن سبع سنين، وطلبوا من السلطان بركيارق، لمّا عرفوا قربه منهم، له الأمان، وأظهروا له الإذعان. وأحضروه عنده فأكرمه، واحترمه وقدمه. وكان وصول الصبي في خمسة عشر ألف فارس، وقد استصغروه، ونهبوا خزانته وأفقروه. وأقطعه السلطان بركيارق في نواحي الري وهمذان، ودخل بركيارق إلى خراسان، وبلغ إلى ترمذ واستولى على جميع بلاد خراسان ونفذ في سمرقند أمره، وولاها للخان سليمان تكين ثم لمحمود تكين بعده، ثم أقرّها على هارون تكين وحده. وأطاعه إبراهيم صاحب غزنة، وأعطاه الله في البسيطة المكنْة. وبقي سنجر معه لا متولياً متحلياً، ولا مولياً متخلياً. بل عليه اسم الولاية، وعقد الرأي والراية. حتى سمع السلطان بركيارق عن

العراق بما تم من الفتوق، وما وهي به من عقد الوثوق.

ومضى مؤيد الملك بن نظام الملك إلى جنــزة لبعث السلطان محمد بن ملكشاه على طلب المملكة، وحثه على الحركة. فسار محمد إلى الري وبركيارق بها، فلما وصل محمد إليها فارقها، وأخذت أمه زبيدة خاتون فحبسها السلطان محمد وخنقها. ومضى بركيارق إلى بغداد على طريق خوزستان وواسط، واتصل به سيف الدولة صدقة بن منصور، وعاد إلى بلده بوفر ووفور، وحباء وحبور. وعاد إليه كوهرائين وكربوقا، فخرج على طريق شهرزور، واجتمع عليه من التركمان خلق كثير، وحارب أخاه محمداً بموضع يقال له كورشنبه فانهزم، وانفلّ حده وانثلم. وسار في خمسين فارسا إلى أسفرائين، ثم تم إلى نيسابور واستنجد الأمراء واستجد الأمور. وقبض على وجوه البلد وأماثله، وأخنى على أعيانه وأفاضله، ومات فخر الإسلام أبو القاسم بن الإمام أبي المعالي الجويني في اعتقاله، وكان السلطان سنجر حينئذ ببلخ مع رجاله. ومعه الأميران كندكز وأرغش، وكان قد استولى على معظم بلاد خراسان رجل يقال له حبشي بن التونتاق، وقد شق العصا بالعصيان والشقاق. وهو مقيم بالدامغان، وتحت استيلائه أكثر بلاد خراسان وطبرستان وجرجان ومعه قلعة كردكوه، وقد تطرق منه المكروه. فنهض سنجر في أرغش وكندكز إلى قتاله، وهو في عشرين ألف من رجاله. ومعه خمسة آلاف فارس من الباطنية أصحاب إسماعيل الكلكي صاحب طبس وقويت قلوب السنجرية بوصول السلطان بركيارق فأقدموا إقدام الليوث، واستلوا استهلال الغيوث. وصدموا الأطواد بالأطواد، وأنكحوا الهام بنات الأغماد. وكانت الكرة عليهم ثم صارت لهم، واستحلوا قتالهم وقتلهم. ووقع حبشي في الهزيمة إلى بعض القرى، فأُخذ وأُثخن، وحمل إلى الأميرين أرغش وكندكز فاعتقلاه. وبذل عن نفسه مائة ألف دينار فلم يقبلاه وقتلاه.

وعاد السلطان بركيارق إلى العراق، واتصل به جاولي سقاوو، وأيتكين النظاميّ، وأصبهبد صباوه. ثم جاء الأمير آياز في خمسة آلاف فارس مدرع مقنع. وقصد همذان وهو في خمسة عشر ألفا، وأخوه السلطان محمد بها في سبعة آلاف، فاصطدما والتقيا، واحتدما واصطليا. وتجلت الوقعة عن هزيمة السلطان محمد، وأفلت منها بجمع مشردّ. وأسر مؤيد الملك وقتله بركيارق بيده تشفياً منه بقتله، لما سبق إليه

من سيئات فعله. وانتزح السلطان محمد إلى جرجان، واتصل الخبر بأخيه سنجر فاغتم له واهتم، وساء ما تَمّ. وأنفذ إليه مالا كثيراً من نيسابور، ثم سار للقياه، ولقيه بجرجان، وصحبه إلى بغداد وجعلا دار الخلافة المعاذ والمعاد. وجلس الإمام المستظهر لهما، وأفيضت الخلع عليهما، وعقد الخليفة لهما اللواء بيده. واستقام كلاهما من الملك على جدده.

ورحل سنجر على سمت خراسان عائدا، وتأهب محمد لقتال بركيارق عامدا. وتصافّا بقرب روذ راور ثم افترقا من غير قتال، واتفقا بعد ذلك على صلح وإصلاح حال. ثم انفسخ بينهما عقد السلم، وجرى كلاهما من قصد أخيه على الرسم، ووقعت بينهما بالري وقعة أخرى، واتصلت بين العسكرين رسل المنايا تترى. وحوصر السلطان محمد بأصفهان. فراسله الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بن ميكائيل. يعده بالاتصال به، وإسعافه في تصرفه بمطالبه. فخرج السلطان محمد من الحصار، ومضى صوب أرّانية، واخترم مودود قبل اجتماعه به، وقوى محمد بعسكره. فسار بركيارق لحربه، والتقيا على باب خوى في جماد الآخر سنة ٤٩٦هـ، وانهزم محمد إلى بلد آني، ثم توسط بين الأخوين الأقاصي والأداني. وقسم الملك بينهما قسمين، واستقر أن يكون للسلطان محمد ما وراء النهر الأبيض المعروف باسفيذروذ مع الموصل والشام، وعاد الملك بهذه القسمة إلى النظام. وخطب لبركيارق ببغداد وأصفهان وجميع العراق، وسائر الأقطار والآفاق. فلما سكن إلى قدرته حركه القدر، ودنا من ورد عمره الصدر. وتوفي ببرَوجرِدْ في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ.

عود إلى حديث سنجر

قال: واستمر أمره بخراسان وقويت سلطنته، وتسلطت قوته. فَقَدر قدر خان صاحب ما وراء النهر، أنه إن عبر إلى بلاد خراسان، ملكها بيد القهر. وطمع في سنجر لصغر سنه، ودار تسويل هذا السؤال في ظنه. وكان الأمير كندكز يكاتبه، وعلى التأخر يعاتبه. فعبر النهر في مائة ألف يضيقون الفضاء الواسع، ويحققون القضاء الواقع. وهو لقصد سنجر مصمم وللقائه مقدر. فاتفق أن قدر خان خرج عن عسكره متجردا، وبخواصه متفردا، وبعد عن مخيمه في ثلاثمائة فارس متصيدا. فعرف سنجر

الفرصة فيه فأدركها وانتهزها، واعتد انفراده غنيمة فملكها وأحرزها. وأنهض إليه يرغش أسفهسلار عسكره في عدة منتخبة، فتصيده من مُنصَيَّده ووقع في يده، وقد سقط في يده. وسهل لي سنجر من أمره ما عده عسيرا، وحمل قدر خان وأحضر بين يديه أسيرا. ثم أمر به فضرب عنقه، وتفرق جمعه، وانطفأ شمعه. وعاد السلطان سنجر إلى مقره، وطلع فيلقه بفلقه. وذلك في حياة أخيه بركيارق قبيل أيام وفاته، وساعده السعد من جميع جهاته.

ثم استمرت سعادته وسعدت أموره، وأنارت مطالعه وطلع نوره. وقصده بهرامشاه من أولاد السلطان محمود بن سبكتكين إليه لاجياً، ولإنجاده راجياً، ولشقيقه المستقر على سرير ملك غزنة مشاققاً مداجياً. فرعى وفادته، ورأى إفادته، وآثر إيثاره في إجارته وإجابته، واختار اختياره في إغاثته وإعانته. فجعل غزنة مغزاه، وبلغ الخبر إلى السلطان محمد فلم يحمده، وكتب إليه أن "هذا بيت كبير فلا نقصده". فرد نصح الأخ، واستعد لإصراخ المستصرخ وذلك في سنة ٥١٠ هـ وخرج صاحب غزنة وجر ذيوله، وأجرى سيوله، وصف خيوله، وزف فيوله. وجاء سنجر والجتر على رأسه خافق، والنصر ليمينه مصافق. وكان لصاحب غزنة خمسون فيلا قد صفها بين يدي صفوفه، وألفها قدام ألوفه، وعليها الكماة والحماة، وذوو الحمّية الرماة. وكادت تصح على سنجر الكسرة، فإن الخيول نفرت من الفيول، حين أقبلت كالسيول. فترجل الأمير أبو الفضل صاحب سجستان، وتهور في الإقدام، ودخل بين قوائم الفيل الأعظم فشق بخنجره بطنه، فصاح الفيل وولى ظهره، واتَّبعَت الفَيِلة أثره. فانهزم العسكر الغزنوي، وانتصر الحرب السنجري. واحتوى على أموال غزنة وخزائنها، وحصل على ظواهرها وبواطنها. وكان ملك آل محمود من أول عهده بكراً لم يُفتضّ، وختماً لم يفض حتى أتى سنجر وكسر سكره، وهتك ستره.

فلما استصفى أموال غزنة وفرّغ خزائنها المملوّة، ونفض كنوزها المحشوة. نصبّ بهرام شاه على سريرها وأمّره، وقد خرجا بتعميرها وشغل ذمته بما يؤديه إليه كل سنة من قرار، وهو مائتان وخمسون ألف دينار. وكتب إلى أخيه السلطان محمد ببشرى الفتح، ويُسرى النّجح. فوجم لذلك وكان في مرضه الذي شغله، وسقمه الذي نهكه وأنحله، وتوفي بعد ذلك بسنة، وقوي سنجر، واجتمع عليه العسكر. وقصد

بعد ذلك بسنتين سمرقند، وأجنى جناها الجند. وذلك بعد تطويل حصر، وتضييق عصر. وكان صاحبها أحمد خان، الكبير الشأن، الأثير السلطان. وهو الذي كان له اثنا عشر ألف مملوك تركي، وكان لا يترك غزو الترك، يتوغل في بلادهم مسيرة شهرين، وينثني ظافر اليد قرير العين. ثم أصابته علة الفالج، وأعيى طبه على المعالج. وبقي سنجر ستة أشهر يحاصره، ويضايقه ويصابره. إلى أن أخرج إليه أحمد خان، في محفة يحملها الغلمان. فأجلس بين يديه ساعة، وهو لا يجد للكلام استطاعة، ولعابه سائل، وشدقه مائل. ثم حمل إلى دار الحرم للقرابة التي بينه وبين تركان خاتون زوجة سنجر، وولي نصر خان مكانه، وأحيا به سلطانه.

ثم غدر صاحب غزنة الملك بهرامشاه بعهد سنجر، ونكل عن ضمانه، فعزم على التوجه إلى غزنة ثانيا، ولأعنة جيوشه وجنوده إليها ثانياً. ونهض إليها، ولما بلغ إلى بَسْتْ، عسر عليه الوصول، وحالت الوحول. وتعذرت العلوفات، وكان التبن أعز من التبر، والشدة جاوزت حد الصبر. فما اكترث بذلك وتهور، وأقدم فبهر بهرامشاه رعبة، وأبعده إلى هاوور قربة. ووصل سنجر إلى غزنة مغيراً، ولكأس الدوائر عليها مديرا. وسلبت أموال وأرمال ونهبت محال وأسواق. ولما انحسر الشتاء ورتب أمور غزنة، عاد إلى خراسان. ولما توفي أخوه السلطان محمد بالعراق في سنة ٥١١ هـ، وتولى ابنه محمود السلطنة، وحدثت تلك الحوادث، احتاج سنجر إلى الإمام بالعراق، فجرت الوقعة التي قدمنا ذكرها، وأوضحنا عُرفها ونُكرها. وما عاد سنجر إلا وقد خطب له بالعراقين وبالشام والموصل وديار بكر وديار ربيعة والحرمين، وضربت الدنانير باسمه في الخافقين. ويلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين، وولّى ابن أخيه محمود بن محمد عهده بالعراق، ونعته بمغيث الدنيا والدين. وقد ذكر وصول سنجر إلى العراق في أيام محمود نوبتين، وفي عهد طغرل وفي عهد مسعود دفعتين، ولكنه في زمان مسعود لم يتجاوز الريّ.

ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان

قال -رحمه الله-: كان من كتّابه المخصوصين به في صغره العميد أبو الفتح بن أبي الليث، وصل معه إلى بغداد في ثامن شوال سنة ٤٨٩ هـ، ومع سنجر أتابكه كج كُلاه،

وذلك في عهد أخيه بركيارق، وابتداء خلافة الإمام المستظهر. واستوزر عند مضيه إلى خراسان فخر الملك المظفر بن نظام الملك، وكان مبّر المبّرة، سري الأسرة، منصور الصحبة، مصحوب النصرة. ورزق التأييد والتمكين، ومشّي الأمور عشر سنين. وقتل يوم عاشوراء من سنة ٥٠٠ هـ. واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد بن فخر الملك، فكفى المهم، وشفى الملم. ونظم المنثور، وضم المنشور. وقتل ببلخ غداة الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٥١١ هـ.

ذكـــر السبب في ذلك

قال: كان للسلطان سنجر مملوك يقال له قايماز قد استحسنه واستخصه، واشتهر بحبه واستخلصه وقد أصبح به صبًّا، وشغفه حبًّا. وتسحّب على السلطان بدلاله وإدلاله. وما صار يبالي لعمله باشتغال باله به بشغل باله. وكان هذا المملوك يعرف بكج كلاه، أي مائل القلنسوة. وكان الوزير أبداً ينهاه، ويرده إلى نهاه. وقال له يوماً: " إن عقلت وإلا دبرت في تسويتك، وقومت ميل قلنسيتك". فقال له غير مكترث بوعيده، وقابل تهديده بتهديده: " إما أن تسوي قلنسوتي وإما أن أسوي عمامتك". فاتفق أن السلطان كان في ضيافة الوزير، واصطبح واغتبق عنده ثلاث ليال. فلما كان في اليوم الثالث والسلطان في سورة راحه، وسكر اصطباحه، وقد ذهب ذهنه وضعفت قوة تمييزه، وعينه في عين المملوك ويده في يده وقد ملكه بغمزته وتغميزه. فغافله ونـــزع خاتمه وساتره أمره وكاتمه. وقام ومضى وهو حاقد والوزير في حجرته راقد وقال: " استأذنوا لي عليه، فقد جئت من عند السلطان بمهم إليه ". ولجّ حتى ولج، وكل من كان حاضراً بدخوله خرج.

فلما استخلى المجلس، وأصغى الوزير له واستأنس، حز رأسه وعلقه من يده ودخل على السلطان ووضعه بين يديه. فصحا سنجر، وهاله ما جرى من اجترائه واجتراحه، وأخافه ما تم من اقتحامه واتقاحه [1]. واستدعى الأمير قماجا، وهو أوضح أصحابه في الرأي منهاجا. وقال له سرًّا: " انظر إلى ما صنعه هذا المؤاجر بوزيري، وقد نغّص عليَّ سروري وسريري. فأخرجه من عندي على وجهه سحبا، وقطعه إربا

(١) الاتقاح: قلة الحياء.

إربا" فقال له: " هذا أمرٌ فظيع، وصنع شنيع. وحفظ الناموس يوجب أن لا يعرف أحد من رعية بلدانك، أن مثل هذا الأمر يتم في سلطانك، بغير استئذانك فأظهر أنه جرى بإذنك، وصن جاهك واحذر من وهنك، واركب الآن إلى دارك، وارجع إلى قرارك". فقبل النصيحة، وكتم الفضيحة. ثم أمر بعد مدة بقتل ذلك المملوك أسوأ قتلة، ومثل به أقبح مثلة.

واستوزر بعده ابن أخي نظام الملك، وهو شهاب الإسلام، عبد الدوام ابن الفقيه عبد الله بن علي بن إسحاق، وكان ذا فضل وإفضال، وقبول وإقبال، وبأس ونوال. متبحراً في علم الشرع، متكلماً في الأصل والفرع. وصارت للفقهاء في زمانه سوق، وظهرت بهم حقائق وحقوق، ولم يزل مقصداً للفضلاء، ومُفْضلاً على القُصّاد، سديد الأمر آمرا بالسداد، وتحلى المُلك بحلاه، وتجلى بسناه إلى أن توفي بسرخس يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ٥١٥ هـ.

وتولى الوزارة بعده أبو طاهر سعد بن علي بن عيسى القمي، وكان وجيه القدر، نبيه الذكر. وكانت وفاته يوم الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم سنة ٥١٦ هـ.

وتقلد الوزارة بعده الكاشغري، وصرف عنها في صفر سنة ٥١٨ هـ. وتقلد الوزارة بعده معين الدين، مختص الملك، أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود، وقد تقدم ذكر فضله، وشكر نبله. ولقد كان أمجد الأجواد، وأجود الأمجاد. وهو الذي حسب أيام عمره، ورد كل مظلمة جرت على ذكره. واستدعاه السلطان سنجر لافتقار ملكه إليه، وعول في وزارته عليه. وفتكت به الباطنية يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة ٥٢١ هـ.

وقلد الوزارة بعده نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبي توبة المروزي وكان أوزر الفضلاء، وأفضل الوزراء. ولم يزل للأفاضل جامعا، وللأراذل قامعا. وقصده أهل الفضل، وآواهم بالإحسان الوافر إلى وارف الظل. وخدمه العلماء بمصنفاتهم، وخصوه بمضافاتهم، وصنف له عمر بن سهلان كتاب " البصائر النصرية ". وهو الكتاب الذي لم يصنف مثله في فنه، ولم يسبق إلى إحسانه فيه وحسنه. قال: وأنشدني بأصفهان شيخنا جمال الدين عبد الرحيم بن الأخوة الشيباني البغدادي من مدائحه فيه عند سفره إلى خراسان، واجتدائه منه الإحسان، قوله من

قصيدة مدحه بها بنيسابور ليلة عيد الفطر سنة ٥٢٥ هـ:

خل الظلام لأيدي الضمر القود ... يهتكن ما انبت من أثوابه السود
الليل والناجيات الضمر أخلق بي ... إذا تصاريف أزماني حنت عودي

ومنها:

وللقواضب مني هبّة وسمت ... هن ما أزور من هام الصناديد
قرع الظبي بالظبي أشهى لسامعتي ... من مسمع خنث الأعطاف غريد
والأعجبان وأحوال الورى عجب ... غمر معنى وحر غير مكدود
ومنتشين على الأكوار رنحهم ... سكر الكرى لا مجاجات العناقيد
إذا اطمأنت بهم أرض نبت بهم ... حاج تُلاعِبُ بالمهرية القود
شاموا بروق الغنى وأشعف أنفسهم ... تطلع نحو لا بأس ولا جود
حتى اطباهم وقد كلت عزائمهم ... ندى الوزير نصير الدين محمود
لين السجايا وفي أثنائها شرس ... والماء والنار يكتنان في عود
والمرء والسيف ما لم يبديا أثرا ... حي كميت ومسلول كمغمود
فذاك والأفق مغبر هيادبه ... أروى لعافيك من وطف المراعيد
كما يراعُك والهيجاء كالحة ... يغني عن السمهريات الأماليد
إذا اعتلى صهوة القرطاس ضاحكة ... آثارك البيض في آثاره السود
فدم بما يكمد الأعداء مغتبطا ... يفضي بك السعد من عيد إلى عيد

قال: وصرف عن الوزارة في سنة ٥٢٦ هـ عند وصول سنجر إلى العراق بعد وفاة ابن أخيه السلطان محمود بن محمد، وترتيب السلطنة لأخيه طغرل بن محمد مكانه. وكان القوام أبو القاسم الدركزيني مستوليا على الدولة، وسأل السلطان سنجر أن تكون وزارته باسمه، وتجري رسومها برسمه. ويكون هو بالعراق لشغل طغرل مدبِّراً، وعلى توفر ماله وجاهه متوفّراً. ويستنيب في الحضرة السنجرية من يكفل بأمورها ويكفي، ويكلف بمصالحها ويشفي. فأجيب سؤله وأصيب سؤله. وعزل العالم

وولي جهوله. وصرف ذلك الفاضل بهذا الناقص، وراج المغشوش بكساد الخالص. وتقلد نيابة الوزارة عن الدركزيني ظهير الدين عبد العزيز الحامدي، وكان عبد العزيز هذا يسكن إليه سنجر لأمانته وديانته، وهو المعول عليه في خزانته. وهو يناظر الوزراء في قرب مكانه ومكانته. وإنما فوض إليه الدركزيني نيابته، لأنه علم أن الأمر بغيره لا يتمشى، وأن ثوب الملك بدون طرازه لا يتوشى. ولما صلب الدركزيني وضربت رقبته بالعراق، تقلد الوزارة السنجرية ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في جماد الأول سنة ٥٢٨ هـ. واستمرت وزارته إلى آخر العهد، وكان في تقويم ما تأود وإصلاح ما فسد باذلا للجهد. وتوفي بعد مجيء الغز في ذي الحجة سنة ٥٤٨ هـ.

ذكر جماعة من خواص سنجر ومماليكه أحبهم ثم سلاهم ووضعهم بعد أن أعلاهم

قال -رحمه الله-: كان من عادة سنجر أن يشتري غلاما اختاره ثم يتعشقه ويشتهر بحبه، ويستهتر بقربه، ويبذل له ماله وروحه، ويجعل معه غبوقه وصبوحه، ويملكه حكمه، ويوليه سلطانه. فإذا نسخ الليل نهاره، وسيج البنفسج جلناره، سلاه وقلاه، وتخلى عنه وخلاه. وانتهى في مقته إلى أن لا يرضى بهجره بعد وصله، ورأى الراحة منه في قتله. ومن جملة أولئك، مملوك كان لصيرفي اسمه سنقر، فعشقه سنجر قبل رؤيته فاشتراه بألف ومائتي دينار ركنية، بعد تشريف لمالكه وعطية سنية. وحكى عن ظهير الدين عبد العزيز خازنه، أنه قال: استدعاني سنجر يوما وقال: إني آمرك بما هو أوفق لخدماتك، وأوثق لحرماتك، فامض فيه بثباتك، وأت فيه الممكن يوأتك فأجبته بالسمع والطاعة، وبذل الوسع والاستطاعة.

فقال: " هذا مملوكي سنقر الخاص قرة عيني وثمرة فؤادي، وريحانة روحي ونتيجة مرادي. وهذه خزانتي تحت ختمك، ومالي بحكمك. وحمول غزنة وخوارزم قد وصلت فاقبضها، وبذول الممالك قد عرضت فاستعرضها. وهذه خدمتي التي آمرك بها في حقه لا ترفضها وافترضها. ولا تستأذني في شيء ولا تستأمر. وقدم هذا المهم واستخر الله فيه ولا تستأخر. أريد أن تضرب له سرادق كسرادقي، وتجري له سوابق كسوابقي. وتشتري له ألف مملوك يمشون في ركابه، ويعشون إلى جنابه. وتحل إقطاع

من رأيت حل إقطاعه وتعقده عليه، وتأخذ بلد من شئت وتفوضه إليه. وتجعل له خزانة كخزانتي بالمال مملوءة، وبأجناس الصياغات الذهبية والفضية محلوة. وتجعل له ديوانا مجملا بأماثل الكتاب، وأفاضل النواب، بحيث يكون بعد أسبوعين صاحب عشرة آلاف فارس".

قال: فاستمهلته ثلاثة أشهر فما أمهل، وأمر بترك الريث واستعجل. فما زلت به حتى فسح لي في مهلة شهر ونصف، وشرعت في الأمر وأنفقت على ما قدره في عشرين يوما سبعمائة ألف دينار ركنية، وذلك سوى ما نقلته إليه من الخزانة من الآلات الخسروية، والثياب المعدنية. وذلك سوى الإقطاعات، والولايات والتقريرات. ثم أخبرته، ولم يمض الشهر، بأنه قد استمر الأمر، فركب السلطان سنجر، فرأى العساكر صفوفا، والخيل صفوناً حول سرادق سنقر الخاص، فرأى رواء ظاهرا، وبهاء باهرا. قال: فعانقني وشكرني، ونوه بي وذكرني. وفوض إليّ أمر خزانته، وأمرني بتحصيل مطالبه، ووصى كلا منا بصاحبه.

قال: فلم يمض سنتان حتى اشتعلت نار خده في الدخان فشنف [1] وأنف وعاف وعزف، وسنقر يزيد في التسحُّب عليه والتبسط، ويستلم مع عادة التسلي عنه عادية التسلط. وزاد في غيظ الأمراء، واستحقار العظماء، واستصغار الكبراء. وهو لا يبالي بسنجر إذا توعده، ولا يلتفت إليه إذا هدده فاستدعى السلطان يوما جميع أمرائه إلى حجرة مفردة مفردين. ومن جميع أصحابهم سوى سلاحي واحد مجردين. وقال لهم: إذا دخل سنقر الخاص إليكم ضعوا فيه بأجمعكم السكاكين. فبادروا إلى ما أمروا به وامتثلوا، ووثبوا إليه ومثلوا. وعاد ذلك الضياء يجورا، وذلك البهاء هباءً منثوراً.

قال: ومنهم قايماز كج كلاه قاتل وزيره، وقد آل تعظيمه إلى تصغيره. ومن جملة من حباه بحبه، واختصه بقربه، الأمير المقرب الأجل اختيار الدين جوهر التاجي. وكان مملوك أمه ومن خواص خدمها، وكانت توفيت أم سنجر في شوال سنة ٥١٧ هـ، فانتقل هذا الخادم إلى خدمة سريره، ثم غلب حبه على ضميره، فغلب بذلك على تدبيره، ورقاه إلى ذروة لم يتسنمها أحد قبله، وأسماه إلى رتبة لم تر فيها عين مثله.

(١) شنف: أبغض.

وبلغ عسكره ثلاثين ألفا، ثم مل السلطان طول مدته، ودبر في إخلاق جدته. وضاق مجال احتياله، فدس الباطنية لاغتياله. ونمي إلى جوهر تعرض جوهره لأن يصير عرضا، وعلم أن غرض السلطان أن يصير لسهم الحتف غرضا. فأخفى التي علمها، وأسرها في نفسه وكتمها. فقال السلطان له يوما: " يا جوهر، إني أخشى عليك هؤلاء الملاعين فتحرز منهم وتحفظ، وتحزم لأمرك وتيقظ". فقال له: "لو أمنتني من نفسك ما خفت أحدا، وما أردت في دفع غائلة القوم مددا". فاحتمل السلطان مقاله، ورأى احتماله، وركب جوهر ضحوة من داره، وخرج خروج القمر من سراره وفي ركابه ألف سيف مسلول. فلما نـــزل في دهليز دار السلطان وكماته حواليه، وحماته من ورائه وبين يديه، قفز إليه نفر من الباطنية، وضربوه بالسكاكين وأزاروه قادم المنية. ولما ارتفع الصياح قال سنجر وهو في دار حرمه: "هذا جوهر قد قتل"، فعلم أن ذلك بإذنه عمل.

قال: وكان عاقلا متأتياً، أريباً متهدياً. ومن نكته المستحسنة: أن السلطان كان أمره ببناء قبة عالية في مرو يكون فيها ضريحه، وينضد عليه بها صفيحه. فوصل إلى مرو ورآها غير مفروغ منها. فقال: " يا جوهر، متى تتم هذه القبة "؟ فقال: "لا أتمها الله". فأبكى الجماعة بما ذكره. ولطف موقع قوله عند السلطان وعذره.

ذكر علو همة السلطان سنجر وكرمه وإسهام أصحابــه وأمرائه من نعمه

قال: كان حليماً حيياً ملياً، بالعرف وفياً، كبير النفس أريحياً. معدياً للملهوف، مسديا للمعروف، مفرقا بالأقلام ما جمعه بالسيوف. ذكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متواليات، ذهب بها في الجود كل مذهب، وأتى على معظم ما في الخزائن من عرض وذهب. فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة ألف دينار أحمر، وجاء ما وهبه من الخيل والخلع أكثر. وعوتب على إسرافه فقال: " أما رأيتموني أفتح إقليما يشتمل على أضعاف ما وهبته من المال، وأهبه بكلمة واحدة لمن أراه قبل السؤال. فهذا بالإضافة إلى ذلك الكثير قليل. وما للملام إلى في نهج هذه السبيل سبيل".

ذكر عن ظهير الدين عبد العزيز، صاحب خزانته، أنه قال: أحببت أن يشاهد

السلطان سنجر ما اشتملت عليه خزانته، لتظهر كفاية متوليها وأمانته. فقلت له: أخدمك بألف ثوب أطلس حتى تبصره، وتستعرض صامته وناطقه. فسكت، وظننت أنه رضي بما ذكرته. فجئت إلى الخزانة وأبرزت ما فيها وأظهرته. وكان فيهـــا مـــا لـــم يجتمع قط في خزانة سلطان قبله من طرائف يعز وجودها، وجواهر تجل عقودها، وصرر أكياس قد ملأت الفضاء نقودها، وأعلاق لا يعرف لها قيمة، وصناديق لآلئ كلها يتيمة. فلما نضدته وأبرزته، ولفقت كل جنس ونوعته وميزته، جئت وقلت له: " أما تبصر مالك، وتشاهد حالك. وتشكر الله الذي خصك به وأتالك؟ " فقال: " يقبح بمثلي أن يقال عنه إنه مال إلى المال، أو أنظر إليه أو أخطره بالبال. ففرق ما جعلته لي من الثياب الطلس على الأمراء، وأعرض عليهم ما في الخزانة من تلك الأشياء. وقل لهم يقول لكم سنجر: قد ادخرت هذا لكم، وجمعته لأفرقه في قمع عدوكم وجمع شملكم". قال: ففعلت ذلك ففرحوا واستبشروا، وحمدوا وشكروا. وكان سنجر لا يدخل خزانته ولا يعيرها نظره، ولا يوجد بخاطره منها خطرة. وكان لكرمه يحسن الظن بنوابه، ويسلم حكم القلم إلى كتابه، مفضلا على أصحابه، ويقول: " إن الدنيا فانية، فندعهم يرتعون معنا، ويسعهم من النعم ما وسعنا ". وكانت جواهره في طبول مختومة بختمه، محفوظة باسمه. فإذا أراد منها شيئا استحضرها، وفض خواتيم أقفالها وأخذ منها، ثم أعادها بختمها إلى حالها.

ذكر سبب اختلال ملكه وانحلال سلكه

قال: لما امتدت مدة حياته، وأمدت بالطول مادة عمره، تسلط الأمراء على سلطان أمره، وتسحّبوا على قدره، وحَقَر الصغير حق الكبير، وتأخر الكبير لتقدم الصغير. واستُخِفّ الوقور ووقر الخفيف، وصرف الضعيف. ووقع التحاسد بينهم والتحاقد، وارتفع وانحل التساعد والتعاقد. وكان أكابر الدولة في ذلك العهد، سنقر العزيزي، ويرنقش هريوه، وقزل، وأضرابهم. وأقدم منهم قماج، وعلي الجتري. وقد اختلفت آراؤهم وأراهم، وركب كل منهم أم رأسه، وعض على الأضرار بأضراسه. فأول خطأ أصاب سنجر كسر الكافر الخطائي له ولعسكره، ورد صفو ملكه إلى كدره.

ذكر السبب في ذلك وانكسار سنجر في حربه مع الخطائية

قال: كانت خيول قرلق في نواحي سمرقند، وقد وفرت أموالهم وانتشرت مواشيهم، وانتشئت غواشيهم وحواشيهم. وخيفت مضرتهم، وخشيت معرتهم. فأشار الأمراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم، ويتنبه لردعهم. والقوم مستمرون على الصلاح لو خلوا، مستقرون من الفلاح على ما إليه دلوا. فمضوا إليهم وضايقوهم في مراعيهم، وقايضوهم عن محاسنهم بمساويهم، وأسرفوا في سرقة نسائهم وذراريهم. فأنفذوا إلى السلطان سنجر، وبذلوا له الخدمة بخمسة آلاف جمل، وخمسة آلاف فرس، وخمسين ألف رأس غنم، ليتمسكوا منه بأقوى ذمم وأوفى عصم، وليأمنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم. فلما لم يقبل خدمتهم، ولم تحصل عصمتهم، حملتهم الحمية على الاحتماء بالتحمل، وآل بكبارهم الترحم والحنو على صغارهم إلى الترحل. ودخلوا إلى بلاد الترك قاصدين حضرة أوزخان صاحب خطأ وختن ونعما. ولم يكن في الكفار الخطائية أوسع منه مُلكاً، وانظم سلكاً، وأوفر عددا، وأكثر عددا. وكان أمره ينفذ إلى حدود الصين. فلما وصلت القرلقية إليهم أقلقتهم، وشوفتهم إلى الملك وشوقتهم. وأطمعت الكفر في الإيمان، واستصرخت على أهل العدل بأهل العدوان. وقالوا له: " إن الممالك بخراسان وما وراء النهر مشمرة، وإن السعادة من سلاطينها متنمرة. وإن سنجر قد تخالف عسكره، وكسف معروفه منكره". فوسع الخطائي خطى وسعه، ودبت عقارب كتائبه لسلب الدين ولسعه. وأقبل في سبعمائة ألف مقاتل، ووصل في قطع من ليل الكفر المعتكر، ووقع من سيل البؤس المنحدر. والسلطان سنجر في سبعين ألف فارس. لكن التوفيق عليه ساخط، والتأييد من حزبه ساقط. فشهد المشركون وحملوا بكراديسهم، واستشهد المسلمون وحملوا إلى فراديسهم. وبقي سنجر في عدد قليل، ومدد كليل. فقال له الأمير أبو الفضل صاحب سجستان: " قد أحدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر، فانج بنفسك لأقف مكانك تحت الجتر". فوقف ووقع في الأسر. وأسرت خاتون زوجة السلطان وبقيت في الإسار إلى أن فديت بخمسمائة ألف دينار.

وأسر الأمير قماج وبلي بكل عسف، ولقي كل عنف، حتى فدى بمائة ألف

دينار. وأما الأمير أبو الفضل، فإنه علم الكافر استيلاء أولاده على بلاده، والاحتواء على طرافه وتلاده، فحقق اقتراحه، وأطلق سراحه. وقال: "مثل هذا البطل الهمام، والشجاع المقدام يجب الإبقاء عليه، والإحسان إليه". وهذه الوقعة كانت في سنة ٥٣٢ هـــ.

قال: واستولى هذا الخطائي على بلاد ما وراء النهر، وحصل المسلمون معه تحت القهر. واستشهد على يده الإمام حسام الدين بن البرهان بن مازة ﷺ ببخارى. ولقد كان في علم الشرع لا يبارى ولا يجارى. وهلك أورخان وتولت أخته بعده. وتولى تخته وبخته. واستمرت مملكة الخطائية في ما وراء النهر، إلى هذا العصر. والولاة مسلمون من قبل ولاية الكفر. قال الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني مختصر الكتاب: وتمادت مدقم في تلك البلاد، واستيلاؤهم بها على العباد. إلى أن قيض الله تعالى استئصالهم على يد السلطان السعيد علاء الدنيا والدين، محمد خوارزمشاه ابن السلطان تكش، بن أيل أرسلان بن أتسز بن محمد فإنه جرد عزيمته لقطع شأفتهم، وقلع أرومتهم، واعتنى بشن الغارات عليهم، وتوالي الركضات إليهم. حتى أخرجهم من بلاد ما وراء النهر، وصب عليهم سياط القسر والقهر. ثم توغل ديارهم، وجاس بلادهم، حتى قلعهم أجمعين، ولم يبق من الخطائية نافخ ضرمة في الأرضين. وذلك بعد سنة ٦٠٠ هـــ.

ثم أخذ في قهر جنس آخر من كفار الترك وهم التتارية، وممالكهم تنتهي إلى آخر بلاد الصين. فلم يزل عليهم ظافر الجند، منصور الجد، متوغلا مسيرة خمسة أشهر من خوارزم إلى بلادهم. باسطا يد السبي والنهب في ذراريهم ونسائهم وطرافهم وتلادهم. إلى أن اجتمعوا واحتشدوا، وخرجوا فأحجم عنهم السلطان، فأخذوا بجميع بلاد ما وراء النهر. ثم دخلوا إلى بلاد خراسان فخربوا أرباعها، وأخذوا قلاعها وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وانتهبوا ذخائرها وأموالها. وانحاز السلطان عنهم إلى بلاد الجبل فتتبعوا أثره إلى حدود أصفهان وأخذوا الري وقزوين وهمذان. وقتلوا جميع من كان في هذه البلاد، وما تاخمها من الأغوار والأنجاد. وكان ابتداء دخولهم إلى بلاد خراسان في أوائل سنة ٦١٧ هـــ. وجرى منهم على المسلمين من القتل والأسر والقهر، ما لم يعهد مثله ولم يرد ذكره أبد الدهر. وطالت مدقم في بلاد الإسلام

وأقاموا فيها على وتيرة واحدة لا يفيقون من سفك الدماء، وشن الغارات ثلاث سنين إلى أن خرجوا من طريق أذربيجان مخربين للبلاد، سافكين دماء العباد. وتوغلوا منها إلى بلاد اللّان، ومنها إلى أرض قفجاق، ثم عادوا من تلك الطريق إلى بلادهم. والله تعالى يكفي المسلمين شر معادهم، ولا يمكن استيفاء شرح معرتهم، وذكر ما جرى على الإسلام من مضرتهم، إلا في مجلدات طوال. لكنا ألممنا بذكرها ههنا على إجمال، والحمد لله على كل حال.

ذكر انتعاش سنجر بعد أن عثر وانتقاشه[1] وانجباره بعد أن شيك[2] وانكسر

قال: وكان عند اتجاه سنجر لجهاد الكافر وقتاله، انتهز خوارزمشاه أتسز بن محمد نوشتكين فرصة اشتغاله.فمر إلى مرو ودخلها عنوة، وقتل وجوه أهلها، وحرق بالجور مجاوري حزنها وسهلها. وجلس على سرير سنجر ومد الطغراء، ووقع ونهى وأمر، ونقل من الخزانة السنجرية صناديق جواهره، ولما عاد السلطان عن وجهته،عرف خوارزمشاه أن القدر غيرّ مظاهره، فرجع إلى خوارزم، واستوبل[3] ذلك العزم. ووصل سنجر إلى هزارسف فحصرها، ورمى بالحجر حجرها. وكان له خندق عريض عميق فجعله همه، وكان الماء قد طما به فطمه. وقسم السور على أمرائه فحسروا لثامه، وحققوا انثلامه. وفتحت القلعة عنوة، وأضحت لما يرام فتحه من القلاع أسوة. وذلك بعد أن قتل عليها وفيها ألوف، وجدعت أنوف، وتصرفت نوب ونابت صروف. ثم وقع الصلح، وأسفر بعد تلك الظلمة الصبح. ورد خوارزمشاه على سنجر صناديق جواهره التي أخذها من الخزانة بمرو بختمها، وحقق سلامة نفسه بحق سلمها، وركب ووقف بإزاء سنجر من شرقي جيحون، وقد سير في البر والبحر عسكره المجرور وفلكه المشحون. ونــزل بحيث يُرى، وقبل الأرض، وتقبل الفرض. وعاد سنجر إلى خراسان وهو عنه راض، والقدر بنصر قاض. ولم يزل أمره يتمشّى،

(١) الانتقاش: تدارك الذنوب.

(٢) شيك: أصابه الشوك ودخل جسمه.

(٣) استوبل: عده وبيلا، استوخم.

وبرد ملكه بالحسن يتوشى إلى أن أراد الله شت الشمل، وبتّ الحبل. فسلب العز، وسلط الغز. وتحللت عقود الدولة، وتفللت حدود الصولة. وانقضى الدهر، وقضى الأمر.

ذكر نوبة الغز وذلك في سنة ٥٤٨ هـ

قال -رحمه الله-: الغز من التركمان طائفة، للضيم عائفة. وكانت في اهتمام الأمير قماج، وهي تحمل إليه ما عليها من الخراج. وأميراها قرغود وطوطي بك يخدمان الحضرة، ويحضران الخدمة. ومازالت شوافعهم مقبولة وذرائعهم موصولة. حتى تجنى عليهم الأمير قماج ذنبا تنصلوا منه فلم يقبل، وتحيلوا في تحليل عقد سخطه فلم يتحلل. وأرضوه بكل طريق وطريف فلم يرض، وضيق عليهم من واسع البسيطة الطول والعرض. واضطرهم إلى مضرته، ودفعهم إلى الشر لدفع معرته. فأوحشوه وناوشوه، وهارشوه وهاوشوه. ولم يتركوا في جلاده جلدا، وقتلوا له في تلك الوقعة ولدا. فازدادت ضراوته، وثار ثاره، والتهب ناره. وأبرق وأرعد، وأرغى وأزبد. وغض غضبه من حلمه، وسد جهله سبيل علمه. وحضر صلحاء القوم في إصلاحه، وانتهوا في البذل إلى غاية اقتراحه، وبذلوا له إحضار قتلة ولده، وإيقاعهم في يده. فأبى إلا قتلهم وقتالهم، وقلعهم واستئصالهم. وماج قماج في بحره الزاخر، وصرف إلى قصدهم أعنة العساكر. فركبوا إليه وأكربوه، والتهبوا به وألهبوه، وهزموه وهشموه. فجاء إلى سنجر وهو قلق حنق، وكأنه بالغيظ مختنق. وقال له: " قد اختل الملك، وانحل السلك. فإن قعدت عنهم أقاموك، وإن لم تَرْمِهم ولم تَرُمْهم رموك وراموك. فانهض إليهم بجنودك، ورد نحوسهم بسعودك". فلم ير أحد من أولئك الأمراء إثارة أحد لذلك الأمر، وما شاروا بالشر. وقالوا لسنجر: " إن هذا قماجا قد شاخ، وباخ وخشي وخاب، وأخطأ الصواب. فإن أنجدته خذلت، وإن هويت هواه لذعت وعذلت". فأنف قماج، وشنف وعنف، ولم يزل بسنجر حتى صغا [(١)] صغوه، ونحا نحوه. وأمر أمراءه بالتأهب، وأضرى ضرمه بالتلهب. وسار في جمع كالخضم زاخر، وسواد كليل المحب بلا آخر. فلما عرف الغز أنهم غزوا وإلى الشر عزوا، وصلوا

(١) صغا: مال.

وتوصلوا، وقالوا نخدم السلطان بخمسين ألف رأس، من جمال وأفراس، وبمائتي ألف دينار ركنية، وبمائتي ألف رأس غنم تركية. ونحضر قتلة ولد قماج، ونلتزم كل سنة بخرج وخراج. وخشعوا ولانوا، وخضعوا واستكانوا. فأغلق سنجر باب القبول في وجوه هؤلاء الوجوه، وأبى أن يعاملهم بغير المكروه. فتوهلوا وتوجلوا، وتعزلوا واستقتلوا. ولجأوا إلى أرض لا يسلك إليها إلا في واد لا يسع عرضه أكثر من مائة فارس، وأعدوا في الطرقات الطوقان، على رسم قتال التركمان. ونشروا المصاحف يطلبون أمان أهل الإيمان. ثم اشتدوا، وأعدوا واستعدوا. وجعلوا الخركاهات كالأسوار محدقة، ونيران النصال من ورائها للحدق محرقة. وصبروا حتى لابسهم العسكر، وفي قلبه سنجر. وامتلأ الوادي بسيل الخيل، واحتاب النهار لباس الليل. وكانت في المقدمة أمراء خاروا وخاموا، وهموا بما وهموا وهاموا. واغتنم الغز إضعافهم، وركبوا أكتافهم، يقتلون ويأسرون، ويصدمون ويكسرون. وعز المخلص من المضيق، وفرشت جثث القتلى على الطريق. وقتلوا الأمير قماجا وولده، وأتوا على العسكر وأفنوا عدده وعُدده. وخلصوا إلى السلطان سنجر وهو في خف من خواصه، وجواده قد بخل بخلاصه. فأحدقوا به إحداق الأهداب بالحدقة، وحصل في وسط تلك الحلقة المحدقة. وبقي كالمركز في الدائرة، ووقع في الأيدي الجائرة. ونـــزل أميرهم وقبل الأرض وأمسك بعناده عنانه، وأطلق بدعائه لسانه. وقال: " إن قومك فتحوا بالأذية، ولم يحسنوا رعاية الرعية. ونحن خولك حولك، نقول بقبولك ونسمع قولك". وأفردوه عن أصحابه، وعوضوه عن عز جماحه بذل أصحابه. ومكث معهم ثلاث سنين كالأسير، وقد أرضوه من طعامه وشرابه باليسير. لكنهم يجلسونه على السرير، ويقفون ماثلين بخدمته سوى قرغود وطوطي بك الأمير. وانتشروا في البلاد انتشار الجراد، ودب دباهم بالفساد. وأذهبوا الأموال والنفوس، وأعدموا النعم وأوجدوا البؤس. وخربوا مدينة نيسابور وقتلوا أهلها تحت العذاب، وسفكوا دماء العلماء والأئمة في المحراب. وكانوا يستصحبون سنجر معهم، وهو لا يقدر أن يردعهم. وربما خشن عليهم في القول، ونهاهم ونهرهم، وسبهم وسبعهم، وهم لا يجيبونه إذا نجههم بالمكروه وأسمعهم.

ولما يئس الباقون من عسكر سنجر من خلاصه، ورأوا مضيقا عليه في قفص اقتناصه، فرقوا وتفرقوا، وخففوا وأخففوا. فهرب منهم في آخر عمره ووقع إلى ترمذ،

وأرهف حد العزم وشحذ، فأصابه سهم الأجل ونفذ. فأحضر عسكره سليمان شاه ابن أخيه محمد ليتولى مكانه، ويجد سلطانه. فلم يجد أمره للنفاذ النفاذ. وأجمع العسكر على الاتفاق في تولية محمود خان ابن أخت سنجر، وأقام بنيسابور متمكنا، حسنا في هيبته محسنا. وذلك في أيام السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فكتب له العهد من همذان وولاه، ثم استولى الأمير المؤيد أي ابه بنيسابور، وأخذ محمود خان وأعدمه، وتولى الأمور وبقي الغز بمرو وبلخ وسائر البلاد ضالين عن نهج الرشاد، عابدين للجور جائرين على العباد.

ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان محمد ابن محمـــود عـــن بغـــداد بعد حصارها في سنة ٥٥٢ هـ

قال -رحمه الله-: قد سبق شرح الحصار، وما قوى الله به أمير المؤمنين المقتفي من الانتصاب والانتصار. وكان من أقوى الأسباب في دفعهم، أن الخليفة راسل أتابك، شمس الدين إيلدكز، أن ينهض بعسكره إلى همذان، حتى إذا عرف السلطان محمد أن سريره قد فرغ، وأن سروره قد رفع، ارتحل عن بغداد، فسار أتابك إيلدكز بالسلطان ملكشاه بن محمود إلى همذان ودخلها، واستولى على ذخائر الملك بها ونقلها. وأجلس ملكشاه على السرير، وقام بين يديه بالتدبير. فلما عرفت العساكر المنازلة لبغداد أن منازلها بهمذان نـــزلت، وأن ولاتها في ولاياتها عزلت، تشوشت خواطرها، واستوحشت ضمائرها. واتفق عن بغداد انفلاتهم وانفلالهم، وقدر انفصامهم وانفصالهم، وعادوا إلى همذان. ولما أحس ملكشاه بقرب أخيه محمد انصرف وانحرف، وقفاه أتابك إيلدكز وما توقف. وكان قد استوزر المظفر بن سيدي من زنجان، وكان كبير الأصل، كثير الفضل. وله نظم رائق، ونثر فائق. فمن ذلك قوله في شمس الدين أبي النجيب وزير السلطان محمد:

أبا النجيب وما في الحق مغضبة ... أأنت مثلي فأين العلْمُ والحسبُ

وأنت أنت وهذا الوفر منتقل ... إلى سواك وهذا الأمر منقلبُ

وقوله:

إني وتيجان أسلافي وتلك لنا ألية برة لا نمتري فيها
لألحظ الملك الطاغي بصولته شزرا وأعرض عن غشيانه تيها
يبغي الوزارة قوم[١] يكثرون لها وقد تصاغر قدري في توليها
قلدتها مكرها والقوم في قلق يراوغون سموا في مراقيها
وعِفتها طائعا والدولة اضطربت من بعد من هو بعد الله يحميها
ورد نفسي إلى التقوى تيقنها أن التقى هي من أجدى مراميها
واســأل الختم بالحسنى إذا انقلبت نفســي إلى الله مــولاهــا ومواليها

قال: وبقي السلطان بعد ذلك سقيم الأمل، قسيم الألم عديم الشبه في سيرته لكنه شبيه العدم. متوجع الجسم، متعوج الرسم. معضوض النشاط، مقبوض الانبساط. وكان في عصره أكابر الدولة من الفحول، وذوي الهمم والعقول، عز الدين ستماز، وناصر الدين آقش، وأمين الدين أبو عبد الله أمير الدولة. ومن الخدم شرف الدين كربازو، ونجم الدين رشيد. وهؤلاء ما زالوا أكابر في الدول، مقدمين ذوي العديد والجيوش والخيول. يلازمونه في السفر والحضر، ويثبتون معه في سبيل السلامة. وودع أخاه ملكشاه وعقد له على خوزستان، فما تمكن منها منهاجه، ولا تم لها ابتهاجه. لاستيلاء الأمير أَيْدُغْدي بن كشطفان المعروف بشمله عليها وتغلبه، وتبطل أمره بتطلبه. فبقي في البلاد دائراً حائراً، صابراً بالبلاء وإلى الضيق صائراً. وأما السلطان محمد، فإنه مع تكسيره وامتزاج صحة مزاجه بسقمه، ووقوف رصد المنون على لقمه، رغب في التزوج بابنة ملك كرمان فخطبها مع ما هو فيه من خطب، وبذل وحمل، وأتحف واحتفل. ووردت الخاتون الكرمانية، فزينت لقدومها القصور، ووفر لحضورها الحبور واستقبلها السلطان لمرضه في المحفة، وأحلها في كنفه. وتركها لا يقدر منها على متعة، ولا يطيق الإلمام من روضها برتعة. فما اقتضت باقتضاضها قدرته، ولا افترت

(١) لعلها "يكبرون" حتى يتجانس المعنى ويستقيم، وظني أنها تصحيف من الناسخ.

بافتراعها مسرته. بل عجز عن البناء عليها، وقصرت يد صحبته عن الامتداد إليها. وبقيت في جنابه مخيمة، وفي حياته متأيمة. وعرضت للوزير شمس الدين أبي النجيب هيضة [1] غربت بها شمسه، وفاضت نفسه، وغاض بفيض رمسه، وانقطع غده ونسي بيومه أمسه. ولقد كان أقوم قومه سيرة، وأمثل أمثاله وتيرة. وكان بالتواضع حاليا، ومن التكبر خاليا. وقلد السلطان وزارته ضياء الدين بن مجد الدين بن علحة الأصفهاني فنقله إلى الوزارة من منصب الطغراء، وزف عروس تلك المرتبة منه أمثل الأكفاء. ولقد كان في السيادة عريقا، وبالرئاسة لبيقا. لكنه جاءته الوزارة وهو مشارف الرحل، ومشار[2] الأجل. فما قرب من الوسادة حتى قبر ووسِّد، وما قام خطه بقدره وحتى قاومه القدر وأقعد فأحزن السلطان موته، وَحزَّبه فَوْته. وكان قد طالت له صحبته، وأدالت منه لذته صحته. وهو يعده بالوزارة ويعرضها المطَلْ، وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل.

ومكث السلطان بعد ذلك لا حيا فيرجى، ولا ميتا فيسجى، ثم إنه توفي يوم السبت لانسلاخ ذي القعدة سنة ٥٥٤ هـ، وكثر عليه الترحم، وزاد بمصابه التألم. فإنه كان أوقر السلجقية حلماً، وأوفرهم علما، وأحبهم للعدل، وأحباهم للفضل. واختلف من بعده الأمراء، فاجتمعت آرائهم على استدعاء الأمير إيناج صاحب الري، ونشروا من الأمر المستور بممالأته ما كان في الطي. ثم تعارضت آراؤهم وتناقضت أهوؤهم، فمنهم من مال إلى ملكشاه أخي المتوفي، ومنهم من رأى الإرسال إلى الملك أرسلان لمكان أتابك إيلدكز زوج أمه. ومنهم من أشار بتمليك سليمان عمه. وكان الأمير إيناج يومئذ أكثر جندا، وأكثف جمعا وأرهف حدا. ومال إلى سليمان وقال: هو أسلم جانبا وأوطؤه. وأثبت عن الأذية رأيا وأبطؤه. والخليفة كان قد ولاه، ووالى إليه الجميل وأولاه. فإذا أجلسناه قام الخليفة بتربيته، ورضي بتوليته.

قال: وكان سليمان بالموصل في اعتقال علي كوجك، فاتفق الأمير إيناج، وناصر الدين آقش، وشرف الدين كردبازو على إرسال الأمير مظفر الدين ألب أرغون صاحب

(١) الهيضة: المرض بعد المرض.

(٢) هكذا وردت ولعله يريد بها دنا أجله وأوشك أن يقطف، على سبيل المجاز.

قزوين إلى الموصل للوصول به، وكوتب صاحبها في طلبه. وكان زين الدين علي كوجك أطلقه عند علمه بوفاة السلطان محمد، وجهزه بعد التوثقة منه بالإيمان. فقدم واستقر بهمذان على سرير الملك، ودخل في طاعته سراة الترك، وانتظم أمره، واضطرم جمره. ووافقه مخالفوه، ووفاه مخالفوه. وأصبح بالأمير إيناج حل الدولة وعقدها، وبيده حبلها، وبأيده وصلها. وصار مظفر الدين ألب أرغون بن يرنقش صاحب قزوين الأمير الحاجب الأمين. وقلد وزارته شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز النيسابوري، وكان وزير إيناج فنذ [١] في الأقاليم أقلامه، ومضت بالأحكام أحكامه. وأعاد إلى وجه الوزارة ماءها الذهاب، وأوضح في إنارة آفاقها المذاهب. ولما رأى أنه ليس معه، وأنه ربما قصد سليمان ليدفعه. سير إليه بولاية أرانية منشوراً، ونظم وضم ما كان هناك منثوراً منشوراً.وجعل ولاية العهد للملك أرسلان بعد سليمان، وتذلل الصعب وهان. وحسبوا أن السلطان بعد غموضه ينبه ولكأسه يريق، ومن سكره يفيق. فبقي على الشرب مكباً وللعب محباً. وللعقل هاجرا، وللحم زاجراً. فلا جرم حالت حاله وساء مآله، وسنذكر ذلك بعد ذكر بعض الحوادث في أيامه، ونصل افتتاحه بافتتاحه.

ذكر وفاة الإمام المقتفي لأمر الله وجلوس ولده الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف أمير المؤمنين

قال -رحمه الله-: كان الإمام المقتفي لأمر الله، بعد الحصر، آثر أن يخرج إلى البلاد ليراها، ويثري ببركة حركته ثراها. فما حضر طرفا إلا خضره، وما نظر كنفا إلا نضره. وكانت إقامته في عسكره، طال أم قصر سفره وكانت الأخباز والأغنام والحوائج والعلائق، تفرق على عدد الناس والدواب، وعساكره يجرون من جراياتهم، ونفقاتهم وأعطياتهم على المبار والمحاب، فما ينفق لأحد فرس إلا أخلفه عليه، ولا يلتمس صاحب معونة ولا مغوثة إلا عجل بها إليه. وأجناده يتمنون أن تطول أسفارهم، ليدوم لصبح سعادتهم بعطاياه أسفاره. ووصل إلى واسط في أواخر صفر سنة ٥٥٤ هـ، وأناب نائب الوزير ابن هبيرة بها، وخرجت في أصحابي للتلقي، وكنت من زحمة اللقاء على غاية

(١) نذ: خرج من الأنف أو الفم، واستعارها الكاتب هنا استعارة قبيحة لما يخرج من رأس الغنم.

التوقي. فبصرت بموكب الخليفة وقد أقبل في أفواجه، كأنه البحر في أمواجه. فنـزلت وتقدمت إليه، وقبّلت الأرض بين يديه. فوقف لأركب إشفاقاً عليَّ من الزحمة، وكانت فطرته مجبولة على الرأفة والرحمة. وقال له مخلص الدين ابن الكيا الهراسي: هذا الذي يقول في أمير المؤمنين من قصيدته، كأنه يصف هذه الحالة:

لما شفعت العزم وهو مؤيد ... بالحزم أسفر بالمنى منك السفر

وبرزت مثل الشمس تشرق للورى ... وسناك يحجب عنك ناظر من نظر

بمظلة سوداء تحكي هالة ... وجه الإمام يُضيء فيها كالقمر

وقال الوزير: هذا صاحبي وقد وليته، وأصحبته وأوليته. وبهج بخدمتي ونجح، وبذخ بنيابتي ورجح. فوصَّى الإمام وزيره بي، وأعجبه سمتي وأسلوبي. وسار على رسله ودخل إلى دار الديوان، وجلس ساعة في الإيوان. ثم قام وجلس الوزير في الدست، وكتب ووقع، وقال وأسمع. والناظر حينئذ في واسط الأمير شمس الدين أبو الفضائل فاتن، وهو من أكابر الخدم الذين لهم المزايا والمزاين. ثم انتقل الخليفة إلى سرادقه، والوزير إلى مضاربه، ونـزل أرباب الدولة كل منهم على مراتبه.

قال: وحضرت بميدان واسط، والمقتفي ﷺ حاضر، ومعه أولاده ولي العهد المستنجد يوسف، وأبو علي، وأبو أحمد، وولده المستنجد أبو محمد. وهو المستضئ الذي تولى بعده، ولعبوا بالكـرة. ولم يلبث بواسط ثلاثة أيام، حتى عاد إلى بغداد سريعاً، وكان وصوله للانحـدار إلى الغراف، فـزاد الماء زيادة منعت العبور، فرجـع على نية الرجوع. وعند عودته غرقت بغداد، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٤ هـ، وذلك لأن المـاء زاد في تلك السنة على خلاف عادته. وهور بـه بثق القورج وتقور، وغلب وبلغ السور من صوب الظفرية وتسور. وطاف بتلك النواحي طوفان نوح، وراح شبح كل بنـاء بغير روح. وكـان ذلك منظرا هائلا، وقـدراً نازلا. وطارقـا كثرت طرقه، وفتقا عسر رتقه. وركب الوزير وأرباب الدولـة فصدوه وسدوه، وردعـوه وردوه، واتفـق أنـه نقص ووقف. وغـرق من ذلك الماء العظيم غرف. ولما انصرم الصيف وانكسر الحر، وصل المقتفي إلى واسط مرة أخرى، وانحدر إلى ناحية الغراف، وعزل عن ولايتها ظفرا خادمه، وولاها أبا جعفر

ابن البلدي. وقبض على ابن أفلح وزير ظفر وعاقبه، وألزمه بما استخرجه من دفائن ابن حماد وطالبه. وكبا به الفرس في بعض تلك السواقي فوقع وتألم، واعتذر بصحته إليه القدر مما تحرم، وذلك في شهر رمضان من السنة.

ولما دخلت سنة ٥٥٥ هـ، خرج الخليفة إلى هيت، وكان مقطعها نور الدولة ابن الأمير العميد، فحل عنه الإقطاع، وألزمه شحَّه المطاع. وأقبل من سفره سافر الإقبال، ظافر الآمال. فما عاد حتى عاده سقم، وألم به ألم. فتوفي في يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ، وانتقل إلى جوار الرب، طاهر الذيل نقي الجيب، أمين الغيب، بريا من العيب. ولما عرف ولده وولي عهده الإمام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، أن والده قد وقع اليأس عنه أشفق من إتمام الأمر لأخيه أبي علي، وأنه للعهد غير ولي. وهجم الدار، وقبض الكبار والصغار، وعقل واعتقل، ونقل وانتقل. وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده، واحتوى على طارفه وتالده. وقبض عدة من الأمراء الخيلية مماليك الخليفة المقتفي وأعدمهم، وانتخب جماعة من مماليكه وأمرهم وقدمهم، وأخذ القاضي سديد الدين بن المرخم أخذاً شديدا، وردد العذاب عليه ترديداً إلى أن فاضت نفسه، وغاض به رمسه. وحبس المخلص ابن الكيا الهراسي مدة أيام خلافته. وحرمه حظ عاطفته ورأفته. وأقر عضد الدين ابن رئيس الرؤساء على أستاذية الدار، ورفع قدره على الأقدار. وأقر عون الدين ابن هبيرة على وزارته، وبقي ماء الدولة به على غزارته. واستولى على دولته مملوكه قايماز، وعز بالاستظهار وظهر بالإعزاز.

ذكر ما آل إليه أمر السلطان سليمان، وكيف جفاه زمانه وخان وكيف قبض من مجلسه ملكه ، ونقل إلى منزل هلكه

قال: لما اتسع ملكه، واتسق سلكه، ظن الأمراء أنه قد لاحف[1] الفلاح، وصالح الصلاح. فلم يضنوا بالإحسان إليه لحسن ظنهم فيه، وما زالوا في تقرير أسبابه وتسبيب قرار مساعدته ومساعفته، حتى بدا لهم إبداله، فإن الأمير إيناج عاد إلى ربه،

(١) لاحف: لازم.

والسلطان سليمان انهمك في غيه، وأخل مظفر الدين صاحب قزوين بموضع الحجبة، وثبت الباقون من الأمراء على الفتك بالسلطان، فإنه اشتغل بلهوه ولها عن شغله. وجد حبل جده بخبله. وقالوا: الصواب ضبطه وربطه، وقبضه لا بسطه. ومكثوا مدة يتشاورون في خلعه، ويتوامرون في وضعه، ويكاتبون شمس الدين إيلدكز ليقدم بابن زوجته الملك أرسلان بن طغرل، وأنهم لا يقطعون أمرا حتى يصل. وأحكموا العهد وأبرموا بضيق نفْسه ونَفَسه. فعادوه لألمه وعادوه في أمله. واعتقلوه في قصر الدار السلطانية، ووكل كل أمير به من ثقاته جماعة. وأعقدوا على إضاعته عهداً واعتقدوا لعهده إضاعة. وذلك في شوال سنة ٥٥٥ هـ ، ثم إنهم نقلوه إلى قلعة همذان، وجرعوه كأسا مسمومة، وأزاروه ميتة مذمومة. وكانت وفاته في ثالث عشر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ ، بعد جلوس ابن أخيه في السلطنة.

ذكر مراسلة الخليفة للسلطان

قال: وأرسل الخليفة إلى السلطان سليمان، يسأله الطاعة والإذعان، ويطلب منه أن يخطب له في جميع البلاد، ويقوي رجاءه منه في نيل المراد، ويذكره بإحسان المقتفي إليه، وأفضاله عليه. فبادر السلطان إلى التثام الأرض، وامتثال الفرض. وقبل كتابه وقبله، وكتب إلى البلاد ليخطب له. وظن أن بغداد قد وصلت إلى بغيته، وحصلت في قبضته، وأنها في انتظار نهضته. فرتب القاضي نبيه الدين أبا هريرة الهمذاني رسولا، وكان مقبلا في سَمْته وسَمِته مقبولا. وهو من أعيان المملكة وأماثلها، وعلماء الأمة وأفاضلها. وندب معه الأمير ابن طغايرك ليكون ببغداد واليا، ويعيد ما رخص ونـزل من قدم السلجقية غاليا عاليا، فعزم في عدة، وزعم أنه على عدة. وسار القاضي والأمير ومن معهما مع رسول الخليفة، وهو الحاجب سونج النظامي ذو النطق واللسن، والرأي الحسن، والعلم والفصاحة، والحلم والحصافة. فاستصحب القاضي والأمير ووصل، على ظن أنه بالمراد حصل. فلما قربا قربا، وبالرغائب رغبا. وأقيمت الوظائف، ووضعت اللطائف. وأقاما مدة للتقرب والترقب، ثم قاما للتطلب والتغلب. وقالا إنما حضرنا للتعرف والتصرف، لا للتوقي والتوقف. فقال لهما الوزير: ما بالكما، وما حالكما، وبم إرسالكما، وفيم سؤالكما؟ فقالا: ما جئنا لنذهب، وإنما

نخاطب ونخطب. فقيل لهما ما أنتما إلا سفيرا اهتداء وإهداء، وخفيرا ولاية لوولاء. والتعرض للخطبة تُعرِّض للخطوب، ولا ترغبا في الخطبة إن رغبتما في الولاء المخطوب. فقالا: رسولكم لها وعد، ففيم إخلاف العـــدة، وإتـــلاف الجـــدة، وإثـــارة الثائرة الموحـــدة للموجدة. فقيل لهما: مـــا كـــان لرسولنا أن يقول ما لم نشر به، وفيم رضانا عن مرسلكما أمن شربه وسربه، وغدا يوافقكم رسولنا على أنه لم يقل ما قلتماه، ولم يعقد ولم يحل فيما به عقدتماه. فافترقوا للاجتماع في غـــد، والمعاودة لموعد.

فاتفق أن رسول الخليفة، وهو الحاجب سونج النظامـــي، في تلك الليلة توفي، وأخمد سراج حياتـــه وأطفى، وكتم ســـره تحت التراب وأخفى. وكـــان هذا من أعجب الغرائب، وأغرب العجائب. حتى تحدث الناس بذلك الحادث، وانبعثوا لذكر ما تجدد عليه من المباعث. وقيل: إنه خُير بين أن يقتل صبرا، أو يشرب سما وما فيهما حظ لمختار، وقيل: بـــل بقضاء من الله جـــار، وأجـــل موقوت بمقدار. فلـــم يجر بعد وفاته لتلك المواعدة معاودة ولا موافاة، ووقعت من الرسولين منافرة ومنافاة. فاتفق أن القاضي أبـــا هريرة أحد الرسولين توفي بعد أسبوع من وفاة سونج، ولم يكن دينه أيضا من القدر بمنج. فرجف الناس وأرجفوا، وتحدثوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا. واستشعر الرفيق الآخر وقال: ما في الإقامة خلاص. وأفلت راحلاً وله خصاص، فإنه غلب على ظنه أنه إن أقـــام قضى، ولحق بمن مضى. فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها، ولروعة مثل ذلك الحادث لم يرجعوا إلى مثلها. ووقعت في أنفسهم من بغداد، الهيبة ومن حصولها الخيبة. فلم يقدم ملك إليها، ولم يقدم سلطان عليها.

قال: وفي هذه السنة. وهي سنة ٥٥٥ هـــ، توفى ملكشاه بن محمود بـــن محمد وذلك إنه لما عرف ملكشاه أن عمه ملك، وأن حسان الممالك به تفذلك، وأنه يتعود خلوته، ولا يخلي عادتـــه، ويريد هواه ولا يهوي إرادته، نهض وافر العدد، وافي العدد، وجـــاء إلى حي بلالي. ووفر حبور أهل أصفهان بحضوره، وأذعنوا لأوامره إذ عنوا بأموره. واستبشروا وأنسوا ببشره، ونشروا الطيب وطابوا بنشره. وقالوا عاودتنا الألطاف الإلهية، وعادت علينا الأيام الملكشاهية. وأقام، وسير الكتب إلى الأطراف،

بالاستمالة والاستعطاف. وخطب اللهو ولها عن الخطب، وغفــل عن إسراع الذوي إلى عوده الرطب. وكــان مغرورا بالشباب مشبوب الغرار، مقداراً للأمن آمنا من الأقدار. فلم ينقض عليه شهر حتى اشتهر أنــه قضى ومضى، وأنه برقــه ويومه ومضى، وذلك في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ربيع الأول من غير مرض سبق، ولا عرض عرض. بل كانت له مغنية قد استهوته واستغوته، وخبلت خلبه، وسلبت لبه، فصار يأكل من يدها ويشرب، ويجئ بحبها ويذهب. وقيل: إنها بغت موته فمات بغتة، وقيل: بل أصابه سكتة، وأنها قد رغبت حتى سقته سما، وكــان قــدرا حتما، قــد أحاط الله بــه علمــا.

ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا والدين أبي المظفر أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان

قال: وصل أرسلان إلى همذان بعد اعتقال عمه في ذي القعدة من السنة، وجلس على سرير سروره، واحتاب حبر حبوره. ونعت شمس الدين إيلدكز بأتابك الأعظم. فتقدم وأقدم، وأهان وأكرم. وكان السلطان تحت سلطانه، يرتوي من إحساء إحسانه، ويأكل من خوانه مع إخوانه. فإن أولاد آتابك إيلدكز بنــو أمــه، وصار واسطة عقدهم بنظمه إليهم وضمه. وسعى سعد أتابك إيلدكز بقدم التقــدم، وجــد جــده في التوسع والتوسم. وتصاغر له الكبراء وائتمر له الأمراء. وتقررت الوزارة على شهاب الدين محمود ابن الثقة عبد العزيز، والحجبة على طغرلتكين آيــاز. وأقامــوا بهمذان شهرين، ثم توجــه السلطان إلى أصفهان، وجعل ساوه مسلكه، واستصحب معه إيلدكز أتابكه. ووصل إليه في ساوه الأمير إيناج بك سنقر صاحب الري، فابتهج بلقيته ولقى منه بهجة، وأقــام بإيضاح محجة خلوصه على حكم طاعته حجة. وصار بينه وبين أتابك إيلدكز مصاهرة، وتمت بذلك للسلطان معهما مظاهرة. وزوجت ابنة إيناج بابن إيلدكز الأكبر، وهو نصرة الدين بهلوان محمد، وهو أخو السلطان لأمه، وأقوم أهل الدولة بمهمه. ثم أكرموا إيناج وردوه إلى ولايتــه غير أنــه بــاق على عتوه، راق في غلوه، متكره بتكثر إيلدكز متكرث، متأثر قلبه من تقدمه، متأرث لكنه أبدى الرضا بما بدى، وأظهر أنه مع الأولياء، وأسر كونه مع العدى.

ووصل السلطان والجماعة واثقين بالمذكور، معتدين بعمله المشكور، إلى أصفهان، ودخل السلطان إلى دار السلطنة فاحتل سريـــرها، وقر بها سامي العين قريرها. ومدوا بأصفهان أيديهم وأجدوا تعديهم. وأخـــذوا البريء بالسقيم، والكريم باللئيم، والحميد بالذميم. وساقوا الناس بقلم التوزيع إلى لقم للتفزيغ، واستثمروا أصول المصادرات بالتقريع، وسدوا الأنهار على البساتين، حتى أخذوا أثمان المياه، وشفهوا الموارد وصدوا عن الصادي ورد الشفاه. وأقام السلطان كذلك برهة، ولما عزم على الرحيل، تلوي عليه الأمير عـــز الدين ستماز، وتخلى عنه وتخلف، وتوقى منه وتوقف. وكان قد كاتب الأمير إيناج لمناوأة السلطان، وشق العصا بالعصيان، واستدعاء أخيه الملك محمد بن طغرل من فارس وأحس السلطان بالتدبير، فوقع من التشويش والتشوير. فإن أتابك إيلدكز وأولاده كانوا بهمذان، وهم لا يظنون من أولئك بالإيذاء الإيذان. فأغذ في السير، واستعار في القدوم عليهم قادمة الطير. فلما اتصل بهم أفرخ روعه وأفرق ، وأشرف ضوؤه وأشرق. وامتد إيناج من الري متوجها مسارعا إلى لقاء السلطان ومناجزته، قبل التقاء أتابك إيلدكز به ومحاجزته. فاتصل بإيناج عز الدين ستماز، وصاحب قزوين ألب أرغو في جموع حاشدة، وحشود جامعة. والملك محمد بن طغرل معهم وقلوبهم معه، وقـــد ضاق الفضاء بالعسكر فما وسعه، والسلطان في عرمرمه العرم، وجحفله الحفل.

فزحف الجيشان، ورجف الجاشان. وتحرك الهران، وتحرق الجمران وكان اجتماعهما بنواحي الكرج، وكرب الحرب معوز الفرج، وكان السلطان قد اتهم الوزير بمداجاته، ومكاتبة إيناج ومناجاته. وكانوا حملوا السلطان على قتله، وحذروه من مكره وختله. فما سمع فيه مقالا ولا رأي له اعتقالا، بل وكل له في السر جماعة يظهرون أنهم في خدمته، ويظاهرون في حفظ حرمته. وكان في اهتمام نصرة الدين بهلوان، فقـــرر أمره على هدايا يهديها، وأربعين ألف دينار يؤديها. فأخذوا منه في المآل المال، وتركدوا فيه القيل والقـــال. فصرفوا المال في مصالح العسكر، وعاد الوزير إلى سعده الأزهر وجده الأبهر. وقدم الحركة، يـــوم المعركة. ولما تواقف الجمعان،

واجتمع الموقفان، حملت ميمنة إيناج على ميسرة السلطان وكسرتها، فوجد[١] السلطان ووجم، وهجم عليه الهم بما هجم. لكنه ثبت في قلبه، وانتحى إيلدكز فحمل بأولاده وصحبه. وخفقوا على قلب إيناج وقلبه خافق، وهمه لوهمه. مصافح مصافق. والطرد من ورائه، ورأيه في الطرد. وغاب في الغبار، وأضمرته دياجي الضمر الجياد، وأصابت وجه الوزير في هذه الوقعة ضربة سيف أذهبت عينه اليمنى. ولم يدر أنه بعد ذهاب ذهبه وعين نضاره بذهاب ناظر عينه يمني، وحمل إلى همذان في محفة ليتداوى، وشمت به عداته وعادت ضواريها عليه تتعاوى. فولى إيناج مدبرا وأدبر موليا. وخلى رحله ورحل متخليا. وعاد السلطان إلى عادته في السلطنة واتسع ملكه، واتسق سلكه ودار فلكه، ودر فلكه، وتفرد زوج أمه أتابك إيلدكز بالأمر والنهي، والنشر والطي، والحسم والكي، والإثبات والنفي. فأدنى وأبعد، وأشقى وأسعد. وراقب الإضراب، وضرب الرقـــاب. وحابى الأعداء وعادى الأحباب.

ولما وضعت الحرب أوزارهـــا، وجه السلطان إلى الري براياته، ووصـــل سرايـــاه إلى إيناج لقطع سراياته. فقدموها وجبوا أعمالها، وجنوا أموالها، وجمعوا ذخائرها، وفرقوا أخايرها. وكان إيناج منهم بنجوة، وقد قنع من العيش بفجوة. وهو في حدود الدامغان، وما زال بها يستعطف ويستسعف، ويتوصل ويتوسل، إلى أن صلحت أسبابه واستتب صلحه، ونجحت آرابه وأربى نجحه. وقصروا رأيه على القناعة بالري، وتعوض برشده عن الغي. ورحلت عنه جرباذقان وساوه. وعاودت معيشته وعيشته الطلاوة والحلاوة. ورحلوا إلى قزوين، فتحصن صاحبها في قلعة سرجهان، وعاين وعانى الامتحان والامتهان. ففرقوا العمال، وجمعوا الأموال. وأقاموا إلى أن دهم الشتاء بشتات الدهماء ، ورحل البلاء بنـــزول البلاء. فإلهم لم يقيموا بالمكان ولم يتمكنوا من المقام، وفكوا عن البلدة عروة الازدحام. وسار السلطان نحو همذان، وأتابك إيلدكز إلى أذربيجان. ثم استقرت سلطنـــة أرسلان بـــن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وعدم في عزه ونفاذ أمره الأشباه. وحكـــم عليه وعلى البلاد جميعها شمس الدين إيلدكز زوج أمه، وجرى في إقامة ناموس سلطانه على رسمه.

---

(١) وجد: غضب.

وكانت الوزارة مستمرة بشهاب الدين الثقة، وله من الناس لكرمه وعلو همته المقة [١] إلى أن توفي بأصفهان واستوزر بعده الوزير فخر الدين ابن الوزير المعين المختص. ولما توفي بهمذان بعد سنين استوزر جلال الدين بن القوام الدركزيني، وامتدت وزارته في الأيام الأرسلانية، ووفي بأحكام الأحكام السلطانية.

ذكر وفـــاة السلطان أرسلان في سنة ٥٧١ هـــ

ووفـــاة أتابك ايلدكز قبله

قال -رحمه الله-: كان السلطان قد تزوج بأخت فخر الدين رئيس همذان، فاتفق وفـــاة شمس الدين إيلدكـــز بنخجوان، وتمكن ابنه محمد المنعوت ببهلوان وهو أخو أرسلان من أمـــه، فأراد الاستبداد دونه بحكمـــه. وكـــان أرسلان مريضا، فنقل إلى دار زوجته بهمـــذان، وتوفي بها، وقيل: إن أخاه بهلوان سقاه، وللحزم في بقائه ما أبقاه. وأجلس ولده طغرل الصغير، وشغل به السرير. ونفذت أوامره في الممالك، واضحة المسالك، واسعة المبارك. وما زال أمره مستقيماً واستقامته مستمرة، وثنايا دولته عن مباسم السعود مفترة، إلى أن توفي بهلوان في أوائل سنة ٥٨٢ هـــ، وتولى أخـــوه مظفر الدين قزل أرسلان بن إيلدكز الملك، ونهج المسلك ونسق السلك. وطغرل قد شب وأرب، فوجد أمره مهجورا، وعزه محجوباً محجوراً. فأحب الانفراد، وأراد الاستبداد. فهرب ليلا وانضم إليه جماعة من الأمراء البهلوانية، وبعثوه على التوحد بالعزة السلطانية. وكان سيئ التدبير، يعاقب على التهم بالقتل والتدمير. وكانت البلهوانية قد أنجدوه، وساعدوه وأسعدوه. وأقام قزل أرسلان مرارا فأقعدوه، فاتهمهم يوما على ظنة أضرمت نار اشتطاطه، فقتلهم غيلة على بساطه. فنفرت منه القلوب، وتمكن قزل أرسلان، وتضعضع السلطان. واتهم وزيره عزيز الدين بن رضي الدين يوما فقتله وأخاه صبرا. وزاد في فتكه بخواصه كلما انكسر ولم يلف خيراً. واغتال فخر الدين رئيس همذان، وسمه، وسلط على كل من تقرب منه وهمه وهمه. وكلما تمكن أزعجه عمه قزل أرسلان، حتى وصل في سنة ٥٨٥ هـــ إلى الأمير حسن

(١) المقة: المحبة.

بن قفجاق وتزوج بأخته، وجرى معه على حكم وقته. فنهض معه لينصره، ويعضده ويؤزره، ووصل إلى مدينة أرمية فأغلقوا باهما دونه، والقفجاقية معه يسعدونه. فدخلوا المدينة واستباحوها ونهبوها، واجتاحوها وخربوها. وسير السلطان صلاح الدين من الشام رسله في الإصلاح بينه وبين قزل أرسلان، فدان له ولان. وكاد الصلح يتم، والخير ينم، فأبى سوء الآراء استواء الآراب. وتستر الصواب بالحجاب، فعن للسلطان أن يقصد قزل أرسلان بهمذان، إخماداً لنيران الافتتان. فقبضه يوم قدومه واعتقله في بعض المعاقل، فتعفت آثار تلك الطوائل. وسكن الدهر، وقضي الأمر. وضرب قزل أرسلان النواب الخمس، ووطن على الاستبداد بالسلطنة النفس. وهي بالصفاء عن الكدر، وغفل عن القضاء والقدر. فوجد ليلة من الليالي بهمذان مذبوحا على فراشه، وقد يئس عاثر الملك به من انتعاشه، وكان بين حفاظه وحراسه، و لم يعلم من الذي أقدم على قطع رأسه، وذلك في شعبان سنة ٥٨٧ هـ.

وسار ابن أخيه نصرة الدين أبو بكر بهلوان إلى أذربيجان فملكها، وسار أخوه قتلغ إينانج بن بهلوان إلى طريق الري فسلكها وأدركها. وسعى بعض الأمراء في إخراج طغرل من محبسه، وأعاده من السلطنة إلى مجلسه، ومضى إلى دار الملك همذان، واستأنف الإمكان، واستجد العدل والإحسان. فجاء السلطان خوارزمشاه في سنة ٥٨٩ هـ للتغلب على المملكة. فلقيه السلطان طغرل في المعركة وخرق بفئة قليلة الصف الخوارزمي، وأظهر البأس الرستمي.

فأحدقوا به ورموه، وأخذوا رأسه وما ذب عنه أصحابه ولا حموه. وسير رأسه إلى بغداد، واستولى السلطان خوارزمشاه على البلاد، وختمت الدولة السلجقية بطغرل، وكان افتتاحها بطغرل. وكانت مدة ملكها منذ وصل طغرل بك إلى بغداد إلى هذه الغاية ١٤٠ سنة، وكأنها أشبهت سنة. فسبحان الذي ملكه لا يزول، وحكمه لا يحول.

ذكـــــر الـــوزراء المتولين

قال -رحمه الله-: كانت الوزارة لجلال الدين بن القوام، فلما توفي وزر أخوه قوام الدين، ثم عزل واستوزر كمال الزنجاني، المعروف بالتعجيلي، وبقي سنين وعزل، ثم استوزر صدر الدين قاضي مراغة، ثم استقرت الوزارة بعد عزله على عزيز الدين ابن الرضى، ذي الخلق والكرم المرضي. ثم جرى مـــا جرى من قتله، وآذن الملك بشتات شمله.

قال: وفي شهور سنة ٥٦٥ هــ، وجد إيناج صاحب الري مقتولا على سريره، ولم يعلم كيف كان سبب تدميره. وأضيف الفتـــك به إلى مماليكه، بتدبير الوزير وتشريكه. وكـــان وزير إينـــاج سعد الدين أسعد الأمثل، فاستوزره شمس الدين إيلدكز واستقل. وكان وزير إيلدكز من قبله مختار الدين.

قال: وتولى السلطان طغرل في الدولة الإمامية المستضية. وكانت ولاية المستضيء بأمر الله في ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هــ. وانتقل إلى -رحمة الله تعالى- في آخر شوال ٥٧٥ هــ. وتولى الإمـــام الناصر لديـــن الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد بـــن المستنجد بـــن المقتفي -رضي الله عنهم أجمعين-.

قلت وامتدت ولايته إلى آخر شهر رمضان سنة ٦٢٢ هــ، وتوفي في هـــذا التاريخ، وتولى ولده الإمام الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد وتوفي ﷺ، في رجب سنة ٦٢٣ هــ، وتولى ولده الإمام المستنصر بالله أبو جعفر منصور أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره.

قـال الإمـام عماد الدين -رحمه الله- : وقـد كنت أوثر أن أنهي هـذا الكتاب إلى آخره بشرح حادثة كل عام، والانتهاء فيه إلى كل مرام. لكنه بغيبتي إلى الشام، وتباعدي عن معرفة صروف تلك الأيام، اقتصرت على ما عرفته من المجمل واستغنيت بها عن ذكر المفصل، ولأن السلطنة في تلك الأيام وهنت وهانت، وبانت أسباب اختلالهـا وظهرت أسرار وهائها وهانت، وما تمكن وزير من سيرة سارّة، ومبّرة بارّة، حتى أنـوه بذكره وأنبّه، وفيما أنشأته من محاسن الأيام الناصرية كفاية. ولكل موفق إلى هداه هداية.

فهرس الموضوعات